الروض الأنف

في شرح السيرة النبوية لابن هشام

للإمام المحدث عبد الرحمن السهيلي

٥٠٨ — ٥٨١ هـ

ومعه

السيرة النبوية للإمام ابن هشام

المتوفى ٢١٨ هـ

الجزء الثاني

تحقيق وتعليق وشرح

عبد الرحمن الوكيل

الناشر

مكتبة ابن تيمية

القاهرة ت: ٨٦٤٢٢٤٠

توزيع

مكتبة العلم بجدة

حي الشغر

ت: ٦٨٧٧٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، وسيد ولد آدم أجمعين ، محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الذين اهتدوا بهديه إلى يوم الدين .

« أما بعد » فباسم الله نقدم الجزء الثانى من « الروض الأنف » للسهيلى والسيرة النبوية لابن هشام ، سائلين الله أن يعين على التمام ، وأن يجعل عملنا هذا صالحة عنده . إنه سميع مجيب .

القاهرة — حلوان — مدينة الزهراء

١٩ من رمضان سنة ١٣٨٧

٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٧

عبد الرحمن الوكيل



« أمهات رسول الله صلى الله عليه وسلم » :

قال ابن هشام : فولد عبدُ الله بنُ عبد المطلب رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيِّدَ ولد آدم ، محمدَ بنَ عبد الله بن عبد المطلب ، صلواتُ الله وسلامه ورحمتُه وبركاته عليه وعلى آله . وأمه : آمنةُ بنت وَهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كِلاب بن مُرّة بن كعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر .

وأُمها : بَرّة بنت عبد العُزَّى بن عثمان بن عَبْد الدار بن قُصَىّ بن كِلاب ابن مُرّة بن كعْب بن لؤَى بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضر .

وأم بَرّة : أمُّ حَبيب بنت أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَىٍّ بن كلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر .

وأم أم حَبِيب : برّة بنت عَوْف بن عُبيد بن عُويج بن عدىّ بن كعب ابن لؤَىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

قال ابن هشام : فرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أشرفُ وَلد آدم حسبا ، وأفضلهم نسبا من قِبَل أبيه ، وأمه صلى الله عليه وسلم .

« حديث مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

إشارة إلى ذكر احتفار زمزم : قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام ، قال : وكان من حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما حدثنا به زياد بن عبد الله البكَّائى ، عن محمد بن إسحاق المُطَّلِبى : بينما عبد المطَّلب بن هاشم نائمٌ فى الحِجْر ، إذ أُتِىَ ، فأُمِرَ بحفْر زَمْزَم ، وهى دَفْن بين صَنَمىْ قُرَيْشٍ : إساف ونائلة ، عند



مَنْحر قريش . وكانت جُرْهم دَفَنَتْها حين ظَعنوا من مكة ، وهى : بئر إسماعيل ابن إبراهيم — عليهما السلام — التى سقاه الله حين ظَمِئَ وهو صغير، فالتمست له أُمُّه ماءً فلم تجده ، فقامت إلى الصَّفا تدعو الله ، وتستغيثه لإسماعيل ، ثم أتت الْمَرْوة ففعلت مثلَ ذلك . وبعث اللهُ تعالى جبريل عليه السلام ، فَهَمز له بعَقِبه فى الأرض ، فظهر الماء ، وسمعت أمه أصواتَ السِّباع فخافتْها عليه ، فجاءت تشتدّ نحوه ، فوجدته يَفْحص بيده عن الماء من تحت خدّه ويشرب ، فجعلته حِسْيًا [الحسى : الحفيرة الصغيرة] .

أمر جرهم ، ودفن زمزم

قال ابن هشام : وكان من حديث جُرهم ، ودَفْنها زمزم ، وخروجها من مكة، وَمَنْ ولى أمرَ مكة بعدها إلى أن حَفَرَ عبدُ المطلب زمزم ، ماحدثنا به زِياد بن عبد الله البكَّائى عن محمد بن إسحاق الْمُطَّلِبِيِّ ، قال: لما توفى إسماعيل ابن إبراهيم وَلِىَ البيت بعده ابنُه نابت بن إسماعيل — ما شاء اللهُ أن يَليه — ثم ولى البيتَ بعده : مِضاض بن عمرو الْجُرْهُمِىّ :

(باب مولد النبي صلى الله عليه وسلم)

ذكر نسبَ أمه آمنة بنت وَهب بن عَبْدِ مناف بن زُهْرَة ، وأن زُهْرَةَ هو : ابن كلاب، وفى المعارف لابن قتيبة : أن زُهْرَةَ اسم امرأة عُرِف بها بنو زُهْرَةَ ، وهذا مُنْكرٌ غير معروف ، وإنما هو اسمُ جدهم — كما قال ابن إسحاق والزُّهْرَةُ فى اللغة: إشراقٌ فى اللون ، أى لونٍ كان من بياضٍ أو غيره ، وزعم بعضهم أن الأَزْهرَ هو الأبيض خاصّة ، وأن الزهر اسمٌ للأبيض من النُّوّار ،

قال ابن هشام : ويقال : مِضاض بن عمرو الجُرْهُمىّ .

قال ابن إسحاق : وبنو إسماعيل ، وبنو نابت مع جدّهم : مُضاض بن عمرو وأخوالهم من جُرْهم ، وجُرْهم وقَطُوراء يومئذ أهلُ مكة ، وهما ابنا عمّ ، وكانا ظَعنا من اليمن ، فأقبلا سيَّارةً ، وعلى جُرْهم : مُضاض بن عمرو ، وعلى قطوراء : السَّمَيْدع رَجُلٌ منهم . وكانوا إذا خَرجوا من اليمن لم يَخرجوا إلا ولهم مَلِكٌ يُقيم أمرَهم . فلما نزلا مكة رأيا بلداً ذا ماء وشَجَرٍ ، فأعجبهما فنزَلا به . فنزَل مُضاض بن عَمْرو بمَنْ معه من جُرْهم بأعْلى مكة بقُعَيْقِعان ، فما حازَ . ونزل السَّمَيْدع بقَطُوراء ، أسفل مكة بأجْياد ، فما حاز . فكان مُضاض يَعْشُر مَنْ دَخَل مكة من أعلاها ، وكان السَّمَيْدع يَعْشُر مَنْ دخل مكة من أسفلها ، وكلٌّ فى قومه لا يدخل واحدٌ منهما على صاحبه . ثم إن جُرْهم وقَطُوراء بَغَى بعضُهم

وخطَّأ أبو حَنِيفة من قال بهذا القول ، وقال : إنما الزُّهْرَة إشراق فى الألوان كلها ، وأنشد فى نَوْر الحَوْذَانِ ، وهو أصفر :

ترى زَهرَ الحَوْذَانِ حَوْلَ رياضه ... يُضىء كلَوْن الأتْحَمِىِّ المُوَرَّسِ (١)

وفى حديث يوم أحد : نظرت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعَيْناه تُزْهِران تحت المِغْفَر .

---

(١) الحوذان : نبات عشبى من ذوات الفلقتين ، منه أنواع يزرع لزهرها ، وأخرى تنبت برية ، ويقال : تحم الثوب : وشاه ، والأتحمى والأتحمية ، والمُتَتَحَّمة ـ بضم الميم وسكون التاء وفتح الحاء ، أو بفتح التاء وتضعيف الحاء مع فتح ـ بُرْدة . ووَرَّس الثوب : صبغه بالورس ، وهو نبت من الفصيلة البقلية ، وهى شجرة ثمرتها قرن مغطى عند نضجه بغدد حمراء ، كما يوجد عليه زغب قليل يستعمل لتلوين الملابس الحريرية لاحتوائه على مادة حمراء .

على بعض ، وتنافسوا المُلك بها ، ومع مُضاض يومئذ: بنو إسماعيل وبنو نابت، وإليه ولايةُ البيت دون السَّمَيْدع . فسار بعضُهم إلى بعض ، فخرج مُضاض ابن عَمْرو من قُعَيْقِعان فى كتيبته سائرا إلى السَّمَيْدع ، ومع كتيبته عُدَّتُها من الرِّماح والدَّرَق والسُّيوف والجِعَاب، يُقَعْقع بذلك معه، فيقال : ما سُمّى قُعَيْقِعان بقعيقعان إلا لذلك . وخرج السَّمَيْدع من أجياد، ومعه الخيل والرجال ، فيقال : ما سمى أجياد : أجياداً إلا لخروج الجياد من الخيل مع السَّمَيْدع منه . فالْتَقَوْا بفاضِح ، واقتتلوا قتالا شديداً ، فقُتل السَّميدع ،وفُضِحت قطوراء . فيقال : ما سمّى فاضح فاضحا إلا لذاك . ثم إن القوم تداعَوْا إلى الصلح ، فساروا حتى نزلوا المَطابخ : شِعْبا بأعلى مكة ، واصطلحوا به ، وأسلموا الأمرَ إلى مُضاض . فلمـا جُمع إليه أمْر مكة ، فصار مُلْـكُها له نحر للناس فأطعمهم ، فاطَّبخ الناسُ وأكلوا ، فيقال : ما سمّيت المَطابخ : المطابخ إلا لذلك . وبعضُ أهل العلم يزعمُ أنها إنما سُمّيت المطابخ ، لِمَا كان تُبَّع نحر بها ، وأطعم ، وكانت منزلَه ، فكان الذى كان بين مُضاض والسَّميدع أول بَغْى كان بمكة فيما يزعمون .

ثم نشر الله وَلَدَ إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جُرْهُم ولاة البيت والحكام بمكة ، لاينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاما للحُرْمة أن يكون بها بَغْى أو قتال . فلمـا ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوما إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوَطِئوهم .

زمزم : وذكر فيه خبر إسماعيلَ ، وأمَّه ، وقد تقدم طرفٌ منه. وذكر أن جِبْريلَ ــ عليه السلام ــ همَزَ بعقبه فى موضع زَمْزَم ، فنبع الماء ، وكذلك زَمْزَم

استيلاء كنانة وخزاعة على البيت ونفي جرهم

« بنو بكر يطردون جرهما »

ثم إن جُرهما بَغَوْا بمكة ، واستحلُّوا خِلالا من الحرمة ، فظلموا مَنْ دخلها من غير أهلها ، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهْدَى لها ، فرقَّ أمرهم . فلما رأت بنو بَكْر بن عَبْد مَناة بن كِنانة ، وغُبْشان من خُزاعة ذلك ، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة . فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا ، فغلبتهم بنو بَكْر وغُبْشان ، فنفوْهم من مكة . وكانت مكة فى الجاهليَّة لاتُقِرّ فيها ظُلْما ولا بَغْيا، ولا يَبْغى فيها أحد إلا أخرجته ، فكانت تسمى : النَّاسَّة ، ولا يريدها ملك يستحلُّ حُرْمَتها إلا هلك مكانه ، فيقال : إنها ما سمّيت ببكّة إلا أنها كانت تَبُكّ أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا .

قال ابن هشام : أخبرنى أبو عُبيدة : أن بكة اسم لبطن مكة ؛ لأنهم يتباكُّون فيها ، أى : يزدحمون ، وأنشدنى :

إذا الشَّرِيبُ أخذتهُ أكَّه فَخَلِّه حتى يَبُكّ بَكَّه

أى : فدعْه حتى يَبُكَّ إبلَهُ ، أى يُخَلِّيها إلى الماء،فتزدحم عليه ، وهو موضع البيت والمسجد . وهذان البيتان لعامان بن كَعْب بن عمرو بن سعْد بن زيد مناة بن تميم .

تسمى : هَمْزَة جبريل بتقديم الميم على الزاى، ويقال فيها أيضاً : هَزْمة جبريل ، لأنها هَزْمَةٌ(١) فى الأرض ، وحكى فى اسمها : زُمَازِمُ وزَمْزَم . حكى ذلك عن المُطرز ، وتسمى أيضاً : طعام طُعْمٍ ، وشِفَاء سُقْمٍ . وقال الْجُرْبِيُّ : سميت :

(١) فى النهاية لابن الأثير : الهزمة : النقرة فى الصدر ، وفى التفاحة إذا

قال ابن إسحاق : فخرج عمرو بن الحارث بن مُضاض الجرهمىّ بغزالى الكعبة وبحجر الركن ، فدفنهما فى زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جُرْهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلْكها حزنا شديداً ، فقال عمرو ابن الحارث بن مُضاض فى ذلك ، وليس بمُضاض الأكبر :

وقائلةٍ والدمعُ سَكْبٌ مُبادرُ ... وقد شَرِقتْ بالدمع منها الْمَحاجِرُ
كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكَّة سامرْ
فقلتُ لهاَ والقلبُ منىّ كأنما ... يُلَجْلِجُه بين الجناحين طائر
بلى نحن كُنَّا أهلها ، فأزالنا ... صُروفُ اللَّيالى ، والْجُدود العَواثر
وكنَّا ولاة البيت من بَعْد نابتٍ ... نطوفُ بذاك البيت ، والخيرُ ظاهر
ونحن وَلِينا البيتَ من بعد نابت ... بعزٍّ ، فمَا يحظى لدينا الْمُكاثر
ملَكْنا فعزَّزْنا فأعْظِمْ بمُلْكنا ... فليس لحىٍّ غيرنا ثَمَّ فاخرُ
ألم تُنْكحوا من خير شخص علمته ... فأبناؤه منَّا ، ونحن الأصاهر
فإنْ تَنْثَنِ الدُّنيا علينا بحالِهاَ ... فإنّ لهاَ حالا ، وفيها التَّشاجرُ
فأخْرَجنا منها المليكُ بقُدْرة ... كذلك — يا للنَّاس — تجرى المقادر
أقولُ إذا نام الخلىّ ، ولم أنم ... : أذا العرش : لا يَبْعَدْ سُهيل وعامر
وبُدِّلْت منها أوجُها لا أُحبُّها ... قبائلُ منها حِمْيَرٌ ويُحابِر

زمزم ، بِزَمْزَمَةِ الماء ، وهى صوته ، وقال المسعودى : سُمِّيتْ زمزم ؛ لأن الفُرْسَ كانت تحج إليها فى الزمن الأوَّل ، فزَمْزَمَتْ عليها . والزَّمْزَمَةُ : صوتٌ يُخْرجه الفُرْسُ من خياشيمها عند شرب الماء . وقد كتب عمرُ — رضى الله عنه — إلى عماله : أن انهوا الفرسَ عن الزَّمْزَمَةِ ، وأنشد المسعودى :

وصِرْنا أحاديثا وكُنَّا بغبْطةٍ   بذلك عَضَّتنا السِّنون الغوابر

فسحَّت دمُوعُ العين تبكى لِبَلْدَةٍ   بها حَرَمٌ أمْنٌ ، وفيها المشاعر

وتبكى لبيتٍ ليس يُؤْذَى حمامُهُ   يظلّ به أمْنًا ، وفيه العَصافر

وفيه وُحوش — لا تُرام — أنيسةٌ   إذا خرجتْ منه ، فليست تُغادر

قال ابن هشام : « فأبناؤه منا » ، عن غير ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث أيضا يذكر بَكْرا وغُبْشَان ، وساكنى مكة الذين خَلَفُوا فيها بعدهم :

يأيها النَّاس سيرُوا إن قَصرَكم   أن تُصبحوا ذات يوم لا تَسِيرُونا

حُثُّوا الْمَطِىَّ ، وأرخُوا من أزِمَّتِها   قبل المات ، وقَضُّوا ما تُقَضُّونا

كُنَّا أُناسا كما كنتم ، فغيَّرنا   دهرٌ ، فأنتم كما كنَّا تكونونا

قال ابن هشام : هذا ما صحّ له منها . وحدثنى بعضُ أهل العلم بالشعر : أن هذه الأبيات أوّلُ شعر قيل فى العرب ، وأنها وُجدتْ مكتوبة فى حَجَرٍ باليمن ، ولم يُسَمَّ لى قائلها .

زَمْزَمَتِ الْفُرْسُ على زَمْزَم   وذاك فى سالِفِها الأَقْدَم (١)

---

(١) الزمزمة أيضاً : تراطن الفرس على أكلهم ، وهم صُمُوت لا يستعملون اللسان ولا الشفة ، لكنه صوت تديره فى خياشيمهم وحلوقهم ، فيفهم بعضهم عن بعض . والبيت فى ص ٢٤٢ ج ١ المسعودى . ونص قول المسعودى : « كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام ، وتطوف به تعظيما له ، ولجدها إبراهيم عليه السلام وتمسكا بهديه ، وحفظاً لأنسابها ، وكان آخر من حج منهم : ساسان بن بابك ،

. . . .

وذكر البرقى عن ابن عباس — رضى الله عنه — أنها سميت : زَمْزَم لأنها زُمَّتْ بالتراب ؛ لئلا يأخذ الماء يمينا وشمالا ، ولو تُركت لساحت على الأرض حتى تملأ كلَّ شىء . وقال ابنُ هشام : والزمزمة عند العرب : الكثرة والاجتماع قال الشاعر :

وباشرتْ مَعْطَنَها الْمُدَهْثَما وَيَمَّمَتْ زُمْزُومَها الْمُزَمْزِمَا (١)

سبب نزول هاجر وإسماعيل مكة : الْمُدُهثَم : اللَّيِّنُ ، وكان سبب إنزال هاجر وابنها إسماعيل بمكة ونقلها إليها من الشام أنَّ سارَّة بنت عمِّ إبراهيم — عليه السلام — شجر بينها وبين هاجر أمر ، وساء مابينهما ، فأمِرَ إبراهيمُ أن يسير بها إلى مكة ، فاحتملها على الْبُرَاق (٢) واحتمل معه قِرْبة بماء ومِزْوَد تمْرٍ ، وسار بها

---

(١) فى الأصل : المدهشم ، وهو خطأ . والمعطن هو للابل كالوطن للناس ولكنه غلب على مبركها . والزمزوم : الجماعة من الإبل عددها مائة . وقد ذكر اللسان عن ابن برى أن زمزم لها اثنا عشر اسما : زمزم ، مكتومة ، مضنونة ، شباعة «بضم الشين وفتح الباء» سقيا «بضم السين وسكون القاف» الرَّوَاء : «بفتح الراء والواو» ركضة جبريل ، هزمة جبريل ، شفاء سقم ، طعام طعام ، حفيرة عبد المطلب . أقول : وذكر لها اسم آخر هو بَرَّة . وفى اللسان أيضاً : الزمزمة بكسر الزاى : الجماعة من الناس ، وفرس يزمزم فى صوته إذا كان يطرب .

(٢) لم يرد له ذكر فى المرويات الصحيحة ، ولم يرد فى حديث يعتد به أن إبراهيم حمل هاجر إلى هنالك ليرضى سارة ، بل الذى ورد أنه حملها بأمر الله ليقضى الله أمره سبحانه . وليس إبراهيم بالرجل الذى يضع أمر امرأته فوق أمر ربه ، أو يرتكب مثل هذا ترضية لامرأته .

. . . .

حتى أنزلها بمكة فى موضع البيت (١)، ثم ولَّى راجعا عوده على بدئه (٢)، وتبعته هاجر (٣) وهى تقول : آلله أمرك أن تدعنى ، وهذا الصبىَّ فى هذا البلد الموحش، وليس معنا أنيسٌ ؟ ! فقال: نعم ، فقالت : إذاً لا يضيعنا (٤) ، فجعلت تأكل من التَّمْر، وتشرب من ماء القربة ، حتى نَفِدَ الماء ، وعَطِشَ الصبى، وجعل يَنْشَغُ للموت (٥)، وجعلت هى تسعى من الصفا إلى المروة، ومن المَرْوَةِ إلى الصفا ؛ لترى أحدا، حتى سمعت صوتاً عند الصَّبىِّ ، فقالت : قد أسمعْت ، إن كان عندك غوثٌ ، ثم جاءت الصبىَّ ، فإذا الماء ينبع من تحت خدِّه ، فجعلت تغرِف بيديها، وتجعل فى القِرْبة . قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لو تركته لكانت عيْنا ، أو قال : نهراً مَعِيناً ، وكلمها الملك ، وهو جبريلُ ـ عليه السلام ـ وأخبرها أنها مقر ابنها وولده إلى يوم القيامة (٦) ، وأنها موضعُ بيت الله الحرام ، ثم ماتت

---

(١) فى رواية للبخارى : « وضعها عند البيت عند دوحة فوق الزمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء» .

(٢) كان راجعاً إلى الشام .

(٣) فى رواية ابن جريج : « فأدركته بكداء بفتح الكاف ، أوكدى بضم الكاف والقصر .

(٤) فى رواية : أنها نادته ثلاثا ، وأنه أجابها فى الثالثة ، وأنها قالت له : حسبى ، أو : رضيت بالله .

(٥) يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذى ينازع . وفى روايات : وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو يتلبَّط ، أو يتلمَّظ .

(٦) فى رواية للبخارى : « فقال لها الملك : لا تخافوا الضَّيْعة ، فإن هذا بيت الله يبنى هذا الغلام ، وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله » .



هاجرُ ، وإسماعيلُ — عليه السلام — ابنُ عشرين سنة ، وقبرُها في الحِجْر ، وثَمَّ قبر إسماعيل — عليه السلام — وكان الحِجْرُ قبل بناء البيت زَرْبًا لغنم إسماعيل صلى الله عليه وسلم[1] ويقال : إن أول بلد ميرت منه أمُّ إسماعيل عليه السلام ، وابنها التمرْ : القريةُ التي كانت تعرف بالفُرُْع من ناحية المدينة، والله أعلم

قطورا وجرهم والسميدع : فصل : وذكر نزول جرهم ، وقَطُورا على أم إسماعيل هاجر ، وجُرْهم : هو قحطان بن عامر بن شالخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوحٍ ، ويقال: جُرْهُمُ بن عابرٍ ، وقد قيل: إنه كان مع نوح عليه السلام في السفينة، وذلك أنه من ولد ولده ، وهم من العرب العاربة ، ومنهم تعلم إسماعيلُ العربية . وقيل : إن الله تعالى أنطقه [illegible] انطاقا ، وهو ابن أ[illegible] عشرة سنة[2] .

---

(١) من زيادة أبي [illegible]

(٢) [illegible] عن بني قحطان [illegible] وذكر عن عامر أنه أصل [illegible] وإليه تنسب القحطانية ، ثم يقول : قال في العبر : « واسمه في التوراة : يقطن ، فعرب بقحطان . وشذ بعضهم ، فقال إنه ابن قحطان بن الهميسع بن أبين بن قيدار بن نبت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه =

. . . .

وأما قَطُورا ، فهو قطُورا بن كَرْكَر .

وأما السَّمَيْدَعُ الذى ذكره ، فهو السميدع بن هوثر - بثاء مثلثة — قيدها البكرى — بن لاى بن قَطُورابن كَرْكَر بن عِمْلاق، ويقال: إن الزَّبّاء الملكة كانت من ذُرِّيته ، وهى بنت عمرو بن أُذَيْنة بن ظَرِب بن حسَّان ، وبين حسان ، وبين السَّمَيْدَع آباء كثيرةٌ ، ولا يصح قول من قال : إن حسان ابنهُ لصُلْبه ، لِبُعْدِ زمن الزباء من السَّميْدع ، وقد ذكرنا الاختلاف فى اسمها فى غير هذا الموضع ، وذكر الحارث بن مُضاضٍ الأكبر بن عَمْرو بن سعْد بن الرَّقيب بن هىّ بن بنت (١) جُرْهُم .

جياد وقعيقعان : فصل : وذكر ولاية جُرْهُم البيت الحرام دون بنى إسماعيل إلى أن بغَوْا فى الحرم ، وكان أول بغى فى الحرم ما ذكره من حرب جُرهم لِقَطُورا .

وأما أجياد فلم يسمَّ بأجياد من أجل جياد الخيل ، كما ذكر لأن جياد الخيل لا يقال فيها: أجياد ، وإنما أجياد : جمع جِيد (٢) .

= السلام . قال أبو عبيد : وليس كذلك . قال فى العبر: وعلى هذا يكون جميع العرب من ولد إسماعيل عليه السلام ، لأن عدنان وقحطان يستدعيان بطون العرب القحطانية والعدنانية » ص ٣٩٦ ط ١٩٥٩ .

(١) هكذا فى الأصل . وفى اللسان عن ابن برى: « ويقال فى النسب : عمرو ابن الحارث بن مضاص بن هىّ بن بَىّ » بفتح الهاء والباء وتضعيف الياء فى الكلمتين ابن جرهم » . وهى بن بى : كناية عمن لا يعرف، ولا يعرف أبوه ، وقيل: كان من ولد آدم ، ثم انقرض نسله .

. . . .

وذكر أصحابُ الأخبار أن مِضاضا ضرب فى ذلك الموضع أجياد مائة رجلٍ من العمالقة ، فسمى الموضع : بأجياد ، وهكذا ذكر ابنُ هشام فى غير هذا الكتاب ، ومن شِعْبِ أجياد تخرج دابة الأرض التى تُكَلِّمُ الناس قبل يوم القيامة، كذلك رُوى عن صالح مولى التَّوْأمَةِ عن عبدالله بن عَمْرو بن العاص [١] ، وذكر غيره فى أخبار مكة أن قُعَيْقِعان سمى بهذا الاسم حين نزل تبع مكة ، ونحر عندها وأطعم ، ووضع سلاحه وأسلحة جنده بهذا المكان، فسمى : قُعَيْقِعَان بقَعْقَعَةِ السِّلاح فيه ـ والله أعلم .

جرهم تسرق مال الكعبة : فصل : وذكر استحلالَ جُرْهُمٍ لحُرْمة الكعبة ، فمن ذلك أن إبراهيم عليه السلام ، كان احْتَفر بئرا قريبة القَعْر عند باب الكعبة ، كان يُلْقى فيها ما يُهدى إليها ، فلما فسد أمر جرهم سرقوا مال الكعبة مرَّةً بعد مرة ، فيذكر أن رجلا منهم دخل البئر ليسرقَ مال الكعبة، فسقط عليه حجرٌ من شَفِير البئر فحبسه فيها ، ثم أُرْسِلَتْ على البئر حيَّةٌ لها رأسٌ كرأس الجَدْى ، سوداء المَتْنِ ، بيضاء البطن ، فكانت تهيب من دنا من بئر الكعبة ، وقامت فى البئر ـ فيما ذكروا ـ نحواً من خمسمائة عام ، وسنذكر قصة رفعها عند بنيان الكعبة إن شاء الله .

= قال ابن الأثير : وأكثر الناس يقولونه : جياد بكسر الجيم ، وحذف الهمزة . قال: جياد ـ بكسر الجيم ـ موضع بأسفل مكة معروف من شعابها . وبهذا يصح قول ابن هشام ، أما فرس جواد ، فجمعه جياد .

(١) لم يرد هذا فى حديث صحيح . والحديث الذى فى مسلم لا يشير إلى مكان خروج هذه الدابة ، ولا يذكر عنها سوى أنها دابة . والإنسان: دابة. أما ما ورد عنها من صفات أخرى ، فأكثره إسرائيليات رددها وهب بن منبه .



. . . .

بين جرهم وخزاعة : فصل : فلما كان من بغى جُرْهُم ما كان، وافق تفرُّق سبأ من أجل سيل العَرِمِ ، ونزول حارثة بن ثعلبة بن عَمْرو بن عامر أرض مكة، وذلك بأمر طريفةَ الكاهنة، وهى امرأة عَمْرو بن مُزَيْقِياء(١) وهى من حمير، وبأمر عِمْران ابن عامر أخى عمرو ، وكان كاهنا أيضاً ، فنزلها هو وقومه ، فاستأذنوا جُرْهُماً أن يقيموا بها أياما ، حتى يرسلوا الرُّوَّاد ، ويرتادوا منزلا حيث رأَوْا من البلاد، فأبت عليهم جُرْهُمٌ ، وأغضبوهم ، حتى أقسم حارثة ألا يبرحَ مكة إلا عن قتالٍ وغَلَبَةٍ ، فحاربتهم جُرْهُمٌ ، فكانت الدَّوْلَة لبنى حارثة عليهم ، واعتزلت بنو إسماعيل ، فلم تكن مع أحد من الفريقين، فعند ذلك ملكت خُزَاعةُ ـ وهم بنو حارثة ـ مكة ، وصارت ولايةُ البيت لهم ، وكان رئيسُهم عَمْرَو بن لُحَيّ الذى تقدم ذكرُه قبل ، فشرّد بقية جُرْهُم ، فسارَ فَلُّهُمْ فى البلاد ، وسُلِّط عليهم الذَّرُّ والرُّعاف(٢)، وأهلك بقيتَهم السيلُ بإِضَم، حتى كان آخرهم موتا امرأةً رِيئت تطوف بالبيت بعد خُروجهم منها بزمان، فعجبوا من طولها وعظم خلقتها، حتى قال لها قائل : أجِنِّيَّة أنت أم إنسية؟! ، فقالت : بل إنسية من جُرهم ، وأنشدت رَجَزاً فى معنى حديثهم، واستكرتْ بعيراً من رجلين من جُهَيْنَة ، فاحتملاها على

---

(١) فى جمهرة «ابن حزم» : عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ص٤٥٣ . وفى الاشتقاق «لابن دريد» : ولد حارثة عامرا وهو ماء السماء ، وولد عامر عَمْرا «بفتح العين وسكون الميم» وهو مزيقياء ، فعمرو ـــ إذن ـــ هو مزيقياء لا ابن مزيقياء ٤٣٥ .

(٢) الذر : صغار النمل ، والرعاف : الدم .



. . . .

البعير إلى أرض خَيْبَر ، فلما أنزلاها بالمنزل الذى رسَمَتْ لهما ، سألاها عن الماء ، فأشارت لهما إلى موضع الماء ، فولَّيا عنها ، وإذا الذَّرُّ قد تعلَّق بها ، حتى بلغ خياشيمها وعينيها ، وهى تنادى بالويْل والثُّبُور حتى دخل حلقها ، وسقطت لوجهها ، وذهب الُجْهَنِيَّانِ إلى الماء ، فاستوْطَناه، فمن هنالك صار موضع جُهَيْنة بالحجاز وقُرْب المدينة، وإنما هُمْ من قُضاعة ، وقُضاعةُ : من ريف العراق .

غربة الحارث بن مضاض : فصل : رجع الحديث . وكان الحارث بن مُضاض ابن عمرو بن سَعْد بن الرَّقيب بن هىّ بن نبت بن جُرْهُم الُجْرْهُمى قد نزل بِقَنَوْنَا(١) من أرض الحجاز ، فضَلَّت له إبلٌ ، فبغاها حتى أتى الحرم ، فأراد دخوله ، ليأخذ إبله ، فنادى عمرُو بن لُحَىّ : منْ وجد جُرْهميًّا ، فلم يقتله ، قطعت يده ، فسمع بذلك الحارث ، وأشرف على جبل من جبال مكة ، فرأى إبله تُنْحر ، ويُتوزَّعُ لحمُها ، فانصرف بائساً خائفا ذليلا ، وأبعد فى الأرض ، وهى غُرْبة الحارث بن مِضَاض التى تضرب بها المثل ، حتى قال الطائى :

غُرْبةٌ تقْتدى بغُرْبة قَيْس بـ — ـن زُهَيْرٍ والحارث بن مُضاض

وحينئذ قال الحارث الشعر الذى رسمه ابن إسحٰق وهو قوله :

---

(١) سبق هذا، وبيان الصواب فيه عن هى فى ص ١٥ من هذا الجزء. وقنونى «بوزن فعَوْعَل ، بفتح القاف والنون وسكون الواو» من أودية السَّراة ، تصب إلى البحر فى أوائل أرض اليمن، من جهة مكة قرب حَلْى «بفتح فسكون» وتكتب بالياء حسب القاعدة ، ولكن تركتها كما هى .

(٢) غربة بفتح الغين : النوى والبعد ، وبضمها : النزوح عن الوطن .



كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا . الشعر ، وفيه :

وَنَبْكى لبيتٍ ليس يُؤْذَى حمامُهُ تظلُّ به أمنا ، وفيه الْعَصافِرُ(١)

أراد : العصافير ، وحذف الياء ضرورة ، ورفع العصافير على المعنى ، أى: وتأمن فيه العصافير ، وتظل به أَمْنًا ، أى: ذات أَمْن ، ويجوز أن يكون أَمْنًا جمع آمِن مثل : رَكْب جمع : راكب ، وفيه : ولم يَسْمُرْ بمكة سامر : السامر : اسمُ الجماعة يتحدثون بالليل ، وفى التنزيل : (سامِرًا تَهْجُرون) المؤمنون : ٦٧ والْحَجُون(٢) بفتح الحاء على فرسخ وثلثٍ من مكة ، قال الْحُمَيْدِيُّ : كان سُفْيانُ ربما أنشد هذا الشعر ، فزاد فيه بعد قوله : فليست تغادر :

ولم يَتَرَبَّعْ واسطًا وجَنُوبه إلى السِّرِّ من وادى الأراكة حاضر

وأبدلنى ربِّى بها دار غُرْبةٍ بها الجوعُ بادٍ، والعدوُّ الْمُحاصِرُ(٣)

---

(١) فى السيرة : يظل بدلا من : تظل .

(٢) والحجون كما فى المراصد : بأعلى مكة عند مقبرة أهلها ، وفى ياقوت عن الأصمعى : أنه الجبل المشرف الذى بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزارين .

(٣) أما واسط : فقيل: إن للعرب سبعة مواضع، يقال لكل منها: واسط ، منها : واسط نجد فى شعر خداش بن زهير ، وواسط الحجاز فى شعر كثير ، وواسط الجزيرة فى شعر الأخطل . وواسط اليمامة فى شعر الأعشى ، وواسط العراق : وهناك غير ذلك . وواسط أيضا بمكة . قيل : قرن كان أسفل من جمرة العقبة بين المأزمين . فضرب حتى ذهب ، وقيل : تلك الناحية بركة السرى إلى العقبة ، وتسمى: واسط المقيم . وقيل إنه الجبل الذى يجلس عنده المساكين إذا ذهبت إلى منى . والسر : بطن الوادى . ووادى الأراك : قرب مكة . وفى معجم البلدان ونهاية الأرب ج ١٦ ص ٣٤ وضع هذا بعد البيت : وصرنا أحاديثا، وروايته مكذا .

. . . .

واسط وعامر وجرهم : قال الحُمَيْدِيُّ : واسط : الجبل الذى يجلس عنده المساكين ، إذا ذهبت إلى منى . وقوله فيه :

لا يَبْعَدْ سُهيلٌ وعامر

عامرٌ : جبلٌ من جبال مكة، يدل على ذلك قولُ بلال رضى الله عنه : وهل يَبْدُوَنْ لى عامرٌ وطَفِيلُ(١) .على رواية من رواه هـكذا ، وجُرْهُمٌ هذا هو الذى تتحدَّث بها العربُ فى أكاذيبها، وكان من خرافاتها فى الجاهلية أن جُرْهُمًا ابنٌ لِمَلَكٍ أُهبط من السماء لذنب أصابه ، فغُضب عليه من أجله، كما أُهبط هارُوتُ وماروت ، ثم أُلقيت فيه الشهوة ، فتزوج امرأة ، فولدت لهُ جُرْهُمًا، قال قائلهم :

لاهُمَّ إن جرُهُمًا عبادُكا   الناسُ طُرْفٌ ، وهُمْ تِلادُكا
[بهم قديما عَمِرَت بلادُكا](٢)

من كتاب الأمثال للأصبهانى :

= وبدلنا كعب بها دار غربة   بها الذئب يعوى، والعدو المكاشر

وفى مروج الذهب جـ٢ ص٥٠ : «المحاصر» . وفيه بعد : «وكنا ولاة البيت» هذا البيت :

وكنا لإسماعيل صهرا ووصلة   ولما تدر فيها علينا الدوائر

(١) طفيل : جبل بمكة .

(٢) ما بين قوسين عن الطبرى ص ٢٨٥ جـ ٢ وهذا الرجز ينسب إلى عامر ابن الحارث ، والقصيدة منسوبة فى الطبرى لعامر بن الحارث بن مضاض يقول الطبرى: إن الله بعث على جرهم الرعاف والنمل، فأفناهم، فاجتمعت خزاعة =

. . . .

مكة وأسماؤها : فصل : وذكر مكة وبكَّة ، وقد قيل فى بكَّة ما ذكره من أنها تَبُك الجبابرة ، أى تكسرهم وَتَقْدَعُهُمْ ، وقيل : من التَّبَاكِّ ، وهو : الازدحام، ومكَّة من تمكَّكْت العظم ، إذا اجتذبت مافيه من المخ ، وتمكَّك الفصيلُ ما فى ضَرْع الناقة ، فكأنها تجتذب إلى نفسها ما فى البلاد من الناس والأقوات التى تأتيها فى المواسم ، وقيل :لما كانت فى بطن واد،فهى تَمَكَّكُ الماء من جبالها وأخاشبها عند نزول المطر ، وتنجذب إليها السيولُ ، وأما قول الراجز الذى أنشده ابن هشام :

إذا الشَّرِيبُ أخذَتْه أَكَّهْ فخلِّهِ حتى يبكَّ بكَّهْ (١)

فالأكَّة : الشدة ، وإكاكُ الدهر : شدائده .

=ليجلوا من بقى ، فاقتتلوا ، فلما أحس عامر بن الحارث بالهزيمة،خرج بغزالى الكعبة وحجر الركن يلتمس التوبة ، وهو يقول : «لاهم إن جرهما» الخ فلم تقبل- كما فى الطبرى- توبته ، فألقى غزالى الكعبة،وحجر الركن فى زمزم ، كما جاء فى السيرة،ثم دفنها، وخرج من بقى من جرهم إلى أرض من أرض جهينة ، فجاءهم سيل أَتِيٌّ ، فذهب بهم.

(١) فى اللسان : مَكَّ — وزن رد — الفصيل ما فى ضرع أمه يمُكُّه — وزن يرد — مَكًّا وامتك — بفتح التاء وتضعيف الكاف — وتمككه ، ومكمكه : امتص جميع مافيه . وشربه كله . . ومك العظم وامتكه وتمككه ، وتمكمكه امتص مافيه من المخ . والرجز المذكور لعامان بن كعب التميمى- كما ذكر ابن هشام ، وفى الروض : الشريت بدلا من الشريب ، وهو خطأ ، وفيه يبك بدلا من تبك . ومعنى الشريب -كما فى اللسان — الذى يسقى إبله مع إبلك . يقول : فخله يورد إبله الحوض . فتباك عليه أى : تزدحم ، فيسقى إبله سقية . وللأكة معان أخر. منها : سكون الريح وضيق الحلق وفورة شديدة فى القيظ . انظر اللسان . وتعليق الأستاذ هارون على المادة فى معجم ابن فارس .

. . . .

وذكر أنه كان يقال لها : النَّاسَّة ، وهو من نُسَّت(١) الشيء إذا أذهبته ، والرواية في الكتاب بالنون، وذكر الخطابي [في غريبه] أنه يقال لها : الباسَّة أيضا بالباء ، وهو من بُسَّت الجبالُ بَسًّا، أي: فُتِّتَ وثُرِّيتْ، كما يُثَرَّى السَّويقُ، قال الراجز :

لا تَخْبِزَا خَبْزاً وبُسَّا بسًّا (٢)

يقول : لا تشتغلا بالخبز، وثَرِّيا الدقيق والتقماه(٣) . يقال : إن هذا البيت للص أعجله الهرب .

وذكر أبو عبيدة أن الخَبْزَ : شدة السَّوْق ، والبَسُّ: ألين منه ، وبعده :

---

(١) النَّسُّ — بفتح النون — المضاء في كل شيء ، وخص بعضهم به السرعة في الورد، وهو السوق والزجر الشديد. وفي اللسان : وأنسست الدابة : أعطشتها والناسَّة من أسماء مكة لقلة مائها ، وكأنها تسوق وتدفع من يبغي بها .

(٢) وبعده في اللسان : «ولا تطيلا بمناخ حبسا». والبس: اتخاذ البسيسة وهو أن يلت السويق أو الدقيق أو الأقط المطحون بالسمن أو بالزيت، ثم يؤكل ولا يطبخ . وقال يعقوب : هو أشد من اللت بللا . وذكر أبو عبيدة أن لصا من غطفان ، أراد أن يخبز فخاف أن يعجل عن ذلك ، فأكله عجينا ، ولم يجعل أبو عبيدة البس من السوق اللين . وفي تعليق للأستاذ هرون على معجم ابن فارس ذكر أن الرجز للهفوان العقيلي أحد لصوص العرب . وقد فسر السهيلي البيت بما فسره به ابن فارس .

(٣) ثرى الدقيق — بفتح الثاء وتضعيف الراء - صب عليه الماء . هذا وقد قيل عن بكة إنها اسم للبقعة التي فيها الكعبة، وذهب إليه مالك وابن عباس . وقيل اسم لها ولما حول البيت ، ومكة : اسم لما وراء ذلك ، وقيل : إنها المسجد والبيت ومكة اسم للحرم كله ص ٦٠١ القرى للمحب الطبري .

. . . .

ما تركَ السَّيرُ لهن نسًّا

ومن أسماء مكة أيضا: الرأسُ ،وصَلاَحُ، وأمُ رُحْم ،وكُوثى، وأما التي يخرج منها الدجال، فهي : كُوثى رَبَّا(١) ومنها كانت أم إبراهيم عليه السلام ، وقد تقدم اسمها ، وأبوها هو الذي احتفر نهر كُوثَى ، قاله الطبري .

أسطورة : فصل : وذكر قول الحارث بن مُضاض :

يأيها الناسُ سِيروا إن قَصْرَكُمُ   أن تُصبحوا ذات يوم لاتسيرونا(٢)

وذكر ابن هشام أنها وجدت بِحَجَرٍ باليمن ، ولا يعرف قائلها، وألفيتُ في كتاب أبي بحر سفيان بن العاصي خبرا لهذه الأبيات ، وأسنده أبو الحرث محمد بن أحمد الجُعْفِيّ عن عبد الله بن عبد السلام البصري ، قال : حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن سليمان التَّمَّار ، قال أخبرني ثقة عن رجل من أهل اليمامة ، قال : وجد في بئر باليمامة ثلاثة أحجار ، وهي بئر طَسْمٍ وجَدِيس في قرية يقال لها : مُعْنِق ، بينها وبين الحِجْرِ ميل ، وهم من بقايا عاد ، غزاهم تُبَّعٌ ، فقتلهم ، فوجدوا في حجر من الثلاثة الأحجار مكتوبا :

---

(١) صلاح : كقطام وقد تصرف . وكوثى تكتب بالياء لا بالألف كما كان في الروض ، وفي المراصد عن كوثى : أنها ثلاثة مواضع بسواد العراق بأرض بابل وبمكة منزل بني عبد الدار خاصة، وكوثى بالعراق في موضعين: كوثى الطريق، وكوثى ربَّا وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وهما قريتان ، وبينهما تلول من رماد ، يقال : إنها رماد النار التي أوقدها نمروذ لإحراقه .

(٢) هي في الطبري ح ٨ ص ٢٨٥ مع تقديم وتأخير .



. . . .

يأيها الملك الذى بالملك ساعده زمانه
ما أنت أول من علا وعلا شئونَ الناس شانهُ
أقصِرْ عليك مراقبا فالدهر مخذولٌ أمانهُ
كم من أشمَّ مُعَصَّب بالتاج مرهوب مكانهُ
قد كان ساعده الزما ن ، وكان ذا خفضٍ جنانهُ
تجرى الجداول حوله للجند مُترَعةً جفانُهْ
قد فاجأته منيَّةٌ لم يُنجه منها اكتنانُهُ
وتفرقت أجنادُه عنه ، وناح به قيانهُ
والدهر من يَفلِقْ به يطحَنْهُ ، مُفترشا جرانه
والناسُ شتَّى فى الهوى كالمرء مُختلِف بنانهُ
والصِّدقُ أفضلُ شيمةٍ والمرء يقتله لسانهُ
والصمتُ أسعَدُ للفتَى ولقد يُشرِّفه بيانهُ

ووجد فى الحجر الثانى مكتوبا أبيات :

كُلُّ عيشٍ تَعِلَّهْ ليس للدهرِ خَلَّهْ
يَوْمُ بُؤسَى ونُعمَى واجتماعٍ وقِلَّه
حُبُّنَا العيشَ والتكا ثُرَ جَهْلٌ وضِلَّه
بينما المرء ناعم فى قصورٍ مُظِلَّه
فى ظلالٍ ونعمةٍ ساحبا ذَيلَ حُلَّه
لا يرى الشمسَ مُلغَضا رَةِ إذْ زَلَّ زَلَّه

. . . .

لم يُقلْهـا ، و بدّلتْ عِـزّةَ المرء ذِلّه
آفةُ العيشِ والنعـيم كُرُورُ الأهِلَّهْ
وَصْلُ يومٍ بليلةٍ واعتراضٌ بِعِـلَّه
والمنـايا جوائمٌ كالصُّقورِ المُـدِلَّه
بالذى تكرهُ النفـوسُ عليها مُطِلَّه

وفى الحجر الثالث مكتوبا :

يأيُّها الناسُ سيروا إن قصرَكُمُ أن تُصْبِحُوا ذات يومٍ لا تَسِيرُونا
حُثُّوا المَطِىّ ، وأرْخُوا من أزِمَّتِهَا قبل المماتِ وقَضُّوا ما تُقَضُّونَا
كنا أُناساً كما كنتُم فغَيَّرنَا دَهْرٌ فأنتم كما كُنَّا تكونونا

وذكر أبو الوليد الأزرقى فى كتابه فى فضائل مكة زيادةً فى هذه الأبيات وهى :

قد مال دَهْرٌ علينا ثم أهلَكَنَا بالبغى فينا وَبزّ الناسَ ناسُونَا
إن التفكرَ لا يُجْدِى بصاحبِه عنـد البديهةِ فى عِلْمٍ له دُونَا
قَضُّوا أمورَكم بالحزمِ إن لهَا أمورَ رُشْدٍ رَشَدْتُمْ ثم مسنونا
واسْتَخْبِروا فى صنيع الناس قبلكم كما استبان طريقٌ عنده الهونا
كنا زمانا ملوكَ الناس قبلكم بِمَسْكَنٍ فى حرامِ الله مَسْكُونا

ووُجد على حائطٍ قصيرٍ بدمشق لبنى أمية مكتوبا :

يأيها القصرُ الذى كانت تَحُفُّ به المواكـبْ

استبداد قوم من خزاعة بولاية البيت

قال ابن إسحاق : ثم إن غُبْشان من خُزاعة وَلِيتْ البيتَ دون بنى بكر بن عَبْد مَنَاة ، وكان الذى يليه منهم: عمرو بن الحارث الغُبْشانى ، وقُرَيش إذذاك حُلُولٌ وصِرَمٌ ، وبيوتات متفرّقون فى قومهم من بنى كِنانة ، فَوَلِيَتْ خزاعة البيتَ يتوارثون ذلك كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حُلَيل بن حَبَشِيَّة بن سَلُول بن كَعْب بن عمرو الخُزَاعِيّ .

قال ابن هشام : يقال حُبْشية بن سَلول .

أين المواكبُ والمضاربُ والنجائبُ والجنائِبْ
أين العساكرُ والدّساكرُ والْمَقَانِبُ والْكَتَائِبْ
ما بالُهُمْ لم يَدْفعوا لما أتت عنكَ النَّوَائِبْ
ما بالُ قَصرِكَ واهيا قد عادَ مُنْهَدَّ الجْوانِبْ

ووُجد فى الحائط الآخر من حِيطانها جوابُها :

يا سائلى عَمَّا مَضَى مِنْ دَهْرِنا وَمِنَ العَجائِبْ
والقصر إذ أَوْدَى ، فأضحى بعدُ مُنْهَدّ الجوانب
وعن الجنودِ أولى العقودِ ، ومَنْ بهم كنا نحارب
وبهم قَهَرْنا عَنْوَةً مَنْ بالمشارق والمغارب
وتقول : لِمْ لَمْ يَدْفعوا لما أَتَتْ عنك النَّوائِب
هَيْهَات لا يُنْجِى من المو ت الكتائبُ والمقانب

تزوج قصى بن كلاب حبى بنت حليل

قال ابن إسحاق : ثم إن قُصَىّ بن كلاب خطب إلى حُلَيْلِ بن حُبْشية بنته حُبَّى ، فرغب فيه حُليل فزوّجه ، فولدت له عبدَ الدار . وعبد مناف ، وعبد العُزَّى ، وعبدا . فلما انتشر ولدُ قصىّ ، وكَثُرَ ماله ، وعظم شَرَفُه ، هلك حُليل .

« قصى يتولى أمر البيت » :

فرأى قُصىّ أنه أولى بالكعبة ، وبأمْر مكة من خُزاعة وبنى بكر ، وأن قريشاً قُرْعة إسماعيل بن إبراهيم وصَريح وَلَده . فكلَّمَ رجالا من قُرَيش ، وبنى كِنانة ، ودعاهم إلى إخراج خُزاعة وبنى بَكْر من مكة ، فأجابوه . وكان رَبيعة ابن حَرَام من عُذْرة بن سَعْدبن زَيْد قد قَدِم مكةَ بعد ماهَلَكَ كِلاب ، فتزوّج فاطمةَ بنت سعد بن سَيَل ، وزُهْرة يومئذ رجل ، وقصى فَطِيم ، فاحتملهما إلى بلاده ، فحملت قُصَيًّا معها ، وأقام زُهرة ، فولدت لربيعة رِزَاحاً . فلما بلغ قُصىّ ،وصار رجلاً أتى مكة ، فأقام بها ، فلما أجابه قومُه إلى ما دعاهم إليه، كتب إلى أخيه من أُمِّه ، رِزَاحِ بن ربيعة ، يدعوه إلى نُصْرته ، والقيام معه ، فخرج رِزَاحُ بن ربيعة ، ومعه إخوته : حُنّ بن ربيعة ، ومحمود بن ربيعة ، وجُلْهُمة بن ربيعه ، وهم لغيرأمه فاطمة ، فيمن تبعهم من قُضاعة فى حاجّ العرب ، وهم مجمعون لنُصْرة قُصَىّ . وخُزاعة تزعم أن حُلَيل بن حُبْشية أوصى بذلك قُصَيا وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر . وقال: أنت أولى

بالكعبة ، وبالقيام عليها ، وبأمر مكّة من خُزاعه ، فعند ذلك طلب قُصَىّ ماطلب ، ولم نسمع ذلك من غيرهم ، فالله أعلم أىّ ذلك كان .

ما كان يليه الغوث بن مر من الإجازة للناس بالحج

وكان الغَوْثُ بنُ مُرِّ بن أُدِّ بنِ طابِخَةَ بنِ الياسِ بنِ مُضَرَ يلى الإجازة للناس بالحجّ من عرفة ، وولدُه من بعده ، وكان يقال له ولولَده : صُوفة . وإنما وَلِى ذلك الغوثُ بن مرّ ، لأن أمّه كانت امرأةً من جُرْهم ، وكانت لا تَلِد ، فنذرت لله إن هى ولدتْ رجلاً : أن تَصَّدّق به على الكعبة عبْداً لها يخدُمها ، ويقوم عليها ، فولدت الغوْثَ ، فكان يَقُوم على الكعبة فى الدَّهر الأوّل مع أخواله من جُرْهم ، فوَلِى الإجازة بالناس من عَرَفة ، لمكانه الذى كان به من الكَعْبة ، وولدُه من بعده حتى انقرضوا . فقال مُرّ بن أُدّ لوفاء نَذْر أمّه :

إنى جعلتُ رَبِّ من بَنِيَّه ... رَبيطةً بمكّةَ العَلِيَّهْ
فباركنَّ لى بها أَلِيَّهْ ... واجْعله لى من صَالِح البَرِيَّهْ

وكان الغوث بن مُرٍّ ـ فيما زعموا ـ إذا دفَع بالناس قال :

لاهُمَّ إنى تابعٌ تبَاعه ... إن كان إثمٌ فعلى قُضَاعَهْ

قال ابن إسحاق : حدثنى يحْيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير عن أبيه قال : كانت صوفة تدفع بالناس من عَرَفة ، وتُجيز بهم إذا نَفَروا من مِنَى ، فإذا كان يوم النَّفْر أتوْا لرَمْى الجمار ، ورجل من صوفة يرمى للناس ، لا يرمون

حتى يرمى . فكان ذوو الحاجات المتعجِّلون يأتونه ، فيقولون له : قُمْ فارْمِ حتى نرمى معك ، فيقول : لا والله ، حتى تميلَ الشمس ، فيظلّ ذوو الحاجات الذين يحبُّون التعجل يرمونه بالحجارة ، ويستعجلونه بذلك ، ويقولون له : ويلك ! قم فارْم ، فيأبى عليهم ، حتى إذا مالت الشمسُ ، قام فرَمى ورَمى الناس معه .

قال ابن إسحاق : فإذا فرغوا من رَمْى الجمار ، وأرادوا النَّفْرَ من منى ، أخذت صُوفةُ بجانِبَىِ الْعَقَبَةِ ، فحبسوا الناس وقالوا : أجيزى صُوفَةَ ، فلم يَجُزْ أحدٌ من الناس حتَّى يمرُّوا ، فإذا نفرت صُوفَةُ ومضت ، خُلِّى سبيل الناس ، فانطلقوا بعدهم ، فكانوا كذلك ، حتى انقرضوا ، فورثهم ذلك من بعدهم بالْقُعْدُدِ بنو سعد بن زَيْدمناة بن تميم ، وكانت من بنى سعد فى آل صَفْوان بن الحارث بن شِجْنة .

قال ابن هشام : صَفْوَان بنُ جناب بن شِجْنَة عُطارد بن عَوْف بن كَعْب بن سعْد بن زيد مناة بن تَميم .

قال ابن إسحاق : وكان صَفْوان هو الذى يُجيز للناس بالحجّ من عَرَفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرَهم الذى قام عليه الإسلام ، كَرِبُ بن صَفْوَانَ ، وقال أوْس بن تميم بن مَغْراءِ السَّعْدى :

لا يَبْرَحُ النَّاسُ ماحَجُّوا مُعَرَّفهم حتى يُقالَ : أَجِيزُوا آل صَفْوانا

قال ابن هشام : هذا البيت فى قصيدة لأوس بن مغراء .



ما كانت عليه عدوان من إفاضة المزدلفة

وأما قول ذى الإصبع العَدْوانى ، واسمه : حُرْثان بن عمرو ، وإنما سُمِّى ذا الإصبع ؛ لأنه كان له إصبع فقطعها .

عَذِيرَ الحىّ من عَدْوا نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ
بَغَى بَعْضُهُم ظُلْماً فلم يُرْعِ على بَعْضِ
ومنهُم كانت السَّادا تُ والمُوفونَ بالقَرْضِ
ومنهُم مَنْ يُجِيز النَّا سَ بالسُّنَّة والفَرْضِ
ومنهُم حَكَمٌ يَقْضِى فَلا يُنْقَضُ ما يَقْضِى

وهذه الأبيات فى قصيدة له — فلأن الإضافة من المُزْدلفة كانت فى عَدْوان — فيما حدثنى زياد بن عبد الله البَكّائى عن محمد بن إسحاق — يتوارثون ذلك كابراً عن كابر . حتى كان آخرَهم الذى قام عليه الإسلام أبو سَيَّارة ، عُمَيْلة بن الأعزل ، ففيه يقول شاعر من العرب :

نحن دفعنا عن أبى سَيَّارهْ وعن مَواليه بنى فَزَارَه
حتى أجاز سالِماً حِمارَه مُسْتَقْبِلَ القبلة يدعو جارَه

قال : وكان أبو سيارة يدفع بالناس على أتانٍ له ؛ فلذلك يقول : سالِماً حِماره .

. . . . ،

قصى وخزاعة وولاية البيت :

فصل : فى حديث قصى ذكر فيه أن قريشا قُرْعة ولد إسماعيل ، هكذا بالقاف ، وهى الرواية الصحيحة ، وفى بعض النسخ : فَرْعَة بالفاء ، والقُرْعَة بالقاف هى : نُخْبَةُ الشى،وخياره، وقَريع الإبل: فَحْلُها ، وقريع القبيلة : سيدها، ومنه اشتق الأقرع بن حابس وغيره ممن سُمِّى من العرب بالأقرع .

وذكر انتقال ولاية البيت من خُزَاعَةَ إليه ، ولم يذكر من سبب ذلك أكثر من أن قصيا رأى نفسه أحق بالأمر منهم ، وذكر غيره أن حُلَيْلا كان يُعطى مفاتيح البيت ابنتَه حُبَّى ، حين كبر وضعف ، فكانت بيدها ، وكان قُصَىٌّ ربما أخذها فى بعض الأحيان ، ففتح البيتَ للناس وأغلقه ، ولما هلك حُلَيْل أوصى بولايه البيت إلى قصى ، فأبت خُزاعةُ أن تُمضى ذلك لقصى ، فعند ذلك هاجت الحربُ بينه وبين خُزاعة ، وأرسل إلى رِزَاح أخيه يستنجده عليهم .

ويذكر أيضا أن أبا غُبْشَان من خزاعه ، واسمه : سليم ــ وكانت له ولاية الكعبة ــ باع مفاتيح الكعبة من قصى بِزِقٍّ خمر ، فقيل : أخسر من صفقة أبى غُبْشَان(١) ذكره المسعودى والأصبهانى فى الأمثال .

وكان الأصل فى انتقال ولاية البيت من ولد مُضَرَ إلى خُزاعة أن الحَرَم حين ضاق عن ولد نزار ، وبغت فيه إياد أخرجتهم بنو مضر بن نزار ، وأجْلَوْهُمْ

---

(١) بضم الغين أو فتحها . وفى القاموس أيضا قصة أبى غبشان ، وفيه يقول: « ضربت به الأمثال فى الحمق والندم وخسارة الصفقة » .



. . . .

عن مكة ، فَعَمَدوا فى الليل إلى الحجر الأسود ، فاقتلعوه ، واحتملوه على بعير فَرَزَحَ البعير به ، وسقط إلى الأرض ، وجعلوه على آخر ، فَرَزَح أيضا ، وعلى الثالث ففعل مثل ذلك ، فلما رأوا ذلك دفنوه وذهبوا ، فلما أصبح أهلُ مكة ، ولَمْ يَرَوْه ، وقعوا فى كَرْب عظيم ، وكانت امرأةٌ من خُزاعَة قد بَصُرت به حين دُفن ، فأعلمت قومَها بذلك ، فحينئذ أخذت خزاعةُ على ولاة البيت أن يتخلَّوْا لهم عن ولاية البيت ، ويَدُلُّوهم على الحجرِ ، ففعلوا ذلك ، فمن هنالك صارت ولاية البيت لخزاعة إلى أن صيَّرَها أبو غَبْشَان إلى عبد مناف ، هذا معنى قول الزبير .

نشأة قصى :

فصل : وذكر أن قصيا نشأ فى حجر ربيعة بن حَرَامٍ ، ثم ذكر رجوعه إلى مكة ، وزاد غيره فى شرح الخبر ، فقال : وكان قصى رضيعا حين احتملته أمه مع بعلها ربيعة ، فنشأ ولا يعلم لنفسه أبا إلا ربيعة ، ولا يدعى إلا له ، فلما كان غلاما يَفَعَةً أو حَزَوَّراً(١) سابَّه رجلٌ من قُضاعة ، فعيَّره بالدعوة ، وقال: لستَ منا ، وإنما أنت فينا مُلصَق، فدخل على أمه ، وقد وَجَم لذلك ، فقالت له : يا بُنىَّ صدق، إنك لست منهم ، ولكنْ رهطُك خيرٌ من رَهْطه ، وآباؤك أشرفُ من آبائه ، وإنما أنت قُرشِىٌّ ، وأخوك وبنو عمك بمكة ، وهم جيرانُ بيت الله الحرام ، فدخل فى سيارة حتى أتى مكةَ ، وقد ذكرنا أن اسمه : زيد ، وإنما

---

(١) الغلام القوى .

. . . .

كان قصِيًّا أي بعيدا عن بلده فسمى : قُصَيًّا(١) .

الغوث بن مر وصوفة :

فصل : وذكر قصة الغَوْثِ بن مُرّ ، ودفعه بالناس من عرفة (٢) ، وقال بعضُ نَقَلةِ الأخبار أنَّ ولايَةَ الْغَوْثِ بن مُرّ كانت من قِبَلِ ملوك كِنْدَةَ(٣).

وقوله : إن كان إثما فَعَلَى قُضاعَةَ . إنما خصَّ قُضاعَةَ بهذا ؛ لأن منهم مُحِلِّينَ يَسْتَحِلُّون الأشهرَ الُحُرُمَ ، كما كانت خَثْعَم وطَيِّئ تفعل ، وكذلك كانت النَّسَأةُ تقول إذا حَرَّمت صفَراً أو غيره من الأشهرِ بدلا من الشهرِ الحرام ـ يقول قائلُهم : قد حُرِّمتْ عليكم الدماء إلا دماءَ الْمُحِلِّين .

(١) قال الخطابي : « سمى قصيا لأنه قصَّى قومه ، أي: تقصاهم بالشام ، فنقلهم إلى مكة » . وقال الرشاطي : « ثم إن زيدا وقع بينه وبين ربيعة شر ، فقيل له : ألا تلحق بقومك ، وعُيِّر بالغربة ، وكان لا يعرف لنفسه أبا غير ربيعة ، فرجع قصى إلى أمه ، وشكا لها ما قيل له ، فقالت له : يا بنى أنت أكرم منه نفسا وأبا ، أنت ابن كلاب بن مرة ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، فأجمع قصى على الخروج ، فقالت له أمه : أقم حتى يدخل الشهر الحرام ، فتخرج فى حاج العرب ، فلما دخل الشهر الحرام خرج مع حاج قضاعة حتى قدم مكة ، فحج وأقام بمكة » ص ٢٠ وما بعدها ج ١٦ نهاية الأرب .

(٢) فى السيرة : « من بعد عرفة » وفى نسخ أخرى : « من عرفة » .

(٣) فى القاموس : وكندة ـ بالكسر ـ ويقال : كِنْدِى : لقب ثَوْرِ بن عفير أبو حى من اليمن ، لأنه كند أباه النعمة ، ولحق بأخواله ، والكند : القطع .



. . . .

فصل : وأما تَسْمِيةُ الغَوْثِ وولدِه صُوفَةَ ، فاختلف فى سبب ذلك .
فذكر أبو عُبَيْد الله الزُّبَير بن أبى بكر القاضى فى أنساب قريش له عند ذكر صوفَةَ : البيت الواقع فى السيرة لأوْسِ بن مَغْرَاء السَّعْدِى ، وهو :

لا يَبْرَحُ الناسُ ما حَجُّوا مُعَرَّفَهم

البيت . وبعده :

مَجْدٌ بناه لنا قِدْماً أوائلُنا   وأورثوه طِوال الدهرِ أحزانا(١)

ومَغْرَاء : تأنيث أمْغَر ، وهو الأحمر ، ومنه قول الأعرابى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم : أهو هذا الرَّجلُ الأمْغَرُ ؟ ثم قال : قال أبو عبيدة : وصُوفَة وصُوفَانُ يقال لكل من وَلِىَ من البيت شيئاً من غير أهْلِه ، أو قام بشىء من خِدْمة البيت ، أو بشىء من أمْرِ المناسك يُقال لهم : صُوفَة وصُوفَان . قال أبو عبيدة:

---

(١) أوس بن مغراء أحد بنى جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم . وقيل : أوس بن تميم بن مغراء ، وله ترجمة فى الإصابة قال : ويكنى أبا المغراء ، وبقى إلى أيام معاوية ، وله شعر فى مدح النبى « ص » وبعد البيت الذى فى السيرة :

ترى ثِنانا إذا ما جاء بدأهم   وبدؤهم إن أتانا كان ثُنْيانا

والثِّنى والثُّنْيان ، وكهدى وإلى : دون السيد ص ١٧٦ الأمالى ج ٢ ط ٢ وفى السمط عن أوس ص ٧٩٥ للبكرى : «وهو القائل فى بنى صفوان بن شِجْنة بن عُطارد بن عوف بن كعب الذين كان فيهم الإفاضة من عرفة ، فلم يذكر الحارث كما روى ابن إسحاق ، ولا جناب كما روى ابن هشام ، ثم روى البيت كما فى السيرة ، وفى المزهر ص ٤٨٧ ج ٢ أن أوسا هذا غلب على نابغة بنى جعدة .

. . . .

لأنه بمنزلة الصُّوفِ ، فيهم القصيرُ والطويلُ والأسْوَدُ والأحمرُ ، ليسوا من قبيلة واحدة . وذكر أبو عبد الله أنه حدَّثه أبو الحسن الأَثْرَم عن هشام بن محمد بن السائب الْكَلْبِيِّ قال : إنما سُمِّي الغوثُ بن مُرٍّ : صُوفَه ، لأنه كان لا يعيش لأمه ولدٌ ، فنذرتْ : لئن عَاش لَتَعَلِّقَنَّ برأسه صُوفةً ، ولَتَجْعَلَنَّه رَبِيطاً للكعبة ، ففعلت ، فقيل له : صوفة ، ولولده من بعده ، وهو : الرَّبيط

وحدث إبراهيمُ بن الْمُنْذِر عن عُمر بن عبد العزيز بن عمران ، قال : أخبرنى عِقَالُ بن شَبَّةَ قال : قالت أم تميم بن مُرٍّ ـ وولدت نِسْوَةً ـ فقالت : لله عليَّ . لِئنْ ولدتُ غلاماً لأُعَبِّدَنَّه للبيتِ ، فولدت الغوث ، وهو أكبرُ ولدِ مُرٍّ ، فلما ربطته عند البيت أصابه الْحَرُّ ، فمرت به ـ وقد سَقَطَ وذَوَى واسْتَرْخَى فقالت : ما صار ابنى إلا صُوفَةً ، فسُمِّي صوفةَ (١).

---

(١) فى القاموس عن صوفة أيضا : أو هم قوم من أفناء القبائل تجمعوا ، فتشبكوا كتشبك الصوفة . هذا وقد رواه الجوهرى : آل صوفانا . ويقول القاموس : والصواب . آل صفوانا . وهم قوم من بنى سعد بن زيد مناة . قال أبو عبيدة : حتى يجوز القائم بذلك من آل صفوان . وفيه أيضا وردت الشطرة الأولى : ولا يريمون فى التعريف موقفهم . وما ذكره السهيلى عن سبب تسمية الغوث ـ نقلا عن الكلبى ـ يوجد فى القاموس الذى ذكر للربيط عدة معان ، ثم قال : لقب الغوث ابن مر بن طابخة . ويذكر أن الولد عاش ، فجعلته أمه خادما للبيت الحرام حتى بلغ ، فنزعته ، فلقب : الربيط . وقد سقط من هذه المادة فى القاموس كلمة «أد» من نسب الغوث على حين ذكرها فى مادة صوف . وفى القاموس أيضا : «وكان أحدهم يقوم فيقول : أجيزى صوفة ، فإذا أجازت قال : أجيزى خندف ، فإذا أجازت أذن للناس كلهم فى الإجازة » وعرّف القوم : وقفوا بعرفة : والبيت الأول فى السيرة موجود أيضا فى اللسان بنفس رواية القاموس «ولا يريمون إلخ» وقول أبى عبيدة عن صوفة موجود فى اللسان ، وانظر ص ١٨٣ من المحبر .

. . . .

بنو سعد وزيد مناة :

فصل : وذكر وراثة بني سَعْدٍ إجازة الحاج بالْقُعْدُدِ من بني الغوثِ ابن مُرٍّ ، وذلك أن سَعْداً هو : ابن زَيْدِ مَنَاة بن تميم بن مُرٍّ ، وكان سَعْدٌ أَقْعَد بالغوثِ بن مُرٍّ من غيره من العرب (١) ، وزيدُ مَناة بن تميم يقال فيه : مَنَاة وَمَنَاءَة بالهمز(٢) ، وتركه ، ويجوز أن يكون – إذا همز – مَفْعَلة من ناء يَنُوء ، ويجوز أن يكونَ : فعَالَة من الْمَنِيئَةِ ، وهي : المدبَغة ، كما قالت امرأة من العرب لأخرى : [تقول لك أُمّي] : أَعْطِينِي نَفَساً أو نَفَسَيْنِ أَمْعَسُ به مَنِيئَتِي ، فإني أَفِدَةٌ . النَّفْسُ : قِطعَةٌ من الدِّبَاغ ، والمَنِيئَةُ : الجِلْدُ في الدباغ ، وأفدة : مُقاربةٌ لاستمام ماتريد صلاحَه وتمامه من ذلك الدباغ (٣) وأنشد أبو حنيفة :

---

(١) القُعْدد بضم القاف وسكون العين وضم الدال أو فتحها : القريب من الجد الأكبر ، أو أملك القرابة في النسب ، والقربى . وأقعدهم : أقربهم إلى جده الأكبر . وانظر ص ٢٥٧ من المحبر لابن حبيب ، ص ٤٠ من شرح الخشني .

(٢) وفي اللسان عن مناة : ومناة : صخرة ، وفي الصحاح : صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة يعبدونها من دون الله من قولك : منوت الشيء – أي : اختبرته ... وعبد مناة بن أد بن طابخة . وزيدُ مناة بن تميم بن مر يمدو يقصر . قال هَوْبَرُ الحارثي

ألا هل أتى التَّيْمَ بن عَبْدِ مناءةٍ على الشَّنْء فيما بيننا ابن تميم

وفيه تخطئة من قال : مناة بالهاء ، وغلطوا الطائي في قوله : إحدى بني بكر ابن عَبْد مناه .

(٣) في إصلاح المنطق أن الذي قص هذا هو الأصمعي ، وفيه ، وفي اللسان : أمعس به ، بدلا من : أمعس بها ، كما في الروض . وفسر نفسا أو نفسين بقوله : =

. . . .

إذا أنت باكَرْتَ المَنِيئَة باكرتْ قَضِيبَ أَراكٍ باتَ في المِسْكِ مُنقَعَا

وأنشد يعقوب :

إذا أنت باكرتَ المنيئةَ باكَرتْ مَدَاكًا لها من زَعْفَرانٍ وإثْمِدَا (١)

اشتقاق المزدلفة :

فصل : وأما قوله : فلأنَّ الإفاضة من المُزْدَلِفة كانت في عَدْوان

فالمزدلفة : مُفْتَعِلة من الازْدلاف ، وهو الاجتماع . وفي التنزيل : (وَأَزْلَفنا ثَمَّ

= قدر دبغة أو دبغتين ، وفي اللسان : أفد الشيء يأفَد أفَدًا فهو أفِدٌ : دنا وحضر وأسرع ، والأفد : المستعجل ؛ والمنيئة عند الفارسي : مَفْعِلة بكسر العين من اللحم النيء ، ومنأ تأبى ذلك ، وهي عند غيره كما ذكر السهيلي . والمنيئة: الجلد أول مايدبغ ، ثم هو : أفيق ، ثم : أديم . وأ . عس : أدلك وأحرك ، وفي اللسان: منأ الجلد يمنؤه منأ: إذا أنقعه في الدباغ ، وهي في اللسان فعيلة ، وفي تهذيب إصلاح المنطق للتبريزي : «وآفدة أي : سريعة . يقع في بعض النسخ : الآفدة : التي تشتكي فؤادها ، وقيل : السريعة ، وقيل . المعيبة . قال أبو العلاء : ينبغي أن يقال : فائدة للتي تشتكي فؤادها ، والصواب أن يفسر : آفدة بالسريعة » انظر اللسان ومعجم ابن فارس وإصلاح المنطق لابن السكيت ، ص ٩٤ وتهذيبه للتبريزي ص ١٤٥ .

(١) الشعر لحميد بن ثور وقبله :

فأقسم لولا أن حُدْبا تتابعت عليَّ ، ولم أبرح بدَيْنٍ مطردا

لزاحمت مِكسالا كأن ثيابها تجن غزالا بالخميلة أغيدا

يخاطب زوجته فيقسم: لولا أن حدبا ، وهي السنون المجدبة ـ واحدتها: حدباء ـ تتابعت عليه ، واستدان وطالبه الغرماء ، وطردوه لزاحمت مكسالا ، وهي المرأة الثقيلة الأرداف ، الناعمة الجسم ، أي: تزوجت امرأة أحسن منك، كأن ثيابها تستر =



. . . .

الآخرين) وقيل : بل الازْدِلَافُ : هو الاقتراب ، والزُّلْفَةُ : القُرْبَةُ ، فسميت مزدلفة ؛ لأن الناس يَزْدَلِفُون فيها إلى الحرم ، وفى الخبر : أن آدم عليه السلامُ لَمَّا هَبَطَ إلى الأرض[1] لَم يَزَلْ يَزْدَافُ إلى حَوَّاء ، وتَزْدلِفُ إليه ، حتى تعارفا بعَرَفَةَ ، واجتمعا بالمُزْدلفة فسميت : جمعا ، وسميت : المزدلفة[2] .

ذو الإصبع وآل ظرب :

وأما ذو الإصْبَع[3] الذى ذكره فهو : حُرْثان بن عمرو ، ويقال فيه : حُرْثان ابن الحارث بن مُحَرِّثِ بن ربيعة بن هُبَيْرة بن ثعْلَبَة بن ظَرِب ، وظَرِبٌ هو : والدعامر بن الظَّرِب الذى كانَ حَكَمَ العرب ، وذكر ابن إسحاق قصته فى الخُنثى ، وفيه يقول الشاعر [المُتَلَمِّس] :

= غزالا . والأغيد : المنثنى . ثم قال : إذا أنت باكرت دباغ الجلود باكرت هى الطيب والمداك ، وهو الحجر الذى يسحق عليه الطيب . والأثمد : الكحل . أى باكرت هى الطيب والاكتحال . انظر ص ١٤٥ تهذيب إصلاح المنطق.

(١) الرأى الراجح أن جنة آدم كانت فى الأرض .

(٢) لم يرد هذا فى حديث صحيح .

(٣) سبب تسميته فى الاشتقاق ص٢٦٨ واسمه : حرثان ، ونسبه فى الأغانى: حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة بن سيار بن ربيعة بن هبيرة بن ثعلبة بن ظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر ابن نزار ، وفى الجمهرة لابن حزم هو : حرثان بن محرث ، ونسبه فى أمالى المرتضى مختلف أيضا فهو : حرثان بن محرث بن الحارث بن ربيعة بن وهب بن ثعلبة وقيل : محرث بن حرثان ، وقيل : حرثان بن حويرث ، وقيل : حرثان بن حارثة ابن ظرب إلخ .

. . . .

لذى الحِلْمِ قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصَا   وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليَعْلَمَا(١)

وكان قد خَرِفَ ، حتى تَفَلَّتَ ذهنُه ، فكانت العصا تُقْرَع له إذا تكلم في نادى قومه تنبيها له ؛ لئلا تكون له السقطة في قول أو حكم . وكذلك كان ذو الإصْبَع ، كان حَكَماً في زمانه ، وعَمِرَ ثلاثمائة سنة ، وسمى ذا الإصبع ؛ لأن حَيَّةً نهشَتْه في أُصْبُعِه .

وَجدُّهم ظَرِبُ : هو عَمْرو بن عِيَاذِ بن يَشْكُر بن بكر بن عَدْوان ، واسم عَدوان : تيم ، وأمه : جَدِيلة بنت أُدّ بن طابخة ، وكانوا أهلَ الطائف ، وكثر عددهم فيها حتى بلغوا زُهَاء سبعين ألفا ، ثم هلكوا ببغى بعضِهم على بعض ، وكان ثقيف

---

(١) بيت الشعر «لذى الحلم الخ» هو للمتلمس ، وكان ابن الظرب قد كبر ، فقال له ابنه الثانى : إنك ربما أخطأت فى الحكم ، فيحمل عنك ، قال : فاجعلوا لى أمارة أعرفها ، فإذا زغت ، فسمعتها رجعت إلى الحكم والصواب . فكان يجلس قدام بيته ، ويقعد ابنه فى البيت ومعه العصا ، فإذا زاغ ، أو هفا قرع له الجفنة ، فرجع إلى الصواب . هذا وربيعة تدعيه لعبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام ، واليمن تدعيه لربيعة بن مخاشن ، وهو ذو الأعواد ، وفى اللسان : أن هذا الحكم هو عمرو بن حُممة الدوسى الذى قضى بين العرب ثلثمائة سنة . والأصبع : مثلثة الهمزة ، ومع كل حركة تثلث الباء ، ففيه تسع لغات ، والعاشر : أصبوع ، وحكام العرب فى الجاهلية هم : أكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة ، والأقرع بن حابس ، وربيعة بن مخاشن وضمرة بن أبى ضمرة لتميم ، وعامر بن الظرب ، وغيلان بن سلمة لقيس ، وعبد المطلب وأبو طالب والعاصى بن وائل والعلاء بن حارثة لقريش . وربيعة ابن حذار لأسد ، ويعمر بن الشداخ وصفوان بن أمية ، وسلمى بن نوفل لكنانة وحكيمات العرب : صُحر بنت لقمان وهند بنت الخس ، وجمعة بنت حابس وابنة عامر بن الظرب ، وانظر ص ١٨١ من المحبر .



. . . .

وهو قَسِيُّ بن مُنَبِّه صهراً لعامِرِ بن الظَّرِبِ ، كانت تحته زينب بنت عامر ، وهى أم أكثر ثقيف ، وقيل : هى أخت عامر ، وأختها ليلى بنت الظرب هى : أم دَوْس بن عَدْنان ، وسيأتى طرف من خبره فيما بعد - إن شاء الله - فلما هلكت عَدْوَان ، وأَخْرَجَتْ بقيتَهم ثقيفٌ من الطائف ، صارت الطائف بأسرها لثقيف إلى اليوم .

وقوله : حَيَّةَ الأرض : يقال فلان حية الأرض ، وحية الوادى إذا كان مَهِيبا يُذْعَر منه ، كما قال حسان :

يا مُحْكم بن طُفَيْلٍ قد أُتيحَ لكم ... لله دَرُّ أبيكم حية الوادى

يعنى بحية الوادى : خالد بن الوليد رضى الله عنه .

فصل : وقوله : عذيرَ الحىِّ من عَدْوان(١) . نصب عذيرا على الفعل المتروك إظهارُه ، كأنه يقول : هاتوا عذيرَه ، أى : مَنْ يَعْذره ، فيكون العذيرُ بمعنى : العاذر ، ويكون أيضاً بمعنى : العُذْر مصدرا كالحديث ونحوه .

أبو سيارة :

وذكر أبا سَيَّارة ، وهو عُمَيْلة بن الأَعْزَلِ فى قول ابن إسْحَاق ، وقال غيره : اسمه : العاصى . قاله الخطابى . واسم الأعزل : خالد ، ذكره الأصبهانى ، وكانت

---

(١) عدة القصيدة التى فى السيرة هى فى الأغانى : اثنا عشر بيتاً فى ترجمة ذى الإصبع ، والقصيدة عن تفرق عدوان وتشتتهم فى البلاد مع كثرتهم . وفى اللسان عن حية الوادى : إذا كان شديد الشكيمة حاميا لحوزته ، وقال عن بيت ذى الإصبع الأول : « أراد أنهم كانوا ذوى إرب وشدة لايضيعون ثأرا » .



. . . .

له أتان عَوْراء، خِطامُها ليفٌ ، يقال : إنه دفع عليها في الموقف أربعين سنة، وإياها يعني الراجز في قوله : حتى يُجيزَ سالما حماره .

وكانت تلك الأتان سوداء ؛ ولذلك يقول :

لاهُمَّ مالى فى الحمار الأسود أصبحت بين العالمين أحْسَد

فَقِ أبا سيارةَ المُحَسَّد من شر كل حاسد إذ يَحْسُد

وأبو سَيَّارةَ هذا هو الذى يقول: أشْرِقْ ثَبِير كيما نُغير ،وهو الذى يقول :

لا هُمّ إنى تابعٌ تَبَاعه(١)

---

(١) إن العرب لما سمعوا اللهم جرت فى كلام الخلق توهموا أنه إذا ألغيت الألف واللام من الله كان الباقى : لاه ، فقالوا : لاهم ، ويقولون : لاه أبوك . يريدون: لله أبوك ، وقالوا : لهنك أصلها : لله إنك ، فحذف الألف واللام ، فقال: لاه إنك ، ثم ترك همزة إنك ، فقال : لهنك ، وقالوا : لهنا . أصلها : لاه إنا فحذف مدة لاه ، وترك همزة نا . ويرى الفراء أن لهنك أصلها : لأنك ، فأبدل الهمزة هاء مثل : هراق الماء ، وأراق ، وأدخل اللام فى إن لليمين . ويقول ابن جنى فى الخصائص عن اللام فى قولهم : إن زيدا لقائم : إن موضعها أول الجملة وصدرها، لا آخرها وعجزها : ثم قال: ويدل على أن موضع اللام فى خبر إن أول الجملة قبل إن : أن العرب لما جفا عليها اجتماع هذين الحرفين قلبوا الهمزة هاء ليزول لفظ إن ، فيزول أيضا ما كان مستكرها من ذلك فقالوا : لَهِنَّكَ قائم بفتح فكسر فتضعيف ، أى : لئنك قائم . ثم استشهد ببعض أبيات على هذا . . ورأيه فى هذا رأى سيبويه فى الكتاب ، وضعف رأى من قالوا : إن أصلها : لله إنك الخصائص . ص ٣١٤ ج ١ ط ١٩٥٢ وقد تقدم فى الجزء الأول ذكر هذا .

وثبير : جبال بظاهر مكة ، والأثبرة أربعة : ثبير غَيْنَى ، وثبير الأعرج ، وهما : حراء وثبير . وثبير الأثبرة، وثبير منى، وماء بديار مزينة . ومعنى المثل:=



. . . .

وكان يقول فى دعائه : اللهمَّ بَغِّضْ بين رِعائنا ، وحبِّبْ بين نسائنا ، واجعل المالَ فى سُمَحائنا : وهو أول من جعل الدِّيَةَ مائةً من الإبلِ، فيما ذكر أبو اليقظَان ، حكاه عنه حَمْزَةُ بن الحسن الأصبهانى .

وقوله : وعن مواليه بنى فَزَارة . يعنى بمواليه : بنى عمه ، لأنه من عَدْوان وعَدْوانُ وفزارةُ : من قَيْس عَيْلاَن ، وقوله : مُسْتَقْبِلَ القبلةِ يدعو جارَه . أى : يدعو الله عز وجل ، يقول : اللهم كن لنا جارا مما نخافه، أى: مجيرا .

= ادخل يا ثبير فى الشروق ، كى نسرع إلى النحر . قال عمر : إن المشركين كانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير ، وكانوا لا يفيضون حتى تطلع الشمس « الإفاضة هنا من المزدلفة إلى منى » والمثل يضرب فى الإسراع والعجلة ، وفى شرح الكافية ج ٢ ص ٣٣٢ « واعلم أن من العرب من يقول : لَهِنَّكَ « بفتح اللام وكسر الهاء وتضعيف النون مع فتح » لَرَجُلٌ صدق. قال: لَهِنَّا لَمَقْضِىٌّ علينا التهاجر . وقال : لهنى لأشقى الناس إن كنت غارما. وقد يحذف اللام ، وهو قليل ، قال :

ألا يا سنا برق على قُلَلِ الحمى لَهِنَّكَ من بَرْقٍ عَلَىَّ كريم

وفيه ثلاثة مذاهب . أحدها لسيبويه : وهو أن الهاء بدل من همزة إن كإياك وهياك ، فلما غيرت صورة إن بقلب همزتها هاء ، جاز مجامعة اللام إياها بعد الامتناع ، والثانى : قول الفراء ، وهو أن أصله : والله إنك، كما روى عن أبى أدهم الكلابى: « لَه ربى لا أقول ذلك » بقصر اللام ، ثم حذف حرف الجر ، كما يقال : الله لأفعلن ، وحذفت لام التعريف أيضا ، كما يقال : لاه أبوك . أى: لله أبوك ، ثم حذفت ألف فعال ، كما يحذف من الممدود إذا قصر . كما يقال : الحصاد والحصد قال :

ألا لا بارك الله فى سُهَيْل إذَ ما الله بارك فى الرجال

« وحذف مد لام الله . ووقف عليها بالسكون وحذف ألف إذا، ثم حذفت همزة إنك =



أمر عامر بن ظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان

قال ابن إسحاق : وقوله : حكم يقضى يعنى : عامرَ بن ظَرِبِ بن عَمْرو بن عِياذ بن يَشْكُر بن عَدْوان العَدْوانى . وكانت العرب لا يكون بينها نائرة ، ولا عُضْلة فى قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ، ثم رضُوا بما قَضَى فيه ، فاختُصِم إليه فى بعض ما كانو يختلفون فيه ، فى رجل خُنْثَى ، له ما الرجل ، وله ما للمرأة ، فقالوا : أنجعله رجلا أو امرأة ؟ ولم يأتوه بأمر كان أعضلَ منه . فقال : حتى أنظر فى أمركم ، فوالله ما نزل بى مثلُ هذه منكم يامَعْشَرَ العرب ! فاستأخروا عنه . فبات ليلتَه ساهراً يُقَلِّب أمْرَه ، وينظر فى شأنه ، لا يتوجَّه له منه وَجْه ، وكانت له جارية يقال لها: سُخَيْلَة ترعى عليه غَنَمَه ، وكان يُعاتبها إذا سرحت فيقول : صبَّحتِ والله ياسُخَيل ! وإذا أراحت عليه، قال: مسَّيت والله ياسُخَيل ! وذلك أنها كانت تؤخر السَّرْحَ حتى يسبقها بعضُ الناس ، وتؤخِّر الإراحة حتى يسبقها بعض الناس. فلما رأت سَهَرَه وقلقه ، وقلَّة قَرَاره على فراشه قالت: مالك لا أبَالَكَ ! ماعَرَاك فى ليلتك هذه ؟ قال : وَيْلَكِ ! دَعِينى ، أمرٌ ليس من شأنك ، ثم عادت له بمثل قولها ، فقال فى نفسه : عسى أن تأتِى مما أنا فيه بفَرَج ، فقال : ويحكِ ! اخْتُصم إلىّ فى مِيراث خُنْثى ، أأجعله رجلا أو امرأة ؟

. . . .

= وفيها قال تكلفات كثيرة . والثالث : ما حكى المفضل بن سلمة عن بعضهم أن أصله : لله إنك . واللام للقسم ، فعمل به ما عمل فى مذهب الفراء ، وقول الفراء أقرب من هذا ، لأنه يقال : لهنك لقائم بلا تعجب » .



فوالله ما أدرى ما أصنع ، وما يتوجَّه لى فيه وَجْه ؟ : قال : فقالت سُبحان الله ! لا أبَالَكَ ! أتبِــعْ القضاءَ الْمَبَال ، أقْعِدْه ، فإن بال من حيث يبولُ الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبولُ المرأة ، فهى امرأة . قال : مَسِّى سُخَيلُ بعدَها ، أو صَبِّحى ، فَرَّجْتِها والله !. ثم خرج على الناس حين أصبح ، فقضى بالذى أشارت عليه به .

غلب قصى بن كلاب على أمر مكة وجمعه أمر قريش

ومعونة قضاعة له

قال ابن إسحاق : فلما كان ذلك العام ، فعلتْ صوفةُ كما كانت تفعل ، وقد عرفت ذلك لها العــربُ ، وهو دِينٌ فى أنفسهم فى عهد جُرْهم وخُزاعة وولايتهم . فأتاهم قُصىّ بن كلاب بمن معه مِنْ قومه من قريش وكِنانة وقُضاعة عند الْعَقبة ، فقال : لَنَحْنُ أولى بهذا منــكم ، فقاتلوه ، فاقتَتل الناس قتالا شديداً ، ثم انهزمت صُوفةُ ، وغلبهم قُصَــىٌّ على ما كان بأيديهم من ذلك .

وانحازت عند ذلك خُزاعة وبنو بَكْر عن قُصىّ ، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صُوفة ، وأنه سَيَحُول بينهم وبين الـكَعبة وأمر مكّة . فلما انحازوا عنه باداهم ، وأجمع لحربهم ، وخرجتْ له خُزَاعة وبنو بَكْر فالْتَقَوْا ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، حتى كثرت القتلى فى الفريقَيْن جميعاً ، ثم إنهم تداعَوْا إلى الصلح ، وإلى أن يُحَكِّموا بينهم رجلاً من العَرب ، فحــكَّموا يَعْمَر بن عَوْف بن كَعْب بن عامر بن

. . . .



لَيْث بن بَكْر بن عبد مَنَاة بن كِنانة ، فقضى بينهم بأن قُصَيًّا أولى بالكعبة، وأمرِ مكة من خُزَاعَةَ ، وأن كل دَمٍ أصابه قُصَيٌّ من خُزاعة وبنى بَكر : موضوع يَشْدَخُه تحت قدميه ، وأنّ ما أصابت خُزاعةُ وبنو بَكْر من قُرَيْشٍ وكِنانة وقُضاعة ، ففيه الدِّيَة مُؤدّاة ، وأن يُخَلَّى بين قُصَىٍّ وبين الكعبة ومكة .

فسُمِّى يَعْمَر بن عَوف يومئذ : الشَّدَّاخ ، لِمَا شَدَخ من الدماء ووضع منها .

قال ابن هشام : ويقال : الشُّدَّاخ .

قال ابن إسحاق : فوَلِىَ قصىٌّ البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وتَمَلَّكَ على قومه وأهلِ مكة فملَّكوه ، إلا أنه قد أقرّ للعرب ما كانوا عليه ، وذلك أنه كان يراه دِينا فى نفسه لا ينبغى تغييرُه ، فأقرَّ آلَ صفوان وعَدْوان والنَّسَأَة ومُرَّة بن عَوف على ما كانوا عليه ، حتى جاء الإسلام ، فهدم الله به ذلك كلَّه . فكان قصىّ أولَ بنى كَعْب بن لُؤَىّ أصابَ مُلْكا أطاع له به قومُه ، فكانت إليه الحِجَابة ، والسِّقَاية ، والرِّفادة ، والنَّدْوة ، واللِّواء ، فحاز شَرفَ مكةَ كلَّه . وقطع مكةَ رِباعا بين قومه ، فأنزل كلَّ قوم من قُرَيش منازلَهم من مكة التى أصبحوا عليها ، ويزعمُ الناسُ أن قريشاً هابوا قَطْعَ شجر الحرم فى منازلهم ، فقطعها قصىّ بيده وأعوانه ، فسمَّتْه قريشٌ : مُجَمِّعا لما جمع من أمرها ، وتيمَّنت بأمره ، فما تُنْكَحُ امرأةٌ ، ولا يتزوّج رجلٌ من قريش ، وما يتشاورون فى أمر نزل بهم ، ولا يعْقدون لواء لحرب قومٍ من غيرهم إلا فى داره ، يعقده لهم بعضُ ولده ، وما تَدَّرِعُ جارية

إذا بلغت أن تدَّرِع من قريش إلا فى داره ، يُشَقُّ عليها فيها درعها ثم تدَّرِعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها . فكان أمره فى قومه من قُريش فى حياته ، ومن بعد موته ، كالدِّين المُتَّبع لا يُعمل بغيره . واتخذ لنفسه دار النَّدوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تَقْضى أمورَها : قال ابن هشام : وقال الشاعرُ :

قُصَىٌّ لعَمْرِى، كان يُدعى مُجَمِّعاً ... به جَمَّع اللهُ القبائلَ من فِهْرِ

قال ابن إسحاق : حدثنى عبدالملك بن راشد عن أبيه،قال : سمعت السائب ابن خَبَّابٍ صاحب المقصورة يحدث ، أنه سمع رجلا يحدث عمر بن الخطاب ، وهو خليفة ، حديث قُصَىٍّ بن كِلاب ، وماجَمع من أمر قومه، وإخراجه خُزاعةَ وبنى بكر من مكَّة ، وولايته البيتَ وأمر مكة ، فلم يردّ ذلك عليه ولم ينكره .

قال ابن إسحاق : فلماَّ فرَغ قُصَىٌّ من حَرْبه،انصرف أخوه رِزَاحُ بن ربيعة إلى بلاده بمَنْ معه من قومه ، وقال رِزَاحُ فى إجابته قُصَيًّا :

لمَّا أتى من قُصَىٍّ رسول ... فقال الرَّسولُ : أجيبوا الخليلاَ

نَهَضْنا إليه نَقود الجيادَ ... ونطرح عناَّ المَلُولَ الثَّقيلا

نسير بها الليلَ حتى الصباح ... ونَكْمِى النهار ؛ لِئَلاَّ نزولا

فَهُنَّ سِراعٌ كَوِرْدِ القَطا ... يُجِبْنَ بنا مِنْ قُصَىٍّ رسولا

جَمَعْنا من السّر من أَشْمذَيْن ... ومن كلّ حىٍّ جمعنا قبيلا

فيالكِ حلبةَ ما ليلة ... تزيد على الألف سَيْباً رَسيلا

فلمّا مَرَرْنَ على عَسْجَرٍ وأسْهلْنَ من مُسْتَنَاخ سَبيلا
وجاوزن بالركن من وَرِقان وجاوزن بالعَرْج حيا حُلُولا
مررن على الخَيْـــلِ ما ذُقْنَه وعالجن من مَرَّ ليلاً طويلا
نُدَنّى من العُوذ أفـــلاءها إرادة أنْ يسترقن الصَّـــهيلا
فلمّا انتهَيْنا إلى مـــكَّة أبحنا الرجال قبيلاً قبيـــلا
نُعاورهم ثَمَّ حـــدّ السيوف وفي كلّ أوْبٍ خَلَسْنا العقولا
نُخَـــبِّزُهم بِصِلاَبِ النُّسو رِ خَـبْزَ القوىّ العزيزَ الذّليلا
قَتَلْنا خُزاعَـــةَ فى دارها وبَـكْراً قتلْنا وجيلاً فجِيلا
نفينـــاهُم من بلاد المَليك كما لايحُـــلُّون أرْضا سُهولا
فأصبح سبْيُهمُ فى الحـــديد ومِنْ كلِّ حَىٍّ شَفَينا الغَليلا

وقال ثَعْلَبَةُ بن عبد الله بن ذُبْيَان بن الحارث بن سَعْدِ بن هُذَيْم القُضَاعِىّ فى ذلك من أمر قصى حين دعاهم فأجابوه :

جَلبنا الخَيْـــلَ مُضْمرةً تَغَالَى من الأعراف أعراف الجِنَاب
إلى غَوْرَى تِهامة ، فالتقينا من الفَيْفَاء فى قاع يَبَـــاب
فأمَّا صُوفَةَ الخُنْثَى ، فَخَـــلُّوا منازِلَهم مُحَـــاذرةَ الضِّراب
وقام بنـــو على إذ رأونا إلى الأسياف كالإبل الطِّراب

وقال قُصَىّ بن كِلاب :

أنا ابنُ العاصِمِين بنى لُؤَىّ بمــكَّة مَنْزِلى ، وبها رَبيتُ

إلى الْبَطْحاءِ قد علمتْ مَعَدٌّ ... ومَرْوَتُها رَضيت بها رَضيت

فلَسْتُ لغالب إن لم تأثّل ... بها أولاد قَيْذَرَ ، والنَّبيتُ

رِزَاحٌ ناصِرى ، وبه أُسامِى ... فلستُ أخافُ ضَيْما ما حَيِيتُ

فلما استقر رِزَاحُ بن ربيعة فى بلاده ، نَشَرَه الله ونَشَرحُنًّا ، فهما قَبيلا عُذْرَةَ اليوم . وقد كان بين رِزَاح بن رَبيعة ، حين قَدِم بلاده ، وبين نَهْدِ بن زَيْد وحَوْتَكَة بن أَسْلُم ، وهما بطنان من قُضاعة شىء ، فأخافهم حتى لحقوا باليمن ، وأجْلوا من بلاد قضاعة ، فهم اليوم باليمن ، فقال قُصَىّ بن كِلاب ، وكان يحب قُضاعة ونماءها واجتماعَها ببلادها ، لما بينه وبين رِزاح من الرَّحِم ، ولبلائهم عنده إذ أجابوه إذ دعاهم إلى نُصْرته ، وكَرِه ما صنع بهم رِزاحٌ :

أَلاَ مَن مُبْلِغ عَنِّى رِزَاحا ... فإنى قد لَحَيْتُكَ فى اثنتين

لَحَيْتُك فى بنى نَهْدِ بن زَيْد ... كما فرَّقْتَ بينهمُ وبَيْنى

وحَوْتَكة بن أَسْلُمَ إنّ قوْما ... عَنَوْهم بالمَساءة قد عَنَوْنى

قال ابن هشام : وتُرْوَى هذه الأبيات لزُهير بن جَناب الكَلْبى .

قال ابن إسحاق : فلما كبر قُصَىٌّ ورقّ عظمه ، وكان عبد الدار بِكْرَه ، وكان عبدُ مناف قد شَرُفَ فى زمان أبيه ، وذهب كلّ مذهب ، وعبدُ العزّى وعَبْدٌ . قال قصىٌّ لعبد الدار : أما والله يا بُنَىّ لأُلحقنَّك بالقوم ، وإن كانوا قد شَرُفُوا عليك : لايدخل رجلٌ منهم الكعبة ، حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يَعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحدٌ بمكة إلا من سِقَايتك ، ولا يأكل أحدٌ من أهل المَوْسم طَعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش

. . . .



أمراً من أمورها إلا فى دارك، فأعطاه داره دار النَّدْوة، التى لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحِجابة واللواء والسِّقاية والرِّفادة .

مَن فرض الرفادة :

وكانت الرِّفادة خَرْجا تُخرجه قريش فى كلّ مَوْسم من أموالها إلى قُصىّ ابن كِلاَب ، فيصنع به طعاما للحاجّ ، فيأكله مَنْ لم يكن له سَعة ولازاد ، وذلك أن قُصَياً فرَضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يامَعْشَرَ قريش ، إنكم جيرانُ الله ، وأهلُ بيته ، وأهل الحرَم ، وإن الحاجّ ضَيْفُ الله وزوّار بيته ، وهم أحق الضَّيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيامَ الحجّ ، حتى يَصْدُرُوا عنكم ، ففعلوا ، فكانوا يُخرجون لذلك كلّ عام من أموالهم خَرْجاً ، فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاما للناس أيام مِنَى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام ، ثم جرى فى الإسلام إلى يومك هذا ، فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كلّ عام بمنى للناس حتى ينقضى الحجّ .

قال ابن إسحاق : حدثنى بهذا من أمْر قُصَىٍّ بن كِلاب ، وما قال لعَبْد الدار فيما دفع إليه مما كان بيده : أبى إسحاق بن يَسار ، عن الحسن بن محمد ابن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم ، قال :

سمعته يقول ذلك لرجل من بنى عبد الدار ، يقال له : نُبَيْهُ بن وَهْب بن عامر بن عِكْرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصىّ .

قال الحسن : فجعل إليه قُصىٌّ كلَّ ما كان بيده من أمر قومه ، وكان قصى لا يُخالَف ، ولا يُردّ عليه شىء صَنَعه .



. . . .

الحكم بالأمارات :

فصـــل : وذكر عامرَ بن الظَّرِبِ وحُكمه فى الْخُنْثَى ، وما أفتته به جاريتُه سُخَيْلة ، وهو حكم معمول به فى الشرع ، وهو من باب الاستدلال بالأمارات والعلامات ، وله أصل فى الشريعة ، قال الله سبحانه : (وجاءوا على قميصه بدمٍ كَذِبٍ) وجه الدلالة على الـكذب فى الدم أن القميصَ الْمُدَمَّي لم يكن فيه خَرْقٌ ولا أثرٌ لأنيابِ الذئب، وكذلك قوله:(إن كان قميصُه قُدَّ مِنْ قُبُلٍ [فَصَدَقَتْ، وهو من الـكاذبين] . يوسف : ٢٦) الآية . وقولُ النبى صلى الله عليه وسلم فى المولود : «إن جاءت به أَوْرَق جَعْدًا جُمَالِيًّا فهو للذى رُميتْ به[1]» فالاستدلالُ بالأمارات أصلٌ يَنْبنى عليه كثيرٌ من الأحكام فى الحدود والميراث ، وغير ذلك . والحُـكمُ فى الْخُنْثى أنْ يُعتَبر الْمَبَالُ ، ويُعتَبَرَ بالحيض ، فإن أشْـكَل من كلِّ وَجْهٍ ، حُـكِمَ بأنْ يكونَ له فى الميراثِ سَهْمُ امرأةٍ ونصف ، وفى الدِّيَة كذلك ، وأكثر أحكامِه مبنية على الاجتهادِ .

---

(١) هذا جزء من حديث — رواه أبو داود مطولا ، وفى إسناده عباد بن منصور ، وقد تـكلم فيه غير واحد ، وهو فى قذف هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا امرأته بشريك بن سحماء ، فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فطلب منه الرسول «ص» البينة، وإلا أقام عليه الحد ، فنزلت آيات اللعان من سورة النور ، وقد روى قصة هلال الجماعة وأحمد ، والجعد : القصير الشعر ، والأورق: الأسمر مع بياض. والجمالى : العظيم الخلق كأنه الجمل ، وقد طلب النبى صلى الله عليه وسلم أن تترك المرأة حتى تلد ، فجاءت بالولد فى صفات الرجل الذى رميت به ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لولا ما مضى من كتاب الله لـكان لى ولها شأن » .



. . . .

الشداخ :

فصل : وذكر يَعْمَرَ الشَّدَّاخ بن عوف حين حَكَّمُوه ، وأنه سمى بالشَّدَّاخ لما شَدَخ من دِماءِ خُزَاعَةَ(١) وَيَعْمَرُ الشَّدَّاخُ هو جَدُّ بنى دَأْبٍ الذين أُخذ عنهم كثيرٌ من علم الأَخْبارِ والأَنساب وهم :عيسى بن يَزيد بن[بَكْر] ابن دَأْبٍ ،وأبوه:يَزيدُ ، وحُذَيفَة بن دَأْبٍ ،ودَأْبٌ هو : ابن كُرْز بن أَحْمَر من بنى يَعْمَر بن عَوْفٍ الذى شَدَخَ دماءَ خُزَاعَةَ ، أى : أبطلها ، وأصل الشَّدْخ : الكسر والْفَضْخُ ، ومنه الْغُرَّةُ الشادخة ، شُبِّهت بالضَّرْبة الواسعة . والشَّدَّاخ بفتح الشين كما قال ابن هشام ، والشُّدَّاخُ بضمها إنما هو جَمْعٌ ، وجائز أن يُسَمَّى هو وبنوه : الشُّدَّاخ، كما يقال: الْمَنَاذِرَة فى الْمُنْذِرِ وبنيه ، والأَشْعَرُون فى بنى الأَشْعَر من سبأ(٢) وهو بابٌ يكثُرُ ويطول . وأُمُّ يَعْمَر الشَّدَّاخ اسمها : السُّؤْمُ بنت عامر بن جُرَّة بضم الجيم ، وسيأتى ذكر جِرَّة بالكسر (٣) ذكره ابن ما كولا . ومن بنى الشَّدَّاخ : بَلْعَاء بن قَيْس بن عبد الله بن يَعْمَرَ

---

(١) فى الاشتقاق : « إنما سمى الشداخ لأنه أصلح بين قريش وخزاعة فى الحرب التى كانت بينهم، فقال : شدَخت الدماء تحت قدمىَّ، والشَّدخ: وطؤك الشىء حتى تفضخه ، والفرس الشادخ : الذى انتشرت غرته فى وجهه ، ولم تبلغ العينين ، والجمع : شوادخ ،والفضخ : الكسر ، ويذكر السهيلى عيسى بن يزيد بن دأب ، وهو فى الاشتقاق : عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب .

(٢) الأشعر هو : نبت بن زيد بن كهلان بن سبأ .

(٣) فى القاموس : السوم بفتح السين وواو ساكنة بنت جِرة بكسر الجيم : أعرابية ، وفيه : يزيد بن الأخنس بن جُرة بضم الجيم : صحابى .



. . . .

الشَّدَّاخ الشاعر المذكور فى شعر الحماسة ، اسمُه : حُمَيضَةُ ، ولُقِّبَ : بلعاء (١) لقوله :

أنا ابنُ قَيْسٍ سَبُعًا وابن سَبُعْ أَبَارَ من قيسٍ قبيلاً فالْتَمَع
كأنما كانوا طعَاما فابْتَلِعْ

(ولاية قصى البيت)

ذكر فيه أمرَ قُصَىٍّ وماجمع من أهل مكةَ ، وأنشد :

قُصَىٌّ لعَمْرِى كان يُدْعَى مُجَمِّعًا (٢) . البيت وبعده :

هُموا مَلئُوا الْبَطْحَاءَ مَجْداً وسُؤْدُدًا وهُمْ طَرَدُوا عنا غُواةَ بَنى بَكْر

ويذكر أن هذا الشعر لحُذَافةَ بن جُمَح .

وذكر أن قُصَيًّا قَطَّعَ مَكَّةَ رِبَاعًا (٣) ، وأن أهلها هابوا قَطْعَ شجر الحرم للبنيان . وقال الواقدى : الأَصَحُّ فى هذا الخبر أن قريشا حين أرادوا البنيانَ قالوا لِقُصَىٍّ : كيف نصنع فى شَجَرِ الحَرَمِ ، فحَذَّرهم قَطْعَها وَخَوَّفهم

---

(١) فى الاشتقاق : بلعاء من قولهم : بئر بلعاء : واسعة ، ورجل بلع إذا كان نهما ، وقد أخرج له أبو تمام فى ديوان الحماسة ثلاثة أبيات ، أولها :

وفارس فى غمار الموت منغمس إذا تألَّى على مكروهة صدقا

غمار الموت : شدائده ، تألى : حلف ، وفى اللسان : حميضة اسم حى بلعاء وقد كان بلعاء رئيسا فى الجاهلية ، وشهد حرب الفجار الثانى ، ومات فى تلك الأيام

(٢) فى الطبرى ٢٥٦ ج ٢ ، أبو كم قصى كان يدعى مجمعا .

(٣) دورا .



. . . .

العقوبة فى ذلك ، فكان أحدهم يحوف بالبنيانِ حول الشجرةِ ، حتى تكونَ فى منزله . قال : فأوَّلُ من تَرَخَّصَ فى قطع شجر الحرم للبنيان عبدُ الله ابن الزُّبير حين ابتنَى دُوراً بِقُعَيْقِعَانَ ، لكنه جَعَل دِيَةَ كلِّ شجرةٍ : بقرةً ، وكذلك يُرْوى عن عمر — رضى الله — أنه قطع دَوْحَةً كانت فى دارِ أسدِ بن عبد العُزَّى ، كانت تنال أطرافُها ثيابَ الطائفين بالكعبة ، وذلك قبل أن يُوسَّع المسجد ، فقطعها عمر — رضى الله عنه — وَوَدَاها بقرةً ، ومذهبُ مالك — رحمه الله — فى ذلك : ألاَّ دِيَةَ فى شجرِ الحرم. قال : ولم يبلغنى فى ذلك شىء . وقد أساء من فعل ذلك ، وأما الشافعى — رحمه الله — فجعل فى الدَّوْحَة بقرةً ، وفيما دونها شاةً . وقال أبو حنيفة — رحمه الله — إن كانت الشجرةُ التى فى الحَرَمِ مما يغرسها الناسُ ، ويَسْتَنْبِتُونَهَا ، فلا فِدْيَةَ على مَن قَطع شيئاً منها ، وإن كان مِن غيرها ، ففيه القِيمةُ بالغاً ما بلغتْ .

وذكر أبو عُبَيد : أن عبدَ اللهِ بن عمر — رضى الله عنهما — أفتى فيها بعتق (١) رقبةٍ .

---

(١) وفى القِرى للمحب الطبرى : « عن عطاء أنه كان يقول فى المحرم : إذا قطع شجرة عظيمة من شجر الحرم فعليه بَدَنَة ، وفى الدوحة : بقرة . وعنه أنه سئل عمن قطع من شجر الحرم ، فقال : يستغفر الله عز وجل ولا يعود ، وعنه أنه كان يرخص فى القصب والشوك . والسَّنى : نوع من النبات . وعنه لا بأس أن يجنى الكمأة من الحرم ولا بأس بالشعشرق (نبات يتفرش على وجه الأرض عريض الورق وليس له شوك) والكمأة جمع مفرده : كم ، والكم : نبات ينفض الأرض ، فيخرج كما يخرج الفطر ، يأكله الناس والحيوان ، على أنه ورد فى حديث أخرجه البخارى ومسلم أن الحرم لا يعضد شوكه ، أى : لا يقطع .



. . . .

دار الندوة :

وذكر أن قُصَيًّا اتخذ دار الندوة ، وهى الدار التى كانوا يجتمعون فيها للتشاور ، ولفظها مأخوذ من لفظ النَّدِىّ والنادى والمُنتَدَى، وهو مجلس القوم الذى يَندُون حَوْله ، أى : يَذهَبون قريباً منه ، ثم يَرْجِعون إليه ، والتَّنْدِيَة فى الخيل . أن تُصرفَ عن الوِرْد إلى المرعى قريباً ، ثم تعاد إلى الشُّرْب ، وهو المُنَدَّى(١) ، وهذه الدارُ تصيرت بعد بنى عبد الدار إلى حكيم بن حِزَام ابن خُوَيْلِد بن أسَد بن عَبْد العُزَّى بن قُصَىٍّ ، فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم، وذلك فى زمن معاوية ، فلامه معاويةُ فى ذلك ، وقال : أبِعْت مَكْرُمَةَ آبائك وشرفَهم ، فقال حكيم : ذهبت المكارمُ إلا التقوى . والله : لقد اشتريتها فى الجاهلية بِزِقٍّ خمر ، وقد بعتها بمائة ألف درهم ، وأُشْهِدكم أن ثمنها فى سبيلِ الله ، فأيُّنا المغبون؟ ! ذكر خبر حكيم هذا الدارَقُطْنى فى أسماء رجال الموَطَّأ له.

من تفسير شعر رزاح :

فصل : وذكر شعر رِزَاح ، وفيه : ونَكْمِى النهارَ أى : نَكْمُنُ ونستتر ، والكَمِى من الفرسان ، الذى تَكَمَّى بالحديد . وقيل : الذى يَكْمِى شجاعَته ، أى : يسترها ، حتى يظهرَها عند الوغى . وفيه : مررنا بمَسْجَر ، وهو : اسم موضع ، وكذلك : ورقان اسم جبل ، ووقع فى نسخة سفيان: وَرَقان بفتح الراء ، وقيده أبو عبيد البكرى : وَرِقان بكسر الراء ، وأنشد لِلأَحْوَصِ :

---

(١) والمنتدى أيضاً من أسماء النادى الذى هو مجتمع مجلس القوم ومتحدثهم والمندى : مكان ورد الإبل .



. . . .

وكيف تُرَجِّى الوصلَ منها وأصبحت ذُرَى وَرِقانٍ(١) دونَها وحَفِير

ويخفف ، فيقال : وَرْقان . قال جميل :

يا خليليَّ إنَّ بَثْنَةَ بانَتْ يوم وَرْقانَ بالفؤاد سَبِيَّا

وذكر أنه من أعظم الجبال ، وذكر أن فيه أوشالاً(٢) وعُيونا عِذابا ، وسُكانُه : بنو أوْس بن مُزَيْنة .

وذكر أيضا الحديث ، وهو قول النبي — صلى الله عليه وسلم — : « ضِرْسُ الكافر في النار مثلُ أُحُدٍ ، وفَخِذُه مثل وَرِقَان »(٣) . وفي حديث آخر أنه عليه السلام ذكر آخر من يموت من هذه الأمة ، فقال : رجلان من مُزَيْنة ينزلان جبلا من جبال العرب ، يقال له : وَرِقان(٤) كل هذا من قول البكرى في كتاب مُعْجَم ما استَعْجَم .

فصل : وذكر أشمذين بكسر الذال ، وفي حاشية كتاب سفيان بن العاص : الأَشْمَذَانِ : جبلان [بين المدينة وخيبر] ، ويقال : اسم قبيلتين ، ثم قال في

---

(١) ورقان — بالفتح ثم الكسر — ويروى بسكون الراء : جبل أسود بين العَرْج والرويثة على يمين المصعد من المدينة إلى مكة ، وهو من جبال تهامة .

(٢) مياه تسيل من أعراض الجبال ، فتجتمع ثم تساق إلى المزارع .

(٣) رواه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة .

(٤) الذى في الحاكم : « آخر من حشر : راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشا ، حتى إذا بلغا ثَنِيَّة الوداع خرا على وجوههما » ، ومثل هذه الأحاديث لا يعتد بها .

. . . .

الحاشية : فعلى هذا تكون الرواية بفتح الذال وكسر النون من أَشْمَذَيْنِ ـ قال المؤلف رحمه الله ـ فإن صح أنهما اسم قبيلتين ، فلا يبعد أن تكون الرواية كما فى الأصل : أَشْمَذِين[1] بكسر الذَّال ، لأنه جَمْعٌ فى المعنى . واشتقاق الأَشْمَذ من شَمَذَتِ الناقةُ بذَنبها أى : رفعته ، ويقال للنحل : شُمذ ، لأنها ترفع أعجازَها .

وفيه : مَرَرن على الحْيَل[2] وفسره الشيخ فى حاشية الكتاب ، فقال : هو الماء المستنقع فى بطن واد ، ووجدت فى غير أصل الشيخ روايتين ، إحداهما : مَرَرْنَ على الحِلِّ والأخرى : مَرَرْنَ على الحِلْى ، فأما الحِلُّ : فجمع حِلة ، وهى بَقْلةٌ شاكَّةٌ[3] . ذكره ابنُ دُرَيْدٍ فى الجَمْهَرَةِ . وأما الحِلْى ، فيقال : إنه ثمر القُلْقُلاَن[4] وهو نَبْتٌ .

---

(١) فى المراصد : أشمذين ـ بفتح أوله والميم والذال مفتوحتان ، والياء ساكنة والنون مكسورة بلفظ التثنية : جبلان بين المدينة وخيبر تنزلهما جهينة وأشجع .

(٢) الحيل فى اللسان كما ذكر الشيخ ، وأيضاً : القطيع من الغنم ، وحجارة تحدر من جوانب الجبل إلى أسفله وفى الأصل « الجبل » وهو خطأ .

(٣) وفى اللسان والقاموس : شجرة شاكة .

(٤) عرق هذا الشجر المغاث ، وقد خطأ أبو ذر فى شرحه للسيرة هذا الرأى لأن اسم النبات : الحلى بتشديد الياء وكسر اللام . وذكر أنه اسم موضع .

ورزاح بن ربيعة بكسر الراء ، وغيره بالكسر وبالفتح . ومن معانى مفردات قصيدة رزاح : الورد : الواردة . الحلبة : جماعة الخيل . السيب : المشى السريع فى رفق كانسياب الحية . الرسيل : المشى الذى فيه تمهل . وعسجر : موضع قرب مكة . أسهل : حل الموضع السهل ، العرج : واد من نواحى الطائف . العوذ : جمع عائذ : الناقة أو الفرس التى لهما أولاد . والأفلاء : جمع فلو ، المهر العظيم . نعاور : ـــ



. . . .

وقوله فيها : نَخَبِزُهُمْ . أي : نسوقهم سَوْقا شَدِيدا، وقد تقدم قول الراجز . لا تَخْبِزَا خَبْزاً و بُسَّا بَساً .

وذكر شعر رِزَاح الآخر ، وفيه : من الأعراف أعراف الجِناب . بكسر الجيم ، وهو موضِعٌ من بلادِ قُضاعَة .

وفيه : وقام بنو عَلِيٍّ، وهُمْ بنو كِنانة ، وإنما سموا ببنى على؛لأنَّ عبدَ مناة ابن كِنانة كان ربيبا لعليٍّ بن مسعود بن مازِن من الأزْدِ، جَدِّ سَطيح الكاهن ، فقيل لبنى كِنانة : بنو عَلِيٍّ ، وأحسَبه أراد فى هذا البيتِ بنى بَكْرِ ابن عَبْد مناةَ ؛ لأنهم قاموا مع خُزَاعَة .

شعر قصى والعذر له :

وذكر شعر قُصَيٍّ : أنا ابن العاصِمين بَنِى لؤَيٍّ . الأبيات . وليس فيها مايشكل .

=تداول مرة بعد أخرى . الأوب : الرجوع . وصلاب النسور : النسور : جمع نسر ، وهو اللحم اليابس الذى فى باطن الحافر . وصلاب النسور كناية عن الخيل القوية ، ومن مفردات قصيدة ثعلبة : التغالى من المغالاة ، وهى ارتفاع الدابة فى سيرها ومجاوزتها حسن السير . والغور : أصله ما تدخل من الأرض ، وانهبط ، ومنه : غور تهامة ، وكل ما وصف به تهامة، فهو من صفة الغور؛ لأنهما اسمان لمسمى واحد . والفيفاء : الصحراء . القاع : أرض مستوية مطمئنة عما يحيط بها من الجبال والآكام، تنصب إليها الأمطار ، فتمسكها ، ثم تنبت العشب ، الضراب : يقال : ضرب الفحل ضرابا : أتى الناقة . والطراب : الإبل التى اشتاقت إلى موطنها .



. . . .

وذكر أن رِزَاحا حين استقر فى بلادِهِ نشر الله ولدَه وولدَحُنٍّ ، ابنِ ربيعة ، فهما حَيَّا عُذْرَةَ .

قال المؤلف : فى قُضَاعَةَ عُذْرَتَان : عُذْرَةُ بن رُفَيْدة ، وهم من بنى كلْب ابن وَبْرة . وعُذْرَةُ بن سَعْد بن سُودِ بن أَسْلُم بن الحافِ بن قُضاعة ، وأسلُم هذا هو بضم اللام من ولدحُنٍّ بن ربيعة أخى رِزَاح بن ربيعة جَدِّ جميل بن عبدِالله ابن مَعْمَر صاحبِ بثينة ، ومَعْمَرٌ هو ابن ولد الحارث بن خبير بن ظَبْيَانَ ، وهو الضَّبِيسُ بن حُنٍّ . وبُثَيْنَةُ أيضا من ولد حُنٍّ ، وهى بنت حِبَّان بن ثعلبة بن الْهَوْذِى بن عَمْرو بن الأَحَبِّ بن حنٍّ [وفى قضاعة أيضا عُذْرَةُ بن عدى ، وفى الْأزد : عذرة بن عداد] .

حوتكة وأسلم :

وذكر حَوْتَكة بن أَسْلُم وبنى نَهْد بن زيد وإجلاء رِزَاح لهم (١)

---

(١) نسب جميل فى جمهرة أنساب العرب : جميل بن عبد الله بن معمر ابن الحارث بن الخبير [فى الروض ابن خيبر فى] ابن طبيان ، وهو خبيس بن جر بن ربيعة ، ويتفق الأغانى مع الجمهرة حتى الحارث ، وبعدها يقول الأغانى « ابن ظبيان بن قيس بن جزء بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كثير ، بن عذرة بن سعد — وهو هُذيم ، سمى بذلك إضافة لاسمه إلى عبد لأبيه ، يقال له : هذيم ، وكان يحضنه ، فغلب عليه ، وفى الاشتقاق كذلك عن سعد وهذيم — بن زيد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . ونسب بثينة فى الجمهرة : بثينة بنت حُبَّا ابن ثعلبة بن الشهوذ بن عمرو بن الأحبّ بن جرو بن ربيعة . لأبيها صحبة ص ٤٢٠ جمهرة . وفى الأغانى : بنت حبأ بن ثعلبة بن الشهوذ بن عمرو بن =



. . . .

وَحَوْتَكَةُ هو : عمُّ نَهْدِ بن زَيْدِ بن أَسْلُمْ ، وليس في العربِ أسلُمُ بضم اللام إلا ثلاثة . اثنان منها في قُضاعه ، وهما : أَسْلُم بن الحافِ هذا ،وأسلُمُ بن تَدُول ابن تَيْم اللَّاتِ(١) بن رُفَيْدة بن ثَوْرين كَلْبٍ ، والثالث في عَكٍّ أَسْلُمُ بن القِيانة بن غَابن(٢) بن الشاهد بن عَكٍّ ، وما عدا هؤلاء فأسلَم بفتح اللام . ذكره ابن حبيب في المؤتلف والمختلف .

=الأحب بن حن بن ربيعة . وفي الاشتقاق عنعذرة بن رفيدة،وكذلك في جمهرة ابن حزم: أنه عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وَبْرة . وفي كتاب متفق القبائل لابن حبيب ، وفي قضاعة : عذرة بن سعد ، وفي كلب: عذرة ابن زيد اللات ، وعذرة بن عدى ، وفي الأزد: عذرة بن عداد، وفي الجمهرة لابن حزم ضبط أسلم بفتح اللام مرة ، وبضمها في مكان آخر ، وفيها ما يأتي :

ولد أسلم بن الحاف: سود بن أسلم. فولد سود بن أسلم ليث وحَوتكة «بفتح الحاء وإسكان الواو» بطن بمصر مع بني خميس بن جهينة ، وإياس بن سود، وهم في بني لؤي بن عذرة . وفي أمالي ابن الشجري عن الحاف أنه مما حذفت العرب ياءه اجتزاء بالكسر مثل: العاص في اسم العاص بن أمية، والعاص بن وائل السهمي. ومثل اليمان في أبي حذيفة اليمان ، ومثل الداع في قوله سبحانه: «أجيب دعوة الداع إذا دعان» انظر الاشتقاق في قبائل قضاعة، وص ٤١٥ جمهرة . ونقلت ماذكرت عن ابن الشجري من تعليق للأستاذ هرون في الاشتقاق . وفي الاشتقاق عن هوذى أنه هَوْذَة .

(١) في الجمهرة والاشتقاق وغيرهما : زيد اللات . ولكن ورد في الجمهرة ص ٤٢٩ وهو يتحدث عن بني كلب بن وبرة: «وبنو أسلم بضم اللام بن تدول بن تيم اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة » .

(٢) في الجمهرة : أسلم بن القيانة بن غافق ، ومنهم كان أمير الأندلس . وفي اللسان عن أسلم بضم اللام نقل عن كراع أنه جمع: سلم، وذكر أنه لم يفسر أي: سلم — بفتح فسكون — يعني ، ثم نقل أنه قد يكون جمع سلم — بفتح فسكون —وهي الدلو العظيمة .



ذكر ماجرى من اختلاف قريش بعد قصى

وحلف المطيبين

قال ابن إسحاق : ثم إنّ قصَىّ بن كِلاب هَلَك، فأقام أمرَه فى قومه، وفى غيرهم بنوه من بعده ، فاختَطُّوا مكة رِبَاعا — بعد الذى كانَ قَطَع لقومه بها — فكانوا يَقْطعونها فى قومهم ، وفى غيرهم من حُلفائهم ويَبيعونها فأقامت على ذلك قريشٌ معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إنّ بنى عبد مناف بن قُصىّ عبدَ شمس وهاشما والمُطَّلِبَ ونَوْفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قُصَىّ مماَّ كان قُصَىٌّ جعل إلى عبد الدار ، من الحجابة واللواء والسّقاَية والرّفادة ، ورَأَوْا أنهم أوْلى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلِهم فى قومهم ، فتفرّقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم يرَوْنَ أنهم أحقّ به من بنى عبد الدار لمكانهم فى قومهم وكانت طائفة مع بنى عبد الدار . يرَوْن أن لا يُنْزَعَ منهم ما كان قُصَىٌّ جعل إليهم .

فكان صاحبَ أمر بنى عبد مناف: عبدُ شمس بن عبد مناف، وذلك أنه كان أَسَنَّ بنى عبد مناف ، وكان صاحبَ أمر بنى عبد الدار: عامِرُ بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . فكان بنو أسد بن عبد العُزّى بن قصى، وبنو زُهْرَة ابن كِلاب ، وبنو تَيم بن مُرَّة بن كعب ، وبنو الحارث بن فِهْر بن مالك بن النَّضْر، مع بنى عَبْد مناف .



وكان بنو مخزوم بن يَقَظة بن مُرّة ، وبنو سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب ، وبنو جُمَح بن عمرو بن هُصَيص بن كَعب ، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار ، وخرجت عامر بن لُؤَىّ ومحارب بن فِهْر ، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين .

فعقد كلّ قوم على أمرهم حِلْفًا مؤكّداً على أن لا يتخاذلوا ، ولا يُسلم بعضُهم بعضاً ما بَلّ بحرٌ صوفة .

فأخرج بنو عبد مناف جَفْنَة مملوءة طيبا ، فيزعمون أن بعض نساء بنى عَبْد مناف ، أخرجَتْها لهم ، فوضعوها لأحْلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ، فسُمُّوا المُطَيَّبِين .

وتعاقد بنو عبد الدار ، وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفا مؤكداً ، على أن لا يتخاذلوا ، ولا يُسْلِم بعضُهم بعضا ، فسُمُّوا الأحلاف .

ثم سُونِدَ بين القبائل ، ولُزّ بعضُها ببعض ، فَعُبِّيَتْ بنو عبد مناف لبنى سَهْم ، وعُبِّيت بنو أسد لبنى عبد الدار وعُبِّيَتْ زُهْرة لِبَنِى جُمَح ، وعُبِّيَت بنو تيم لبنى مَخْزُوم ، وعُبِّيت بنو الحارث بن فِهْرٍ لبنى عَدىّ بن كعب . ثم قالوا : لِتُفْنِ كلُّ قبيلة من أسند إليها .

فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح، على أن يُعطوا بنى عبد مناف السقاية والرّفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى



عبد الدار كما كانت ، ففعلوا ورضى كل واحد من الفريقين بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كلُّ قوم مع من حالفوا ، فلم يزالوا على ذلك ، حتى جاء الله تعالى بالإسلام ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما كان مِنْ حِلْفٍ فى الجاهِلِيَّة ، فإنَّ الإسْلامَ لَمْ يَزِدْهُ إلاَّ شِدَّة » .

حلف الفضول

قال ابن هشام : وأما حِلف الفضول فحدثنى زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحاق قال : تداعت قبائل من قريش إلى حِلْف ، فاجتمعوا له فى دار عبدالله بن جُدْعان بن عَمْرو بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَىٍّ ، لشرفه وسِنِّه ، فكان حِلفهم عنده : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبدالعُزَّى ، وزُهْرة بن كِلاب ، وتَيْم بن مُرّة ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظَلَمَه حتى تردّ عليه مَظْلمته ، فسمت قريش ذلك الحلفَ : حلفَ الْفُضُولِ .

قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن زيد بن المهاجر بن قُنْفذ التيمى أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهرىّ يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حلفا ، ما أُحِبُّ أنّ لى به حُمْر النَّعم ، ولو أُدْعى به فى الإسلام لأجبت» .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادى الليثى أن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْمِىّ حدثه : أنه كان بين الحُسَين بن على بن أبى



طالب رضى الله عنهما ، وبين الوليد بن عُتْبة بن أبى سُفْيان . والوليدُ يومئذ أمير على المدينة ، أمَّره عليها عمه مُعاوية بن أبى سفيان ـ منازعة فى مال كان بينهما بذى المَرْوة ، فكان الوليد تحامل على الحسين ـ فى حقِّه لسلطانه ، فقال له الحسين : أحلف بالله لتنصفنى من حقى ، أو لآخُذَنَّ سيفى ، ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم لَأَدْعُوَنَّ بحلف الفضول قال : فقال عبد الله بن الزبير، وهو عند الوليد حين قال الحسين ـ رضى الله عنه ـ ما قال : وأنا أحلف بالله لَئِنْ دعا به لآخذنّ سيفى ، ثم لأقومنّ معه ، حتى يُنْصَف من حقه أو نموت جميعاً . قال : فبلغت المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ بن نوفل الزهرىّ ، فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التَّيْمِىّ ، فقال مثل ذلك ، فلما بلغ ذلك الوليدَ بن عتبة أنصف الحسينَ من حقه حتى رضى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادى الليثى عن محمد بن إبرهيم بن الحارث التيمى قال : قدم محمد بن جُبير بن مُطْعِم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف ـ وكان محمد ابن جُبير أعلم قريش ـ فدخل على عبد الملك بن مروان بن الحكم حين قتل ابن الزبير ، واجتمع الناس على عبد الملك ، فلما دخل عليه قال له : يا أبا سَعيد ، ألم نكن نحن وأنتم ، يعنى بنى عبد شمس بن عبد مناف وبنى نوفل بن عبد مناف فى حلف الفضول ؟ قال : أنت أعلم ، قال عبد الملك : لتخبرنى يا أبا سعيد بالحقّ من ذلك ، فقال : لا والله ، لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، قال : صدقت .

قال ابن إسحاق : فولى الرِّفادةَ والسِّقايةَ هاشمُ بن عبد مناف ، وذلك أن عبدَ شمس كان رجلاً سَفَّارًا قلَّما يقيم بمكة ، وكان مُقِلاًّ ذا وَلَدٍ ، وكان هاشم



مُوسِرا فكان – فيما يزعمون – إذا حضر الحجُّ ، قام فى قريش فقال : «يامعشر قريش ، إنكم جيرانُ الله ، وأهلُ بيتهِ ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زُوّارُ اللهِ وحُجّاجُ بيته ، وهم ضَيفُ الله ، وأحقُّ الضَّيْفِ بالكرامة : ضَيْفُه، فاجْمَعُوا لهم ما تصنعون لهم به طَعَاما أيامَهم هذه التى لا بُدّ لهم من الإقامة بها ؛ فإنه – والله – لو كان مالى يسَع لذلك ما كلَّفْتُكُمُوهُ». فيخرجون لذلك خَرْجاً من أموالهم، كلّ امرىء بقدر ما عنده ، فيُصنع به للحُجّاج طعامٌ ، حتى يَصْدُرُوا منها .

وكان هاشم – فيما يزعمون – أوّل من سنّ الرّحلتين لقريش : رحلتى الشتاء والصيف ، وأوّل من أطعم الثريدَ للحجاج بمكة ، وإنما كان اسمه : عَمراً ، فما سُمى هاشما إلا بِهَشْمه الخبز بمكة لقومه ، فقال شاعر من قريش أو من بعض العرب :

عَمرو الذى هَشَم الثريد لقومه قوم بمكة مُسْنِتِينَ عِجَافِ
سُنَّت إليه الرحلتان كلاهما سَفَرُ الشتاء ، ورِحلةُ الإيلاف

قال ابن هشام : أنشدنى بعض أهل العلم بالشعر من أهل الحجاز

قوم بمكة مسنتين عجاف

قال ابن إسحاق : ثم هلك هاشمُ بن عبد مناف بغَزّة من أرض الشام تاجراً ، فولى السقاية والرّفادة من بعده المطّلبُ بن عبد مناف ، وكان أصغرَ من عبد شمس وهاشم ، وكان ذا شرف فى قومه وفَضْل ، وكانت قُرَيش إنما تُسَمِّيه : الفيضَ لسماحته وفضله.

وكان هاشم بن عبد مناف قَدِم المدينة ، فتزوّج سَلْمى بنت عَمرو أحد بنى عدىّ بن النجّار ، وكانت قبله عند أُحَيْحَة بنِ الجُلاَح بن الحرِيش . قال ابن هشام : ويقال : الحريش بن جَحْجَبى بن كُلْفة بن عَوْف بن عمرو

• • • • • • • • • •



ابن عَوْف بن مالك بن الأوس ، فولدت له عمرو بن أُحَيْحَة ، وكانت لاتنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أنّ أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلاً فارقَتْه .

فولدت لهاشم عبدَ المطلب ، فسمَّته : شَيْبة ، فتركه هاشم عندها حتى كان وَصِيفا ، أو فوق ذلك ، ثم خرج إليه عمه المطلب ؛ ليقبِضَه ، فيُلحقه ببلده وقومه فقالت له سَلْمى : لستُ بمُرْسلته معك ، فقال لها المطلب : إنى غيرُ منصرف حتى أخرجَ به معى ، إنّ ابن أخى قد بلغ ، وهو غريب فى غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا ، نَلِي كثيراً من أمرهم ، وقومُه وبلده وعشيرته خيرٌ له من الإقامة فى غيرهم ، أو كما قال . وقال شيبة لعمِّه المطلب ـ فيما يزعمون ـ لستُ بمفارقها إلا أن تأذَن لى ، فأذِنَتْ له ، ودفعَتْه إليه ، فاحتمله ، فدخل به مكة مُرْدِفه معه على بعيره ، فقالت قُريش : عبدُ المطلب ابتاعه ، فبها سمّى : شَيْبةُ عبدَ المُطَّلب . فقال المطَّلب : وَيْحكم ! إنما هو ابن أخى هاشِم ، قدمتُ به من المدينة .

ثم هلك المطَّلب برَدْمان من أرض اليمن ، فقال رجل من العرب يَبْكيه :

قد ظمِىءَ الحجيجُ بعد المطَّلبْ بعد الجِفان والشَّراب المُنْثَعِبْ

ليت قريشا بعده على نَصَبْ

وقال مَطْرود بن كَعْب الخُزاعىّ ، يبكى المطَّلب وبنى عبد مناَف جميعا حين أتاه نَعْىُ نَوْفل بن عبد مناف ، وكان نوفل آخرَهم هُلْكا :

يا ليلة هَيَّجتِ ليلاتى إحدى لياليَّ القَسِيَّات

. . . .



وَما أُقاسِى منْ هُمُومٍ ، وما عالجتُ من رُزْءِ المنيَّات

إذا تذكَّرْتُ أخى نوفلاً ذَكَّرَنِى بالأوَّلِيَّات

ذَكَّرنى بالأُزُرِ الحُمْرِ والْأَرْدِيةِ الصُّفْرِ القَشِيبات

أربعة كلُّهمُ سَيِّد أبناء سادات لسادات

مَيْتٌ بردْمان ومَيْتٌ بسَلْمان وميت بين غزّات

ومَيِّت أُسْكِن لَحْداً لدى الْمَحْجوب شَرْقِىَّ البنيَّات

أخْلَصهم : عبدُ مناف فهُمْ مِنْ لَوْمِ مَنْ لامَ بِمَنْجاة

إنَّ المُغيراتِ وأبناءَها مِنْ خَيْرِ أحياء وأموات

عن حلف المطيبين :

فصل : وذكر تنازُعَ بنى عبد مناف ، وبنى عبد الدار فيما كان قُصَىٌّ جعلَ إليهم ، وذكر فى ذلك حِلْف المطَيَّبين ، وسماهم ، وذكر أن امرأة من نساء عبد مناف هى التى أخرجت لهم جَفْنَه مِن طيب ، فَغَمَسُوا أيديَهم فيها ، ولم يُسمِّ المرأة ، وقد سماها الزبيرُ فى موضعين من كتابه ، فقال : هى أُمُّ حَكيم البيضاء بنتُ عبد المطلب عمة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتَوْأَمَةُ أبيه. قال : وكان المُطَيَّبُون يُسَمَّوْن : الدَّافَة جمع دائف بتخفيف الفاء ؛ لأنهم دَافو الطِّيب(١) .

---

(١) ذكر اسم أم حكيم أيضاً أبو عبد الله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيرى فى كتابه نسب قريش ص ٣٨٣ ، وذكر أنها قالت بعد وضعها الجنة فى الحجر : «من كان منا فليدخل يده فى هذا الطيب» ، ويذكر أن بنى سهم بن عمرو نحرت جزورا ، وقالوا : «من كان منا فليدخل يده فى هذه الجزور» ، فأدخل من أدخل فسميت =



. . . .

السناد والإقواء :

وذكر أن القبائل سُوند بعضُها إلى بعض ، لتكفى كلُّ قبيلةٍ ما سُوند إليها ، فسُوند: من السِّناد ، وهى مقابلة فى الحرب بين كلِّ فريق ، وما يليه من عَدوِّه ، ومنه أُخذ سِناد الشِّعر ، وهو أن يتقابل المصراعان من البيت ، فيكون قبل حَرْفِ الرَّوِيِّ حرفُ مدٍّ ولينٍ ، ويكون فى آخر البيت الثانى قبل حرف الرَّوِيِّ حرفُ لينٍ ، وهى ياء أو واو مفتوحٌ ما قبلها كقول عمرو بن كلثوم .

ألاَ هُبِّى بصَحْنِكِ فاصْبِحِينَا

ثم قابله فى بيت آخر بقوله : ـ تُصَفِّقُها الرياحُ إذا جَرَيْنَا(١) ـ فكأن الياء المفتوح ما قبلها قد سُوندت بها إلى الياء المكسور ما قبلها ، فتقابلتا ، وهما غير متفقتين فى المد ، كما يتقابل القَبِيلتان ، وهما مختلفتان متعاديتان ، وأما الإقواء

= الأحلاف ، وذكر أن الأسود بن حارثة أدخل يده فى الدم ، ثم لعقها ، فلعقت بنو عدى كلها بأيديها ، فسموا : لعقة الدم ، وانظر أيضا ص١٦٦ المحبر لابن حبيب . وص٥٤ شرح السيرة للخشنى . وداف الشيء دوفا ، وأدافه : خلطه وأكثر ذلك فى الدواء والطيب . وداف يديف : لغة فيه . ومجيئه بالواو أكثر ، ومسك مدوف ومدووف ، وداف الطيب وغيره فى الماء يدوفه فهو دائف .

(١) أول البيت : « كأن غضونهن متون غدر » وفى رواية : متونهن بدلا من غضون ، ويروى : إذا عرينا بدلا من جرينا ، والغدر : جمع غدير . تصفقها الرياح: تضربها . يشبه غضون الدرع بمتون الغدران إذا ضربتها الرياح فى جريها ، والطرائق التى ترى فى الدروع بالتى تراها فى الماء إذا ضربته الريح « عن الزوزنى » فى شرح المعلقات .



. . . .

فهو أن يَنْقُصَ قُوَّةٌ من المِصراع الأول ، كما تَنْقُص قُوَّةٌ من قُوى الحَبْل (١)،
وذلك أن يَنْقُصَ من آخر المصراع الأول حرفٌ من الوَتَدِ كقوله :

أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ ترجو النساءُ عَواقبَ الأطهارِ

وكقول الآخر :

لما رأت ماءَ السَّلَى مَشْرُوبا والفَرْثَ يُعْصَرُ فى الإناءِ أَرَنَّت (٢)

(١) فى الأصل : الجبل ، والتصويب من اللسان . والقوة : الخَصْلة الواحدة من قوى الحبل . وحبل مقوى : هو أن ترخى قوة ، وتغير قوة ، فلا يلبث الحبل أن ينقطع .

وقد عرف أبو عمر بن العلاء الإقواء بأنه اختلاف حركات الروى ، فبعضه مرفوع ، وبعضه منصوب أو مجرور . أما ماقاله السهيلى ، فهو قول أبى عبيدة . واستشهد بقول الربيع بن زياد : « أفبعد مقتل مالك الخ » . وعرفه أبو عمرو الشيبانى بأنه اختلاف إعراب القوافى ، وابن سيدة : المخالفة بين القوافى . والأخفش : رفع بيت وجر آخر . قال : وقد سمعت هذا من العرب كثيرا ، لاأحصى ، وقَلَّتْ قصيدة ينشدونها إلا وفيها إقواء ، ثم لايستنكرونه ، لأنه لا يكسر الشعر . وفى اللسان أمثلة كثيرة فى مادة قوا ، ثم ذكر ابن جنى أن الإقواء وإن كان عيبا لاختلاف الصوت به فإنه قد كثر .

(٢) البيت لحجل بن نَضلة . وهو فى اللسان .

ولما رأت ماءَ السَّلى مَشروبَها

والسلى : الجلد الرقيق الذى يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه ، وقيل : هو فى الماشية : السلى ، وفى الناس : المشيمة . وفى المثل : وقع القوم فى سلى جَمَل ، أي في أمر لامخرج منه ؛ لأن الجمل لاسلى له . وإنما يكون للناقة .



. . . .

وكان الأَصْمَعِىُّ يُسَمِّى هذا الإقواء : الْمُقْعَد ، ذكره عنه أبو عبيد ، وقال عَدِىّ بن الرِّقَاع [العامِلى] فى السِّنَاد :

وقصيدة قد بِتُّ أجمَعُ بَيْتَهَا حتى أُثَقِّف مَيْلها وسِنَادَها (١)

حلف الفضول

وذكر ابن هشام الحِلفَ الذى عقدته قريشٌ بينها على نُصرةِ كلِّ مظلوم بمكة قال : ويُسَمَّى حِلْفَ الْفُضُول ، ولم يذكر سببَ هذه التسمية ، وذكرها ابنُ قُتَيْبَة ، فقال : كان قد سبق قُريشا إلى مثل هذا الحلف جُرْهُم فى الزمن الأول، فتحالف منهم ثلاثةٌ هُم ، ومن تبعهم ، أحدهم : الفضلُ بن فَضالة ، والثانى : الفضل بن وَداعة ، والثالث : فُضَيْل بن الحرث. هذا قول القُتَبِىِّ . وقال الزبير: الفُضَيْلُ بن شُراعَة ، والفضل بن وَداعة ، والفَضْلُ بن قُضاعة ، فلما أشبه حلفُ

(١) وكذلك سماه الخليل . ونقل عنه أيضاً : إذا كان بيت من الشعر فيه زحاف قيل له : مقـعد « بضم الميم وسكون القاف وفتح العين » .

روى ابن جنى فى الخصائص تحت باب: « هل يجوز لنا فى الشعر من الضرورة ما جاز للعرب أولا ؟ » ، وأنه سأل أبا على عن هذا ، فقال : كما جاز لنا أن نقيس منثورنا على منثورهم ، فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم ، ثم ذكر أن جميع الشعر القديم لم يكن مرتجلا ، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه والملاطفة فيه والتلوم على رياضته ، وإحكام صنعه نحو مما يعرض لكثير من المولدين . . ثم روى شواهد له على هذا ، وفيها هذا البيت . وفى الخصائص : أقوم بدلا من أثقف ، وبعده :

نظر المُثَـقف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

انظر ص ٣٢٣ وما بعدها ح١ الخصائص ط ، ٢ زدت العاملى من الخصائص .



. . . .

قريش الآخر فعلَ هؤلاء الْجُرْهُمِيِّين سُمِّى : حلفَ الفُضُول ، والفُضُول : جمع فَضْل ، وهى أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم . وهذا الذى قاله ابن قُتَيْبَة حَسَنٌ(١) ، ولكن فى الحديث ماهو أقوى منه وأولى . روى الحُمَيْدِىُّ عن سُفْيَان عن عبدالله عن محمد وعبد الرحمن ابنى أبى بكر ، قالا : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : لقد شهدت فى دار عَبْد الله بن جُدْعَانَ حِلفاً لو دُعيتُ به فى الإسلام لأجبت . تحالفوا أن تُردَّ الفُضُول(٢) على أهلها ، وألا يَعُزَّ ظالمٌ مَظلوماً . ورواه فى مُسْنَدِ الحرْث بن عبد الله بن أبى أُسامَة التَّميمِىِّ ، فقد بَيَّن هذا الحديثُ : لم سُمِّى حلفَ الفُضول ، وكان حِلفُ الفُضولِ بعد الفِجار ، وذلك أن حرب الفِجَارِ(٣) كانت فى شَعْبَان ، وكان حِلْفُ الفضول

---

(١) أخذ بهذا الرأى ابن الأثير فى النهاية ، لكنه ذكر هو وابن كثير فى البداية : الفضل بن الحارث لافضيل ، والفضل بن شراعة لا فضيل .

(٢) أى تحالفوا ألا يتركوا عند أحد فضلا يظلمه أحدا إلا أخذوه له منه . وفى حديث رواه مسلم وأحمد : « لا حلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية ، فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة » والمعنى — كما قال ابن كثير — أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه » .

(٣) أيام الفجار كانت بين قيس وقريش وقيل : أيام الفجار : أيام وقائع كانت بين العرب تفاجروا فيها بعكاظ ، فاستحلوا الحرمات . وقيل : الفجار يوم من أيام العرب ، وهى أربعة أفجرة كانت بين قريش ، ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان فى الجاهلية ، وكانت الدَّبْرَة على قيس ، وإنما سمت قريش هذه الحرب فجاراً ؛ لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فجرنا ، فسميت فجاراً .



. . . .

في ذي القَعْدَة قبل المبعث بعشرين سنة ، وكان حِلف الفضول أكرَم حِلفٍ سُمع به ، وأشرفه في العرب ، وكان أولَ مَنْ تكلم به ودعا إليه : الزبيرُ بن عبدِ المطلب ، وكان سببه أن رجلا من زُبَيْد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصي بن وائل ، وكان ذا قَدْرٍ بمكة وشَرَفٍ ، فحَبَس عنه حقَّه ، فاستَعْدَى عليه الزُّبَيْديُّ الأحلافَ : عبدَ الدار ومَخزُوماً وجُمَح وسَهْماً وعَدِيَّ بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصي بن وائل ، وزَبَرُوه ، أى : انتهروه ، فلما رأى الزُّبَيْديُّ الشر ، أوفى على أبي قُبَيْس (١) عند طلوع الشمس ، وقُرَيشٌ في أنديتهم حولَ الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آلَ فِهرٍ لمظلوم بضاعته ... ببطن مَكَّةَ نائِي الدار والنَّفَرِ
ومُحْرِم أشعَثٍ لم يَقْضِ عُمْرَته (٢) ... يا للرِّجال وبين الحِجْر والحَجَرِ (٣)
إن الحرامَ لمن تَمَّت كرامتُه ... ولا حَرامَ لثوب الفاجِرِ الغُدَرِ (٤)

فقام في ذلك الزبيرُ بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مَتْرَك ، فاجتمعت هاشمٌ وزُهرةُ وتَيْمُ بن مرة في دار ابن جُدْعانَ ، فصنع لهم طعاما ، وتحالفوا في ذي القَعْدَة في شهرٍ حرام قياما ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا بالله : ليكونُنَّ يدا واحدة

---

(١) جبل بمكة سمي برجل من مذحج .

(٢) في تجريد الأغاني : « حرمته » .

(٣) في التجريد : « بين الركن والحجر » .

(٤) في التجريد بعد البيت السابق ورد هذا البيت :

أقائم من بني سهم بذمتهم ... أم ذاهبٌ في ضلالٍ مالُ معتمر

. . . .

مع المظلوم على الظالم ، حتى يُؤَدَّى إليه حقُّه ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفةً ، ومارسا حِراء وثَبِيرٌ مكانَهما ، وعلى التَّأَسِّي في المعاش ، فسمَّت قُرَيشٌ ذلك الحلفَ : حلفَ الفُضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فَضْلٍ من الأمر ، ثم مَشَوا إلى العاص ابن وائل ، فانتزعوا منه سِلْعَةَ الزُّبَيْدِي ، فدفعوها إليه ، وقال الزبير رضي الله عنه :

حَلَفْتُ لنعْقِدَنْ حِلْفًا عليهم ... وإن كُنَّا جميعا أهلَ دارِ
نُسَمِّيه : الفضولَ إذَا عقدنا ... يَعِزُّ به الغريبُ لدَى الجوارِ
وَيعْلَمَ مَن حَوالى البيتِ أنَّا ... أُباة الضَّيْمِ نمنَعُ كلَّ عار

وقال الزبير بن عبد المطلب :

إن الفُضُولَ تحالفوا ، وتعاقدوا ... ألاَّ يقيمَ ببطن مكةَ ظالمُ
أمرٌ عليه تعاهدوا ، وتواثقُوا ... فالجار والمُعْتَرُّ فيهم سالمُ

وذكر قاسم بن ثابت في غريب الحديث أن رجلا من خَثْعَم قَدِم مكة مُعْتمِرا ، أو حاجًّا ، ومعه بنتٌ له يقال لها : القَتُول من أوْضأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نُبَيْهُ بن الحجَّاج (١) وغيَّبها عنه ، فقال الخَثْعَميُّ : من يُعْدِيني على

---

(١) هو نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب . كان هو وأخوه منبه من وجوه قريش وذوي النباهة فيهم ، وكانا ممن نصب لرسول الله «ص» العداوة ، وقتلا معا يوم بدر مشركين «انظر التجريد ص ١٨١٠ ونسب قريش ص ٤٠٤ . وقصته مع القتول في الاغاني .



. . . .

هذا الرجل ، فقيل له : عليك بحلف الفضول ، فوقف عند الكعبة ، ونادى : يا لِحَلْف الفضول ، فإذا هم يُعْنِقون إليه من كل جانب ، وقد انتضَوْا أسيافهم يقولون : جاءك الغوث ، فمالك ؟ فقال : إن نُبَيْهاً ظلمنى فى ابنتى ، وانتزعها منى قَسْراً، فساروا معه ، حتى وقفوا على باب الدار ، فخرج إليهم ، فقالوا له : أخرج الجارية وَيْحك، فقد علمت مَنْ نحن ، وما تعاقدنا عليه !! فقال : أفعل ، ولكن متِّعُونى بها الليلة ، فقالوا له : لا : والله ، ولا شُخْبَ لِقْحَة[1] ، فأخرجها إليهم ، وهو يقول :

راح صَحْبى ولم أُحَيِّ القَتُولا لم أُوَدِّعْهُمُ وَدَاعا جميلاَ
إذ أَجَدَّ الفُضُول أن يَمْنَعُوها قد أرانى ، ولا أخافُ الفُضولا
لا تَخالِى أنِّى عَشِيَّةَ راح الرَّكْبُ هُنْتُم علىّ ألاَّ أقولاَ

فى أبياتٍ غيرِ هذه ذكرها الزبير ، وذكر من قوله فيها أيضا :

حلَّت تِهامَةَ حِلَّةً من بَيْتِها وَوِطائِها
ولها بمكةَ منزلٌ مِنْ سَهْلِها وحرائِها
أخذَتْ بَشَاشَةَ قَلْبِه ونأت فكيف بنأيِها[2]

---

(١) فى الأصل : ولا شجت . وهو خطأ ، وأصل الشخب : ما خرج من الضرع من اللبن ويضم وبالفتح: الدم . واللقحة بكسر اللام وفتحها : الناقة القريبة العهد بالنتاج ، أو الغزيرة اللبن .

(٢) من القصيدة فى التجريد ص ١٨١٠ .

حي الدويرة إذ نأت منــا على عُدَوائِها ==



. . . .

الحلف وابن جدعان :

فصل : وذكر قولَ رسولِ الله صَلى اللهعليه وسلم : « لَقد شَهِدْتُ فى دارِ عبدِ الله بن جُدْعَانَ حِلفاً ما أُحِبُّ أنَّ لى به حُمْرَ النَّعَم ، ولو دُعيت إليه فى الإسلام لأَجَبْتُ(١) » وعبدُ الله بن جُدْعان هذا تَيميٌّ هو : ابن جُدْعَان ابن عَمْرو بن كعب بن سعد بن تَيم، يكنى: أبا زُهير ابن عم عائشة ـ رضى اللهعنها ـ ولذلك قالت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن ابن جُدْعان كان يُطعِمُ الطعامَ ، وَيَقْرِى الضيفَ ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال : « لا إنه لم يقل

= لا بالفراق تنيلنا شيئاً ولا بلقائهـــا

ومنها :

أخـــذت حشاشة قلبه ونأت فكيف بنائها
لولا الفضول وأنه لا أمن من عـــدوائها
لدنوت من أبياتها ولطفت حـــول خبائها
ولجئتهـــا أمشى بلا هاد إلى ظلمائهـــا
فشربت فضلة ريقهـــا ولبت فى أحشائهـــا

وفى نسب قريش : روعائها بدلا من : عدوائها ، ولبثت فى البيت الأخير بدلا من: بت ، وفى الروض: بشاشة ، وهنا حشاشة . وفيه: «ونأت وكيف بنأيها» وهنا : فكيف بنائها . وقد تكرر فى الروض جذعان بالذال بدلا من الدال . ونسبه كما فى كتاب نسب قريش . وتيم هو ابن مرة « انظر نسب قريش ص ٢٩١ »

(١) حديث حضور النبى مع عمومته حرب الفجار، وأنه رمى فيه حديث يروى فى كتب السير والطبقات ، كطبقات ابن سعد وهو فيها فى ج ١ ص ١٢٨ ، وشهوده حلف الفضول أيضا من هذا النوع ، وقد ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٢ ص ٣٩٢ ، ولا يعتد بمثل هذه الروايات التى ليست من الصحيح ، لإقامة حكم دينى عليها .



. . . .

يوما : ربِّ اغفِرْ لى خطيئتى يوم الدين » أخرجه مسلم . ومن غريب الحديث لابن قتيبة أنَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كنتُ أَسْتَظِلُّ بِظِلِّ جَفْنَةِ عبدِالله بن جُدْعَانَ صَكَّةَ عُمَىٍّ ، يعنى : فى الهاجرة ، وسُمّيت الهاجِرة : صَكَّةَ عُمَىٍّ لخبرٍ ذكره أبو حنيفة فى الأنواء : أن عُمَيًّا رجلٌ من عَدْوَان ، وقيل : من إيادٍ ، وكان فقيهَ العربِ فى الجاهلية ، فقدِم فى قومٍ مُعْتَمِراً أو حاجًّا : فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه ، وهم فى نَحْرِ الظهيرة : من أتى مكةَ غدا فى مثل هذا الوقت ، كان له أجْرُ عُمْرَتَين ، فصَكُّوا الإبلَ صَكَّةً شديدةً حتى أتوا مكةَ من الغدِ فى مثل ذلك الوقت ، وأنشَد :

وَصَكَّ بها نَحْرَ الظَّهيرَةِ صَكَّةً عُمَىٍّ وما يَبْغِين إلا ظِلالَها(١)

فى أبياتٍ ، وعُمَىٌّ : تصغير أعمى على الترخيم ، فَسُمِّيَت الظهيرةُ صَكَّةَ عُمَىٍّ به . وقال البكرى فى شرح الأمثال : عُمَىٌّ : رجل من العماليق أوقع بالعدوِّ فى مثل ذلك الوقتِ ، فسمى ذلك الوقت : صَكَّةَ عُمَىٍّ ، والذى قاله أبو حنيفة

---

(١) كل ماذكره السهيلى هو فى اللسان : والبيت فيه هكذا .

وصك بها عين الظهيرة غائرا عُمَىٌّ ولم ينعلن إلا ظلالها

وقد ضبطت ياء ينعلن بالفتح فى مادة صك ، وبالضم فى مادة عمى ، وعمى تقال بضم العين وإسكان الميم وتخفيف الياء فى الشعر ، والجفنة : القصعة ، فى اللسان أن الظبى إذا اشتد عليه الحر طلب الكناس ، وقد برقت عينه من بياض الشمس ولمعانها ، فيسدر بصره ، حتى يصك بنفسه الكناس لايبصره ، ويقال : صكة أعمى أيضا . ولقيته صكة عمى ، أو أعمى ، أى فى أشد الهاجرة حرا . وابن منظور ينقل عن السهيلى كثيرا فى اللسان .



. . . .

أَولى ، وقائلُه أعلى . وقال يعقوب : عَمِيَ الظبيُ : يتحيَّرُ بصرُه في الظَّهيرة من شدة الحر . قال ابن قُتَيْبَة : وكانت جَفْنَته يأكل منها الراكبُ على البعير، وسقط فيها صبي ، فغرق أي : مات . وكان أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ قبل أن يمدَحه قد أتى بني الدَّيَّان من بني الحرْث بن كعب ، فرأى طَعَامَ بني عبد الْمَدَانِ منهم لُبَابَ الْبُرِّ والشُّهدَ والسَّمْنَ ، وكان ابنُ جُدْعانَ يُطعمُ التَّمرَ والسَّوِيقَ ويسْقي اللَّبَنَ ، فقال أمية :

ولقد رأيتُ الفاعِلين وفِعْلَهُمْ فرأيتُ أكرمهم بَنِي الَّديَّانِ
البُرّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ طَعَامُهم لا ما يُعَلِّلُنَا بنُو جُدْعَانِ[١]

---

(١) السويق : طعام يتخذ من مدقوق البر والشعير سمي بهذا لانسياقه في الحلق ولباب البر : الخالص من الدقيق، ومعنى يلبك : يخلط ، والشهاد جمع شهد ، وهو العسل ، وطعام الفرس هو : الفالوذج . وهو كما عرف في اللسان : لباب القمح بلعاب النحل . يعني : أنه مصنوع من الدقيق الخالص وعسل النحل ، وفي ذيل الأمالي للقالي ، ورد بعد البيت الأول قوله :

ورأيت من عبد المدان خلائقا فضل الأنام بهن عبد مـــدان

وكذلك في سمط اللآلى للبكرى ، وشطرة البيت الأول في ذيل الأمالي : « ولقد رأيت القائلين وفعلهم» وفي السمط : « الباذلين » . ويقص أمية أنه دخل على عبد المدان بن الديان في نجران فأتى بالفالوذج ، ثم يقول : فأكلت طعاما عجيبا ، ثم انصرفت ، وأنا أقول ، وذكر الأبيات » انظر ص ٣٦٢ سمط اللآلى للبكرى و ص ٣٨ من الأمالي والنوادر لأبي على القالي . وأمية ابن أبي الصلت اسمه : عبد الله بن أبي ربيعة ، ويكنى : أبا عثمان ، وهو شاعر جاهلي أدرك الإسلام ومات كافرا . هذا ويذكر أبو الفرج في مثير الغرام ، أن ابن جُدْعان وفد على كسرى ، فأكل عنده الفالوذج ، فسأل عنه، فقالوا : لباب البر مع العسل ، فقال : =

. . . .

فبلغ شعرُه عبدَ الله بن جُدْعانَ ، فأرسل ألْفَىْ بعير إلى الشام ، تحمل إليه البُرَّ والشُّهْدَ والسَّمْنَ ، وجعل مناديا ينادى على الكعبة : ألا هَلُمُّوا إلى جَفْنَة عبد الله بن جُدْعان ، فقال أمية عند ذلك :

له داعٍ بمكة مُشْمَعِلٌّ وآخرُ فوق كَعْبَتِها يُنادى
إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى عليها لُبابُ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهاد(١)

وكان ابن جُدْعان فى بدء أمْرِه صُعْلوكاً ترِب اليدين ، وكان مع ذلك شرِّيراً فاتكا ، لا يزال يَجْنِى الجنايات ، فيَعْقِل عنه أبوه وقومه ، حتى أبغضته عشيرته ، ونفاه أبوه وحلفَ : ألا يؤويه أبدا لما أثقله به من الغُرم، وحمله من

= ابغونى غلاما يصنعه ، فأتوه بغلام فابتاعه ، فقدم به مكة ، وأمره فصنعه للحجاج ووضع الموائد من الأبطح إلى المسجد ص ٥٠٤ القرى للمحب الطبرى . وفى ذيل الأمالى للقالى أنه أرسل إلى اليمن من جاءه بمن يعمل الفالوذج ص ٣٨ .

(١) اشمعل القوم فى الطلب : بادروا فيه ، وتفرقوا ، والمشمعل : الناقة النشيطة ، والرجل الخفيف الظريف ، أو الطويل . والبيتان من قصيدة طويلة فى ديوانه ص ١٩ وقبله :

وأبيض من بنى تيم بن كعب وهم كالمشرفيات الفراد

ومنها جزء فى نسب قريش ص ٢٩٢ ، وفى ص ١٤٢ من الاشتقاق لابن دريد : وكان ابن جدعان يشرب الخمر ويقول :

شربت الخمر حتى قال قومى ألست عن السقاة بمستفيق
وحتى ما أوسد فى مَبيت أبيت به سوى الترب السحيق

ثم حرمها على نفسه . والردح : جمع رداح بفتح : الجفنة العظيمة : والشيزى أو الشيز : خشب أسود تصنع منه الجفان ، أو هو الأبنوس ، أو خشب الجوز .



. . . .

الدِّيَات ، نخرج فى شِعَابِ مكة حائرا بائرا ، يتمنى الموتَ أن ينزل به ، فرأى شَقًّا فى جبل ، فظن فيه حَيَّة ، فتعرّض للشَّقِّ يرجو أن يكونَ فيه مايقتله فيستريح ، فلم يرَ شيئا ، فدخل فيه ، فإذا فيه ثُعبانٌ عظيم له عينان تَقِدَان كالسراجين ، لحمل عليه الثعبانُ ، فأفرَج له ، فانساب عنه مستديراً بدَارة عندها بيْت ، نخطا خطوة أخرى ، فَصَفَر به الثعبانُ ، وأقبل عليه كالسَّهم ، فأفرَج عنه ، فانساب عنه قُدُما لا ينظر إليه ، فوقع فى نفسه أنه مَصْنُوع ، فأمسكه بيده ، فإذا هو مصنُوعٌ من ذهب ، وعيناه ياقوتتان ، فكسَره ، وأخذ عينيه ، ودخل البيتَ ، فإذا جُثَثٌ على سُرُر طِوال لم ير مثلهم طُولا وعظما ، وعند رءوسهم لوحٌ من فضّة فيه تاريخُهم ، وإذا هُم رجالٌ من مُلوكِ جُرْهُم ، وآخرهم موتاً : الحرث بن مُضاضٍ صاحبُ الغربة الطويلة ، وإذا عليهم ثيابٌ لا يُمسُّ منهَا شىء إلا انتثر كالهباءِ مِن طولِ الزمن ، وشِعرٌ مكتوبٌ فى اللوح فيه عِظَات ، آخر بيتٍ منه :

صَاحِ هل رَيْتَ أو سمعتَ براعٍ ردَّ فى الضَّرْع ماقَرَى فى الحِلاَب

وقال ابن هشام : كان اللوحُ من رُخامٍ ، وكان فيه : أنا نُفَيْلَةُ بن عبدالْمَدَانِ ابن خَشْرَم بن عبد ياليل بن جُرْهم بن قَحْطان بن هود نبى الله ، عشت خمسمائة عامٍ ، وقطعت غَوْر الأرضِ باطِنها وظاهرِها فى طلب الثروة والمجد والملك ، فلم يكن ذلك ينجينى من الموت ، وتحته مكتوب :

قد قطعتُ البلادَ فى طَلَبِ الثَّرْ وَةِ والمجدُ قالصُ الأثوابِ
وَسَرَيْتُ البِلادَ قَفْرا لقفرٍ بقَنَاتى وَقُوَّتى واكتسابى



. . . .

فأصاب الرَّدَى بَنَاتِ فؤادى   بسهامٍ من المنــايا صِيَاب
فانقضت شِرَّتى ، وأَقْصَرَ جَهْلى   واستراحت عواذلى من عِتابى
ودفعت السَّفاهَ بالحِلم لما   نزل الشَّيْبُ فى مَحَلِّ الشباب
صاحِ هل رَيْتَ أو سمعتَ براعٍ   رَدَّ فى الضَّرعِ ماقَرَى فى الحِلاب [1]

وإذا فى وسط البيت كَوْمٌ عظيمٌ من الياقوتِ واللُّؤلؤ والذهب والفِضة والزَّبَرْجَدِ ، فأخذ منه ماأخذ، ثم عَلَّم على الشقِّ بعلامةٍ ، وأغلق بابه بالحجارة وأرسَل إلى أبيه بالمال الذى خرج به يَسْتَرْضيه ويستعطفه ، ووصل عشيرتَه كلَّهم ، فسادَهم وجعل يُنفق من ذلك الكنز ويُطعِم الناسَ ، ويفعل المعروفَ. ذَكر حديثَ كنز ابن جُدْعان موصولاً بحديث الحرْث بن مُضاض: ابنُ هشَام فى غير هذا الكتاب ، ووقع أيضا فى كتاب رِىِّ العاطش ، وأُنْس الواحش لأحمد بن عمار [2] .

وابن جُدْعان ممن حَرَّم الخمر فى الجاهلية بعد أن كان مُغْرًى بها ، وذلك

---

(١) القالص من الثياب : المشمَّر القصير . وبنات الفؤاد : طوائفه ، وهى فى الأصل : نبات، والمنايا : جمعَ منية : الموت. وصياب : جمع صائب، كصاحب وصحاب . شرَّة الشباب : حرصه ونشاطه . والسفاه بفتح السين : خفة الحلم ونقيضه ، أو الجهل ، وبكسر السين : جمع سفيه ، والحلاب : الإناء يحلب فيه . وقرا : جمع، وفى اللسان : ويروى العلاب مكان الحلاب . وريت: يعنى : رأيت ، وهى فى الروض : رأيت ، والتصويب من اللسان ، ثم إنها تخل بنظام الوزن .

(٢) لا ريب فى أنها أسطورة لا يحنو عليها قلب ولا عقل . يجوز أن يقال إنه عثر على كنز دفين . ولكن فى غير ما صورت الأسطورة .



. . . .

أنه سَكِر ، فتناول القمرَ ليأخذه ، فأخبر بذلك حين صحا ، فحلف : لايشربها أبدا ، ولما كَبِر وهَرِم أراد بنو تميم أن يمنعوه من تبديد مالِه ، ولاموه فى العَطاء ، فـكان يدعو الرجلَ، فإذا دنا منه ، لطَمَه لَطْمَةً خَفيفة ، ثمّ يقول له : قم فانْشُدْ لَطْمَتَكَ ، واطلب دِيتها ، فإذا فعل ذلك أعطته بنو تميم من مالِ ابن جُدعانَ حتى يرضى ، وهو جَدُّ عُبَيْدِ الله بن أبى مُلَيْـكَةَ الفقيه .والذى وقع فى هذا الحدِيث من ذكر نُفَيلة، أحسبه : نفيلة بالنون والفاء ،لأن بنى نُفَيْلة كانوا ملوكَ الحيرة ، وهم من غسَّان ، لا من جُرْهُمٍ ، والله أعلم .

موقف الإسلام من الحلف :

فصل : وذكر خبر الحسين مع الوليد بن عتبة ، وقوله : لآخذنّ سيفى ، ثم لأدْعُوَنَّ بحلف الفُضول إلى آخر القصة ، وفيه من الفقه : تخصيصُ أهل هـذا الحلفِ بالدعوة وإظهار التعصب ، إذا خافوا ضَيْما ، وإن كان الإسلامُ قد رفع ما كان فى الجاهلية من قولهم: يالَفلانٍ عند التَحزُّب والتعصب ، وقد سمع رسول الله ـصلى الله عليه وسلم ـ يوم الْمُرَيْسِيع[١] رجلا يقول : يالَلْمُهاجرين ! وقال آخر : يَا للأنصار ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها مُنْتِنة وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ادَّعى بِدَعْوى الجاهلية ، فأَعِضُّوه بِهَنِ أبيه ولا تَـكْنُوا[٢]،ونادى رجل بالْبَصْرَةِ : يالَعامر ! فجاءه النابغةُ الْجَعْدِىُّ بِعَصَبَةٍ له،

---

(١) مصغر مرسوع : بئر وماء لخزاعة من ناحية قديد إلى الساحل ، وإليه تضاف غزوة بنى المصطلق ، وتروى بالغين ، وقد وقعت سنة ست من الهجرة .

(٢) أى قولوا له : اعضض . . . أبيك ، ولا تكنوا عنه بالهَن . وقد وضعت نقطا بعدا عضض، وسيلمح القارىء الاسم المقصود. والحديث:رواه أحمد والنسائى =



. . . .

فضربه أبو موسى الأشعرىُّ — رضى الله عنه — خمسين جَلْدةً ، وذلك أن الله عز وجل جعل المؤمنين إخوةً ، ولا يُقال إلا كما قال عمر رضى الله عنه : يا لله ويا لَلْمسلمين ؛ لأنهم كُلهمْ حِزبٌ واحد، وإخوة فى الدين إلا ماخَصَّ الشرعُ به أهلَ حِلْفِ الْفُضُولِ ، والأصْلُ فى تخصيصه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو دُعيت به اليوم لأجبتُ[1] يريد : لو قال قائل من المظلومين: ياَلحِلْفِ الفضولِ لأجبتُ ، وذلك أنَّ الإسلام إنما جاء بإقامة الحقِّ ونُصْرةِ المظلومين ، فلم يَزْدَدْ به هذا الحلفُ إلَّا قوةً ، وقولُه عليه السلام : «وما كان من حِلْفٍ فى الجاهِلِيَّة ، فلن يزيدهَ الإسلام إلَّا شِدَّة » ليس معناه : أن يقول الحليف : ياَلَفُلانٍ لحلفائه ، فيجيبوه ، بل الشِّدة التى عنى رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما هى راجعةٌ إلى معنى التواصل والتعاطف والتآلف ، وأما دَعْوَى الجاهلية ، فقد رفعها الإسلام إلا ما كان من حلف الفضول كما قدمنا ، فحكمه باق ، والدعوةُ به جائزةٌ ، وقد ذهبت طائفةٌ من الفقهاء إلى أن الحليفَ يَعقِل مع العاَقِلة إذا وَجَبَتْ

= وابن حبان عن أبى بن كعب . ورغم هذا أوقن أنه لايجوز أن ينسب إلى أدب الرسول ذى الخلق العظيم مثل هذا الكلام الذى فيه نتن الأوشاب .

(١) سبق الرأى فى هذا الحديث ، وهو أوهن من بيت العنكبوت ، فكيف يقيم السهيلى على مثله حكما دينيا يستهدف تقويم استغاثة شركية ، وحمية جاهلية ؟ وإن افترضنا أنه حديث صحيح ، فإننا نستطيع أن نفهم فيه معنى آخر يستقيم وهدى القرآن ، وهو أنه . لو دعى إلى تنفيذ ما دعا إليه من نصرة المظلوم لأجاب ، ولكن لا باسم حلف ، وإنما باسم الله ، لأن هذا من دينه ، والمسلمون أمة واحدة ، وحزب واحد هو : حزب الله المفلح الغالب .



. . . .

الدِّيَةُ لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان من حِلْفٍ فى الجاهلية ، فلم يَزِدْه الإسلام إلا شِدَّةً ، ولقوله أيضاً للذى حَبَسه فى المسجد : إنما حبستك بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِك .

عن أولاد عبد مناف :

فصل : وذكر بنى عبد مَنافٍ الأربعة ، وقد كان له ولدٌ خامسٌ ، وهو أبو عَمْرو ، واسمه : عُبَيْدٌ ، دَرَجَ(١) ، ولا عَقِب له ، ذكره البرق والزبير ، وكذلك ذكر البرقى أن قُصَيًّا كان سَمَّى ابنَه عبدَ قُصَىٍّ ، وقال : سميتهُ بنفسى وسميت الآخرَ بدارِ الكعبةِ ، يعنى : عبدَ الدار ، ثم إن الناسَ حَوَّلوا اسمَ عبدِ قُصَىٍّ ، فقالوا : عبد بن قُصَىٍّ ، وقال الزبير أيضا : كان اسمُ عبدِ الدار عبدَ الرحمن(٢) .

---

(١) مضى ولم يخلف نسلا . وفى طبقات ابن سعد : أن أولاد عبد مناف كانوا ستة نفر وست نسوة . وفى نسب قريش ص ١٥ . يقول عن أبى عمرو إنه انقرض إلا من بنت يقال لها : تماضر ، ولدت لأبى همهمة بن عبد العزى .

(٢) فى القرآن الكريم قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن . قالوا : وما الرحمن ؟ ! أنسجد لما تأمرنا ، وزادهم نفورا » الفرقان : ٦٠ ، وفى كتاب الصلح فى غزوة الحديبية دعا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالكاتب ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : وما الرحمن ، فو الله ما أدرى ما هى ؟ ولكن اكتب : باسمك اللهم كما كنت تكتب ، وهذا جزء من حديث رواه البخارى وأبو داود عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان ، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه ، وهذا كله يوحى بأن اسم الرحمن كان غير معروف عندهم .



. . . .

وذكر هاشما وما صنع فى أمر الرِّفَادَة(١) وإطعامِ الحجيج ، وأنه سُمِّىَ هاشماً لهَشْمِهِ الثَّرِيدَ لقومه ، والمعروفُ فى اللغةِ أن يقال : ثَرَدْتُ الخبزَ ، فهو ثَرِيد وَمَثْرُودٌ ، فلم يُسَمَّ : ثارِداً ، وسمى هَاشِماً ، وكان القياسُ — كما لا يُسَمَّى الثريدُ هَشِيما ، بل يقالُ فيه :ـ ثريدٌ وَمَثْرُودٌ ـ أنْ يقال فى اسمِ الفاعل أيضا كذلك ، ولكن سبب هذه التسميةِ يحتاج إلى زيادة بيانٍ . ذكر أصحابُ الأخبارِ أن هاشما كان يستعين على إطعام الحاجِّ بقُرَيْشٍ ، فَيَرْفِدُونه بأموالهم ، ويُعِينونه ، ثم جاءت أزمةٌ شديدةٌ فكَرِهَ أن يُكلِّف قريشا أمرَ الرِّفادةِ ، فاحتمل إلى الشام بجميع ماله ، واشترى به أجمعَ كَعْكاً ودقيقا ، ثم أتى الموسم فهَشَم ذلك الكَعْكَ كُلَّه هَشْماً ، ودَقَّه دَقًّا ، ثم صنع للحجاج طعاما شبه الثريدِ ، فبذلك سُمِّى هاشما ، لأن الكعكَ اليابس لا يُثْرَدُ ، وإنما يُهشَمُ هَشْماً ، فبذلك مُدِح ، حتى قال شاعرُهُم فيه ، وهو عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

كانت قُرَيْشٌ بَيْضَةً فَتَفَقَّأَتْ ... فالمُحُّ خالِصُه لِعَبْدِ مَنافِ
الخالطين فقيرَهُمْ بغنِيِّهِمْ ... والظاعنين لرحلة الأَضْيَافِ
والرَّائشينَ وليس يُوجَدُ رائِشٌ ... والقائِلينَ : هَلُمَّ لِلأَضْيَافِ
عَمْرُو العُلا هَشَمَ الثريدَ لقومِه ... قومٍ بمكةَ مُسْنِتينَ عِجافِ(٢)

---

(١) الرفادة : شىء كانت تترافد به قريش فى الجاهلية ، تخرج فيما بينها مالا تشترى به للحجاج طعاما وزبيبا .

(٢) نسبها اللسان والمرتضى فى أماليه ٤/١٧٨ لمطرود بن كعب الخزاعى فى رثاء عبد المطلب ، ونسبها العينى ٤/١٤٠ ، وابن أبى الحديد ٣/٤٥٣ كما نسبها السهيلى إلى عبد الله بن الزبعرى ، ولها فى أمالى القالى قصة تزعم أن رسول الله هو =



. . . .

. . . .

=وأبا بكر كانا عند بنى شيبة ، فمر بهما رجل ، وهو يقول :

يأيها الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد الدار

هَبِلَتْك أمك لو نزلت برحلهم منعوك من عدم ومن إقتار

وتزعم القصة أن الرسول «ص» نظر إلى أبى بكر ، ثم قال : أهكذا قال الشاعر: قال : لا والذى بعثك بالحق ، لكنه قال :

يأيهـا الرجل المحول رحله ألا نزلت بآل عبد مناف

وهى قصة مصنوعة . والأبيات التى وردت فى أمالى المرتضى بعد البيت السابق:

هبلتك أمك لو نزلت عليهم ضمنوك من جوع ومن إقراف

الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف

والمطعمون إذا الرياح تناوحت ورجالُ مكة مسنتون عجافُ

وفى هذا البيت إقواء ، لأن القافية مكسورة ، ولكنها فيه مرفوعة . وقد وردت له رواية أخرى كما فى الروض ، وبعد هذا فى أمالى المرتضى :

والمفضلون إذا المحول ترادفت والقائلون : هَلُمَّ للأضياف

والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

وفى أمالى القالى : « منعوك من عدمٍ ومن إقراف ، وهو فى اللسان كما فى أمالى المرتضى . وفى اللسان أيضا :

والمنعمين إذا النجوم تغيَّرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

والمطعمون إذا الرياح تناوحتْ حتى تغيب الشمس فى الرجّاف

وفى الصحاح رويت الشطرة الأولى من هذا البيت: «المطعمون اللحم كل عشية» وفى غيره: « ويكللون جفانهم بسد يفهم » . ثم نسب المرتضى إلى ابن الزبعرى :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وهو الذى سن الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأصياف

وفى الروض : « فالمخ خالصه » بالخاء ، والرواية الصحيحة «فالمح» بالحاء أما=



. . . .

وكان سببُ مدح ابنِ الزِّبَعْرى بهذه الأبياتِ ، وهو سَهْمِيٌّ[1] لبنى عبدِ مناف ـ فيما ذكره ابن إسحٰق فى رواية يونس ـ أنه كان قد هَجَا قصيا بشعرٍ كتبه فى أستارِ الكعبةِ ، أولُه :

= خالصة فرويت: خالصها ، وخالصة بالتاء . والمح أو المحة : صفرة البيض . وقال ابن سيدة : إنما يريدون فص البيضة . وقال ابن برى : من قال : خالصة بالتاء ، فهو فى الأصل مصدر كالعافية . ومسنتون : أصابتهم سنة مجدبة . وفى سمط اللآلى للبكرى : «والعرب تقول هو بيضة البلد، يمدحونه بذلك، وتقول للآخر: هو بيضة البلد يذمونه به، فالممدوح يراد به: البيضة التى يحتضنها الظليم، «ذكر النعام» ويصونها ويوقيها، لأن فيها فرخه. والمذموم يراد به البيضة المنبوذة بالعراء ، المذرة التى لا حائط لها ، ولا يدرى لها أب ، وهى تريكة الظليم . قال الرمانى : إذا كانت النسبة إلى مثل المدينة والبصرة ، فبيضة البلد مدح ، وإن نسبت إلى البلاد التى أهلها أهل ضعة فبيضة البلد ذم» ص ٥٤٩ ، والرجاف : البحر ، أو يوم القيامة ، وفى أمالى القالى زيادة :

منهم على والنبى محمد القائلان : هلم للأضياف

وأعتقد أنها زيادة شيعية . وقد قال البكرى : «وهذا بيت محدث ذكر أبو نصر أن جده صالحا أبا غالب ألحقه به» وأبو نصر هو: هارون بن موسى بن صالح تلميذ القالى ، وأحد الذين استملوا النوادر عليه ، وستأتى القصيدة فى السيرة .

انظر مادة رجف فى اللسان ، وص ٥٤١ ج ١ ومابعدها سمط اللآلى للبكرى، بتعليق المحقق الميمنى ، و ص ٢٤١ ج ١ الأمالى للقالى، والتنبيه للبكرى ، ص ١٧٨ ج ٤ أمالى المرتضى . وفى الروض : لرحلة الأضياف ، ولعلها الأصياف . وفيه أيضا : عمرو الغلا ، بالغين ، وهو خطأ صوابه : العلا ص ٧٥ ، وهناك رواية : «عمرو الذى» كما فى الطبرى .

(١) لأنه ابن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم .



. . . .

أَلْهَى قُصَيًّا عن المجدِ الأساطيرُ ... ومِشيةٌ مثلَ ما تَمْشِي الشَّقَارِيرُ(١)

فاستَعْدَوْا عليه بنى سهم ، فأسلموه إليهم ، فضربوه وحلقوا شعرَه ، وربطوه إلى صَخْرَة بالحَجُون(٢) ، فاستغاث قَومَه فلم يُغيثوه ، فجعل يمدح قُصَيًّا ويَستَرضيهم ، فأطلقه بنو عبد منافٍ منهم ، وأكرموه فمدحهم بهذا الشعرِ ، وبأشعارٍ كثيرةٍ ، ذكرها ابن إسحٰق فى رواية يونس .

عبد المطلب وابن ذى يزن :

فصل : وذكر نِكاحَ هاشمٍ سَلْمى بنت عَمْرو النَّجارِيَّة وولادَتَها له عبدَ المُطَّلِبِ بن هاشم ، ومن أجل هذه الوِلادة قال سَيْفُ بن ذِي يَزَن

---

(١) وجدت فى اللسان : « شقر بضم الشىء وفتحها ، مع فتح القاف : الديك ويقال : إن الناس أصبحوا يوما بمكة ، وعلى باب الندوة مكتوب :

ألهى قصيا عن المجد الأساطير ... ورشوة مثل ما ترشى السفاسير

وأكلها اللحم بحتا لا خليط له ... وقولها : رحلت عير ، أتت عير

فأنكر الناس ذلك . وقالوا : ما قالها إلا ابن الزبعرى ، وأجمع على ذلك رأيهم ، فمشوا إلى بنى سهم - وكان مما تنكر قريش وتعاتب عليه أن يهجو بعضها بعضا - فقالوا لبنى سهم . . ثم تمضى القصة كما رواها السهيلى ، إلى قوله : فربطوه إلى صخرة بالحجون . انظر ص ١٧٩ وما بعدها ج ٤ أمالى المرتضى تعليق الشنقيطى ط ١٣٢٥ هـ . والسفافير معان عدة فهى : جمع سفسير بكسر السين الأولى والآخرة وسكون الفاء . وهو التابع أو الذى يقوم على الناقة ، أو الإبل ليصلح من شأنها ، والعبقرى والحاذق بصناعته والقهرمان ، والسمسار ، وهذه هى المقصودة هنا .

(٢) فى الأصل : الحجول وهو خطأ .



. . . .

أو ابنُه مَعْدِى كربُ بن سيف ملك اليمن(١) لعبد المطلب حين وَفَد عليه رَكْبٌ من قُرَيْشٍ : مَرْحَباً بابن أُخْتِنا ، لأن سَلْمَى من الخزرج ، وهُمْ من اليمن من سبأ ، وسَيْفٌ من حِمْيَر بن سبأ ، ثم قال له : مَرْحَباً وأَهْلا ، ونَاقَةً وَرَحْلا ، ومَلِكاً سِبَحْلا ، يُعْطِى عَطَاءً جَزْلا(٢) . ثم بشره بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنَّه مِنْ وَلَده(٣) ، فقال له عبدُ المطلب : مثلُك أيها الملك سِرٌّ وبِرٌّ ، ثم أجزل الملكُ حِبَاءَه ، وفَضَّله على أصحابه ، وانصرف مَغْبُوطا على ما أعطاه الملك ، فقال : والله لمَا بَشَّرنى به أَحَبُّ إلىّ من كل ما أعطانى . فى خبر فيه طول .

نسب أحيحة :

وذكر نسب أُحَيْحَة بن الْجُلاح بن الْحَرِيشِ بن جَحْجَبَى(٤) ،

(١) فى الطبرى عن سيفان بن معد يكرب : من الناس من يقول : إنه سيف بن ذى يزن . ص ١٥٣ ج ٢ .

(٢) نسب القالى فى أماليه هذا إلى عبد المطلب ، وهو خطأ صوبه البكرى فى التنبيه ص ١١٤ . فهو ـ كما ذكر السهيلى ـ قول سيف لعبد المطلب وسبحل : بكسر ففتح فسكون ، أو سبحلل مثل : سفرجل ، وسحبل بفتح السين وإسكان الحاء المتقدمة على الباء : الضخم . وروى ملكا ربحلا ـ بكسر الراء وفتح الباء وسكون الحاء ، وهى مثل: سبحل فى المعنى . والربحلة : العظيمة الجيدة الخلق ـ بفتح الخاء ـ فى طول . ويريد هنا : ملكا عظيما . وبعد « جزلا » قول سيف : « قد سمعنا مقالتكم ، وعرفنا قرابتكم ، فلكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا رجعتم » انظر ج ٢ ص ٢١٨ الأمالى ط٢ والتنبيه للبكرى ص ١١٤ .

(٣) هذا من الغلو الذى لا يحتاج إليه مقام النبى «ص» الذى لم يكن يعرف هو « ص » ولا أحد من أهله أنه هو النبى المبشر به فى كتب أهل الكتاب .

(٤) فى الروض : جحجبى ، والتصويب من كتب النسب .



. . . .

وقال ابن هشام : هو الحَرِيسُ يعنى . بالسين المُهْمَلة ـ وقال الدَّارَقُطنى عن الزبير بن أبى بكر : أن كلَّ ما فى الأنصارِ فهو : حَرِيس بالسين غير مُعْجَمة إلا هذا ، ووجدت فى حاشيةِ كتابِ أبى بحرٍ ـ رحمه اللهُ ـ صوابَ هذ الاسم يعنى فى نسب أُحَيْحَة بن الجُلاحِ بن الحُرِيش بالشين المعجمة على لفظ الحُرِيش ابن كَعْب البطنِ الذى فى عامر بن صَعْصَعَة(١)

فصل : وأنشد لمطرود بن كعب :

يا ليلةً هَيَّجْتِ لَيْلاَتِي إحدى ليالىَّ القَسِيَّاتِ

أى : أنت إحدى ليالىَّ القَسِيَّاتِ . فَعِيلات من القَسْوَة، أى: لالينَ عندهن، ولا رَأفة فيهن، ويجوز أن يكون عندهم من الدرهم القَسِىِّ ، وهو الزائف ، وقد قيل فى الدرهم القَسِىِّ : إنه أعْجَمىٌ مُعَرَّب ، وقيل : هو من القَسَاوة لأنَّ الدرهمَ الطَّيِّبَ ألينُ من الزائفِ(٢) ، والزائفُ أصْلَبُ منه . ونصب ليلةً على التمييز كذلك ، قال سِيبَوَيْه فى قول الصَّلَتَان(٣) العَبدِىِّ .

---

(١) فى الاشتقاق : الحريش بالشين بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

(٢) فى اللسان : عام قسى ـ بفتح فكسر مع تضعيف الياء ـ شديد ذو قحط لا مطر فيه ، وعشية قسية : باردة . والقسية : الشديدة ، ويوم قسىٌّ مثال شقى : شديد من حرب أو شر . ودرهم قسىٌّ : جمع قسيان مثل صبى : وقيل درهم قسى : ضرب من الزيف ، أى فضة صلبة رديئة ليست بلينة ، وكل هذا يؤكد أنه استعمال عربى .

(٣) الصلتان: لقب ، وأصل الصلتان: النشيط الحديد الفؤاد من الخيل، أو المضاء فى الأمور، وهو: قثم بن خبيئة ـ كما نقل ابن قتيبة ـ أو خبية، وقال الآمدى عن أبى =



. . . .

أيا شاعرا لا شاعرَ اليومَ مِثْلُه

=عبيدة : قُثَمَ بن خُثَيْم ، وهو أحد بنى محارب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيز ابن أفصَى بن عبدالقيس . والبيت من قصيدة أوردها المبرد فى كتابه الاعتنان ، والقالى فى أماليه ، وابن قتيبة فى كتاب الشعراء ، وتتمة البيت :

جرير ، ولكن فى كليب تواضُعُ

وقد نظم الصلتان هذه القصيدة ـ وعدتها ثلاثة وعشرون ـ حينما جعلوا إليه الحكم بين الفرزدق وجرير ، أيهما أشعر ، وأولها :

أنا الصَّلتانىُّ الذى قد علمتم   متى ما يحكم فهو بالحق صادع

وفى الأمالى : «فيا شاعرا لاشاعر اليوم مثله» ص ١٤٢ ج ٢ الأمالى ومن القصيدة :

أرى الخَطَفَى بذ الفرزدق شعرُه   ولكن خيرا من كليب مجاشع
فيا شاعرا لا شاعر اليوم مثله   جرير. ولكن فى كليب تواضع

فرضى الفرزدق حين شرفه عليه، وقومه على قومه، وقال: إنما الشعر مروءة، من لامروءة له ، وهو أخس حظ الشريف ، وأما جرير ، فغضب من المنزلة التى أنزله إياها فهجاه . والبيت المذكور فى اللسان ص ٢٠٨ ج ٢ ، وانظر ص ٢٩ ج ٢ خزانة الأدب ط دار العصور ، وإليك بعض ما قيل فيه : قال الأعلم الشاهد فيه على مذهب الخليل وسيبويه : نصب شاعرا بإضمار فعل على معنى الاختصاص والتعجب ، والمنادى محذوف ، والمعنى : يا هؤلاء أو يا قوم ، عليكم شاعرا ، أو حسبكم به شاعرا ، وقال النحاس : كأنه قال : يا قائل الشعر عليك شاعرا ، وإنما امتنع عنده أن يكون منادى ، لأنه نكرة يدخل فيه كل شاعر بالحضرة ، وهو إنما قصد شاعرا بعينه ، وهو جرير ، وكان ينبغى أن يبنيه على الضم على ما يجرى عليه المخصوص بالنداء . أما أحمد بن يحيى ، فذكر أن شاعرا منصوب بالنداء وفيه معنى التعجب ، وقال: إن العرب تنادى بالمدح والذم ، وتنصب بالنداء ، فيقولون : يا رجلا لم أر مثله ، وكذا يا طيبتك من ليلة ، وكذا شاعرا ، وفى

. . . .

وذلك أن فى الـكلام معنى التعجب .

وقوله : وَمَيْت بِغَزَّاتِ . هى : غَزَّةُ ، ولـكنهم يجعلون لـكل ناحية أو لـكل رَبَض(١) من البلدة اسمَ البلدةِ، فيقولون : غَزَّات فى غَزَّة ، ويقولون فى بغداد : بَغادِين ، كما قال بعضُ الْمُحْدَثين :

شَرِبنَا فى بغَادِين على تلك الْمَيادِين

ولهذا نظائر ستمر فى الـكتاب ـ إن شاء اللهُ ـ ومن هذا البابِ : حكمهم للبعضِ بحكم الْـكُلِّ ، كما سَمَّوْهُ باسمه ، نحو قولهم : شَرِقَتْ صَدْرُ

= الخزانة أيضا : أن المنادى محذوف ، وأن شاعرا ليس بمنادى ، لأنه مقصود إلى واحد بعينه ، والمحذوف يجوز أن يكون هو الشاعر ، ويجوز أن يكون غيره ، فكأنه قال لمن بحضرته : يا هذا حسبك به شاعرا على المدح والتعجب منه ، ثم بين أنه جرير ، ويشبه هذا الإضمار بقولهم : نعم رجلا زيدٌ ، ويجوزأن يكون حسبك بهعلى شريطةالتفسير،وبهفى موضع اسم مرفوع لابد منه ، ويجوز أن يكون الهاء للشاعر الذى جرى ذكره ، ثم وكده بقوله : جرير ، أى :هو جرير . وتقديرالخليل ويونس: يا قائل الشعر، علىأن قائلالشعرغير الشاعرالمذكور ،كأنه قال : يا شعراء عليكم شاعرا لا شاعر اليوم مثله ، أى حسبكم به شاعرا ، فهذا ظاهر كلام سيبويه . ويجوز أن يكون يا قائل الشعر المحذوف هو الشاعر المذكور ، وينتصب شاعرا على الحال ، ولا شاعر اليوم فى موضع النعت ، واحتاج إلى إضمار قائل الشعر ونحوه ، حتى يكون المنادى معرفة ،كأنه قال : يا قائل الشعر فى حال ما هو شاعر لا شاعر مثله .

(١) ربض المدينة : ماحولها . وفى الروض «ميت بغزات» ولكن فىالسيرة «ميت بين غزات» .



. . . .

القناةِ من الدَّم ، وذهبتْ بعض أصابعه(١) ، وتواضعت سورُ المدينة . وقد تركبت على هذا الأصلِ مسئلةٌ من الفقه : قال الفقهاء ، أو أكثرهم : مَنْ حلف ألّا يأكلَ هذا الرغيف ، فأكلَ بعضَه ، فقد حَنِثَ ، فحكموا للبعضِ بحكم الكل ، وأطلقوا عليه اسمَه . وفيه :

إن الْمُغِيراتِ وأبناءَها ... مِنْ خير أحياء وأمواتِ(٢)

فالمُغَيراتُ : بنو المغيرة ، وهو عبدمناف ، كما قالوا : المناذرة فى بنى الْمُنْذِر ، والأشْعَرُون فى بنى أشْعَر بن أُدَد ، كما قال عَلِيُّ بن عبدِالله بن عباس فى ابن الزبير : آثَرَ عَلَيَّ الْحُمَيْدَاتِ والتُّوَيْتَاتِ والأُسَامَاتِ ، يعنى : بنى حُمَيْد ، وبنى تُوَيْت ، وبنى أسامة ، وهم من بنى أسد بن عبد العُزَّى(٣) .

---

(١) يقول الأعشى :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته ... كما شرقت صدر القناة من الدم

وأصل الصدر مذكر ، وأنث هنا ، إما لأنه أراد القناة ، أو لأن صدر القناة قناة ، أو لأن صدر القناة منها كقولهم : ذهبت بعض أصابعه ، لأنهم يؤنثون الاسم المضاف إلى المؤنث « اللسان » ونص تعبير سيبويه فى الكتاب : « وربما قالوا فى بعض الكلام : « ذهبت بعض أصابعه » ، وإنما أنث البعض ، لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه : لأنه لو قال : ذهبت عبد أمك لم يحسن » ثم استشهد ببيت الأعشى ، ثم قال : « لأن صدر القناة من مؤنث ، ومثله قول جرير » فى ص ٢٥ ج ١ من كتاب سيبويه »

إذا بعض السنين تعرقتنا ... كفى الأيتام فقد أبى اليتيم

(٢) فى الروض : « وأبناؤها » ، والصواب ما أثبته من السيرة .

(٣) هم حميد بن أسامة بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصى وتويت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وأسامة بن زهير بن الحارث =



وكان اسمُ عبد مناف : الْمُغِيرَةَ ، وكان أوَّلَ بنى عبد مناف هُلْكا : هاشمٌ ، بِغَزَّةَ من أرض الشام ، ثم عبدُ شمس بمكة ، ثم المطلب بِرَدْمان من أرض اليمن ، ثم نَوْفلاً بسَلْمان من ناحية العراق .

فقيل لمطرود – فيما يزعمون – : لقد قلتَ فأحسنت ، ولو كان أجمل مما قلتَ كان أحسن ، فقال : أنظِرنى ليالى ، فمكث أياما ، ثم قال :

ياعين جُودِى، وأذْرِى الدمعَ وانهمرى	وابكى على السِّرِّ من كَعْب الْمُغِيراتِ
ياعين ، واسْحَنْفِرى بالدمع واحتفلى	وابكى خبيئةَ نفسى فى الْمُلِمَّات
وابكى على كلِّ فيَّاض أخى ثِقَةٍ	ضَخْمِ الدَّسِيعِ وهَّابِ الْجَزِيلات
مَحْضِ الضَّرِيبةِ ، عالى الْهَمِّ ، مُخْتَلَقٍ	جَلْدِ النَّحِيزة ، ناء بالعظيمات
صَعْب البديهة لا نِكْس ولا وَكَلٌ	ماضى العزيمة ، مِتْلاف الكريمات
صَقْرٍ توسَّط من كَعْب إذا نُسِبوا	بُحْبُوحَةَ الْمَجْد والشُّمَّ الرفيعات
ثم اندُبى الفيضَ والفيَّاض مُطَّلبا	واسْتَخْرطى بعد فَيْضاتٍ بِجَمَّات

وفيه « شرقى البَنِيَّات » يعنى : البَنِيَّة ، وهى : الكعبة ، وهو نحو مما تقدم فى غزَّات .

= بن أسد بن عبد العزى بن قصى . والأشعرون فى اللسان : نسبة إلى أشعر بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وتقول العرب : جاء بك الأشعرون بحذف ياء النسب .



أمسَى برَدْمان عنَّا اليومَ مُغتربا   يا لَهفَ نَفسى عليه بين أمْوات
وابكى -لكِ الويْلُ- إمَّا كنتِ باكية   لِعبْد شَمْس بِشَرْقِ البَنِيَّات
وهاشم فى ضَريحٍ وَسْطَ بَلقَعةٍ   تَسْفى الرياحُ عليه بين غَزَّات
ونوفل كان دون القوم خالِصتى   أمسَى بسَلْمان فى رَمْس بمَوْماة
لم ألْقَ مثلَهُمُ عُجْما ولا عَرَبًا   إذا استقلَّت بهم أُدْم المَطِيَّات
أمْسَتْ ديارُهُم منهم مُعَطَّلة   وقد يكونون زَيْنا فى السَّريَّات
أفناهُمُ الدَّهرُ، أم كلَّت سيوفُهُمُ   أم كلُّ مَنْ عاش أزوادُ المَنيَّات
أصْبحتُ أرضى من الأقوام بعدَهُم   بَسْطَ الوجوه وإلقاء التحيَّات
يا عينُ فابكى أبا الشُّعثِ الشَّجيَّات   يَبْكينه حُسَّرا مثل البَلِيَّات
يبكين أكرمَ مَنْ يَمشى على قَدَم   يُعْوِلْنه بدُموع بعد عَبرات
يبكين شخصًا طويلَ الباع ذا فَجَرٍ   آبى الهَضِيمة، فراج الجليلات
يبكينَ عَمرو العُلا إذ حان مَصرعُه   سَمْحَ السَّجِيَّة، بسَّامَ العَشِيَّات
يبكينه مُستكينات على حَزَن   يا طولَ ذلك مِنْ حزن وعَوْلات
يبكين لمَّا جلاهنّ الزَّمانُ له   خُضْر الخدود كأمثال الحَمِيَّات
مُحتزمات على أوساطِهِنّ لِما   جرّ الزّمان مِنَ احداث المُصيبات
أبيتُ لَيلى أُراعى النَّجم من ألمٍ   أبكى، وتبكى معى شَجْوِى بُنيَّاتى
ما فى القُروم لهم عِدْل ولا خَطَر   ولا لمن تركوا شَرْوى بَقيَّات
أبناؤهم خيرُ أبناء، وأنفُسهم   خيرُ النُّفوس لدى جَهْد الأَلِيَّات
كم وَهبوا من طِمِرٍّ سابحٍ أرِنٍ   ومن طِمِرَّةِ نَهْبٍ فى طِمِرَّات

ومن سُيوف من الهِنْدىّ مُخلَصَةٍ ... ومِنْ رِماحٍ كأشطان الرّكيّات

ومن توابع ممّا يفضِلون بها ... عِندَ المسائل مِنْ بَذْل العطيّات

فلو حَسَبْتُ وأحْصَى الحاسبون معى ... لم أقضِ أفعالَهم تلك الهَنِيّات

همُ المُدِلُّونَ إمّا مَعْشَر فَخَروا ... عند الفَخَارِ بأنسابٍ نَقيّات

زَيْنُ البيوت التى خَلوا مساكنَها ... فأصبحتْ منهمُ وحْشا خَلِيّات

أقولُ والعينُ لا ترقا مدامعُها ... : لا يُبْعد اللهُ أصحابَ الرّزِيّات

قال ابن هشام : الفَجَرَ : العطاء . قال أبو خِراش الهُذَلىّ :

عَجّف أضيافى جميلُ بنُ معمر ... بذى فَجَر تأوى إليه الأراملُ

قال ابن إسحاق : أبو الشُّعث الشَّجيَّات : هاشم بن عبد مناف .

قال : ثم وَلِىَ عبدُ المطلب بن هاشم السِّقايةَ والرِّفادة بعد عمّه المطَّلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يُقيمون قبلَه لقومهم من أمرهم، وشَرُف فى قومه شرفا لم يَبْلُغه أحدٌ من آبائه، وأحبَّه قومُه وعظم خَطَرُه فيهم .

ذكر حفر زمزم وما جرى من الخلف فيها

ثم إنّ عبد المطلب بينما هو نائم فى الحِجْر إذ أُتى، فأُمِر بحفر زمزم .

قال ابن إسحاق : وكان أوّل ما ابتدىء به عبدُ المطلب من حَفْرها، كما حدثنى يَزيد بن أبى حبيب المصرى عن مَرْثَد بن عبد الله اليَزَنىّ عن

عبد الله بن زُرَيْر الغافقى : أنه سَمِع علىَّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يحدّث حديث زمزم حين أُمِرَ عبدُ المطلب بحَفْرها ، قال :

قال عبدُ المطلب : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آتٍ فقال : احفِر طِيبةَ . قال : قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عنى . فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى فنِمْت فيه ، فجاءنى فقال : احفِر بَرّة . قال : فقلت: وما برّة؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعتُ إلى مَضْجعى ، فنِمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر الْمَضنونة قال : فقلت : وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عنى . فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعى ، فنِمْت فيه ، فجاءنى فقال : احْفِرْ زمزم . قال : قلت : وما زمزم ؟ قال لا تَنْزِف أبداً ولا تُذَمّ ، تسقى الحجيجَ الأعظم ، وهى بين الفَرْث والدم ، عند نُقْرة الغراب الأعْصم ، عند قَرْية النَّمل .

قال ابن إسحاق : فلماَّ بُيِّن له شأنها ، ودُلّ على موضعها ، وعَرَف أنه قد صُدِق ، غَدَا بِمِعْوله ومعه ابنهُ الحارث بن عبد المطلب ، ليس له يومئذ ولدٌ غيرَه فحَفَرَ فيها . فلما بدا لعبد المطلب الطَّىُّ ، كَبَّرَ ، فعرفت قريشٌ أنه قد أدركَ حاجتَه ، فقاموا إليه ، فقالوا : يا عبدَالمطلب ، إنها بئرُ أبينا إسماعيل، وإن لنا فيهاحقا فأشرِكْنا معكفيها . قال : ما أنا بفاعل، إن هذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دونكم ، وأُعْطيته من بينكم ، فقالوا له : فأنصفنا ، فإنا غيرُ تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بينى وبينكم مَن شئتم أُحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سَعْد هُذَيْمٍ ، قال : نعم ، قال : وكانت بأشراف الشام ، فركب عبدُ المطلب ومعه نَفَر من بنى أبيه من بنى عبدمناف ، وركب من كلّ قبيلةمن

قريش نَفَر . قال : والأرضُ إذ ذاك مَفَاوز . قال : فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المَفَاوز بين الحجاز والشام ، فَنِي ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهَلَكَة ، فاستَسْقَوْا مَنْ معهم منْ قبائل قُرَيش ، فأبَوْا عليهم ، وقالوا : إنا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم ، فلما رأى عبدالمطلب ماصنع القومُ ، ومايتخوَّف على نفسه وأصحابه،قال : ماذا تَرَوْن ؟ قالوا : مارأيُنا إلا تَبَعٌ لرأيك ، فمُرنا بما شئت ،قال : فإنى أرى أن يحفِر كلُّ رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوّة - فكلّما مات رجل دفعه أصحابُه فى حُفْرته ثم وارَوْه - حتى يكون آخركم رجلاً واحدا ، فضَيْعة رجل واحد أيسر من ضَيْعة ركب جميعا ، قالوا : نِعْم ما أمرت به . فقام كلّ واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا ، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لانضرب فى الأرض، ولانبتغى لأنفسنا ، لَعَجْز ، فعسى الله أن يَرْزقنا ماء ببعض البلاد ، ارْتحِلُوا ، فارتحلوا حتى إذا فَرَغُوا ، ومَنْ معهم من قبائل قُرَيش ينظرون إليهم ماهم فاعلون ، تقدّم عبد المطّلب إلى راحلته فركبها . فلما انبعثت به ، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب ، وكبَّر أصحابه ، ثم نزل فشَرب ، وشَرِب أصحابُهُ ، واسْتَقَوْا حتى ملئوا أسْقِيَتَهم ، ثم دعا القبائل من قُرَيش ، فقال : هَلُمّ إلى الماء ، فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقُوا ، فجاءوا ، فشَرِبوا واسْتَقَوْا . ثم قالوا : قد - والله - قُضِى لك علينا يا عبد المطّلِب ، والله لانخاصمك فى زَمْزم أبدا ، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفَلاة لهو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً . فرجع

. . . .



ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلّوا بينه وبينها .

قال ابن إسحاق : فهذا الذى بلغنى من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى زمزم ، وقد سمعتُ من يُحدّث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أُمِر بحَفْر زَمزم :

ثم ادْعُ بالماء الرَّوِىِّ غير الكَدِرْ   يَسْقِى حجيجَ الله فى كل مَبَرّ
ليس يُخاف منه شىء ما عَمَرْ

فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش فقال : تعلّموا أنى قد أُمِرْت أن أحْفِرَ لكم زمزم ، فقالوا : فهل بُيِّن لك أين هى ؟ قال : لا . قالوا فارجع إلى مَضجَعك الذى رأيتَ فيه ما رأيتَ ، فإن يك حقاً من الله يُبيَّن لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك . فرجع عبدُ المطَّلب إلى مَضجعه ، فنام فيه ، فأُتى فقيل له : احْفِر زمزم ، إنك إن حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تَنْزِفُ أبداً ولا تُذَمّ ، تسقى الحجيجَ الأعظم ، مثل نعام جافل لم يُقْسَم ، يَنذِر فيها ناذرٌ لِمُنْعِم ، تكون ميراثا وعَقْداً محكم ، ليستْ كبعض ما قد تعلم ، وهى بين الفَرْث والدم .

قال ابن هشام : هذا الكلام ، والكلام الذى قبله ، من حديث علىّ فى حفر زمزم من قوله : « لا تُنْزَفُ أبداً ولا تُذَمّ » إلى قوله : « عند قرية النمل » عندنا سجع وليس شعراً .

قال ابن إسحاق : فزعموا أنه حين قيل له ذلك ، قال : وأين هى ؟ قيل له



عند قرية النمل ، حيث ينقُر الغراب غدا . والله أعلم أىّ ذلك كان .

فغدا عبدالمطلب ومعه ابنهُ الحارث، وليس له يومئذ ولدٌ غيره ، فوجدقرية النمل ، ووجد الغراب ينقُر عندها بين الوثنَيْن : إساف ونائلة ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها . فجاء بالمِعْوَلِ وقام ليحفِرَ حيث أُمِر ، فقامت إليه قريش حين رأوا جِدّه ، فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثَنَيْنا هذين اللذين ننحر عندهما ، فقال عبدُ المطلب لابنه الحارث : ذُدْ عنى حتى أحفِرَ ، فوالله لأمضينّ لمَا أُمرت به . فلما عرفوا أنه غيرُ نازع خلّوا بينه وبين الحَفْر ، وكفُّوا عنه ، فلم يَحْفِرَ إلا يسيرا ، حتى بدا له الطَّىُّ ، فكَبَّر وعرف أنه قدصُدِق فلما تمادى به الحفرُ وجد فيهاغزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دَفنت جُرْهُم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافا قَلْعِيَّة وأدراعا فقالت له قريش يا عبدَ المطلب ، لنا معك فى هذا شِرْك وحقّ ، قال : لا ، ولكن هَلُمّ إلى أمرٍ نَصَفٍ بينى وبينكم ، نضرب عليها بالقِداح ، قالوا : وكيف تصنع ؟ قال : أجعل للكعبة قِدْحين ، ولى قِدْحين ، ولكم قِدْحين ، فمن خرج له قِدْحاه على شىء كان له ، ومن تخلّف قِدْحاه فلا شىء له قالوا : أنصفتَ ، فجعل قِدْحين أصفرين للكعبة ، وقِدْحين أسودين لعبد المطلب ، وقِدْحين أبيضَين لقريش ، ثم أعطوا صاحبَ القِداح الذى يضرب بها عند هُبَل — وهُبَل : صنم فى جوف الكعبة ، وهو أعظم أصنامهم ، وهو الذى يَعْنى أبو سفيان بنُ حَرْب يوم أحُدٍ حين قال : أعْلِ هُبَل أى : أظهر دينك — وقام عبدُ المطلب يدعو الله عزّ وجلّ ، فضرب صاحبُ القِداح ، فخرج الأصفران على الغزالَيْن

للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف ، والأدراعُ لعبد المطلب ، وتخلّف قِدْحا قُرَيش . فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب ، فكان أوّلَ ذهب حُلِّيَتْه الكعبة — فيما يزعمون — ثم إن عبدَ المُطّلب أقام سِقاية زمزم للحجّاج .

ذكر بئار قبائل قريش بمكة

قال ابن هشام : وكانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بِئاراً بمكة ، فيما حدثنا زياد بنُ عبد الله البكّائى عن محمد بن إسحاق ، قال :

حفَر عبدُ شمس بن عبد مناف الطَّوِىَّ ، وهى البئر التى بأعلى مكة عند البَيْضاء ، دار محمّد بن يوسف .

وحفَر هاشم بن عبد مناف بَذَّر ، وهى البئر التى عند المُسْتَنْذَرِ ، خَطْم الخَنْدَمَة على فم شِعْبِ أبى طالب ، وزعموا أنه قال حين حفرَها : لأجعلنَّها بلاغا للناس .

قال ابن هشام : وقال الشاعر .

سقى اللهُ أمْواها عرفتُ مكانَها ‍ ‍ ‍ ‍ جُرابا وَمَلْكُوما وَبَذَّرَ والغمْرا

قال ابن إسحاق : وحفر سَجْلَة ، وهى بئر المُطْعِم بن عَدِىّ بن نَوْفل بن عَبْد مَناف التى يَسْقُون عليها اليوم . ويزعُم بنو نوفل أنّ المُطْعِم ابتاعها من أَسَد بن هاشم ، ويزعُم بنو هاشم أنه وَهَبها له حين ظهرت زمزم ، فاستَغْنَوْا بها عن تلك الآبار .



وحفر أميَّةُ بنُ عبد شمس الحَفْرَ لنفسه ،وحفرت بنو أسَد بن عبد العُزَّى: سُقَيَّة ، وهى بئر بنى أسَد . وحفرت بنو عبد الدار : أمّ أحْرَاد . وحفرت بنو جُمَح: السُّنْبُلَة ، وهى بئر خَلَف بن وَهْب . وحفرت بنو سَهْم: الغَمْرَ ،وهى بئر بنى سَهْم ، وكانت آبار حفائر خارجا من مكَّة قديمة من عهد مُرَّة بن كَعْب ، وكِلاب بن مُرّة ، وكُبَراء قريش الأوائل منها يَشْربون ، وهى رُمّ ، ورُمّ : بئر مُرّة بن كَعْب بن لؤىّ . وخُمّ ، وخُمّ: بئر بنى كِلاب بن مُرّة ، والحَفْرُ . قال حُذَيفَة بن غانم أخو بنى عَدىّ بن كَعْب بن لُؤَىّ :

قال ابن هشام : وهو أبو أبى جَهْم بن حُذَيفة :

وقِدْما غنِينا قبل ذلك حِقْبَةً ولا نَسْتقى إلا بخُمّ أو الحَفْرِ

قال ابن هشام : وهذا البيتُ فى قصيدة له ، سأذكرها إن شاء الله فى موضعها .

قال ابن إسحاق : فعفَّت زمزم على البِئار التى كانت قبلها يَسْقى عليها الحاج وانصرف الناسُ إليها لمكانها من المسجد الحرام ؛ ولفضلها على ماسواها من المياه ؛ ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وافتخرتْ بها بنو عبد مناف على قُرَيش كلِّها ، وعلى سائر العرب ، فقال مُسافِر بن أبى عَمْرو ابن أمية بن عبد شمس بن عَبْد مناف ، وهو يَفْخر على قريش بما وَلُوا عليهم من السِّقاية والرِّفادة ، وما أقاموا للناس من ذلك ، وبِزَمْزَمَ حين ظَهرتْ لهم ، وإنما كان بنو عَبْد مناف أهلَ بيت واحد ، شَرفُ بعضهم لبعض شرفٌ ، وَفَضْلُ بعضهم لبعض فَضْل .

وَرِثْنا المجْد مِنْ آبا ئِنَا فنمَى بِنا صُعُدَا
أَلَمْ نَسْقِ الحَجيجَ وَنَنْـحَرُ الدِّلَّافَةَ الرُّفُدَا
ونُلفى عندَ تَصْرِيفِ المَـنايا شُـدَّدًا رُفُدَا
فإنْ نَهلِكْ، فلم نُملَكْ وَمَنْ ذَا خالِدٌ أَبدا
وزَمْزَم في أَرُومتِنا ونفقأُ عَيْنَ مَنْ جَسدَ

قال ابن هشام: وهذه الأبيات في قصيدة له.

قال ابن إسحاق: وقال حُذَيفة بن غانم أخو بنى عَدِىّ بن كَعْب ابن لؤىّ.

وساقي الحَجيج، ثم للخُبْز هاشم وعبد مناف ذلك السيِّد الفِهْرى
طَوَى زمزَماعند المقام، فأصبحتْ سقايتُه فَخْراً على كلّ ذى فَخْرِ

قال ابن هشام: يعنى عَبْدَ المطَّلب بن هاشم. وهذان البيتان في قصيدة لحُذَيفة بن غانم سأذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

وأنشد له في القصيدة التاوية: محض الضريبة، عالى الهم مُخْتَلَق: أى عظيم الخلق: جَلْد النَّحيزة ناء بالعظيمات. ليس قوله: ناء من النأْى، فتكون الهمزةُ فيه عينَ الفعل، وإنما هو من ناء يَنُوء إذا نهض (١) فالهمزة فيه لام الفعل، كما هو في جاء عند الخليل، فإنه عنده مقلوب، ووزنه: فالع، والياء التى بعد الهمزة هى: عين الفعل في جاء يجىء.

---

(١) ناء بالحمل نهض به مثقلا، وناء به الحمل إذا أثقله.

. . . .

وفيه الشُّعث الشَّجِيَّات . فشدد ياء الشجىّ ، وإن كان أهل اللغة قد قالوا: ياء الشَّجِى مخففة ، وياء الخلىّ مشددة ، وقد اعترض ابن قتيبة على أبى تمام الطائى فى قوله :

أياويح الشَّجِىِّ منَ الخلِىِّ   وَوَيْح الدمع من إحدى بَلِىّ

واحتج بقول يعقوب فى ذلك ، فقال له الطائى : ومن أفصح عندك : ابن الُجْر مُقانيَّة يعقوب ، أم أبو الأسود الدُّؤلىّ حيث يقول ؟ ! :

وَيلُ الشَّجِىِّ من الخلىِّ فإنه   وَصِبُ الفؤادِ بشَجْوِه مَغْمُومُ

قال المؤلف : وبيت مطرود أقوى فى الحجة من بيت أبى الأسود الدُّؤَلى، لأنه جاهِلى مُحَككٌ ،وأبو الأسود : أول من صنع النحو ، فشعرُه قريب من التوليد، ولا يمتنع فى القياس أيضاً أن يقال: شَجِىٍّ وشَجٍ ، لأنه فى معنى: حَزِنٌ وحزين ، وقد قيل : من شدّد الياء ، فهو فعيل بمعنى مفعول(١) .

---

(١) رجل شج أى : حزين وامرأة شجية — بكسر الجيم وفتح الياء من دون تضعيف — وفى مثل للعرب :ويل للشجى من الخلى ، دون تشديد ياء إحداهما ، وقد تشدد ياء الشجىّ ، والأول أعرف . وحكى الجوهرى عن المبرد أنه شدد ياء الخلى وخفف ياء الشجى . قال: وقد شدد فى الشعر :

نام الخَلِيُّون عن ليل الشجيينا

فإن جعلنا الشجىَّ فعيلاً من شجاه الحزن ، فهو: مشجوٌّ وشجىٌّ بالتشديد لاغير ، وحكى ابن برى أن الصـــواب هو التشديد فى ياء الشجى ، وأما الشجى بالتخفيف فهو الذى أصابه الشجى،وهو الغصص،وأما الحزين فهو الشجىّ =



. . . .

وفيه بعد قوله : أبا الشعث الشَّجِيَّاتِ . يبكينه حُسَّراً مثل الْبَلِيَّات .
الْبَلِيَّةُ : الناقة التى كانت تُعْقَل عند قبر صاحبها إذا مات ، حتى تموت

= بتشديد الياء . قال : ولو كان المثل: ويل الشجى بتخفيف الياء، لكان ينبغى أن يقال : ويل الشجى من المسيغ ؛ لأن الإساغة ضد الشجا، كما أن الفرح ضد الحزن ثم قال ابن برى : فلهذا تنظر إلى توجيهه من ناحية القياس — وقد ثبت من جهة السماع تشديد الياء — ثم قال : ووجهه أن يكون الشجى من شجوته أشجوه ، فهو : مشجو وشجىٌّ ، مثل : مجروح وجريح .وأما شجٍ بالتخفيف فهو اسم الفاعل من شجى يشجى - بكسر الجيم فى الماضى وفتحها فى المضارع - فهو شجٍ . وقال أبو زيد : الشجى : المشغول، والخلى: الفارغ ،وقال ابن السكيت : الشجى مقصور والخلى ممدود . وفى التهذيب عن الشجى: أنه الذى شجى بعظم غصّ به حلقه ، يقال : شجى يشجى شجى، فهو شج ، وكذلك الذى شجى بالهم فلم يجد مخرجا منه.. قال الأزهرى: وهذا هو الكلام الفصيح . . ثم قال: فإن تجامل إنسان، ومد الشجى فله مخارج من جهة العربية تسوغ له مذهبه ، وهو أن تجعل الشجى بمعنى المشجوّ. فعيلا من شجاه يشجوه، والوجه الثانى: أن العرب تمد فعلا بياء . فتقول : فلان قمن لكذا وقمين ، وسمج وسميج ، وفلان كر للنائم وكرى . وقيل : إن مذهب العرب توازن اللفظ كما وازنت الغدايا بالعشايا . وجمع الغداة غدوات . ومثل ماساءه وناءه . والأصل أناه . وكذلك وازنوا : الشجى بتشديد الياء بالخلى . ومعناه : ويل المهموم من الفارغ، وعن ثعلب فى الفصيح: ويل للشجى من الخلىّ بتشديد الياءين . وأنشد البيت الذى فى الروض . والشطرة الثانية من البيت،ويل الشجى، وردت مرة فى اللسان : «نصب الفؤاد لشجوه مغموم» ، وأخرى: «بحزنه مغموم » ، وانظر ص ٢٧٢ أدب الكاتب وقول السهيلى : «وبيت مطرود أقوى» يعنى البيت الذى يشرحه: «ياعين فابكى أبا الشعث الشجيات» والجرمقانى — بضم الجيم وسكون الراء وضم الميم وفتح القاف وتضعيف الياء — واحد الجرامقة، وهم أنباط الشام ، أو هم قوم بالموصل أصلهم من العجم « عن اللسان » .

. . . .

جوعا وعطشا ، ويقولون : إنه يُحشر راكبا عليها ، ومن لم يُفعل معه هذا حُشِر راجلا ، وهذا على مذهب من كان منهم يقول بالبعث ، وهم الأقل ، ومنهم زُهَيْرٌ ، فإنه قال :

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ فى كتابٍ فيُدَّخَرْ ليوم الحسابِ ، أو يُعجَّل فَيَنْقَمِ

وقال الشاعر فى الْبَلِيَّةِ :

والْبَلايا رُءوسُها فى الْوَلايا ما نحات السَّمُوم حرَّ الْخدود(١)

والولايا: هى الْبَرَاذِع ، وكانوا يَنْقُبون الْبَرْذَعةَ، فيجعلونها فى عُنُق الْبَلِيَّة ، وهى مَعْقُولَةٌ ، حتى تموت ، وأوصى رجلٌ ابنَه عند الموت بهذا :

لا تَتْرُكَنَّ أباكَ يُحْشَر مرةً عَدْوا يَخِرُّ على اليدين ، ويَنْكُب

فى أبيات ذكرها الخطابى .

وقوله : قياما كالْحِيَّاتِ . أى : مُحترقات الأكبادِ كالبقَر أو الظباء التى حمِيت الماء وهى عاطشة، لْحِمِيَّة بمعنى : مَحْمِيَّة ، لكنها جاءت بالتاء، لأنها أجريت

(١) البيت فى اللسان وأوله :«كالبلايا» وقد نسبه اللسان إلى أبى زبيد، وهو حرملة بن المنذر بن معد يكرب الطائى شاعر جاهلى إسلامى ، وكان نصرانيا وزعم الطبرى أنه مات مسلما ، وفى اسمه خلاف ، ومن قوله :

عُلِّل المرء بالرجاء ويضحى غرضا للمنون نصْب العود

وكانت العرب تنصب عودا تجعله غرضاً ، فيصيبه بعض السهام ، أو يقع قريباً منه ، أو تشعب منه شيئاً . فضرب ذلك مثلا .



. . . .

مجرى الأسماء كالرَّمِيَّةِ والضَّحية والطَّرِيدة[١] وفى معنى الْحَمِى قول رؤبة :
قَواطِنُ مكة من وُرْقِ الْحَمِى [٢] يريد الحمام الْمَحْمِىَّ ، أى : الممنوع .

وقوله : فى رَمْسٍ بِمَوْماة : الأظهرُ فيه أن تكونَ الميم أصلية ، ويكون مما ضوعفت فاؤه وعينه ، وحَمْلُهُ على هذا الأصل أولى لكثرته فى الكلام ، وإن كان أصل الميم أن تكون زائدة ، إذا كانت أولَ الكلمة الرُّباعِيَّة أو الخماسية ، إلا أن يَمنعَ من ذلك اشتقاقٌ ، ولا اشتقاق هُهُنا ، أو يَمْنَعَ من ذلك دخولُه فيما قَلَّ من الكلام نحو : قَلِق وسَلِس . قال أبو على فى الْمَرْمَر : حَمْلُه على باب : قَرْقَر وبَرْبر أولى من حمله على باب : قَلِق وسَلِس ، يريد : إنك إن جعلتَ الميمَ زائدةً كانت فاء الفعل — وهى الراء — مضاعفةً دون عينِ الفعل ، وهى

---

(١) قال سيبويه : لا يجىء هذا الضرب على مفعل — بفتح الميم وكسر العين — إلا وفيه الهاء ، لأنه إن جاء على مفعل بغيرها اعتل ، فعدلوا إلى الأخف .

(٢) ومنه قبله :

ورب هــذا البلد المحــرم
والقاطنات البيت غــير الريم
قواطنـــا مكة من ورق الحمى

« اللسان مادة قطن » وقد استشهد به سيبويه فى كتابه فى باب : « اعلم أنه يجوز فى الشعر ما لا يجوز فى الكلام من صرف مالا ينصرف ، يشبهونه بما ينصرف من الأسماء لأنها أسماء ؛ كما أنها أسماء ، وحذف مالا يحذف ، يشبهونه بما قد حذف ، أو استعمل محذوفا ، كما قال العجاج . أقول : وقواطن منونة منصوبة فى كتاب سيبويه ، وفى اللسان . وروى سيبويه هذه الشطرة مرة أخرى هكذا « أوالفا مكة من ورق الحمى » انظر ص ٨ ، ٥٦ من كتاب سيبويه ط بولاق .



. . . .

الميم ، وإذا جعلت الميمَ الأولى فى مَرْمَر أصلية ، كان(١) من باب ماضوعفت فيه الفاء والعينُ ، وهذا معنى قول سيبويه فى الْمَرْمَرِ : مر ، وهو القياس الْمُسْتَتِبُّ ، والطَّرِيقُ الْمَهْيَعُ دون ما ضوعفت فيه الفاء وحدها ، فتأمله(٢) .

---

(١) فى الأصل وكان .

(٢) يقول المازنى فى كتابه التصريف : « وأما الميم إذا كانت أولا فهى زائدة بمنزلة الهمزة والياء ؛ لأن الميم أولا نظيرة الهمزة » وشرحه ابن جنى بقوله : « لا فصل بين الميم والهمزة إذا وقعتا أولا ، فتى وجب فى الهمزة أن تكون زائدة ووقعت الميم موقعها ، فاقض بزيادتها » ص ١٢٩ المنصف لابن جنى . والموماة بفتح وسكون : المفازة الواسعة الملساء ، وهى جماع أسماء الفلوات . وقال المبرد : يقال لها : البوباة أيضا ، وليس للكلمة اشتقاق . ويقول ابن جنى فى الخصائص : « اعلم أنه متى اجتمع معك فى الأسماء والأفعال حرف أصل ، ومعه حرفان مثلان لاغير ، فهما أصلان ، متصلين كانا أو منفصلين . فالمتصلان نحو : الحفف والصدد . وقلق وسلس ، وكذلك إن كان هناك زائد ، فالحال واحدة نحو حام وسالس . وكذلك كوكب ودودح » ثم يقول : « فأما إذا كان معك أصلان ومعهما حرفان مثلان ، فعلى أضرب منها : أن يكون هناك تكرير على تساوى حال الحرفين ، فإذا كانا كذلك كانت الكلمة كلها أصولا نحو : قلقل وقرقر . فالكلمة إذاً لذلك رباعية . وكذلك إن اتفق الأول والثالث ، واختلف الثانى والرابع . فالمثلان أيضا . أصلان ، وذلك نحو . فرفج وقرقل « نبات الرجلة ، وقميص للنساء » وكذلك إن اتفق الثانى والرابع ، واختلف الأول والثالث نحو : قسطاس وشعلع « الطويل » فالمثلان أيضا أصلان . وكل ذلك أصل رباعى ، وكذلك إن اتفق الأول والرابع واختلف الثانى والثالث ، فالمثلان أصلان ، والكلمة أيضا من بنات الأربعة مثل : قربق « دكان البقال » ، وبلد وراء طرسوس » ، وكذلك إن اتفق الأول والثانى ، واختلف الثالث والرابع ، فالمثلان أصلان ، والكلمة رباعية نحو : زيزفون . ومثاله ، فيعلول . وكذلك أيضا إن حصل معك ثلاثة أحرف أصول ، ومعها =



. . . .

وقوله : طَويلَ الباعِ ذا فَجَرٍ. الْفَجَرُ : الجودُ ، شُبِّه بانفجار الماء . ويُروى ذا فَنَعٍ ، و الْفَنَع : كثرة المال ، وقد قال أبو مِحْجَنٍ الثَّقَفِيّ :

وقد أجودُ وما مالى بذى فَنَعٍ   وأكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبةُ الْعُنُقِ (١)

وقوله : بَسَّام العشيات: يعنى : أنه يضحك للأضيافِ ، ويَبْسِمُ عندلقائهم كما قال الآخر ، وهو حاتم الطائى :

= مثلان غير ملتقيين ، فهما أيضا أصلان . نحو : شفشليق « العجوز المسترخية » ص ٥٦ وما بعدها ، الخصائص ط ٢ ج ٢ ، وانظر شرح الشافية ج ١ ص ٥٩ ، وما بعدها ويقول ابن جنى فى الخصائص أيضا وهو يتكلم عن الأصلين الثلاثى والرباعى المتداخلين ، كقولهم سلس وسلسل ، وقلق وقلقل : « وذهب أبو إسحاق فى نحو قلقل وصلصل وجرجر وقرقر إلى أنه فعل ، وأن الكلمة لذلك ثلاثية ، حتى كأن أبا إسحاق لم يسمع فى هذه اللغة الفاشية المنتشرة : بزغد وزغدب وسبط وسبطر » ثم يقول : « إن تكرير الفاء لم يأت به ثبت إلا فى مرمريس . وحكى غير صاحب الكتاب : مرمريت ، وليس بالبعيد أن تكون التاء بدلا من السين ، كما أبدلت منها فى ست » ص ٥٢ ، ٥٣ ج ٢ ، الخصائص ويقول فى ص ١٢ من المنصف أيضا : « الفاء لم تكرر فى كلام العرب إلا فى حرف واحد ، وهو : مرمريس ، وهى الداهية والشدة ، فتكررت الفاء والعين ، ولا نظير لهذه الكلمة » .

(١) والفنع أيضا : الكرم والجود والفضل الكثير ، ونشر الثناء الحسن ونفحة المسك . . وقد روى أن معاوية — رضى الله عنه — قال لابن أبى محجن الثقفى : أبوك الذى يقول :

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة   تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفــلاة ، فإننى   أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقال ابن أبى محجن : أبى الذى يقول : وذكر البيت . وقد روى عجزه هكذا : وقد أكر وراء المجحر الفرق .



. . . .

أضاحك ضَيْفِى قبل إنزال رَحْلِهِ ويُخْصَبُ(١) عندى، والمَحَلّ جَدِيب
وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يَكْثُر القِرى ولكنما وَجهُ الكريم خَصِيبُ

حديث زمزم

وكانت زَمْزَم - كما تقدم - سُقْيا إسماعيلَ، عليه السلامُ، فجرَّها له رُوحُ القُدُس بعقِبه، وفى تفجيره إيَّاهَا بالعَقِبِ دون أن يُفجرِّها باليدِ أو غيرِه: إشارةٌ إلى أنها لعقِبه وِراثةً، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمته، كما قال سبحانه: (وَجَعَلَها كلِمَةً باقيةً فى عَقِبِه) الزخرف: ٤٣. أى: فى أمَّةِ محمدٍ - عليه السَّلام(٢) - ثم إن زَمْزَم لما أحْدثَت جُرْهُمُ فى الحرَم، واسْتَخَفُّوا بالمناسك والحُرَم، وبَغى بعضُهم على بعضٍ واجْتَرمَ، تَغَوَّرَ ماء زَمْزَم واكْتُتِم، فلما أخرج الله جُرْهُمَ من مكةَ بالأسبابِ التى تقدم ذكرُها عَمَد الحرْثُ بن مَضاض الأصغَرُ إلى ما كان عنده من مالِ الكعبة، وفيه غزالآن من ذهَبٍ وأسيافٍ قَلْعِيَّة(٣) كان ساسانُ مَلِكُ الفُرْسِ قد أهداها إلى الكعبةِ، وقيل: سابورُ، وقد قدمنا أن الأوائلَ من مُلوكِ

(١) من باب علم وضرب.

(٢) قال ابن كثير فى تفسيرها: «هذه الكلمة — وهى عبادة الله وحده لاشريك له، وخلع ماسواه من الأوثان، وهى: لا إله إلا الله، أى جعلها دائمة فى ذريته، يقتدى به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وقال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم: يعنى: لا إله إلا الله لايزال فى ذريته من يقولها، وروى نحوه عن ابن عباس» على أن هناك رواية: أو قال بجناحه.

(٣) نسبة إلى قلعة بفتح فسكون بلد بالهند.

. . . .

الفُرْسِ كانت تحجها إلى عهدِ ساسانَ ، أو سابُورَ ، فلما علم ابن مِضاضٍ أنه مُخْرَجٌ منها ، جاء تحت جُنْحِ الليل حتى دَفن ذلك فى زَمْزَم ، وعَفَّى عليها ، ولم تَزَلْ دَارِسَة عافيا أثَرُها ، حتى آن مولدُ الْمُبَارَكِ الذى كان يُسْتَسْقَى بوجْهِهِ غَيْثُ السماء وتَتَفجَّر من بنانه ينابيعُ الماء ، صاحبِ الْكَوْثرِ والحوضِ الرَّوَاءِ ، فلما آن ظهورُه أذِنَ الله تعالى لِسُقْيَا أبيه أن تظهر ، ولما انْدَفَنَ من مائها أن تُجتَهرَ(٢) ، فكان — صلى الله عليه وسلم — قد سقت الناسَ بَرَكَتُه قبل أن يُولَد وسُقوا بدعوته ، وهو طِفل حين أجْدَبَت البلد ، وذلك حين خرج به جده مُسْتَسْقيًا لقُريش(٣) ، وسيأتى بيان ذلك — فيما بعد إن شاء الله — وسُقِيت الخَلِيقَةُ كلها غُيوثَ السماء فى حياته الْفَيْنَةَ بعد الْفَيْنَةِ ، والْمَرَّة بعد المرة ، وتارة بدعائه ، وتارة من بنانه ، وتارةً بإلقاء سَهْمه ، ثم بعد موته — عليه السلام — اسْتَشْفَعَ عُمَرُ بعمِّه — رضى الله عنهما — عامَ الرَّمَادَةِ(٤) ،

---

(١) ولكن هذا الاستقساء ليس من هدى الإسلام .

(٢) اجتهر البئر : نقاها ، أو نزحها أو بلغ الماء .

(٣) قصة موضوعة وليس الاستسقاء الدينى الحق من هذا الزعم .

(٤) ليس من حب الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن نكذب له ، أو نكذب عليه ، وعظمة الرسول العظيم ليست فى حاجة إلى كذب يساندها ، لأنها قامت على الصدق الجليل الجميل . وصورة الاستسقاء النبوى نهتدى إليها من هذا الحديث : «جاء أعرابى يوم الجمعة . فقال : يارسول الله . هلكت الماشية ، وهلكت العيال ، وهلك الناس ، فرفع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يديه يدعو ، ورفع الناس أيديهم معه يدعون ، قال : فما خرجنا من المسجد حتى مطرنا » مختصر من البخارى ، وحديث استقساء عمر بالعباس : « عن أنس — رضى الله عنه — أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل =

. . . .

وأقسم عليه به وبنبيه(١) ، فلم يَبْرَحْ حتى قَلَصُوا المـازِرَ ، واعْتَلَقوا الحِذاء ،

=إليك بنبينا ، فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك . فاسقنا ، فيسقون) البخارى ويقال: إنه كان فى عام الرمادة العام الثامن عشر ، ويقول العلامة السلفى السهسوانى الهندى تعليقا على هذا فى كتابه : صيانة الإنسان عن وسوسة ابن دحلان : «المراد بالاستسقاء بالعباس والتوسـل به الوارد فى حديث أنس رضى الله عنه : هو الاستسقاء بدعاء العباس على طريقة معهودة فى الشرع ، وهى أن يخرج من يستسقى به إلى المصلى ، فيستسقى ، ويستقبل القبلة داعيا ، ويحول رداءه ، ويصلى ركعتين ، أو نحوه من هيئات الاستسقاء التى وردت فى الصحاح، والدليل عليه قول عمر رضى الله عنه اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم ، فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا ، فاسقنا ، ففى هذا القول دلالة واضحة على أن التوسل بالعباس كان مثل توسلهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، والتوسل بالنبى لم يكن إلا بأن يخرج صلى الله عليه وسلم ، ويستقبل القبلة ويحول رداءه، ويصلى ركعتين أو نحوه من الهيئات الثابتة للاستسقاء، ولم يرد فى حديث ضعيف فضلا عن الحسن والصحيح أن الناس طلبوا السقيا من الله فى حياته متوسلين به صلى الله عليه وسلم من غير أن يفعل ما يفعل فى الاستسقاء المشروع من طلب السقيا، والدعاء والصلاة وغيرهما مما ثبت بالأحاديث الصحيحة ، وأقول : لو كان التوسل بذات الحى أو الميت جائزا — لا بدعائه — لتوسل عمر بذات محمد — وهو ميت — بدلا من توسله بالعباس . ولم يرد فى حديث ما أن أحدا توسل بذات محمد فى استسقاء أو غيره، لأن ذات محمد «ص» ليست من كسب أحد .

(١) لم يرد شىء مما قال فى حديث صحيح . وقد وردت أحاديث الاستسقاء فى البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وأحمد وغيرها ، وكلها تجمع على أنه كان - صلى الله عليه وسلم - يدعو ، وليس فى شىء منها ما ذكره السهيلى ، وقد وردت صيغة الدعاء فى حديث رواه أبو داود وأبو عوانة وابن حبان والحاكم وصححه ابن السكن ، وقال أبو داود : هذا حديث غريب إسناده جيد وهذه هى: (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل=



. . . .

وخاضوا الغُدْرَان ، وسَمِعتْ الرِّفَاقُ المقبلةُ إلى المدينة فى ذلك اليوم صائحا يصيح فى السَّحاب : أتاكَ الغوثُ أبَا حَفْص ، أتاك الغوث أبا حَفْص(١) ، كل هذا ببركة الْمُبْتَعث بالرحمتين ، والداعى إلى الحياتين الموعود بهما على يديه فى الدارين ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة تصعد ولاَ تَنْفَد ، وتتَّصِل ولاَ تنفصِل ، وتُقِيم ، ولا تَرِيمُ، إنه مُنْعِمٌ كَرِيم .

أسماء زمزم :

فصل : فأُرىَ عبدُ المطلب فى منامِه: أن احْفِرْ طِيَبة، فسُمِّيت طيبة ، لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وقيل له : احْتَفِرْ بَرَّة ، وهو اسم صادق عليها أيضا ،لأنها فاضت للأبرار ، وغاضت عن الفُجار، وقيل له : احفِرْ الْمَضْنُونة. قال وهب بن مُنَبِّه: سُمِّيَتْ زمزم :الْمَضْنُونَة لأنها ضُنَّ بها على غير المؤمنين ، فلاَ يَتَضَلَّع منها منافق ، وروى الدَّارَقُطْنِى ما يقوى ذلك مُسْنداً عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم : مَنْ شرب من زمزم فَلْيَتَضَلَّع ، فإنه فَرْقُ ما بيننا وبين المنافقين،لا يستطيعون أن يَتَضَلّعو(٢) منها،

= الله ما يريد ، اللهم أنت الله، لا إله إلا أنت، أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين »

(١) أساطير مرددة لا تعرفها السيرة العطرة للنبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه عمر رضى الله عنه .

(٢) تضلّع : امتلأ شبعا وريا ، والتضلع أيضا : الامتلاء حتى تمتد أضلاعه على أن مثل هذه الأحاديث لم يروها أصحاب الصحيح . وقد روى هذا الحديث : الدارقطنى وابن ماجة .

. . . .

أو كما قال . وفى تسميتها بالمَضْنُونة روايةٌ أخرى ، رواها الزبيرُ : أن عبدَ المطلب قيل له : احْفِر المَضْنُونَةَ ضَننت بها على الناس إلا عليك ، أو كما قال .

العلامات التى رآها عبد المطلب وتأويلها :

ودُلَّ عليها بعلاماتٍ ثلاثٍ : بنُقْرةِ الغُراب الأعْصَم ، وأنها بين الفَرْث والدم ، وعند قرية النَّمل ، ويروى أنه لما قام ليَحْفِرَها رأى ما رُسِمَ مِن قرية النمل و نُقْرَةِ الغراب ، ولَم يَرَ الْفَرْثَ والدم ، فبينا هو كذلك نَدَّت بَقَرةٌ بجازرها ، فلم يُدْرِكها ، حتى دخلت المسجدَ الحرام ، فنحَرها فى الموضِع الذى رُسم لعبد المطلب ، فسال هناك الْفَرثُ والدمُ ، فحَفر عبدُ المطلب حيث رُسِم له .

ولم تَخُصّ هذه العلامات الثلاث[١] بأن تكون دليلا عليها إلا لحكمةٍ إلهيّةٍ ، وفائدةٍ مُشاكِلةٍ فى علم التعبير ، والتَّوسُّم الصادق لمعنى زمزَم ومائِها . أما الْفَرْثُ والدَّمُ ، فإن ماءها طعامُ طُعْم ، وشِفاءُ سُقْم[٢] ، وهى لما شُرِبت له[٣] ، وقد تَقوَّت[٤]

(١) كل هذا من رواية محمد بن إسحاق فحسب .

(٢) يقول ابن الأثير فى النهاية : «أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها ، كما يشبع من الطعام» وقد ورد فى صحيح مسلم فى حديث إسلام أبى ذر أن رسول الله قال فى زمزم : «إنها لطعام طعم وشفاء سقم» ونسب هذا فى بعض الأحاديث إلى وهب بن منبه وكعب الأحبار .

(٣) روى الإمام احمد : «ماء زمزم لما شرب منه» ورواه ابن ماجة من حديث عبد الله بن المؤمل ، وقد تكلموا فيه . ولفظه : «ماء زمزم لما شرب له» ورواه سويد بن سعيد ولكن سويدا ضعيف . ورواه الحاكم مرفوعا عن ابن عباس ، وفيه نظر . هذا وقد وردت تسمية زمزم ببرة ، والمضنونة فى حديث عن كعب الأحبار ، وحسبك به !!

(٤) حديث تَقَوُّتِ أبى ذر بماء زمزم فى البخارى ومسلم .



من مائها أبو ذر – رضى الله عنه – ثلاثين بَيْنَ يومٍ وليلةٍ ، فَسَمِنَ حتى تكسَّرت عُكَنُه ، [وما وجد على كبده سَخْفَة(١) جوع] فهى إذا كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى اللبن : إذا شرب أحدكم اللبن ،فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزِدْنا منه ، فإنه ليس شىء يَسُدُّ مَسَدَّ الطعام والشَّراب إلا اللبن ، وقد قال الله تعالى فى اللبن : (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَبناً خالِصاً سَائِغاً للشاربين) النحل : ٦٦ . فظهرت هذه السُّقْيا المباركة بين الْفَرْث والدَّم ، وكانت تلك من دلائلها المشاكلة لمعناها .

وأما قوله : الْغُرَابُ الْأَعْصَمُ ، قال الْقُتَبِيُّ : الأعصَمُ من الْغِربان الذى فى جناحيه بَيَاضٌ ، وَحَملَ على أبى عبيد لقوله فى شرح الحديث: الأعصم الذى فى يديه بياض ، وقال : كيف يكون للغراب يَدَان ؟ . وإنما أراد أبو عُبَيْدٍ أن هذا الوصْف لذواتِ الْأَرْبع ؛ ولذلك قال : إن هذا الوصفَ فى الغِربانِ عزيزٌ ، وكأنه ذهب إلى الذى أراد ابنُ قُتَيْبَة من بياض الجناحين ، ولولا ذلك لقال : إنه فى الغربان مُحال لايتصور . وفى مُسْند ابن أبى شَيْبَة من طريق أبى أُمَامَة عن النبى – صلى الله عليه وسلم – ما يُغْنى عن قوليهما ، وفيه الشِّفاء : أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : المرأة الصالِحَةُ فى النساءِ كالغرابِ الأعْصَم قيل : يارسول الله ، وماالْغُرَابُ الْأَعْصَمُ ؟ قال : الذى إحدى رجليه بَيْضاء(٢).

---

(١) جمع عكنة : الطى الذى فى البطن من السمن ، ويجمع على أعكان أيضا والسخفة : الهزال .

(٢) وعن الأزهرى فى اللسان: أنه الأحمر الرجلين لقلته فى الغربان ، لأن أكثر الغربان : السود البقع. هذا والعرب تجعل البياض حمرة، فيقال للمرأة البيضاء : الحمراء



. . . .

فالغراب فى التأويل : فاسق ، وهو أسود ، فَدَلَّت نُقْرَتُه عند الكعبة على نُقْرَةِ الأَسْوَدِ الحَبَشِىِّ بمِعْوَله فى أساس الكعبة يَهْدِمها فى آخر الزمانِ ، فكان نَقْرُ الغرابِ فى ذلك المكان يُؤذن بما يفعله الفاسقُ الأسودُ فى آخر الزمانِ بِقِبْلَةِ الرَّحمٰن ، وسُقْيا أهل الإيمان ، وذلك عندما يُرفع القرآنُ ، وتحيا عبادةُ الأوثان ، وفى الصحيح عن رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لَيُخَرِّبَنَّ الكعبة ذو السُّوَيقَتَيْنِ من الحبشة(١)» وفى الصحيح أيضا من صفته : أنه [أسود] أفْحَجُ، [يقلعها حجرا حَجَرا] وهذا أيضا ينظر إلى كون الغراب أعْصَمَ ؛ إذِ الفَحَجُ: تباعُدٌ فى الرِّجلين ، كما أن العَصَمَ اختلافٌ فيهما ، والاختلافُ : تباعُدٌ وقد عُرِف بذى السُّوَيقَتَيْنِ ، كما نُعت الغرابُ بصفةٍ فى ساقيه ، فتأمَّلْهُ ، وهذا من خَفِىِّ علم التأويلِ، لأنها كانت رُؤْيا ، وإن شِئتَ : كان من باب الزَّجْرِ والتَّوَسُّم الصَّادقِ(٢) والاعتبار والتفكيرِ فى معالم حكمة ـ الله تعالى ـ فهذا سعيدُ بنُ المُسَيِّب ، وهو مَنْ هُو عِلْما ووَرَعاً حين حُدِّث بحديث البئر فى البستانِ ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قعد على قُفِّها(٣) ، وَدَلَّى رجليه فيها ، ثم جاء أبو بكر رضى الله عنه ـ ففعل مثل ذلك ، ثم جاء عمرُ ـ رضى الله عنه ـ ففعل مثلَ

---

(١) الحديث متفق عليه ، وفى أبى داود بسند ضعيف : «اتركوا الحبشة ما تركوكم ، فإنه لايستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة» ، والسويقتان مثنى سويقة: تصغير لساق ، وهى مؤنثة . وقد صغر الساق ، لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة ، وقد أبعد السهيلى وأغرب فى تأويلاته .

(٢) الزجر : أصله هو التيمن والتشؤم بالطير ، والتفول بطيرانها كالسانح والبارح، وهو نوع من الكهانة والعيافة . والتوسُّم. أو الفطنة ، أو الزكانة: الاعتبار

(٣) قف البئر : هو الدكة التى تجعل حولها .



. . . .

ذلك ، ثم جاء عثمانُ ، فانتبذَ منهم ناحية ؛ وَقعدَ حجْرةً(١) . قال سعيدُ بن المُسَيَّبِ : فأوّلتُ ذلك قبورَهم ، اجتمعت قبورُ الثلاثة ، وانفرد قبرُ عثمان — رضى الله عنه — والله سبحانه يقول : (إن فى ذلك لآياتٍ للمُتوَسِّمِينَ) الحجر : ٧٥ . فهذا من التَّوَسُّمِ والفِراسَةِ الصادقة ، وإعمالِ الفكرِ فى دلائلِ الحكمة ، واستنباطِ الفوائدِ اللطيفة من إشارات الشريعة . وأمَّاقريةُ النملِ ، ففيها من المُشاكَلةِ أيضا ، والمناسبة : أن زَمْزَمَ هى عينُ مَكَّةَ التى يَرِدُها الحجيجُ والعُمَّارُ من كل جانب ، فيحملون إليها البُرَّ والشَّعِيرَ ، وغير ذلك وهى لاتحرث ولاتُزْرَعُ ، كما قال سبحانه خبرا عن إبراهيم عليه السلام : (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتِى بواد غير ذى زَرْع) . إلى قوله : (وارْزُقْهُمْ من الثمراتِ [لعلهم يشكرون] إبراهيم : ٣٧) وقرية النمل لاتحرثُ ولا تبذُر ، وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب ، وفى مكَّة قال الله سبحانه : (وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَة كانت آمنة مُطْمَئِنَّةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كُلِّ مكان) النحل : ١١٢ . مع أن لفظ قرية النمل مأخوذ من قَرَيْتُ الماء فى الحَوْضِ : إذا جمعتُهُ ، والرُّؤْيا تُعبرّ على اللفظ تارة ، وعلى المعنى أخرى ، فقد اجتمع اللفظُ والمعنى فى هذا التأويل — والله أعلم .

من صفات زمزم :

وقد قيل لعبد المُطَّلِبِ فى صفة زَمْزَمَ : لاتَنزِفُ أبدا ، ولا تُذَمُّ(٢) ،

---

(١) قعد حجرة : أى ناحية .

(٢) نزفت — بفتح النون والزاى — ماء البئر نزفا : إذا نزحته كله ، ونزفت هى=



. . . .

وهذا بُرْهَانٌ عظيم ، لأنها لم تَنْزِفْ من ذلك الحين إلى اليوم قط ، وقد وقع فيها حَبَشِيٌّ فَنُزِحَتْ من أجله ، فوجَدُوا ماءها يثور من ثلاثة أَعْيُن ، أقواها وأكثرها ماء : من ناحية الحَجَر الأَسْوَدِ ، وذكر هذا الحديثَ الدَّارَقُطْنِيُّ .

وقوله : ولا تُذَمُّ ، فيه نظرٌ ، وليس هو على ما يَبْدُو من ظاهر اللفظ من أنها لا يَذُمُّها أحدٌ ، ولو كان من الذَّمِّ لكان ماؤُها أعذبَ المياه ، ولَتضَلَّعَ منه كُلُّ مَنْ يشربهُ ، وقد تَقَدَّم فى الحديث أنه لا يَتَضَلَّعُ منها منافقٌ ، فماؤها إذاً مَذْمُومٌ عندهم ، وقد كان خالدُ بن عَبْد الله القَسْرِىّ أميرُ العراق يذمُّها ، ويسميها : أم جِعْلاَن(١) ، واحتفر بئراً خارجَ مكةَ باسم الوليد بن عبد الملك ، وجعل يُفَضِّلها على زَمْزَم ، ويحمل الناس على التبرُّكِ بها دون زَمْزَم جُرْأَة منه على الله — عز وجل — وقلة حياء منه ، وهو الذى يُعْلن ويفصح بلعن علىٍّ بن أبى طالب — رضوان الله عليه — على المنبر ، وإنما ذكرنا هذا ، أنها قد ذُمَّت ، فقوله إذا : لا تُذَمُّ من قول العرب : بئر ذَمَّة أى : قليلة الماء ، فهو من أذْمَمْت البئر إذا وجدتَها ذَمَّة : كما تقول: أَجْبَنْتُ الرجل: إذا وجدتَه جبانا ، وأكْذَبْتُه إذا

= يتعدى ولا يتعدى ، ونزفت على ما لم يسم فاعله ، وعن ابن سيدة : نزف البئر ينزفها وأنزفها بمعنى واحد ، كلاهما نزحها : وأنزفت هى نزحت ، وذهب ماؤها .

(١) جعل الماء بفتح فكسر جعلا، أى : كثر فيه الجعلان: جمع جعل وهو دابة سوداء من دواب الأرض قيل: هو أبو جعران . ولعلها فرية ، فما كان المسلمون فى مثل هذا الهوان ، الذى يرغمهم على الرضا بهذا الذى نسب إلى خالد .



. . . .

وجدته كاذبا[١] ، وفى التنزيل: « فإنهم لا يُكَذِّبونك »[٢] [ولكن الظالمين بآيات الله يَجْحدُون] الأنعام . ٣٣ وقد فسّرَ أبو عبيد فى غريب الحديث قوله حتى مررنا ببئر ذَمّة : وأنشد .

مُخَيَّسَةَ خُزْرًا كأن عُيونَها ذِمَامُ الرَّكايا أنْكَزَتْهَا المَواتح[٣]

فهذا أوْلَى ما حمل عليه معنى قوله . ولا تُذَمّ ؛ لأنه نفى مطلق ، وخبر صادق

---

(١) يقول ابن جرير الطبرى : « أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بالكذب وكذبته — بتضعيف الذال — إذا أخبرت أنه كاذب » .

(٢) الذى فى المصحف هو ما أثبتناه ، ولكن السهيلى يعنى القراءة الثانية ، وهى مشهورة أيضا ، وهى : « لا يكذبونك » بضم الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال ، وهى قراءة نافع والكسائى من : أكذب ، أما قراءة المصحف : فن كذبه بتضعيف الذال .

(٣) البيت لذى الرُّمّة — بضم الراء أو كسرها وتشديد الميم المفتوحه — يصف إبلا غارت عيونها من الكلال . وروايته فى اللسان : « على حميريات » بدلا من « مخيّسة خزراً » ، والإبل المخيسة هى التى لم تسرح ، ولكنها حبست للنحر أو القسْم . والخزر : هو كسر العين بصرها خلقة أو ضيقها وصغرها . أو النظر كأنه فى أحد الشقين ، أو أن يفتح عينيه ويغمضهما ، وحول فى إحدى العينين . وركايا جمع ركية — بفتح الراء وكسر الكاف ، وتضعيف الياء المفتوحة — البئر — كما فى القاموس ، ومواتح : المتح — بفتح الميم وسكون التاء — جذبك رشاء « حبل » الدلو تمد بيد ، وتأخذ بيد على رأس البئر . ومواتح : جمع ماتح وهو المستقى . والمائح الذى يملأ الدلو من أسفل البئر . أنكزتها : أقلت ماءها ، والذمة : البئر القليلة الماء . يقول عن الإبل . إن أعينها غارت من التعب ، فكأنها آبار قليلة الماء . وفى الروض : أنكرتها ، ورواها اللسان فى مادة ذمم « أنكزتها » وفسرها بما نقلته عنه ، ولكنه فى مادة فتح ذكرها : أنكرتها .

. . . .

والله أعلم – وحديث البئر الذَّمَّة التى ذكرها أبو عُبَيْد ، حدثنا به أبو بكر بن العربى الحافظ ، قال : أخبرنا القاضى أبو المطهر سعيد بن عبد الله بن أبى الرجاء قال : أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خَلاَّد قال: حدثنا الحرث بن أبى أسامة . قال : حدثنا أبو النضر ،قال: حدثنا سليمان عن حُمَيْد عن يونس عن البَرَاء قال : كناَّ مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى مَسِير فأتينا على رَكِيٍّ ذَمَّة(١) يعنى : قليلة الماء قال : فنزل فيها ستةٌ – أنا سادسهم – ماحَةٌ(٢) ،فأُدْلِيَتْ إلينا دَلْوٌ،قال: ورسول الله – صلى الله عليه وسلم على الرَّكِيِّ. فجعلنا فيها نصفَها، أو قريب ثُلُثَيها . فرفعت إلى ر سول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : فجئت بإنائى . هل أجد شيئاً أجعله فى حلقى، فما وجدتُ، فرُفعت الدَّلْوُ إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فغَمَس يده فيها ، فقال ما شاء الله أن يقول – قال : فأعيدت إلينا الدَّلو بما فيها ، قال : فلقد رأيت أحدَنا أُخْرِجَ بثوب خَشْيَةَ الغرق . قال : ثم ساحت ، يعنى : جَرَتْ نهرا(٣) .

(١) رَكِيّ – بفتح الراء وكسر الكاف ، وتضعيف الياء – جنس للركية وهى البئر .

(٢) الميح – بفتح الميم وسكون الياء – أن تدخل البئر فتملأ الدلو ، وذلك إذا قل ماؤها ، ورجل مائح ، وقوم ماحة بفتح الحاء .

(٣) أصل الحديث فى الصحيح باختصار كثير فى إحدى الغزوات . وهذا الذى فى الروض رواه أحمد والطبرانى . ويقول الحافظ فى الفتح : قال القرطبى : قصة نبع الماء من بين أصابعه « ص » أثر عنه فى عدة مواطن فى مشاهد عظيمة ، ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعى المستفاد من التواتر المعنوى . قلت : أخذ كلام عياض أو تصرف فيه . قال : ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ، وحديث نبع الماء جاء من رواية أنس عند الشيخين =



. . . .

اشتقاق مفازة :

وذكر حديث عبد المطلب فى مسيره مع قريش إلى الكاهنة ، وذكر المَفَاوِزَ التى عطشوا فيها . المفاوز : جمع مَفَازَة ، وفى اشتقاق اسمها ثلاثة أقوال . روى عن الأصْمَعِىّ أنها سُمِّيَتْ مَفَازَةً على جهة التفاؤل لراكبها بالفوز والنجاة ، ويذكر عن ابن الأعرابى أنه قال : سألت أبا المكارم : لم سميت الفلاة مفازة؟ فقال : لأن راكبها إذا قطعها وجاوزها فاز . وقال بعضهم : معناها : مَهْلَكَة لأنه يقال : فاز الرجل ، وفَوَّزَ وقَادَ وفَطَسَ : إذا هلك . وذكر فى غير رواية على بن أبى طالب — رضوان الله عليه — ثم ادع بالماء الرّوىّ غير الكَدَر يقال : ماء رِوًى بالكسر والقصر ، ورَواء بالفتح والمد(١) وفيه :

= وأحمد وغيرهم من خمسة طرق ، وعن جابر بن عبد الله من أربعة طرق ، وعن ابن مسعود عند البخارى والترمذى ، وعن ابن عباس عند أحمد والطبرانى من طريقين .. .. وأما تكثير الماء بأن يلمه بيده ، أو يتفل فيه ، أو يأمر بوضع شىء فيه كسهم من كنانته . فجاء فى حديث عمران بن حصين فى الصحيحين ، وعن البراء بن عازب عند البخارى وأحمد من طريقين ، وعن أبى قتادة عند مسلم ، وعن أنس عند البيهقى فى الدلائل .. وأما من رواها من أهل القرن الثانى فهم أكثر عدداً ، وإن كان شطر طرقه إفراداً » انتهى مافى الفتح ص ٤٥٦ جـ ٦ وانظر مجمع الزوائد للهيتمى . وأقول : كل ما يحدث هو بأمر الله سبحانه ، ولا يستطيع مسلم أن ينكر أن الله سبحانه فجر الماء لموسى من الحجر ، وقال لعيسى عن المائدة : « إنى منزلها عليكم » والله الذى من بذلك قادر على أن يمن بهذا . وموقفنا الإذعان ، والإيمان بأنه من قدرة الله وإذنه ، لا من قدرة نبى أو ولى ، ولا بإذنه ولا بأمره .

(١) روى كغنى ، وروى مثل : إلى ، ورواء مثل سماء : كثير مرو .



. . . .

الجمع واسم الجمع :

يسقى حَجِيج الله فى كل مَبرّ. الحجيج: جمع حاج . وفى الجموع على وزن فَعِيل كثير كالعَبِيد والبَقِير والمَعِيز والأبيل !! وأحسبه اسما للجمع ؛ لأنه لو كان جمعا له واحد من لفظه، لجرى على قياس واحد كسائر الجموع، وهذا يختلف واحِدُه فحجيج واحده: حاج، وعبيد واحده: عَبْدٌ، وبقير(١) واحده: بقرة [ومَعِيز: واحده: مَاعِز] إلى غير ذلك، فجائز أن يقال: إنه اسم للجمع غير أنه موضوع للكثرة ؛ ولذلك لا يُصَغّر على لفظه، كما تصغر أسماء الجموع ، فلا يقال فى العبيد: عُبَيِّد ، ولا فى النخيل:

(١) فى اللسان : البقير اسم للجمع ، أما الأبيل بفتح الهمزة وكسر الباء — فالحزمة من الحشيش والحطب، والإبيل بكسر الهمزة وتضعيف الباء مع كسرها: القطعة من الطير والخيل . وقيل هى مفرد أبابيل ، وربما كانت إبلا ، وهى تقع على الجمع، وليست بجمع والاسم جمع « قاموس » ويقول الجوهرى إن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين ، فالتأنيث لازم لها، فإذا صغرتها دخلتها التاء ، فقلت عن إبل : أبيلة ، وعن غنم : غنيمة ، وقد فرق شارح الكافية لابن الحاجب بين الجمع واسم الجمع بفروق تتلخص فى ثلاثة أوجه ، الأول: أن الجمع على صيغة خاصة من صيغ معدودة معروفة ، وهذه الصيغة تغاير صيغة المفرد ، إما ظاهرا ، وإما تقديرا . فالمغايرة الظاهرة إما بالحركات كأسد ، وأسد ونمر ونمر ، وإما بالحروف كرجال : جمع رجل وكتب جمع كتاب ، والمغايرة المقدرة كهجان وفلك ، ومن المغايرة الظاهرة : الجمع السالم مذكرا أو مؤنثا .

والثانى : أن للجمع واحدا من لفظه ، وليس لاسم الجمع واحد من لفظه ، بل له واحد من معناه ، فواحد الإبل : بعير أو ناقة ، وواحد الغنم :شاة . والثالث : أن الجمع يرد إلى واحده فى النسب مطلقا ، وفى التصغير إن كان جمع كثرة . وأما اسم الجمع ، فلا يرد ، لأنه إما ألا يكون له واحد حتى يرد إليه ، وإما أن يكون له واحد ، لكن لا يصح الرد إليه لأن اسم الجمع لم يكن على صيغة من صيغ الجمع فهو كالمفرد فى اللفظ . انظر ص ١٩٣ ج ٢ شرح الشافية للرضي والتلخيص المذكور للأساتذة المحققين للشافية .



. . . .

نُخَيَّل، بل يرد إلى واحده ، كما ترد الجموع فى التصغير، فيقال: نُخَيْلَاتٌ وعُبَيْدُون، وإذا قلت : نخيل أو عبيد ، فهو اسم يتناول الصغير والكبير من ذلك الجنس ، قال الله سبحانه : (وزَرْعٌ ونخيلٌ) وقال: (وما ربُّكَ بظَلَّام للعبيد) فصلت : ٤٦ وحين ذكر المخاطبين منهم قال: العباد ، وكذلك قال حين ذكر الثمر من النخيل : (والنَّخْلَ بَاسقاتٍ) ق : ١٠ وقال : (أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ) القمر : ٢٠ فتأمل الفرق بين الجمعين فى حكم البلاغة واختيار الكلام ، وأما فى مذهب أهل اللغة ، فلم يفرقوا هذا التفريق ، ولا نبهوا على هذا الغرض الدقيق .

شرح :

وقوله: فى كل مَبَرّ:هو مَفْعَل من البِرِّ ،يريد:فى مناسك الحج ومواضع الطاعة

وقوله : مثل نعام جافل لم يقسم . الجافل : من جفَلَت الغنم : إذا انقلعت بجملتها ، ولم يُقْسَم أى : لم يتوزَّع ، ولم يتفرق .

وقوله : ليس يخاف منه شىء ما عَمَر . أى : ما عمر هذا الماء ، فإنه لا يؤذى ، ولا يُخاف منه ما يُخاف من المياه إذا أفرط فى شربها ، بل هو بركة على كل حال ، وعلى هذا يجوز أن يحمل قوله : لا تَنْزِفُ ، ولا تُذَم عاقبة شربها ، وهذا تأويلٌ سائغٌ أيضا إلى ما قدمناه من التأويل ، وكلاهما صحيح فى صفتها .

وقوله : وضرب [فى الباب] الغزالين(١) حلية الكعبة، وهو أول ذهب حليت به الكعبة ، وقد قدَّمنا ذكر الغزالين ، ومن أهداها إلى الكعبة، ومن دفنهما من جُرْهم ، وتقدم أن أول من كسا الكعبة: تُبَّع ، وأنه أول من اتخذ لها غلقا إلى أن

---

(١) ما بين قوسين زيادة من السيرة .



. . . .

ضرب لها عبدُ المطلب بابَ حديد من تلك الأسياف ، واتخذ عبدُ المطلب حوضا لزمزم يسقى منه ، فكان يُخرَّبُ له بالليل حَسَداً له ، فلما غَمَّه ذلك قيل له فى النوم : قل : لا أحلها لمغتسل ، وهى لشارب حِلٌّ وبِلٌّ(١) وقد كُفِيتَهم ، فلما أصبح قال ذلك ، فكان بعدُ من أرادها بمكروه رُمِىَ بداء فى جَسَدِه ، حتى انتهوا عنه . ذكره الزهرى فى سيره .

بئار قريش بمكة :

وقوله : وكانت قريش قبل حفر زمزم قد اتخذت بِئارا بمكة . ذكروا أن قصيًا كانَ يسقى الحَجِيجَ فى حياضٍ من أَدَم ، وكان ينقُل الماء إليها من آبارٍ خارجةٍ من مكة منها : بِئْرُ مَيْمُون الحَضْرَمِىِّ ، وكان يَنْبِذُ لهم الزبيبَ ، ثم احتفر قُصَىٌّ العَجُولَ فى دار أمِّ هانىء بنت أبى طالب ، وهى أول سِقاية

---

(١) بل: شفاء ،وقيل : بل: مباح بلغةحمير، وقد روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق شعرا قاله عبد المطلب حينئذ وهو :

اللهم أنت الملك المحمود ربى أنت المبدى المعيد
وممسك الراسية الجلمود من عندك الطارف والتليد
إن شئت ألهمت كما تريد لموضع الحلية والحديد
فبين اليوم لما تريد إنى نذرت العاهد المعهود
اجعله رب لى فلا أعود

انظر ص ٢٤٦ ج ٢ البداية. هذا وفى السيرة عند قوله: «ثم أعطوا صاحب القداح» زدت كلمة «القداح» بعد جملة «أعطوا» من البداية ص ٢٤٦ ج ٢ ، وقد جعل عبد المطلب لزمزم حوضين . أحدهما : للشرب ، والآخر : للوضوء ، وقال : لا أحلها لمغتسل؛ لينزه المسجد عن أن يغتسل فيه ج ٢ ص ٢٤٧ بداية .



. . . .

احْتُفِرت(١) بمكة ، وكانت العربُ إذا استَقَوْا منها ارتجزُوا ، فقالوا :

نُرْوِى على العَجُول ، ثم ننطلِقْ   إن قُصَيًّا قد وَفَى وقد صَدق

[بِشِبَعِ الحجِ ورى مُغْتَبِق](٢)

فلم تزل العَجُول قائمةً حياةَ قصىٍّ ، وبعد موته ، حتى كَبِرَ عبدُ مناف ابن قُصىٍ ، فسقط فيها رجلٌ من بنى جُعَيْل ، فعطّلوا الْعَجُول ، واندفنت ، واحْتَفَرَتْ كلُّ قبيلة بئرا ، واحتفر قُصَىٌّ سَجْلة ، وقال حين حفرها :

أنا قُصى ، وحفرت سَجْلَهْ   تُرْوِى الحَجِيجَ زُغْلَةً فَزُغْلَهْ(٣)

وقيل : بل حفرها هاشم ، ووهبها أسد بن هاشم لعَدِىّ بن نوفل ، وفى ذلك تقول خالدة بنت هاشم :

نحن وَهَبْنا لعَدِىٍّ سَجْـلَه   تُرْوِى الحجيج زُغْلَةً فَزُغْلَهْ

وأما أم أحراد التى ذكرها ، فأحراد : جمع : حِرْد ، وهى قطعة من السَّنَام ، فكأنها سُمِّيَتْ بهذا ، لأنها تُنْبِت الشحم ، أو تُسَمِّن الإبل ، أو نحو هذا والحُرْد : القَطا(٤) الواردة للماء ، فكأنها تَرِدُها الْقَطا والطيرُ ، فيكون

---

(١) وفى المراصد: أن العجول أول بئر حفرت بمكة ، وقيل: حفرها عبد شمس قبل خم، وقيل إن أصلها كانت ركية فى دار أم هانىء ، ثم وسعها قصى، أو سماها كذلك

(٢) الزيادة من معجم البكرى . ومغتبق : أصل الغبوق — كصبور — مايشرب بالعشى . وغبقه: سقاه ذلك ، فاغتبق هو ، والمغتبق — بضم الميم وكسر الباء — من يفعل ذلك

(٣) الزغلة : الجرعة .

(٤) قطا حرد : سراع . وقال الأزهرى عن هذا : إنه خطأ . وذكر أن القطا=



. . . .

أَحْرَاد جمع : حُرْد بالضم على هذا . وقالت أُمَيَّة بنت عُمَيْلة بن السَّبَّاق بن عبدِ الدار امرأةُ العَوَّام بن خُوَيْلد حين حفرت بنو عبد الدار أمَّ أَحْرَاد :

نحن حفَرْنا الْبَحر أمَّ أَحْرَادِ ليست كَبَذَّر البرور(١) الجَمَادِ

فأجابتها ضَرَّتُها : صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام رضى الله عنه :

نحن حفَرْنا بَذَّرْ(٢) نسقى الحجيج الأكبرْ

من مُقبِــــل ومُدْبِرْ وأم أَحْرادَ شَرْ(٣)

وأما جُراب ، فيحتمل أن يكون بمعنى : جَرِيب(٤) نحو : كبار وكبير ،

= الحرد هى القصار الأرجل ، وهى موصوفة بذلك . وفى المراصد عن أم أحراد أنها جمع حريد ، وهو المنفرد عن محلة القوم .

(١) هكذا ، وهى غير مناسبة للمعنى ، فلعلها : البثور بضم الباء والثاء : جمع بثر بفتح الباء وسكون الثاء ، وفى اللسان : أنها الكرار — بكسر الكاف — جمع كر المواضع الذى يجمع فيه الماء الآجن ، ليصفو ، ويقال للبخيل : جماد كقطام ذماله .

(٢) فى غير الروض : بثر بفتح فسكون ، والبثر أرض حجارتها كحجارة الحرة إلا أنها بيض ، والماء البثر فى الغدير إذا ذهب ، وبقى على وجه الأرض منه شىء قليل

(٣) البيت : وسقى الله أمواها ، لكثير عزة كما فى اللسان ، وكلها آبار بمكة ، وقال ابن برى : هذه كلها أسماء مياه ؛ بدليل إبدالها من قوله أمواها ، ودعا بالسقيا للأمواه ، وهو يريد أهلها النازلين بها .

(٤) الجريب من الطعام والأرض : مقدار معلوم ، والجريب : مكيال قدر أربعة أقفزة ، والجريب : قدر مايزرع فيه من الأرض ، قال ابن دريد : لاأحسبه عربيا ، والجمع : أجربة وجربان . وقيل : الجريب المزرعة ، والجريبة : الوادى وجمعه أجربة . ولم أجد فى اللسان جرابا لجريب . ولا فى القاموس .



. . . .

والجريب : الوادى ، والجِريبُ أيضاً : مِكْيالٌ كبير ، والجريب أيضاً : المزرعة .

وأما مَلْكوم فهو عندى مقلوب ، والأصل : مَمْكُول من : مَكَلْتُ البئر : إذا استخرجت ماءها ، والمُكْلَةَ : ماء[1] الرَّكِيَّة ، وقد قالوا : بئر عَمِيقة ، ومَعِيقة ، فلا يبعد أن يكون هذا اللفظ كذلك يقال فيه : مَمْكول ومَلْكوم ، والمَلْكومُ فى اللغة : المظلوم إذا لم يكن مقلوبا[2] .

وأما بَذَّر فمن التبذير ، وهو التفريق ، ولعل ماءها كان يخرج متفرقا من غير مكان واحد ، وهذا البناء فى الأسماء قليل ، نحو : شَلَّم وخَضَّم وبَذَّر ، وهى أسماء أعلام ، وشَلَّمُ : اسم بيت المقدس ، وأما فى غير الأعلام ، فلا يعرف إلا البَقَّم ، ولعل[3] أصله أن يكون أعجميا ، فعرب .

---

(١) وضع اللسان ملكوم فى مادة لكم ، وفى المراصد : أنها اسم المفعول من لكمه ، وفيه أن المكلة بضم الميم وفتحها وسكون الكاف : جمة البئر . الجمة المكان الذى يجتمع فيه ماء البئر . أو أول مايستقى منها ، وفى اللسان: المكلة بضم الميم الشىء القليل من الماء يبقى فى البئر أو الإناء ، فهو من الأضداد وبئر مكولة : نزح ماؤها .

(٢) لم أجد لملكوم هذا المعنى لافى القاموس، ولافى اللسان، ولها معنى الدفع والضرب باليد مجموعة .

(٣) خضم : اسم عنبر بن تميم ، وقال اللسان عن شلم : إنها عبرانية ، وزاد من الأعلام : عثر بفتح العين ، وتضعيف الثاء مع فتح — اسم باليمن ، أو واد من أودية العقيق ، أو مأسدة . وفى المراصد أن أهل اليمن ينطقون عثر بتخفيف الثاء وبإسكانها، انظر المراصد ، ومعجم ما استعجم وياقوت . وفى اللسان أيضا : كتم بوزن عثر : اسم موضع . أما بقم فاسم شجر عظام أو خشبة . وبضم الميم مثل=

. . . .

وأما خُمّ وهى بئر مرة ، فهى من خَمَمْتُ البيتَ إذا كنستهُ ، ويقال : فلان مَخْمُومُ القلبِ أى : نَقِيُّه ، فكأنها سُمِّيت بذلك لنقائها .

وأما غَدِيرُ خمٍّ الذى عند الْجُحْفَة ، فسُمِّيَت بغَيْضَةٍ[1] عنده ، يقال لها : خُمّ فيما ذكروا . وأما رُمّ بئرُ بنى كلاب بن مُرَّةَ ، فمن رَمَمْتُ الشىء إذا جَمَعْته وأصْلحته ، ومنه الحديث : كنا أهل ثُمَّـةٍ ورُمَّةٍ[2] ، ومنه : الرُّمَّان فى قول سيبويه ، لأنه عنده فُعْلاَن ، وأما الأَخْفَشُ فيقول فيه : فُعَّالٌ ، فيجعَل فيه النُّونَ أصْلِيَّة ، ويقول : إن سَمَّيتَ به رجلا صَرَفته . ومن قول عبدِ شَمْسِ بن قُصَىٍّ :

= سكر شجر جوز ، وزاد ابن مالك ، شمر ، اسم فرس ، فصارت ستة أسماء ، وقد نظم ابن مالك أكثرها فيما يأتى :

وبذر وبقـم وشمر وخضم وعثر لفعـل

ص ٦٣ جـ ٢ المزهر للسيوطى .

(١) الأجمة ، وهى مغيض ماء يجتمع ، فينبت فيه الشجر .

(٢) هو فى حديث أم عبد المطلب حين أخذه عمه منها : كنا ذوى ثمة ورمة . يقال ، ماله ثم ولا رم . فالثم : قماش البيت : والرم : مرمة البيت أى : متاعه كأنها أرادت : كنا القائمين بأمره منذ ولد إلى أن شب وقوى . وقيل : هو من قول أخوال أحيحة بن الجلاح . قال أبو عبيد : المحدثون يروونه بالضم ، والوجه عندى الفتح ، وهو إصلاح الشىء وإحكامه ، وهو - أى الثم والرم - بمعنى الإصلاح . وقيل : هما بالضم مصدران . والمعنى على قول أبى عبيدة : كنا أهل تربيته والمتولين لإصلاح شأنه ، وقد رواه الهروى فى حرف الراء من قول أم عبد المطلب ، ورواه فى حرف التاء من قول أخوال أحيحة ، ورواه مالك فى الموطأ عن أحيحة .

. . . .

حَفَرْتُ رُمًّا ، وحَفَرْتُ خُمًّا حتى ترى المجدَ بها قد تَمَّا

وأما شُفَيَّةُ بئرُ بنى أسَدٍ ، فقال فيها الْحُوَيْرِثُ بن أسَدٍ :

ماءُ شُفَيَّة كماءِ الْمُزْنِ وليس ماؤُها بطَرْقٍ أجْنٍ (٢)

وأما سُنْبُلَةُ : بئر بنى جُمَح ، وهى بئرُ بنى خَلَفِ بنِ وَهْبٍ – فقال فيها شاعرهم :

نحن حفَرْنا للحجيجِ سُنْبُلَهْ صَوْبَ سَحَابٍ ذوالجلال أنْزَلَهْ

ثم تركناها برأس الْقُنْبُلَهْ تَصبُّ ماءً مثلَ ماءِ المعبله

نحن سَقَيْنَا الناسَ قبل الْمَسْئَلَهْ

من شرح شعر مسافر :

وأما الغَمْرُ : بئر بنى سَهْمٍ ، فقال فيها بعضُهم :

نحن حفرنا الْغَمْرَ لِلْحَجِيجِ تَثُجُّ مَاءً أيَّما ثَجِيجِ

ذكر أكثره أبو عُبَيْد الْبَكْرِى ، وبعضُ هذه الْأَرْجَازِ أو أكثره فى كتاب الزُّبَيْرِ بن أبى بكر رحمة الله عليه .

فصل : وذكر شعرَ مُسَافِرِ بن أبى عَمْرو بن أُمَيَّةَ . واسمُ أبى عمرو : ذَكْوَان ، وهو الذى يقول فيه أبو سفيان :

---

(١) هى سقية أو شفية ، وفى النسخة المطبوعة سنة ١٣٣٢ على هامش الروض : سقية .

(٢) الطرق : الماء الذى خوضته الإبل ، وبولت فيه ، والأجن : الماء المتغير الطعم واللون .



. . . .

لَيْتَ شِعْرِى مُسَافِرَ بن أبى عَمْـ ـرٍو ، ولَيْتٌ يقولها المَحْزُونُ
بُورِكَ المَيِّتُ الغريبُ كما بُو رِكَ نَضْحُ الرُّمَّانِ والزَّيْتُونِ(١)

فى شعرٍ يرثيه به ، وكان مات من حُبِّ صَعْبَةَ بنت الحَضْرَمِىِّ .

وفى الشعر : ونَنحر الدَّلاَّفَةَ الرُّفُدا(٢)

الرُّفُدُ : جمع رَفُود من الرِّفد ، وهى التى تملأ إناءين عند الحلب .

وقوله :

ونُلْقَى عند تَصْرِيفِ المنايا شُدَّداً رُفُداً

هو جمع رَفُود أيضاً من الرِّفد وهو : العون ؛ والأول من الرِّفد بفتح الراء [وبكسرها] وهو إناء كبير قال الشاعر :

رُبَّ رَفْدٍ هَرَقْتُه ذلك اليَوْ مَ وأَسْرَى من مَعْشَرٍ أَقْتَالِ(٣)

---

(١) ينسب هذا فى اللسان إلى أبى طالب بن عبدالمطلب فى مادة نضح. والنضح تفطر الشجر بالورق.

(٢) فسر الخشنى فى شرحه للسيرة الدلافة بقوله : بالإبل التى تمشى متمهلة لكثرة سمنها . وفى اللسان ، المذلاقة بدلا من : الدلافة . وفسر المذلاقة بأنها الناقة السريعة . أما الدلاقة فنى اللسان ، الدلوق والدلقاء : التى تنكسر أسنانها من الكبر فتمج الماء والرفود من الإبل التى تملأ الرفد — بكسر الراء وفتحها — القدح الضخم فى حلبة واحدة ، أو هى الدائمة على محلبها ، أو التى تتابع الحلب .

(٣) جمع قتل بكسر القاف ، وهو العدو أو الصديق والنظير وابن العم والشجاع والقرن . والرفد بفتح الراء وكسرها والمرفد — بكسر الميم وفتح =



. . . .

وذكر أمَّ عبدِ الله بن عَبْدِ المطلبِ، وهى : فاطمة بنتُ عَمْرو بن عائِذِ ابن عِمْرَان(١) هكذا قال ابن هشام . وقال ابن إسحاق : عائِذُ بن عَبْدِ بن عمران ابن مَخْزُومٍ، والصحيح ماقاله ابنُ هِشامٍ ؛ لأنَّ الزُّبَيْرِيِّينَ ذكروا أن عَبْداً هو أخو عائِذ بن عِمْرانَ ، وأن بنتَ عبدٍ هى : صَخْرَةُ امرأة عَمْرو بن عائذٍ على قول ابن إسحاق ؛ لأنها كانت له عَمَّةً ، لا بنتَ عمٍّ ، فتأمله ؛ فقد تكرر هذا النسَب فى السيرة مراراً ، وفى كل ذلك يقول ابن إسحاق : عائذ بن عَبْد ابن عِمْران ، ويخالفه ابنُ هِشامٍ . وصَخْرَةُ بنت عبدٍ أم فاطمة ، أمها : تَخْمُرُ بنتُ عبد بن قُصىٍّ ، وأم تَخْمُرَ : سَلْمَى بنت عُمَيْرَةَ (٢) بن وَدِيعة ابن الحارث بن فِهرٍ . قاله الزُّبَيْر :

= الفاء ، أو بفتح الميم وكسر الفاء — القدح العظيم ، وفى اللسان : هراقت السماء ماءها تهريق ، والماء مهراق . الهاء فى ذلك كله متحركة ، لأنها ليست أصلية ، إنما هى بدل من همزة : أراق ، وهرقت مثل أرقت . وقد نسبه إلى الأزهرى ، ونسب إليه أيضا أنه قال : ومن قال : أهرقت فهو خطأ فى القياس . ومثل هرقت — والأصل أرقت قولهم هرحت الدابة وأرحتها ، وهنرت النار وأنرتها . وقال أبو زيد : الهاء منها زائدة ، كما قالوا : أنهأت اللحم والأصل أنأته . وقال بعض النحويين إنما هو هراق يهريق ؛ لأن الأصل من أراق يريق يؤريق لأن أفعل يفعل كان فى الأصل يؤفعل . والجوهرى يقول : هراق الماء يهريقه بفتح الهاء هراقة — بكسر الهاء — صبه

(١) هى كذلك فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٣ ونسب قريش ص ١٧ وفى حذف نسب قريش للسدوسى ص ٥ .

(٢) فى نسب قريش : سلمى بنت عامرة بن عميرة الخ ص ١٧ .



ذكر نذر عبد المطلب ذبح ولده

قال ابن إسحاق : وكان عبدُ المطَّلب بن هاشم -فيما يزعمون والله أعلم- قد نَذَر حين لَقِىَ من قُريش مالقى عند حَفْر زمزم : لئن وُلد له عشرةُ نفَر، ثم بلغوا معه حتى يَمْنَعُوه، ليَنْحَرَنَّ أحدَهم لله عندَ الكعبة. فلما توافى بنوه عشرةً، وعرف أنهم سيمنعونه، جَمَعَهم، ثم أخبرهم بنَذْره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا : كيف نَصْنَع؟ قال : ليأخذ كلّ رجل منكم قِدْحا ثم يكتب فيه اسمَه، ثم ائتونى، ففعلوا، ثم أتَوْه، فدخل بهم على هُبَل فى جَوْف الكعبة، وكان هُبَل على بئر فى جوف الكعبة، وكانت تلك البئر هى التى يُجمع فيها ما يُهدى للكعبة.

وكان عند هُبَل قِداح سَبْعة، كل قِدْح منها فيه كتاب. قِدْح فيه العَقْل، إذا اختلفوا فى العَقْل مَنْ يَحْمِله منهم، ضربوا بالقداح السَّبعة، فإن خرج العَقْل فعَلَى مَنْ خرَج حَمْلُه. وقِدْح فيه : نعم. للأمر إذا أرادوه يُضرب به فى القِداح، فإن خرَج قِدْح نعم، عملوا به. وقِدْح فيه : لا، إذا أرادوا أمراً ضربوا به فى القِداح، فإن خرج ذلك القِدْح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقِدْح فيه : مِنْكم، وقِدْح فيه مُلْصَق : وقدح فيه : مِنْ غيرِكم : وقِدْح فيه : المياه، إذا أرادوا أن يَحْفِروا للماء ضَرَبوا بالقِداح، وفيها ذلك القِدْح، فحيثما خرَج عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما، أو يُنْكِحوا منكحا، أو يَدْفنوا



مَيْتا ، أو شكوا فى نسب أحدهم ، ذَهبوا به إلى هُبَل وبمئة درهم وجَزور ، فأعطَوْها صاحبَ القِداح الذى يَضْرب بها ، ثم قرّبوا صاحبَهم الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخْرِج الحقَّ فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب : فإن خرج عليه : منكم ، كان منهم وسيطا ، وإن خَرَج عليه : من غيركم ، كان حَليفا ، وإن خَرَج عليه : مُلصَق ، كان على مَنْزلته فيهم ، لانَسَب له ، ولا حِلف ، وإن خرج فيه شىء ، مما سِوَى هذا مماَّ يَعمَلون به : نعم عملوا به ، وإن خرج : لا ، أخَّروه عامَه ذلك ، حتى يأتوه به مرّةً أُخْرى ، ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجتْ به القِداح .

فقال عبدُ المطلب لصاحب القِداح : اضربْ على بنىَّ هؤلاء بقِداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذى نَذَر ، فأعطاه كلُّ رجل منهم قِدْحه الذى فيه اسمه ، وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغرَ بنى أبيه ، كان هو والزُّبير وأبو طالب لفاطمة بنت عَمْرو بن عائذ بن عبد بن عِمْران بن مخزوم بن يَقَظَة بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر .

قال ابن هشام : عائذ بنُ عِمْران بن مَخْزوم .

قال ابن إسحاق : وكان عبدالله — فيمايزعمون — أحبَّ وَلَدِ عبدالمطّلب إليه ، فكان عبدُ المطلب يرى أن السَّهْمَ إذا أخطأه فقد أشوَى . وهو أبو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما أخذ صاحبُ القِداح القداحَ ليضرب بها ، قام عبدُ المطلب عند هُبَل يدعو الله ، ثم ضرب صاحبُ القِداح ، فخرج القِدْحُ



على عبد الله ، فأخذه عبدُ المطلب بيده وأخذ الشَّفرة ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبدالمطلب ؟ قال : أذبحه ، فقالت له قُرَيش وبَنوه : والله لاتذبحه أبداً ، حتى تُعْذَر فيه . لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ يأتى بابنه حتى يذبَحَهُ ، فما بقاء الناس على هذا ؟ ! وقال له الْمُغيرة بن عبد الله بن عَمْرو بن مخزوم بن يَقَظة — وكان عبد الله ابنَ أخت القوم : والله لا تذبحه أبداً ، حتى تُعْذِر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فَدَيْناه . وقالت له قريش وبَنوه . لاتفعل ، وانطلق به إلى الحجاز ، فإنَّ به عرّافة لها تابع ، فسَلْها ، ثم أنت على رأس أمْرِك ، إن أمرتكَ بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرَج قَبِلْته .

فانطلقوا حتى قدموا المدينةَ ، فوجدوها — فيما يزعمون — بخَيْبَر . فركبوا حتى جاءوها ، فسألوها ، وقص عليها عبدُ المطَّلب خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ونَذْره فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عنى اليومَ حتى يأتينى تابعى فأسأله . فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبدُالمطلب يدعو الله ، ثم غدَوْا عليها ، فقالت لهم : قد جاءنى الخبرُ ، كم الدّية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل ، وكانت كذلك . قالت : فارجعو إلى بلادكم ، ثم قرّبوا صاحبَكم ، وقرّبوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها ، وعليه بالقِداح ، فإن خرجت على صاحبكم ، فزِيدُوا من الإبل حتى يَرْضى ربُّكم ، وإنْ خرجتْ على الإبل فانحروها عنه ، فقدرَضِى ربُّكم ، ونجا صاحبُكم .

فخرجوا حتى قَدِموا مكةَ ، فلما أجمعو على ذلك من الأمر ، قام



عبدُ المطلب يدعو الله ، ثم قرّبوا عبدَ الله وعشراً من الإبل ، وعبدُ المطلب قائمٌ عند هُبَل يدعو الله عزّ وجلّ ! ! ثم ضربوا فخرج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبلُ عشرين ، وقام عبدُ المطلب يدعو الله عزّ وجلّ ، ثم ضربوا فخرَج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبدُ المطّلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرَج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل أربعين ، وقام عبدُ المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرَج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ستّين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل سبعين ، وقام عبدُ المطلب يدعو الله ، ثم ضرَبوا فخرج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبدُ المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل تِسْعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل ، فبلغت الإبل مئة ، وقام عبدُ المطّلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرَج القِدْح على الإبل ، فقالت قريش ومَنْ حضر : قد انتهى رِضا ربِّك يا عبدَ المطلب ، فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضربَ عليها ثلاثَ مرات ، فضربوا على عبد الله ، وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القِدْح على الإبل ، ثم عادوا الثانية ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا ، فخرج القِدْح على

الإبل ، ثم عادوا الثالثة ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا ، فخرج القِدْح على الإبل : فنُحِرَت : ثم تُرِكت لا يُصَدّ عنها إنسان ولا يُمْنع .

قال ابن هشام : ويقال : إنسان ولا سَبُعٌ .

قال ابن هشام : وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصحّ عندنا عن أحد من أهل العلم بالشعر .

ذكر المرأة المتعرضه لنكاح عبد الله بن عبد المطلب

قال ابن إسحاق : ثم انصرف عبدُ المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فمرّ به — فيما يزعمون — على امرأة من بنى أسَد بن عبد العزّى بن قُصىّ بن كِلاب ابن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر : وهى أخت وَرَقة بن نَوْفل ابن أسد بن عبدالعُزّى : وهى عند الكعبة : فقالت له حين نظرت إلى وجهه : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى . قالت : لك مثلُ الإبل التى نُحِرتْ عنك : وقَعْ علىّ الآن . قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خِلافَه . ولا فراقه .

فخرج به عبدُ المطلب حتى أتى به وهبَ بن عبد مناف بن زُهْرة ابن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر — وهو يومئذ سيِّد بنى زُهْرة نسبا وشرَفا — فزوّجه ابنته آمنة بنتَ وَهْب ، وهى يومئذ أفضلُ امرأة فى قُرَيش نسبا وموضعا .

وهى لِبَرّة بنت عبد العُزّى بن عثمان بن عبد الدار بن قُصَىّ بن كِلاب ابن مُرّة بن كَعْب بن لؤَىّ بن غالب بن فِهْر . وبَرّة : لأمّ حَبيب بنت



أسد بن عبد العزّى بن قُصَىّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهر . وأمّ حَبيب : بَرّة بنت عَوْف بن عُبَيد بن عُوَيج بن عدىّ ابن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فهر .

فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانَه ، فوقع عليها ، فحملتْ برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم خرج من عندها ، فأتى المرأة التى عرضتْ عليه ما عرضتْ ، فقال لها : مالكِ لا تَعرِضين علىّ اليومَ ما كنتِ عرضْتِ علىّ بالأمس ؟ قالت له : فارقك النورُ الذى كان معك بالأمس ، فليس [لى] بك اليومَ حاجةٌ . وقد كانت تَسْمع من أخيها ورقةَ بن نَوْفل — وكان قد تنصَّر واتبّع الكُتُبَ : أنه كائنٌ فى هذه الأمة نبىّ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى أبى إسحاقُ بن يَسار : أنه حُدّث ، أن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وَهْب ، وقد عمل فى طين له ، وبه آثارٌ من الطين ، فدعاها إلى نفسه ، فأبطأتْ عليه لِمَا رأت به من أثَر الطين ، فخرج من عندها فتوضّأ وغَسَل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج عامدا إلى آمنة ، فمرّ بها ، فدعَتْه إلى نفسها ، فأبَى عليها ، وعَمَد إلى آمنة ، فدخل عليها فأصابها ، فحملتْ بمحمد — صلى الله عليه وسلم — ثم مرّ بامرأته تلك : فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا ، مررتَ بى وبين عَيْنَيك غُرّة بيضاء ، فدعوتُك فأبيتَ علىّ ، ودخلتَ على آمنة فذَهَبَتْ بها .

قال ابن إسحاق : فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدّث : أنه مرّ بها وبين عَيْنيه غُرّةٌ مثل غُرّة الفَرَس ، قالت : فدعوتُه رَجاء أن تكون تلك



بى ، فأبَى علىّ ، ودخل على آمنة ، فأصابها ، فحملتْ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أَوْسَطَ قومه نسبا ، وأعظَمَهم شرفا من قِبَل أبيه وأمِّه - صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما قيل لآمنة عند حملها برسول الله صلى الله عليه وسلم

ويزعمون - فيما يتحدّث الناس والله أعلم - أنّ آمنة ابنة وَهْب أمّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت تحدّث :

أنها أُتِيَتْ ، حين حملَتْ برَسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقيل لها : إنك قد حملتِ بسيِّد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض ، فقُولى : أُعِيذه بالواحد ، من شرّ كلّ حاسد ، ثم سمّيه : محمداً . ورأتْ حين حملت به أنه خرَج منها نورٌ رأتْ به قُصور بُصْرى ، من أرض الشام .

ثم لم يلبثْ عبدُ الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنْ هلَك ، وأمُّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم حاملٌ به .

نذر عبد المطلب :

فصل : وذكر نذَر عبد المطلبِ أن ينحَر ابنه إلى آخر الحديث . وفيه أن عبدَ الله ، يعنى : والدَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أصغرَ بنى أبيه ، وهذا غيرُ معروف ، ولعلّ الرواية : أصغر بنى أمِّه ، وإلا فحمزَةُ كان أصغرَ من عبد الله ، والعباسُ : أصغرُ من حَمْزَةَ ، ورُوى عن العباس - رضى اللهُ عنه - أنه قال : أذكر مولد رسولِ الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا



. . . .

ابنُ ثلاثةِ أعوامٍ أو نحوِها ، فجيء بى حتى نظرت إليه ، وجعل النِّسْوةُ يقلن لى : قَبِّلْ أخاك ، قَبِّلْ أخاك ، فقبلته ، فكيف يصح أن يكونَ عبدُ الله هو الأصغر مع هذا ؟ ! ولكن رواه البَكَّائىُّ كما تقدم ، ولروايته وجه ، وهو أن يكونَ أصغرَ ولد أبيه حين أراد نحرَه ، ثم وُلد له بعد ذلك حَمْزَةُ والعباسُ .

وسائرُ حديث عبد المطلب ليس فيه ما يُشْكِل . وفيه أن الدِّيَةَ كانت

---

(١) أولاد عبد المطلب هم — كما فى نسب قريش : عبد الله ، وأبو طالب — واسمه : عبد مناف — والزبير ، وأم حكيم البيضاء الملقبة بالحصان — بفتح الحاء — توأمة عبد الله والد الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعاتكة ، ومرة ، وأميمة ، وأروى أمهم : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وحمزة ، والمقوم ، وحجل أو جحل — واسمه : المغيرة — وصفية وأمهم : هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة ، والعباس وضرار ، وأمهما نتيلة بنت جناب ابن كليب ، والحارث وهو أكبر ولده ، وبه كان يكنى — وقثم هلك صغيرا وأمهما : صفية بنت جندب بن حجير بن رئاب ، وأبو لهب — واسمه عبد العزى — وأمه : لبنى بنت هاجر بن عبد مناف . والغيداق — واسمه : مصعب ، وأمه خزاعية وفى جمهرة أنساب العرب : عبد الله ، وأبو طالب ، وأبو لهب ، ويكنى أبا عتبة والزبير والمقوم والحارث وحمزة والعباس ، وأربع بنات . فعبد الله ، وأبو طالب والزبير وأم حكيم ، وعاتكة ، ومرة ، وأميمة ، وأروى . أشقاء من أم واحدة .

وحمزة والمقوم وحجل وصفية أشقاء من أم واحدة .

والعباس وضرار شقيقان ، والحارث ، وقثم شقيقان ، وأبو لهب من أم ، والغيداق من أم .



. . . .

بعشرٍ من الإبل قبل هذه القصة : وأول من وُدِى بالمائة إذاً : عبدُ الله . وقد قَدَّمْنا ما ذكره الأصْبهانِيُّ عن أبى الْيقْظَانِ أن أبا سَيَّارة هو أول من جَعَل الدِّيَةَ مائةً من الإبل ، وأما أولُ مَنْ وُدِى بالإبل من العربِ : فَزَيْدُ ابن بَكْر بن هَوَازِن قتله أخوه معاويةُ جَدُّ بنى عامر بن صَعْصَعَةَ (١) .

وأما الكاهنةُ التى تحاكموا إليها بالمدينة فاسمها : قُطْبَةُ . ذكرها عبد الغنى فى كتاب الغوامض والمبهمات ، وذكر ابن إسحاق فى رواية يونس أن اسمها : سَجَاح .

تزويج عبد الله :

فصل : وذكرَ تزويجَ عبدِ اللهِ بن عبدِ المطلبِ آمنةَ بنت وَهْبٍ ، وذكر الْبَرْقِىُّ فى سَبَبِ تَزْويجِ عبدِ اللهِ آمنةَ : أن عبدَ المطلبِ كان يأتى اليمنَ ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم ، فنزل عنده مَرَّةً ، فإذا عندَه رجلٌ مِمَّن قرأ الكتبَ ، فقال له : ائْذَنْ لى أَقِسْ مَنْخِرَكَ (٢) ، فقال : دُونَكَ فانظر ، فقال : أرى نُبُوَّةً ومُلْكا ، وأراهما فى الْمَنَافَيْنِ : عبدِ منافِ بن قُصَىّ ، وعبدِ مَنَافِ بن زهرة ، فلما انصرف عبدُ المطلب انطلق بابنه عبدِ الله ،

---

(١) اسم زيد فى جمهرة أنساب العرب : يزيد . وفيه أيضا أن يزيد هو الذى قتل معاوية ، فجعل فيه عامر بن الظرب العدوانى مائة من الإبل ، وهى أول دية قضى فيها بذلك ، وتقول العرب إن لقمان كان جعلها قبل ذلك مائة جدى . ص ٢٥٢ جمهرة ابن حزم .

(٢) فى القاموس — بفتح الميم والخاء وبكسرهما وضمهما ، وكمجلس وملمول « بضم الميمين » : الأنف .



. . . .

فتزوج عبدُ المُطَّلِبِ هالَةَ بنتَ وُهَيْبٍ (١) ، وهى أم حمزة ـ رضى الله ـ عنه ، وزَوَّج ابنَه عبدَ اللهِ آمنةَ بنت وَهْبٍ ، فولدت له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

حول أمهات النبي صلى الله عليه وسلم :

وذكر أمَّها وأمَّ أمِّها ، والثالثةَ وهى : بَرَّةُ بنت عَوْفٍ (٢) ، وقد قدمنا فى أول المولدِ ذكر أم الثالثة والرابعة والخامسة (٣) ونسبهن ، فليُنْظَر هنالك .

وأمَّا أمُّ هالة فهى : العَبْلَةُ بنت المطلب ، وأمها : خديجة بنت سُعَيْد بن سَهْم (٤) ، وقد أشكل على بعض الناسِ فى هذا الخبر أن عبدَ المطلب نَذَر

---

(١) فى نسب قريش : أهيب ص١٧ ، وفى جمهرة ابن حزم ص ١٣ : وهيب .

(٢) فى السيرة : برة بنت عوف بن عبيد بن عويج . وفى كتاب حذف نسب قريش للسدوسى ص ٦ : ضبطت عَوِيج بفتح العين وكسر الواو . وأكثر المراجع ذكرته بضم العين وفتح الواو .

(٣) فى نسب قريش عن أم برة : «وأمها أميمة بنت مالك بن غنم بن حنش ابن عادية بن كعب بن طابخة بن لِحيان بن هُذيل ، وأمها : قلابة بنت الحارث ـ وهو أبو قلابة الشاعر ، وهو أقدم من قال الشعر فى هذيل . واسم أبى قلابة : الحارث بن صعصعة بن كعب بن طابخة بن لحيان بن هُذَيل . وأمها : دَبَّةُ بنت الحارث بن تميم وأمها : لبنى بنت الحارث بن النَّمْر بن جَرْوَة بن أسَيِّد بن عمرو بن تميم بن مُرّ بن أد بن طابخة بن الياس ص ٢١ وأم حبيب بنت أسد المذكورة فى السيرة سماها السدوسى : حبيبة ص ٦ .

(٤) فى نسب قريش ص ٩٢ ذكر أن أمها هى خديجة بنت سعيد بن بحر بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص ولكنه ذكر فى ص ١٧ أن أمها هى خديجة بنت سُعَيْد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص : وليس لسهم بن عمرو ولد اسمه



. . . .

نحرَ أحدِ بنيه إذا بلغوا عشرة ، ثم ذكر ابنُ إسحاق أن تزويجه هالةَ أمَّ ابنهِ حمزةَ كان بعد وفائه بنذره ، فحمزةُ والعباس ـ رضى الله عنهما ـ إنما وُلدا بعد الوفاء بنذره ، وإنما كان جميعُ أولاده عشرة . ولا إشكال فى هذا ، فإن جماعةً من العلماء قالوا : كان أعمامُهُ ـ عليه السلام ـ اثنَىْ عشرَ ، وقاله أبو عُمَر ، فإن صح هذا فلا إشكالَ فى الخبر ، وإن صح قولُ مَن قال : كانوا عشرةً بلا مزيدٍ ، فالولدُ يقع على البنين وبنيهم حقيقةً لا مجازا ، فكان عبدُ المطلب قد اجتمع له من وَلَدِه وَوَلَدِ وَلَدِه عشرةُ رجالٍ حين وَفى بنذرِه .

المرأة التى دعت عبد الله :

ويروى أن عبدَ اللهِ بن عبد المطلب حين دعته المرأةُ الأَسَدِيَّةُ إلى نفسها لِمَا رأت فى وجهِه من نورِ النُّبُوّة ، ورجت أن تحملَ بهذا النبى ، فتكون أمَّه دون غيرها ، فقال عبد الله حينئذ فيما ذكروا :

أما الحَرَامُ فالحِمَامُ دونَهْ ... والحِلُّ لا حِلَّ فأستبينَهْ

فكيف بالأمرِ الذى تبغينَه ... يحمى الكريمُ عِرْضَه ودينَهْ ؟ !

واسم هذه المرأة : رقيةُ (١) بنت نَوْفل أختُ ورقة بن نوفل ؛ تُكَنَّى : أمَّ

= بحر . وإنما كل ولده سعد وسعيد ورئاب . ومن ولد سعد : سُعَيْد الذى أعقب أولادا منهم : خديجة هذه التى يذكر أنها أم عبلة . انظر ص ٤٠٠ ، ٤٠٦ نسب قريش ، ولم يذكر من أولاد سعيد بن سهم من اسمها خديجة ، وإنما قال : إن أمها بنت سعيد بن سهم ص ٤٠٨ وانظر ص ١٥٤ وما بعدها جمهرة النسب .

(١) فى البداية ج ٢ ص ٢٦٢ أن اسمها رُقَيْقَة . وقد روى ذلك البيهقى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق وانظر ص ٥٣ من شرح السيرة للخشنى .



. . . .

قتال ، وبهذه الكُنْيَةِ وقع ذكرُها في رواية يُونُسَ عن ابن إسحاقٍ ، وذكر البَرْقِيُّ عن هِشام بن الكَلْبيِّ ، قال : إنما مر على امرأةٍ اسمها : فاطمة (١) بنت مُرٍّ ، كانت من أجمل النساء وأعفهن (٢) ، وكانت قرأت الكتبَ ، فرأت نورَ النُّبُوَّةِ في وجهِهِ ، فدعته إلى نكاحِها ، فأبى ، فلما أبى قالت :

إني رأيتُ مُخِيلَةً نَشَأَتْ فتَلَألأتْ بحَنَاتِمِ القَطْرِ (٣)

فَلَمَأْتُها نُورًا يُضيءُ به ما حَوْلَه كإضاءةِ الفَجْرِ (٤)

ورأيتُ سُقْيَاهَا حَيَا بَلَدٍ وَقَعَتْ به وعِمَارَةَ القَفْرِ (٥)

---

(١) كانت - كما روى الخرائطي - كاهنة من أهل تَبالة متهودة خثعمية ، وأنها عرضت عليه مائة من الإبل ليقع عليها في لحظتها ، فأبى . وأقول : لم ترد مسألة النور هذه في صحاح الأحاديث ، ولا يرفع من قيمة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن نردد هذا . وقرابة بني زهرة بن كلاب من رسول الله «ص» من وجهين . أحدهما : أنهم أقارب أمه ، والثاني : إخوة قصي بن كلاب بن مرة ، وهو جد والد جد النبي . والمشهور أن زهرة اسم الرجل - وهو المغيرة - أما ابن قتيبة ، فيقول : إنه اسم امرأته ص ٤١٧ جـ ١١ فتح الباري .

(٢) في الأصل وأعفه .

(٣) الشعر ينسب أيضا إلى الخثعمية الكاهنة التي عرضت نفسها على عبد الله والمخيلة : السحابة التي تخالها ماطرة وهي بضم الميم وفتحها . وحناتم : جمع حنتمة : السحابة السوداء لامتلائها من الماء ، وفي الطبري : لمعت بدلا من : نشأت .

(٤) لمأتها : أبصرتها .

وفي الطبري : له ، والبدر بدلا من به ، والفجر ، والبيت في اللسان .

(٥) لا يوجد هذا البيت في الطبري .



ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمدابن إسحاق قال : وُلد رسول الله – صلى الله عليهوسلم – يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة ليلة خلتْ من شهر ربيع الأوّل ، عامَ الفيل .

قال ابن إسحاق : وحدثنى المطَّلب بن عبد الله بن قَيْس بن مَخْرَمَةَ عن أبيه عن جَدِّه قيس بن مَخْرَمَةَ . قال :

ولدتُ أنا ورسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – عامَ الفيل : فنحن لِدَتَانِ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سَعْدِ بن زُرَارَةَ الأنصاريّ . قال : حدثنى من شِئْت من رجال قومى عن حسَّان بن ثابت ، قال : والله إنى لغلام يفَعَة ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعْقِل كلَّ ما سمعت ، إذ سمعتُ يهوديا يصرخ بأعلى صوته على أطَمَةٍ بيَثْرِبَ : يامعشر يهود ! حتى إذا اجتمعو إليه ، قالوا له : ويلك مالك ؟ ! قال : طَلَع الليلةَ نجمُ أحمد الذى وُلد به .

ورأيتُه شَرَفًا أبوء به(١) ما كُلُّ قادِحِ زَنْدِه يُورِى

لِلهِ ما زُهْرِيَّةٌ سَلَبَتْ منك الذى اسْتَلَبَتْ وماتَدْرِى(٢)

وفى غريب ابن قتيبة : أن التى عرضت نفسهاَ عليه هى : ليلى الْعَدَوِيَّة .

---

(١) فى الطبرى : فرجوتها فخرا أبوء به .

(٢) فى الطبرى : ثوبيك ما استلبت وما تدرى . هذا وقد ذكر الطبرى لها قصيدة أخرى عدتها ست أبيات وجاء فى آخرها .

ولما حوت منه أمينة ما حوت خوت منه فخرا ما لذلك ثان



قال محمد بن إسحاق : فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت ، فقلت . ابنُ كَمْ كان حسَّان بن ثابت مَقْدَمَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ؟ فقال : ابن ستِّين ، وقَدِمَها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن ثلاث وخَمْسين سنةً ، فسمع حسَّانُ ما سَمِع ، وهو ابن سبع سنين .

قال ابن إسحاق : فلما وضعتْه أمُّهُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسلت إلى جدّه عبدِ المطلب : أنه قد وُلد لك غلام ، فأْتِه فانظر إليه ، فأتاه فنظر إليه ، وحدَّثته بما رأت حين حَمَلتْ به ، وما قيل لها فيه ، وما أُمرتْ به أن تُسمِّيه .

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه ، فدخل به الكعبةَ ، فقام يدعو الله ، ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمِّه فدَفعه إليها ، والتمس لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرضعاء .

قال ابن هشام : المراضع . وفى كتاب الله تبارك وتعالى فى قصة موسى عليه السلام : « وحَرَّمْنا عَلَيْه المرَاضع » .

قال ابن إسحاق : فاسترضع له امرأةً من بنى سَعْدِ بن بكر ، يقال لها : حليمة ابنةُ أبى ذُؤَيب .

وأبو ذؤيب : عبد الله بن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رِزَام بن ناصرة بن فُصَيّة بن نَصْر بن سَعْدِ بن بكر بن هوَازن بن مَنْصور بن عِكرمة ابن خَصَفة بن قَيْس بن عَيْلان [بن مضر] .

. . . .



واسم أبيه الذى أرضعه – صلى الله عليه وسلم – الحارثُ بن عَبْدِ العُزّى ابن رفاعة ابن مَلاّن بن ناصرة بن فُصيَّة بن نَصْر بن سَعْدِ بن بَكْر ابن هَوازن .

قال ابن هشام : ويقال : هلال بن ناصرة .

قال ابن إسحاق : وإخوته من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأُنَيْسة بنت الحارث ، وخِدامة بنت الحارث ، وهى الشَّيْماء ، غلب ذلك على اسمها فلا تُعرف فى قومها إلا به . وهم لحليمة بنت أبى ذُؤَيب ، عبدِ الله بن الحارث، أمّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

ويذكرون أن الشَّيْماءَ كانت تَحْضُنُهُ مع أمها إذا كان عندهم .

قال ابن إسحاق : وحدثنى جَهْم بن أبى جَهْم مولى الحارث بن حاطب الجُمَحِىّ : عن عبد الله بن جَعْفر بن أبى طالب ، أو عمّن حدّثه عنه قال :

كانت حليمة بنت أبى ذُؤَيب السَّعْدية ، أمُّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التى أرْضعته ، تحدّث : أنها خرجتْ من بَلَدها مع زوجها ، وابن لها صغير تُرضعه فى نِسْوة من بنى سَعْد بن بَكْر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وذلك فى سنة شَهْباء ، لم تُبْق لنا شيئاً . قالت : فخرجتُ على أتان لى قَمْراء ، معنا شارف لنا ، والله ما تَبِضّ بقَطرة ، وما ننام ليلَنا أجمعَ من صَبِيِّنا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، مافى ثديىّ ما يُغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذّيه – قال ابن هشام : ويقال : يُغَذِّيه – ولكنّا كنّا نرجو الغيثَ والفرج ، فخرجت على أتانى



تالك ، فلقد أدَمْتُ بالرَّكب ، حتى شقّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفا ، حتى قَدِمْنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منّا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه ، إذا قيل لها إنه يَتيم ، وذلك : أنا إنما كنّا نرْجو المعروفَ من أبى الصبىِّ ، فكنّا نقول : يتيم ! وما عسى أن تَصْنع أمُّه وجَدُّه ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمتْ معى إلا أخذتْ رضيعا غيرى ، فلمّا أجْمعنا الانطلاقَ قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجعَ من بين صَواحبى ولم آخذْ رضيعاً ، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليَتيم ، فلآخذنّه ، قال : لا عليكِ أن تَفْعلى ، عسى الله أن يجعلَ لنا فيه بركةً . قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حَمَلنى على أخْذه إلا أنى لم أجد غيرَه . قالت : فلما أخذتُه ، رجعت به إلى رَحْلى فلما وضعته فى حِجْرى أقبلَ عليه ثَدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى رَوِىَ ، وشرب معه أخوه حتى رَوِىَ ، ثم ناما ، وما كنّا ننام معه قبلَ ذلك ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا إنها لَحَافِلٌ ، فَحَلَب منها ما شَرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا رِيًّا وشِبَعا ، فبتنا بخير ليلة . قالت : يقول صاحبى حين أصْبحنا . تَعلَّمى والله يا حَليمة ، لقد أخذت نَسمة مباركة ، قالت : فقلت : والله إنى لأرجو ذلك . قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملتُه عليها معى ، فوالله لقطعتْ بالرَّكب ما يقدر عليها شىء من حُمُرهم ، حتى إنّ صَواحبى ليقلْن لى : يابنة أبى ذُؤَيب ، ويحك! ارْبَعِى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهى هى ، فيقلن : والله إن لها لشأنا . قالت: ثم قدمنا منازلَنا من بلاد بنى سَعد . وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدَب منها . فكانت غنَمى تروح علىّ حين قَدِمْنا به معنا شِباعا لُبَّناً . فنحلُب ونشرب .



ومنا يحلُب إنسان قَطْرةَ لبن ، ولا يجدها فى ضَرْع . حتى كان الحاضرون من قَوْمنا يقولون لرُعيانهم : ويلكم اسْرَحوا حيث يسرَح راعى بنت أبى ذُؤَيب فتروح أغنامُهم جياعا ما تَبِضُ بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لُبَّناً ، فلم نزل نتعرّف من الله الزيادةَ والخير حتى مضت سنتاه وفصلتُه ؛ وكان يشِبّ شَبابا لا يشِبُّه الغِلمان ، فلم يبلغ سنَتَيْه حتى كان غلاما جَفْراً . قالت : فقَدِمْنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا ؛ لما كنَّا نرى من بَركته . فكلَّمنا أمّه ، وقلت لها : لو تركتِ بُنَيّ عندى حتى يغلُظَ ، فإنى أخشى عليه وَبَأ مكة ، قالت: فلم نزل بها حتى ردّته معنا

قالت : فرجعنا به ، فوالله إنه بعد مَقْدَمنا بأشهر مع أخيه لفى بَهْمٍ لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشْتد ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القُرَشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه ، فشقَّا بطنَه ، فهما يَسُوطانه قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما مُنْتَقِعا وجهُه . قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له: مالك يا بنيّ ، قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقَّا بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ما هو . قالت : فرجعنا إلى خبائنا .

قالت : وقال لى أبوه : يا حَليمة ، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أُصيب ، فألْحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، قالت : فاحتملناه ، فقَدِمنا به على أمّه ، فقالت : ماأقدمك به يا ظِئْرُ ، وقد كنتِ حريصةً عليه ، وعلى مُكْثه عندك ؟ قالت : فقلت : قد بلغ الله بابنى وقضيتُ الذى علىّ ، وتخوّفت

الأحداث عليه ، فأدّيته إليك كما تحبين . قالت : ما هذا شأنك ، فاصدقيني خبرك . قالت : فلم تدعْني حتى أخبرتُها . قالت : أفتخوّفت عليه الشيطانَ ؟ قالت : قلت : نعم ، قالت : كلا . والله ما للشيطان عليه من سَبيل ، وإن لبُنَيَّ لشأنا ، أفلا أخبرُكِ خبرَه . قالت: بلى . قالت : رأيت حين حملت به : أنه خرج مني نورٌ أضاء لى قُصورَ بُصْرَى من أرض الشام . ثم حملت به ، فوالله مارأيت من حَمْل قطُّ كان أخفَّ ولا أيسرَ منه ، ووقع حين ولدته ، وإنه لواضعٌ يدَيْه بالأرض ، رافع رأسَه إلى السماء . دعيه عنك ، وانطلقى راشدةً .

قال ابن إسحاق : وحدّثني ثَور بن يزيد ، عن بعض أهل العلم ، ولا أحسبه إلا عن خالد بن مَعْدان الـكَلاعى : أنّ نفراً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا له : يارسول الله . أخبِرْنا عن نَفْسك ؟ قال : نعم ، أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرى أخى عيسى ، ورأت أمى حين حملتْ بى أنه خرج منها نور أضاء لها قُصورَ الشام ، واستُرْضعتُ فى بنى سَعْد بن بَـكْر . فبينا أنا مع أخٍ لى خلفَ بيُوتنا نرعى بَهْماً لنا . إذ أتانى رجلان عليهما ثيابٌ بيض بطَسْت من ذهب مملوءة ثلجا . ثم أخذانى فشقَّا بطنى ، واستخرجا قَلْبى ، فشقَّاه . فاستخرجا منه عَلَقةً سوداء فطرحاها . ثم غَسَلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنْقَياه ، ثم قال أحدُهما لصاحبه : زِنْه بعشرة من أُمَّته ، فوزَنَنى بهم فوزنتهُم ، ثم قال : زنه بمئة مِن أُمَّته . فوزنني بهم فوزنتهُم ، ثم قال : زنه بألف من أُمَّته ، فوزنني بهم فوزنتهم . فقال : دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها .

. . . .

فصل فى المولد

فى تفسير بَقِيّ بن مَخْلَد أن إبليسَ ـ لعنه اللهُ ـ رَنّ أربعَ رَنّاتٍ : رَنّة حين لُعِن ، ورَنّة حين أُهْبِطَ ، ورَنّة حين وُلِد رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورَنّة حين أُنزلت فاتحةُ الكتاب . قال : والرَّنينُ والنُّخارُ (١) من عملِ الشيطانِ . قال : ويُكرَه أن يقال : أمُّ الكتابِ ، ولكن : فاتحةُ الكتاب . وروى عن عُثْمانَ بن أبى العاص عن أمه أمِّ عثمان (٢) الثَّقَفِيّة ، واسمُها : فاطمةُ بنت عبد الله ، قالت : «حضرتُ ولادَةَ رسولِ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ فرأيتُ البيتَ حين وُضِعَ قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجومَ تدنو حتى ظننتُ أنها ستقع عَلَيّ » . ذكره أبو عُمَر فى كتاب النساء . وذكره

---

(١) الرنة : الصيحة الشديدة ، والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . والنخار صوت يخرج من الخياشيم .

(٢) فى الأصل : « أبى العاص أمه عن أم عثمان » والتصويب من كتب السنة وقد أسلم عثمان هذا فى وفد ثقيف ، واستعمله النبى على الطائف ، وأقره أبو بكر ، ثم عمر . وهو الذى منع ثقيفا عن الردة إذ خطبهم ، فقال : كنتم آخر الناس إسلاما ، فلا تكونوا أولهم ارتدادا ، وجاء عنه أنه شهد آمنه لما ولدت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى قصة أخرجها البيهقى فى الدلائل والطبرانى من طريق محمد بن أبى سويد الثقفى عنه ، قال : حدثتنى أمى : فعلى هذا يكون عاش نحوا من ١٢٠ سنة « الإصابه رقم ٥٤٣٣ » وحديثها لم يروه سوى البيهقى والطبرى وابن عبد البر . ويقول الزركشى : إن ولادة النبى « ص » كانت نهاراً ، ونقل تضعيف ابن دحية لرواية تدلى النجوم ليلة مولده .



. . . .

الطَّبَرِيُّ أيضاً فى التاريخ(١) . ووُلِدَ رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَعْذُورا مَسْرُورا ، أى : مَخْتُوناً مَقْطوع السُّرَّة(٢) يقال : عُذِرَ الصَّبِيُّ وأُعْذِر . إذا خُتِن ، وكانت أمُّه تحدِّث أنها لم تجد حين حَمَلَتْ به ما تجده الحوامِلُ من ثِقَلٍ ولا وَحَمٍ ، ولا غير ذلك ، ولما وضعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقع إلى الأرْضِ مَقْبُوضَةً أصابِـعُ يديه ، مُشيراً بالسَّبَّابَةِ كالمُسَبِّحِ بها ، وذكر ابنُ دُرَيْدٍ أنه ألقيت عليه جَفْنَةٌ لئلا يراه أحدٌ قبل جده ، فجاء جدُّه ، والجَفْنَةُ قد انفَلَقَتْ عنه (٣) ، ولما قيل له : ما سَمَّيْتَ ابنَك ؟ فقال : محمداً ، فقيل له :

---

(١) ص ١٥٦ ج ٢ الطبرى .

(٢) ضعف ابن كثير كل الأحاديث التى رويت عن هذا ثم قال: «وقد ادعى بعضهم صحته لما ورد له من الطرق ،حتى زعم بعضهم أنه متواتر ، وفى هذا كله نظر » وقال عن الحديث الذى زعم فيه الراوى أن جبريل ختن النبى : « وهذا غريب جدا » . ثم قال : «وقد روى أن جده عبد المطلب ختنه ، وعمل له دعوة جمع قريشا عليها »ص ٢٦٥ ج ٢ البداية .وقال ابن القيم فى زاد المعاد:«إنه روى فى كونه ولد مختونا مسرورا حديث لا يصح،ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات» ثم قال: وليس فيه حديث ثابت ، وليس هذا من خواصه ، فإن كثيرا من الناس يولد مختونا ،ويقول ابن العديم : إنه صلى الله عليه وسلم ختن على عادة العرب.

(٣) الذى ذكره ابن دريد : « وكانت سنتهم فى المولود إذا ولد فى استقبال الليل كَفَئوا عليه قدرا حتى يصبح ، ففعلوا ذلك بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأصبحوا ، وقد انشقت عنه القدر » ص ٨ الاشتقاق ط ١ السنة المحمدية ، ولم يسندها إلى أحد .وأقول : كل ما سبق ذكره لم يرد فى حديث يعتد به . وليس الرسول عليه الصلاة والسلام فى حاجة إلى أن نكذب له ، وليس من الصلاة عليه أن نكذب عليه ! !



. . . .

كيف سَمَّيت باسمٍ ليس لأحدٍ من آبائك وقومِك ؟ ! فقال : إنى لأرجو أنْ يَحْمَدَه أهلُ الأرضِ كلُّهم(١) ، وذلك لرؤيا كان رآها عبدُ المطلب ، وقد ذكر حديثها عَلِيٌّ القَيرَوانيُّ العابِر فى كتابِ البُستان . قال : كان عبدُ المطلبِ قد رأى فى منامه كأنَّ سِلْسِلَةً من فِضَّةٍ خرجت من ظَهْرِه لها طَرَفٌ فى السماء وطرَفٌ فى الأَرضِ ، وطرف فى المشرقِ ، وطَرَف فى المَغْرِب ، ثم عادت كأنها شَجَرةٌ ، على كُلِّ ورقة منها نورٌ ، وإذا أهلُ المشرِقِ والمَغرِبِ كأنهم يَتعَلَّقُون بها ، فقَصَّها ، فعُبِّرت له بمولودٍ يكون من صُلْبه يَتْبعه أهلُ المشرقِ والمغربِ ، ويَحْمَدُه أهلُ السماء والأرضِ(٢) ، فلذلك سَمّاه : محمداً مع ما حدَّثته به أمُّه حين قيل لها : إنك حَمَلْتِ بسيدِ هذه الأُمَّةِ ، فإذا وَضَعْتِه فسَمِّيه محمداً . الحديث .

اسم محمد وأحمد :

قال المؤلف : لا يُعْرَفُ فى العربِ من تَسَمَّى بهذا الاسم قبله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا ثلاثة طمع آباؤهم ـ حين سمعوا بذكر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبقرب زمانه ، وأنه يُبعث فى الحجاز ـ أن يكون ولدا لهم . ذكرهم ابنُ فُورَكٍ فى كتابِ الفصول ، وهم : محمد بن سفيان بن مُجاشع ، جَدُّ جدِّ الفَرَزْدَقِ الشاعرِ ، والآخرُ : مُحَمَّد بن أُحَيحَة بن الجُلاَح بنِ الحَرِيشِ بن جمحي(٣) بن كُلْفَة

(١) فى الاشتقاق : أردت أن يُحمد فى السموات والأرض .

(٢) سيأتى الكلام عن هذا كله والروايات واهية .

(٣) هو جَحْجَبَى ـ بفتح الجيم الأولى والأخرى . وبسكون الحاء وفتح الباء . فقد ورد هكذا فى نسب قريش ، وفى اللسان ، وفى الاشتقاق لابن دريد =



. . . .

ابن عَوْف بن عَمْرو بن عَوْف بنِ مالك بن الْأَوْسِ ، والآخر : محمد بن حُمْران بن رَبيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وَفَدوا على بعضِ الملوكِ ، وكان عنده عِلْمٌ من الكتابِ الأوّلِ ، فأخبرهم بمبعثِ النبي — صلى الله عليه وسلم — وباسمه ، وكان كلٌّ واحدٍ منهم قد خَلّف امرأته حاملا ، فنذَر كلٌّ واحدٍ منهم : إن وُلد له ذَكَر أن يُسَمِّيَه محمدا ، ففعلوا ذلك .

قال المؤلف : وهذا الاسم منقول من الصفة ، فالْمُحَمَّدُ فى اللغة هو الذى يُحْمَد حَمْدا بعد حمد ، ولا يكون مُفَعَّل مثل : مُضَرَّب و مُمَدَّح إلا لمن تكرر فيه الفعلُ مرة بعد مرة .

وأما أحمد فهو اسْمُه — صلى الله عليه وسلم — الذى سُمِّيَ به على لسان عيسى وموسى — عليهما السلام — ، فإنه منقول أيضاً من الصِّفَة التى معناها

= وفى القاموس ، وفى جمهرة أنساب العرب . وفى الاشتقاق لابن دريد عن محمد بن أحيحة أنه محمد بن بلال بن أحيحة ، وفى جمهرة أنساب العرب : محمد بن عقبة بن أحيحة . وفى اللسان عن ابن برى أن من سمى فى الجاهلية بمحمد هم سبعة ، وقد عدهم وذكر منهم الثلاثة الذين ذكرهم السهيلى . وانظر ص ١٦ نسب قريش ، ص ٩ الاشتقاق ، ص ٢١٥ جمهرة ابن حزم ، ومادة حمد فى اللسان ومادة جحب فى القاموس . وفى الخزانة للبغدادى ورد أن الذين سموا باسم محمد فى الجاهلية يبلغون عشرين أو خمسة عشر ، وذكر مغلطاى أن عددهم خمسة عشر رجلا . انظر ص ٨ ، ٩ الاشتقاق بتعليقات الأستاذ عبد السلام هارون ، هذا ويذكر ابن دريد أن العرب سمت فى الجاهلية : أحمد ، وذكر منهم أربعة ص ٩ وما بعدها .



. . . .

التَّفضيلُ ، فمعنى أحمد : أى أَحْمَدُ الحامدين لربه ، وكذلك هو المعنى ؛ لأنه تُفْتَتح عليه فى المقام المحمود محامد لم تُفْتَتح على أحد قبله ، فيحمَد ربَّه بها ؛ ولذلك يُعْقَد له لواء الحمد .

وأما محمد فمنقول من صِفةأيضاً ، وهو فى معنى : مَحْمود . ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار ، فالمحمَّدُ هو الذى حُمِد مرة بعدَ مرَّة ، كما أن الْمُكرَّمَ مَنْ أُكْرِم مرة بعد مرة ، وكذلك : الْمُمَدَّح ، ونحو ذلك . فاسم محمد مطابق لمعناه ، والله ـ سبحانه ـ وتعالى سماه به قبل أن يُسَمِّى به نفسه،فهذا عَلَمَ من أعلام نبوته؛ إذ كان اسمه صادقا عليه ، فهو محمود ـ عليه السلام ـ فى الدنيا بما هَدَى إليه ، ونَفَع به من العلم والحكمة ، وهو محمود فى الآخرة بالشَّفَاعَةِ ، فقد تكرر معنى الحمدِ كما يقتضى اللفظُ ، ثم إنه لم يكن محمَّداً ، حتى كان أحْمَدَ حمَّدِ ربَّه فنبَّأه وشرَّفه ؛ فلذلك تقدم اسمُ أحمدَ على الاسم الذى هو مُحمَّدٌ ، فذكره عيسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : اسمُه أحمدُ ، وذكره موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال(١) له ربُّه : تلك أمة أحمدَ ، فقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمدَ ، فبأحمد ذُكر قبل أن يُذْكر بمحمد ؛ لأن حمدَه لربه كان قبلَ حَمْدِ الناسِ له ، فلما وُجد وبُعث ، كان محمداً بالفعل .

وكذلك فى الشفاعة يَحْمَد رَبَّه بالمحامدِ التى يفتحها عليه ، فيكون أحمدَ الحامدين لربه ، ثم يُشَفَّع فيُحْمَد على شفاعته . فانظر : كيف ترتب هذا

---

(١) قبل هذا ورد كما ذكر ابن القيم : « موسى قال لربه : « يا رب إنى أجد أمة من شأنها كذا وكذا ، فاجعلهم أمتى ؟ » ص ١٢٦ جلاء الأفهام وهو حديث ساقط



. . . .

الاسمُ قبل الاسم الآخر(١) فى الذكرِ والوجودِ ، وفى الدنيا والآخرة تَلُحْ

---

(١) أطال ابن القيم فى إبداع فى شرح أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ، وفرّق بين محمد وأحمد من وجهين. فقال : « أحدهما محمداً إن: هو المحمود حمدا بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه ، وأحمد : أفعل تفضيل من الحمد يدل على أن الحمد الذى يستحقه أفضل مما يستحقه غيره ، فمحمد: زيادة حمد فى الكمية ، وأحمد: زيادة فى الكيفية. فيحمد أكثر حمد ، وأفضل حمد حمده البشر. والوجه الثانى : أن محمداً هو المحمود حمدا متكررا كما تقدم ، وأحمد هو الذى حمدُه لربه أفضل من حمد الحامدين غيره ، فدل أحد الاسمين وهو: محمد على كونه محمودا ، ودل الاسم الثانى ، وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه » ثم رد ابن القيم على السهيلى فقال : « وقد ظن طائفة منهم : أبو القاسم السهيلى وغيره أن تسميته — صلى الله عليه وسلم — بأحمد كانت قبل تسميته بمحمد » ثم ذكر ابن القيم ما استدل به السهيلى ، ثم قال : « وبنوا على ذلك أن اسم أحمد تفضيل من فعل الفاعل ، أى: أحمد الحامدين لربه ، ومحمد هو المحمود الذى تحمده الخلائق ، وإنما يترتب هذا الاسم بعد وجوده وظهوره ، فإنه حينئذ حمده أهل السماء والأرض ، ويوم القيامة يحمده أهل الموقف ، فلما ظهر إلى الوجود وترتب على ظهوره من الخيرات ماترتب ، فحمده حينئذ الخلائق حمدا مكررا ، فتأخرت تسميته بمحمد ، وهذا يقربه كل عالم من مؤمنى أهل الكتاب » ومضى ابن القيم يناقش رأى السهيلى هذا ، فقال ردا عليه : إن محمدا — صلى الله عليه وسلم — سمى باسم محمد فى التوراة ، وهى قبل الإنجيل ، ثم استشهد ابن القيم على رأيه هذا بآيات ذكر أنها من التوراة ، ومضى يثبت بتفسيرها أنها تؤيد ماذهب إليه ، وقد أطال فى هذا ، ثم قال : « والمقصود أن اسم النبى فى التوراة محمد «ص» ، كما هو فى القرآن محمد ، وأما المسيح ، فإنما سماه : أحمد ... فإذن تسميته بأحمد وقعت متأخرة عن تسميته محمدا فى التوراة ، ومتقدمة على تسميته محمدا فى القرآن ، فوقعت بين التسميتين محفوفة بهما وقد تقدم أن هذين الاسمين صفتان فى الحقيقة . والوصفية فيها لا تنافى العلمية ، وأن معناهما مقصود ، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها ، فمحمد =

. . . .

لك الحِكمَةُ الإلهيَّةُ فى تخصيصِه بهذين الاسمين ، وانظر : كيف أُنزلت عليه

= مفعّل من الحمد ، وهو الكثير الخصال التى يحمد عليها حمدا متكررا حمدا بعد حمد. وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير ، وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والأوصاف والأفعال التى يستحق تكرار الحمد عليها ، ولا ريب أن بنى إسرائيل هم أولو العلم الأول . . . فعرف النبي (ص) عند هذه الأمة باسم محمد الذى قد جمع خصال الخير التى يستحق أن يحمد عليها حمدا بعد حمد ، وعرف عند أمة المسيح بأحمد الذى يستحق أن يحمد أفضل مما يحمد غيره ، والذى حمده أفضل من حمد غيره ، فإن أمة المسيح أمة لهم من الرياضات والأخلاق والعبادات ماليس لأمة موسى ، ولهذا كان غالب كتابهم مواعظ وأخلاقا وحضا على الإحسان . . . فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل الدال على الفضل والكمال ، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة ، وجاء فى الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله — يعنى القرآن — بالاسمين معا ، فتدبر هذا الفصل . . . وقال : إن الشرائع ثلاثه : شريعة عدل ، وهى : شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص ، وشريعة فضل وهى : شريعة الإنجيل مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان ، وشريعة جمعت هذا وهذا ، وهى : شريعة القرآن ، فإنه يذكر العدل ويوجبه ، والفضل ويندب إليه . وقول أبى القاسم — يعنى السهيلى — إن اسم محمد — صلى الله عليه وسلم — إنما ترتب بعد ظهوره فى الوجود ؛ لأنه حينئذ حمد حمدا مكررا ، فكذلك يقال فى اسمه أحمد أيضا ، سواء . وقوله فى اسمه أحمد : إنه تقدم لكونه أحمد الحامدين لربه ، وهذا يقدم على حمد الخلائق له فبناء منه على أنه - أى : أحمد - تفضيل من فعل الفاعل ، وأمّا على القول الآخر الصحيح — يعنى التفضيل من فعل المفعول — فلا يجىء هذا ، وقد ذهب ابن القيم إلى أن الاسمين محمدا وأحمد إنما يقعان على المفعول ، لأنه يحمد أكثر مما يحمد غيره وذلك أبلغ فى مدحه وأتم معنى ، لأنه لو أريد به معنى الفاعل اسمى الحماد ، وهو كثير الحمد ، كما سمى : محمدا ، وهو المحمود كثيرا ؛ فإنه كان أكثر الخلق حمدا لربه ، فلو كان اسمه باعتبار الفاعل - يعنى أنه فاعل الحمد — لكان الأولى أن يسمى =



. . . .

سورةُ الحمد وخُصَّ بها دون سائر الأنبياء ، وخص بلواء الحمد ، وخص بالمقام المحمود ، وانظر : كيف شرع لنا سُنَّة وقرآنا أن نقولَ عند اختتام الأفعال ، وانقضاء الأمور : الحمدُ للهِ ربِّ العالمين . قال الله سبحانه وتعالى : « وقُضى بينهم بالحقِّ وقيل : الحمدُ للهِ ربِّ العالمين » الزمر : ٧٥ . وقال أيضا : « وآخرُ دَعْواهم : أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين » يونس ١٠ . تنبيها لنا على أن الحمدَ مَشروعٌ لنا عند انقضاء الأمور . وسَنَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحمدَ بعد الأكل والشرب ، وقال عند انقضاء السفر : آيبُون تائبون عابِدون لِرَبِّنَا حامدُون(١) .

ثم انظر لكونه ـ عليه السلامُ ـ خاتَمَ الأنبياء ، ومؤذنًا بانقضاء الرسالة ، وارتفاعِ الوحى ، ونذيرا بقرب الساعة وتمامِ الدنيا مع أن الحمد كما قدمنا مقْرُونٌ بانقضاءِ الأمورِ ، مشروعٌ عنده ـ تجدْ معانىَ اسْمَيْهِ جميعاً ، وما خُص به من الحمد والمحامد مُشاكلا لمعناه ، مطابقا لصفتِه ، وفى ذلك بُرهانٌ عظيمٌ ، وعَلَمٌ واضِحٌ على نُبُوَتِهِ ، وتخصيصُ الله له بكرامتِه ، وأنه

ــــــــ

= حمادا ، كما أن اسم أمته : الحمادون . وأيضا فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمى : محمدا ، وأحمد ، فهو الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلكثرة خصائله المحمودة التى تفوت عد العادين سمى باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة . ص ١٢٥ جلاء الأفهام للامام ابن القيم .

(١) رواه مسلم .



. . . .

قَدَّم له هذه المُقدِّماتِ قبل وجوده تكرِمَةً له ، وتَصْدِيقاً لأمره — صلى الله عليه وسلم — وشرف وكرم .

تعويذ عبد المطلب :

وذُكِرَ أن عبدَ المطلبِ دخل به الكعبةَ وعَوَّذه ، ودعا له . وفى غير روايةِ ابنِ هشامٍ أنَّ عبد المطلب قال وهو يعوذه :

الحمدُ لله الذى أعطانى ... هذا الغلامَ الطَّيِّبَ الأرْدَانِ

قد ساد فى المهْدِ على الغلْمان ... أُعيذُه بالبيتِ ذى الأركَانِ

حتى يكونَ بُلغَة الفِتيان ... حتى أراه بالغَ البُنْيانِ

أُعيذُه من كل ذى شَنَآن ... من حاسِدٍ مُضْطَرِبِ العِنان

ذِى هِمَّةٍ ليس له عينان ... حتى أراه رافعَ السَّان(١)

أنت الذى سُميتَ فى القرآنِ ... فى كتبٍ ثابتةِ المَثانِي

أَحْمَد مُكتوبٌ على البيان(٢)

---

(١) كذا !! ولعلها الشاق وفى رواية : اللسان .

(٢) فى البداية : اللسان ، وليس لهذا سند صحيح . وفى كلماته دليل أنه كذب مفترى . وكذلك ما روى ابن هشام من قول عبد المطلب . « أعيذه بالواحد من شر كل حاسد » فقد قال العراقى : لا أصل لها. وقد رواه أبو نعيم فى الدلائل، وقال عنه الشامى : وسنده واه جدا .



. . . .

تاريخ مولده :

فصل : وذكر أن مولده عليه السلام كان فى ربيع الأول ، وهو المعروف (١)

---

(١) روى مسلم فى صحيحه أن أعرابيا سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن صيام يوم الاثنين فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، وأنزل على فيه » انفرد بإخراجه مسلم ، وروى أحمد فى حديث تفرد به أنه ولد يوم الاثنين واستنبىء يوم الاثنين . ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين .

والجمهور على أنه كان فى ربيع الأول ، لكن متى ؟ ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب والواقدى أنه كان لليلتين خلتا منه .

وممن قالوا بأنه كان لثمان خلون منه : ابن حزم ، وقد روى هذا مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم ، وذكر ابن عبد البر أن أصحاب التواريخ صححوا هذا . وقطع به محمد بن موسى الخوارزمى الحافظ الكبير ، ورجحه أبو الخطاب بن دحية ، وقيل : كان لعشر خلون منه . وقيل لثنتى عشرة خلت منه ، وقيل : لسبعة عشر ، وقيل : لثمان بقين منه .

وقيل : إنه ولد فى رمضان نقله ابن عبد البر عن الزبير بن بكار مستندا إلى أنه — صلى الله عليه وسلم — أوحى إليه فى رمضان على رأس أربعين سنة من عمره ، فيكون مولده فى رمضان ، وكان مولده لثنتى عشرة ليلة خلت منه ، وكان مولده عام الفيل على قول الجمهور . قيل : كان بعده بشهر ، أو بأربعين يوما . أو بخمسين وقيل : إن عام الفيل كان قبله بعشر سنين . وقيل : بل بثلاث وعشرين سنين . وقيل : بل بثلاثين ، وقيل : بل بأربعين وقال ابن خياط : المجمع عليه أنه ولد عام الفيل . ويقول النووى : ونقل إبراهيم بن المنذر الحزامى شيخ البخارى وخليفة ابن خياط وآخرون الإجماع عليه — أى : على أنه ولد عام الفيل — واتفقوا على أنه ولد يوم الاثنين من شهر ربيع الأول ، واختلفوا هل هو فى اليوم الثانى أم الثامن أم العاشر أم الثانى عشر .



. . . .

وقال الزبير : كان مولده فى رمضانَ ، وهذا القول موافق لقول من قال : إن أمَّه حملت به فى أيامِ التَّشْرِيقِ ، والله أعلم .

وذكروا أن الفيل جاء مكة فى المحرم ، وأنه — صلى الله عليه وسلم — ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما ، وهو الأكثر والأشهر ، وأهلُ الحِسابِ يقولون : وافق مولدُه من الشهورِ الشمسية نيسانَ ، فكانت لعشرينَ مضت منه ، وولد بالْغَفْر من المنازل ، وهو مولد النبيين ، ولذلك قيل : خير منزلتين فى الأبدبين الزُّنَابَا والأسَد ، لأن الغَفْرَ يليه من العقرب زُنَاباها ، ولا ضَرَرَ فى الزُّنَابا إنما تضر العقربُ بذَنبها ، ويليه من الأسد أَلْيَته ، وهو السِّماك ، والأسَدُ لا يضر بأَلْيَته إنما يضر بِمِخْلَبه(١) ونابِه .

ووُلد بالشِّعبِ ، وقيل بالدارِ التى عندالصفا ، وكانت بعدُ لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ، ثم بنتها زُبَيْدةُ مَسْجِداً حين حجَّت(٢) .

---

(١) خرافة ربط مولد الإنسان وحظوظ عيشه ، وأقدار حياته بالنجوم ومنازلها سخف عقلى ، وعوار فى الدين . ولا أدرى كيف يردد السهيلى مثل هذا الخرف . وغيره يزعم أن مولده « ص » كان والطالع لعشرين درجة من الجدى ، وكان المشترى وزحل فى ثلاث درج من العقرب ، وهى درجة وسط السماء وكان موافقا من البروج الحمل عند طلوع القمر أول الليل ص ٢٦١ ج ٢ البداية والعقرب : برج فى السماء ويؤنث ، وزنا بالعقرب أو زبانياها : قرناها . وكوكبان نيران فى قرنى العقرب . والسماك الأعزل والرامح نجمان نيران ، أوهما رجلا الأسد ، والغفر : منزلة للقمر : ثلاثة أنجم صغار وهى من الميزان .

(٢) كانت بزقاق المدكك . وكانت من قبل بيد عقيل بن أبى طالب . ويقول ابن الأثير : إن المصطفى وهبها له ، فلما توفى باعها ولده ، وهذا الزقاق كان فى شعب =



. . . .

تحقيق وفاة أبيه :

وذكر أنه مات أبوه ، وهو حَمْلٌ(١) ، وأكثر العلماء على أنه كان في المهد. ذكره الدّولابي وغيره ، قيل: ابن شهرين ، ذكره [أحمد] ابن أبي خَيْثَمَةَ ، [زهير بن حرب] وقيل: أكثر من ذلك ، ومات أبوه عند أخواله بني النجار ، ذهب لِيَمْتَارَ لأهله تمراً ، وقد قيل : مات أبوه ، وهو ابن ثمانٍ وعشرين شهراً ، وأنشدوا رَجَزا لعبد المطلب يقوله لابنه أبي طالب :

أوصيك يا عبدَ مَنَافٍ بَعْدِي　　بموتم بعــــد أبيه فَرْدِ
فارقه وهْو ضَجِيعُ المهد

وكان بينه وبين أبيه — عليه السلام — في السن ثمانيةَ عشرَ عاما .

أبوه من الرضاعة :

وذكر الحارث بن عبد الْعُزَّى أبا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الرضاعة ، ولم يذكر له إسلاما ، ولاذكره كثير ممن ألف في الصحابة ،

= مشهور بشعب بني هاشم من الطرف الشرقي لمكة . ويقال بالردم أو بعسفان ، ولما بيع الموضع لمحمد بن يوسف أدخله في داره التي يقال لها : البيضاء ، ولم يزل ذلك البيت كذلك حتى حجت الخيزران جارية المهدي فجعلته مسجدا يصلى فيه وأخرجته من الدار إلى الزقاق الذي يقال له : زقاق المولد . ص ٦١٤ القرى للمحب الطبري

(١) توفي عن خمس وعشرين ، قال الواقدي: وهو الأثبت أو عن ثلاثين، قاله الحاكم أو عن ثمان وعشرين ، أو عن ثماني عشرة سنة، وصححه الحافظ العلائي وابن حجر واختاره السيوطي .



. . . .

وقد ذكره يونُس بن بكير فى روايته ، فقال : حدثنا ابن إسحاق قال : حدثنى والدى إسحاق بن يَسار ، عن رجالٍ من بنى سعد بن بكر ، قال : قدم الحارث ابن عبد العُزّى ، أبو رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الرضاعة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكةَ حين أُنزل عليه القرآن ، فقالت له قريش : ألا تسمع يا حارِ(١) مايقول ابنُك هذا ؟ فقال : ومايقول ؟ قالوا : يزعم أن الله يَبعث بعد الموت ، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ، ويكرم فيهما من أطاعه ، فقد شتّت أمرَنا ، وفرّق جماعتنا . فأتاه ، فقال : أىْ بُنَىّ مالك ولقومِك يشكونك ، ويزعمون أنك تقول : إن الناسَ يُبعثون بعد الموت ، ثم يصيرون إلى جنةٍ ونار ؟! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : نعم أنا أزعم ذلك ، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت ، لقد أخذت بيدِك ، حتى أعرِّفك حديثَك اليوم ، فأسلم الحارثُ بعد ذلك ، وحسُن إسلامه ، وكان يقول حين أسلم : لو قد أخذ ابنى بيدِى ، فعرفنى ما قال ، لم يرسلنى إن شاء الله حتى يدخلَنى الجنة(٢) .

---

(١) ترخيم لحارث

(٢) لم يروه أحد غيره . وخاتمته مجرد تمن فقط ، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم قال لأعز أهله : العباس وصفية وفاطمة أن يعملوا ، لأنه لايغنى عنهم من الله شيئا . هذا ، وفى أخذ عبد المطلب للرسول « ص » وهو طفل ، ودخوله الكعبة : قد ورد فى أصل الرواية عن ابن إسحاق أنه أدخله على هبل فى جوف الكعبة .

ملحوظة . حديث ابن مخرمة أنه هو ورسول الله لدان . رواه البيهقى وأحمد =



. . . .

تحقيق اسم ناصرة بن قصية :

وذكرنا صِرَةَ بن قُصَيَّة فى نسب حليمة . وهو عندهم : فُصَيَّةُ بالفاء تصغير : فَصَاة ، وهى النَّواة . ووقع فى الأصل فى جميع النسخ : قُصَيَّة بالقاف(١) . وقال أبو حَنيفةَ أيضا : الْفَصَا : حَبُّ الزَّبيبِ ، وهو من هذا المعنى .

الشيماء :

وذكر الشَّيْماء أختَ رسولِ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرضاعة ، وقال

= وروى قباث بن أشيم أنه حين ولد رسول الله رأى ـ أى قباث ـ خزق الفيل أخضر محيلا . وقد ورد هذا فى حديث رواه الترمذى والحاكم عن ابن إسحاق .

وحديث اليهودى الذى صرخ . رواه البيهقى وأبو نعيم . ونعرج على رأى سلفى جليل فنجده يقول : « لاخلاف أنه ولد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجوف مكة ، وأن مولده كان عام الفيل ، وكان أمر الفيل : تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب ، وكان دينهم خيرا من دين أهل مكة إذ ذاك ؛ لأنهم كانوا عباد أوثان ، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصرا لاصنع للبشر فيه إرهاصا وتقدمة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى خرج من مكة وتعظيما للبيت الحرام » ص ٣٢ ح١ زاد المعاد لابن القيم . وذكر رأيين فى وفاة أبيه أصحهما : أنه مات وهو حمل ، والآخر : أنه توفى بعد ولادته بسبعة أشهر .

هذا : ونيسان هو الشهر السابع من شهور السنة السريانية والعبرية ، ويقابل إبريل . وفى حديث حسان بن ثابت : سعد بن زرارة . صوابه : أسعد . ويفعة : قوى قد طال قده ، مأخوذ من اليفاع ، وهو العالى من الأرض « ص ٥٤ الخشنى » .

(١) فى النسخة المطبوعة على هامش الروض : فصية بالفاء ، ويقول الخشنى ص ٥٤ : أنه هو الصواب .



. . . .

فى اسمها : خِذامة بكسر الخاء المنقوطة ، وقال غيره : حُذَافَة بالحاء المضمومة وبالفاء مكان الميم ، وكذلك ذكره يونس فى روايته عن ابن إسحاق ، وكذلك ذكره أبو عُمَرَ فى كتاب النساء(١) .

(شرح ما فى حديث الرضاع)

الرضعاء والمراضع :

قال ابن إسحاق : فالتمس لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – الرُّضَعَاء . قال ابنُ هشام : إنما هو المراضِع . قال : وفى كتاب الله سبحانه : (وحَرَّمنا عليه المَراضِعَ [مِنْ قَبْلُ]) القصص : ١٢ والذى قاله ابنُ هشام ظاهر ؛ لأن المراضِع جمعُ : مُرْضِع ، والرُّضَعَاء : جَمْعُ رَضِيع ، ولكن لرواية ابن إسحاق مَخْرَجٌ من وجهين ، أحدهما : حذف المضافِ كأنه قال : ذَوَات الرُّضَعَاء ، والثانى : أن يكونَ أراد بالرُّضَعَاء : الأطْفَالَ على حقيقةِ اللفظ ؛ لأنهم إذا وجدوا له مُرضِعة تُرضِعه ، فقد وجدوا له رضيعا ، يَرضَع معه ، فلا يبعد أن يقال : الْتَمِسُوا له رَضِيعا ، عِلْماً بأنَّ الرضيعَ لابدَّ له من مُرْضِع .

مرضعاته عليه السلام :

وأرضعته – عليه السلام – ثُوَيْبة(٢) قبلَ حليمةَ . أرضعته

---

(١) فى رواية : جدامة بضم الجيم أو خدامة أو جِذامة وانظر ص٥٤ . الخشنى .

(٢) توفيت سنة سبع . قال ابن منده : اختلف فى إسلامها ، وقال أبو نعيم : لا أعلم أحدا ذكره ، ص١٣٧ ج١ المواهب ، وحديث حليمة بهذا السند رواه الحاكم وابن حبان وابن راهويه وأبو ليلى والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم . وفى شرح =



. . . .

وعمَّه حمزةَ وعبدَ اللهِ بن جحش ، وكان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - يعرف ذلك لثُوَيْبَةَ ، ويصلها من المدينة ، فلما افتتح مكةَ سأل عنها وعن ابنها مَسْرُوح ، فأُخْبِرَ أنَّهما ماتا ، وسألَ عن قَرابتها ، فلم يجد أحدا منهم حَيًّا . وثُوَيْبَةُ كانت جاريةً لأبى لَهَبٍ ، وسنذكر بقيةَ حديثها - إن شاء اللهُ - عند وفاة أبى لهبٍ .

يغذيه أو يعذيه :

وذكر قولَ حَليمةَ : وليس فى شارِفِنا ما يُغَذِّيه . وقال ابنُ هشامٍ : ما يُغَذِّيه بالذال المنقوطة ، وهو أَتَمُّ فى المعنى من الاقتصار على ذكرِ الغَداء دون الْعَشَاءِ(١) ، وليس فى أصل الشيخ روايةٌ ثالثة ، وعند بعض الناس روايةٌ

=المواهب أن النسوة اللاتى خرجت معهن حليمة كن عشرا . والسنة الشهباء : ذات القحط والجدب ، والأرض الشهباء : البيضاء التى لاخضرة فيها لقلة المطر . والأتان : الأنثى من الحمير ، ولا يقال أتانة ، والقمراء : التى فى لونها بياض ، والصبى الذى كان مع حليمة هو : عبد الله بن الحارث . والشارف : الناقة المسنة ، ويقال للذكر والأنثى . وماتبض بقطرة معناها : لاترشح ولاتسيل ، ومن رواها بالصاد فمعناها : مايبرق عليها أثر لبن ، من البصيص ، وهو البريق واللمعان . ص ٥٥ الخشنى

(١) يقول أبو ذر الخشنى : «ومن رواه مايغذيه فمعناه : مايقنعه ولا يمنعه من البكاء . يقال : أغذيت الرجل عن الشىء : إذا منعته منه . وقال ابن هشام : يغذيه . هذا من لفظ الغذاء ، ومن رواه : يعذيه بالعين المهملة فمعناه : ما يشبعه بعض الشبع مأخوذ من النبات العذى ، وهو الذى يشرب فى الصيف والشتاء بعروقه من الأرض دون أن يسقى ، أو الذى لايسقيه إلا المطر . وتكون هذه هى الرواية الرابعة للكلمة»



. . . .

غير هاتين وهى يُعْذِبه بعينٍ مُهْمَلة وذال منقوطة وباء مُعجَمة بواحدة ، ومعناها عندهم : مايُقنعه حتى يرفعَ رأسَه ، وينقطعَ عن الرضاع ، يقال منه: عَذَبْتُه وأعْذَبْتُه : إذا قطعته عن الشُّرب ونحوه ، والعَذُوبُ : الرافعُ رأسَه عن الماء ، وجمعه : عُذُوبٌ بالضم ، ولا يُعرف فَعُول جُمع على فُعُول غيرُه : قاله أبو عُبَيْد[١] والذى فى الأصل أَصَحُّ فى المعنى والنقل .

من شرح حديث الرضاعة :

وذكر قولها: حتى أَذَمَّتْ بالركب . تريد : أنها حَبَسَتْهم ، وكأنه من الماء الدائم ، وهو الواقفُ ، ويروى: حتى أَذَمَّتْ . أى : أذمَّت الأتانُ ، أى: جاءت بما تُذَمُّ عليه ، أو يكون من قولهم: بِئْرٌ ذَمَّةٌ ، أى : قليلةُ الماء ، وليست هذه عند أبى الوليد ، ولا فى أصل الشيخ أبى بحرٍ ، وقد ذكرها قاسمٌ فى الدلائل ، ولم يذكر روايةً أخرى ، وذكر تفسيرها عن أبى عُبَيْدَةَ : أذَمَّ بالركب : إذا أبطأ ، حتى حَبَسَتْهُمْ : من البئر الذَّمَّةِ ، وهى القليلةُ الماء[٢] .

---

(١) فى اللسان جمعه : عذب بضم العين والذال ، وقد خطأ الأزهرى أبا عبيدة لأن فعولا ـ بفتح الفاء وضم العين ـ لا يكسر على فعول بضم الفاء .

(٢) عند أبى ذر الخشنى : أذمت : تأخرت بالركب ، أى تأخر الركب بسببها والضمير الذى فى أذمت يرجع إلى الأتان ، وفى رواية : أدَمْت بالركب أى : أطلت عليهم المسافة لتمهلهم عليها ، مأخوذ من الشىء الدائم ص ٥٥ . وصاحب حليمة المذكور فى القصة هو زوجها : الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدى ، وكنيته أبو ذؤيب ، وفى رواية أخرى لحديث الرضاع جاء بعد قول حليمة : فذهبت إليه مايلى: «فإذا به مدرج فى ثوب صوف أبيض من اللبن يفوح منه المسك ، وتحته



. . . .

وذكر قولَ حليمةَ : فلما وضعتُه فى حِجْرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى رَوِىَ ، وشرب معه أخوه حتى روى .

وذكر غير ابن إسحاق أن رسولَ الله ـ صلى اللهُ عليه وسلم ـ كان لا يقبل إلا على ثديها الواحدِ ، وكانت تعرِض عليه الثدىَ الآخر ، فيأباه كأنه قد أُشْعِر ـ عليه السلام ـ أنّ معه شريكاً فى لِبانها ، وكان مَفْطورا على العدل ، مَجْبُولاً على المشارَكة والفضل ـ صلى الله عليه وسلم .

التماس الأجر على الرضاع :

قال المؤلف : والتماسُ الأجر على الرَّضَاع لم يكن محمودا عند أكثر نساء العربِ ، حتى جرى المثلُ : تجوع المرأة ولا تأْكل بِثَدْيِيها(١) ، وكانَ عند بعضِهن لا بأسَ به ، فقد كانت حليمةُ وَسِيطة فى بنى سعد ، كريمةً من كرائم قومِها ، بدليلِ اختيارِ اللهِ ـ تعالى ـ إيَّاهَا لِرَضاع نبيِّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما اختار له أشرفَ البُطونِ والأصلابِ . والرَّضاعُ كالنسبِ ؛ لأنه يُغَيِّر

═ حرير أخضر راقد على قفاه يغط ، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، المواهب اللدنية فى باب رضاعه ص١٤٣ ج١ ، هذا ورضاعه من ثويبة قد ورد فى سياق حديث عن أم سلمة ، وقد رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة والبيهقى « منتخب السنة » ص٦٠ ج١

(١) روايته : تجوع الحرة ، ولا تأكل بثدييها ، أى : لا تكون ظئراً ، وإن آذاها الجوع . ويروى : ولا تأكل ثدييها . وأول من قال ذلك : الحارث بن سليل الأسدى . فى قصة طويلة روتها كتب الأمثال ، يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس مكاسب الأموال « مجمع الأمثال للميدانى »



. . . .

الطباعَ . فى المسندِ عن عائشةَ ـ رضى الله عنها ـ ترفعه : «لا تَسْتَرْضِعُوا الحَمْقَى ؛ فإن اللبَنَ يُورث » ويحتمل أن تكونَ حليمةُ ونساء قومها طلبن الرُّضعاء اضطرارا للأزمة التى أصابتهم ، والسَّنَة الشَّهباء التى اقتحمتهم .

لم كانت قريش تدفع أولادها إلى المراضع ؟

وأما دَفْع قريشٍ وغيرِهم من أشرافِ العربِ أولادَهم إلى المراضع ، فقد يكون ذلك لوجوهٍ . أحدُها : تفريغُ النساء إلى الأزواجِ ، كما قال عَمَّارُ بن ياسر لأمِّ سَلَمَةَ ـ رضى الله عنها ـ وكان أخاها من الرضاعة ، حين انتزَعَ من حِجْرِها زينبَ بنت أبى سَلَمَةَ ، فقال : « دَعِى هذه المَقْبُوحَةَ المَشْقُوحَةَ (١) التى آذيتِ بها رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم » وقد يكون ذلك منهم أيضاً ليَنْشأ الطفلُ فى الأعرابِ ، فيكونَ أفصحَ لِسانِه ، وأَجْلَدَ لجسْمِه ، وأجدَرَ أن لا يفارقَ الهيئةَ المَعَدِّيَّةَ (٢) كما قال عُمَرُ رضى الله عنه : تَمَعْدَدُوا و تَمَعْزَزُوا (٣) واخْشَوْشِنُوا [رواه ابن أبى حَدْرَد] . وقد قال ـ عليه السلام ـ لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين قال له : ما رأيت أفصحَ منكَ يارسولَ اللهِ ، فقال : وما يمنعنى ، وأنا من قريش ، وأرضِعْتُ فى بنى سَعْدٍ ؟! فهذا ونحوه كان يحملُهم على دَفْع

---

(١) المشقوحة : المكسورة أو المبعدة ، من الشقح ، وهو الكسر أو البعد ومشقوحة اتباع لمقبوحة .

(٢) نسبة إلى قوم معد ، وكانوا أهل غلظ وقشف .

أى : تصلبوا ، وتشبهوا بمعد .

(٣) وتمعززوا : تعزز لحمه : اشتدوصلب ، وتمعز البعير : اشتدعدوه .

. . . .

الرُّضعاء إلى المراضع الأعْرابيّات . وقد ذكر أن عبدَ الملك بن مَرْوان كان يقول : أضرَّ بنا حُبُّ الوليد ؛ لأنَّ الولَيدَ كان لحَّانًا ، وكان سُليمانُ فصيحا ؛ لأن الوليد أقام مع أمِّه ، وسليمانُ وغيرُه من إخوته سكنوا البادية ، فتَعَرَّبُوا ، ثم أُدِّبُوا فتأدَّبوا ، وكان من قُرَيْشٍ أعرابٌ ، ومنهم حَضَرٌ ، فالأعْرابُ منهم : بنو الأدْرَم وبنو مُحَارب ، وأحْسَبُ بنى عامرِ ابن لُؤَىٍّ كذلك ؛ لأنهم من أهل الظواهرِ ، وليسوا من أهل البِطاح (١) .

شق الصدر :

وذكر قول أخيه من الرضاعة : نزل عليه رَجُلَان أبيضان ، فَشَقَّا عن بطنه ، وهما يَسُوطانه ، يقال : سُطْتُ اللَّبَنَ أو الدَّمَ ، أو غيرَهما ، أسُوطه : إذا ضَرَبْتَ بعضَه ببعض . والمِسْوَطُ : عُودٌ يُضْرَب به .

وفى رِوَايةٍ أخرى عن ابن إسحاقٍ أنه نَزَل عليه كُرْكِيَّان (٢) ، فشق أحدُهما بمنقارِه جوفَه ، ومَجَّ الآخرُ بمنقارِه فيه ثَلْجًا ، أو بَرَداً ، أو نحو هذا ، وهى رواية غريبة ذكرها يونُس عنه ، واختصر ابن إسحاق حديثَ نُزول الملَكين عليه ، وهو أطول من هذا .

وروى ابن أبى الدنيا وغيره بإسناد يرفعه إلى أبى ذَرٍّ ـ رضى الله

---

(١) سبق الحديث عن قريش البطاح وقريش الظواهر .

(٢) الكركى : طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب . ومج الماء : لفظه .



. . . .

عنه ـ قال : « قلت : يارسولَ الله كيف علمتَ أنك نبيٌّ ، وبم علمت حتى استَيْقَنتَ ؟ قال : يا أبا ذَرٍّ أتانى ملَـكان ، وأنا بِبَطْحاء مَـكَّة ، فوقع أحدُهما بالأرضِ ، وكانِ الآخرُ بين السماء والأرضِ ، فقال أحدُهما لصاحبـه : أهو هُوَ ؟ قال : هُوَ هُوَ : قال : زِنْهُ برجلٍ ، فوزَنَنِي برجلٍ ، فرَجَحْته ، ثم قال : زِنْه بعشرة ، فوزَنَنِي فرَجَحْتُهمْ ، ثم قال : زِنْه بمائةٍ ، فوزَنَنِي ، فرجحتهم ، ثم قال : زِنْه بألفٍ ، فوزنني فرَجَحْتُهم ، حتى جعَلوا يَتَنَاقَلُونَ علىّ من كِفَّة الميزانِ ، فقال أحدُهما لصاحبه : شُقَّ بطنَه ، فشق بطنى ، فأخرج قلبى ، فأخرج منه مَغْمَزَ الشيطانِ وعَلَقَ الدَّم ، فطَرَحهما ، فقال : أحدُهما لصاحبه : اغسِل بطنَه غَسْلَ الأناء ، واغسِل قلبَه غسل المُلاَء ، ثم قال أحدُهما لصاحبه : خِطْ بطنَه ، فخاط بَطْنِى ، وجعل الخاتم بين كَتِفَيّ كما هو الآن ، ووليّا عنى ، فكأنى أعاين الأمْرَ معاينة » ففى هذا الحديث بيان لما أبهم فى الأول ، لأنه قال : فأخرج منه مَغْمَزَ الشيطانِ ، وعَلَقَ الدَّم ، فبيَّن أن الذى التمس فيه هو الذى يغمزه الشيطانُ من كلِّ مولودٍ إلا عيسى بن مريم وأمَّه[1] ـ عليهما السلام ـ لقول أمها حَنَّة : «وَإِنِّى

---

(١) يشير إلى ما رواه البخارى ومسلم والترمذى : « مامن مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه ، قال أبوهريرة : اقرءوا إن شئتم : (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، قال عياض : يريد أن الله قبل دعاءها مع أن الأنبياء معصومون ، وقال النووى : أشار عياض إلى أن جميع الأنبياء يشاركون عيسى فى هذه الخصوصية . وسيأتى أن صدره شق أيضا ليلة الإسراء فى حديث من طريق شريك فى الصحيحين ، ودعوى أنه لامنافاة ، لاحتمال وقوع ذلك مرتين دعوى بلا بينة ، وفى أحاديث خاتم النبوة



. . . .

أُعِيذُها بكَ وذُرِّيَّتَها من الشيطانِ الرجيم » آل عمران : ٣٦ . فلم يصل إليه لذلك ، ولأنه لم يُخلَق من مَنِيِّ الرِّجالِ فأعيذه من مَغْمَز ، وإنما خُلِق من نَفْخَةِ رُوح الْقُدُس ، ولا يدل هذا على فضل عيسى عليه السلام على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد نُزِع منه ذلك الْمَغْمَزُ ، ومُلِىء قلبهُ حكمةً وإيمانا ، بعد أن غسَله رُوحُ الْقُدُسِ بالثَّلجِ والْبَرَدِ ، وإنَّما كان ذلك الْمَغْمَزُ فيــه لموضع الشَّهْوَةِ الْمُحَرِّكة للْمَنِيِّ ، والشهواتُ يحضرها الشياطينُ ، لا سيما شهوةُ مَنْ ليس بمؤْمِن ، فكان ذلك الْمَغْمَزُ راجعا إلى الأب ، لا إلى الابنِ المطَّهر ـ صلى الله وسلم عليه .

وفى الحديث فائدة أخرى ، وهى منْ نفيسِ العِلم ، وذلك أن خاتَمَ النُّبوَّة لم يدر هل خُلِق به ، أم وُضع فيه بعد ما وُلد ، أو حين نُبِّىء ، فبيّن فى هذا الحديث متى وُضع ، وكيف وُضع ، ومَنْ وضعَه ، زادنا الله علما ، وأوْزَعنَا شُكْرَ ما عَلَّمَ ، وفيه البيانُ لما سأل عنه أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ حين قال : كيف علِمت أنك(١)

= مغايرة لما ورد من وصف الخاتم هنا ، كما أن فى ألفاظ بعض أحاديث الشق ما يوحى بأنه أحداث منام ، لا أحداث واقع ، أما الإسراء فيقظة بنص القرآن وسيأتى

(١) كل حديث يزعم فيه أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعرف أنه نبى هو حديث كذب ، لا يعتد به ، لأنه ــ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يعرف حتى ليلة الوحى أنه نبى . هذا وعن خاتم النبوة ورد فى حديث ـ رواه الشيخان والترمذى عن السائب بن يزيد : «فنظرت إلى خاتم بين كتفيه مثل زر الحجلة» الزر : البيضة وعن جابر فى مسلم : « رأيت خاتما فى ظهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنه بيضة حمام » وفى مسلم والترمذى: «كان خاتم رسول الله «ص» الذى بين كتفيه غدة حمراء مثل بيضة الحمامة» وعن عبد الله بن سَرْجس : «نظرت إلى خاتم النبوة بين =



. . . .

نبى ، فأعلمه بكيفية ذلك ، غير أن فى هذا الحديث ، وَهْما من بعضِ النَّقَلَة ، وهو قوله : بينما أنا بِبَطْحاء مكَّة ، وهذه القصة لم تَعَرض له إلا وهو فى بنى سَعْدٍ مع حليمة ، كما ذكر ابن إسحاقٍ وغيره ، وقد رواه البزّار من طريق عُروَةَ عن أبى ذرٍّ — رضى الله عنه — فلم يذكر فيه بَطْحَاء مكة .

= كتفيه عند ناغض كتفه اليسرى جمعاً عليه خيلان ، كأمثال الثآليل ، مسلم وأحمد . والناغض: أعلى الكتف ، أو مايظهر من عظمه عند التحرك . جُمْعاً : أى كصورة الكف بعد جمع الأصابع وضمها. الخِيلان : جمع خال وهى الغدة الصغيرة. الثآليل: جمع : ثؤلول حبيبات تعلو الجسد ، وفى مسلم أيضا عن جابر بن سمرة أنه كبيضة الحمامة . وعند الحاكم والترمذى وأبى يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن أحطب أن الخاتم شعر مجتمع عند كتفه ، وعند البخارى فى تاريخه والبيهقى أنه: لحمة ناتئة ، وفى جامع الترمذى ودلائل البيهقى : كالتفاحة ، وعند ابن حبان. وفى تاريخ ابن عساكر والحاكم : كالبندقة . وعند الترمذى : كبُضعة ناشزة من اللحم. وعند الطبرانى: كان كأنه ركبة عنز على طرف كتفه الأيسر ، وعند ابن حبان : كان مثل البندقة من اللحم .. والحجلة تنطق بفتح الحاء والجيم ، وضم الحاء أو كسرها وإسكان الجيم ، وضم الحاء وفتح الجيم . وجزم الترمذى بأن المراد بالحجلة : الطير المعروف ، وهو فى حجم الحمام ،أحمر المنقار والرجلين طيب اللحم، وفسره النووى بأنها واحدة الحجال . وهى بيت كالقبة . لها أزرار كبار وعرا ، أو كما فسره الأزهرى فى التهذيب : بيت كالقبة يستر بالثياب ، ويجعل له باب من جنسه، فيه زر وعروة تشد إذا علقت

وقال القرطبى : اتفقت الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزا أحمر عند كتفيه الأيسر ، قدره إذا قلل قدر بيضة الحمامة ، وإذا كبر جمع اليد . وفى الفتح : باب خاتم النبوة :أى صفته ، وهو الذى كان بين كتفى النبى ،وكان من علاماته التى كان أهل الكتاب يعرفونه بها ، وسيأتى عنه بيان آخر



. . . .

حديث السكينة :

وذكر فيه أنه قال : وأُوتيتُ بالسَّكِّينةِ كأنها رَهْرَهَةٌ ، فوُضِعَتْ في صَدْرِى . قال : ولا أعلم لعُرْوَةَ سماعا من أبى ذر . وذكر من طريق آخر عن أبى ذر ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له : « يا أبا ذر ، وُزنتُ بأربعين ، أنت فيهم فرجحتُهم » والرَّهْرَهَةُ : بَصيصُ البشَرة ، فهذا بيانُ وضْعِ الخاتَم متى وُضع .

مسألة شق الصدر مرة أخرى :

وأما متىَ وجَبَتْ له النُّبُوَّةُ ، فروى عن مَيْسرة أنه قال له : متى وَجَبَت لك النُّبُوَّة يارسولَ الله ؟ فقال : وآدمُ بين الرُّوحِ والجسد ، ويُرْوى : وآدمُ مُجنْدَلٌ في طينته (١) .

---

(١) وهكذا كل إنسان فى قَدَر ؛ فإن الله كتب عنده مقادير الكائنات جميعها ، وإلا فالنبى — صلى الله عليه وسلم — لم يكن يعرف حتى ليلة الوحى الأولى أنه نبى أو أن النبوة ستأتيه . وإلا مارجع فى ارتجافه الشديد إلى خديجة رضى الله عنها يحدثها أنه خائف على نفسه . وفى رواية للحديث : وإنى لمكتوب عند الله من النبيين . وحديث العرباض بن سارية قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : إنى عبد الله ، وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأخبركم عن ذلك : إنى دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين ، وإن أم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام ، أحمد وابن حبان والحاكم . وفى حديث أبى أمامة عند أحمد نحوه ، ونصه عن لقمة بن عامر سمعت أبا أمامة قال : قلت يا نبى الله



. . . .

وهذا الخبر يُرْوى عنه ـ عليه السلامُ ـ على وجهين ، أحدهما : أنه شُقَّ عن قلبه ، وهو مع رابَّتهِ ومُرْضعته فى بنى سعد ، وأنه جئ بطَسْتٍ من ذهب ، فيــه ثلج فغسل به قلبه ، والثانى فيه : أنه غُسِل بماءِ زمزم ، وأن ذلك كان ليلة الإسراءِ حين عُرج به إلى السماءِ بعد ما بُعث بأعوام ؛ وفيه أنه أُتى بطَسْتٍ من ذهبٍ ممتلئ حكمةً وإيمانا ، فأُفرِغ فى قلبه . وذكر بعضُ من أَلَّف فى شرحِ الحديث أنه تعارضٌ فى الروايتين ، وجعَل يأخذ فى ترجيح الرُّوَاة وتغليطِ بعضِهم ، وليس الأمرُ كذلك ، بل كان هذا التقديسُ وهذا التطهيرُ مرتين .

الأولى : فى حالِ الطُّفوليَّة لِيُنَقَّى قلبُهُ من مَغْمَز الشيطان ، وليُطَهِّر ويُقدَّس من كل خُلُقٍ ذَميم ، حتى لاَ يتَلَبَّس بشئ مما يُعاب على الرِّجالِ ، وحتى لا يكونَ فى قلبه شئ إلا التوحيد ؛ ولذلك قال : فولَّيا عنى،يعنى : الملكين ، وكأنى أعاين الأمر مُعاينةً .

والثانية : فى حال الاكْتِهالِ ، وبعد ما نُبِّئ ، وعندما أراد اللهُ أن يرفعه إلى الحضرة الْمُقَدَّسَةِ التى لا يصعد إليها إلا مُقَدَّس ، وعُرِجَ به هنالك

ـــــــــــ

= ما كان بدء أمرك؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاء منه قصور الشام ، تفرد به أحمد، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . وقد روى قصة شق الصدر فى الطفولة أبو نعيم فى الدلائل عن طريق عمر ابن صبح مطولة جدا ، وعمر متروك كذاب متهم بالوضع .



. . . .

لتُفرَضَ عليه الصلاةُ ، وليُصَلِّيَ بملائكةِ السمواتِ ، ومن شأنِ الصلاةِ : الطَّهور ، فقُدِّس ظاهرا وباطنا ، وغُسِل بماء زمزم .

وفى المرة الأولى بالثلج لِما يُشْعِر الثلجُ من ثَلْجِ اليقين وبَرْدِه على الفؤاد ، وكذلك هناك حصل له اليقينُ بالأمر الذى يُراد به وبوحدانيةِ ربه .

وأما فى الثانية ، فقد كان مُوقناً مُنبَّأً ، فإنما طُهِّر لمعنى آخر ، وهو ما ذكرناه من دخول حَضْرَةِ القُدُسِ والصلاةِ فيها ، ولقاء الملِكِ القُدُّوسِ ، فغسَله روحُ القُدُسِ بماء زمزم التى هى هَزْمَة رُوحِ القُدُسِ ، وهَمْزَة عَقِبه (١) لأبيه إسماعيل عليه السلام — وجىء بطَسْتٍ مُمتلِىء حكمةً وإيمانا ، فأُفرِغ فى قلبه ، وقد كان مؤمنا ، ولكن الله تعالى قال : ﴿ ليزْدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ الفتح : ٤ وقال : ﴿ ويزْدادَ الذين آمنوا إيمانا ﴾ المدثر : ٣١ . فإن قيل : وكيف يكونُ الإيمانُ والحِكمةُ فى طَسْتٍ من ذَهَبٍ ، والإيمانُ عَرَض ، والأعراضُ لا يوصف بها إلا مَحَلُّها الذى تقوم به ، ولا يجوز فيه الانتقال ، لأن الانتقال من صِفةِ الأجسام ، لا من صفة الأعراض ؟ قلنا :

إنما عُبِّر عما كان فى الطَّسْتِ بالحكمة والإيمان ، كما عُبِّر عن اللبنِ الذى شَرِبه ، وأُعطِىَ فضلَه عُمَرُ — رضى الله عنه — بالعلم ، فكان تأويلُ ما أُفْرِغَ فى قلبه حِكْمةً وإيمانا ، ولعل الذى كان فى الطَّسْتِ كان ثَلجاً وبَردا — كما ذكر فى

(١) هزم البئر : حفرها ، والهمزة : النقرة ، هذا وسيأتى بيان أن الصلاة كانت مفروضة قبل الإسراء بنص القرآن والأحاديث الصحيحة . هذا وقوله : كأنى أعاين الأمر معاينة يؤكد أنه رؤيا منامية .



. . . .

الحديث الأول - فعبر عنه فى المرة الثانية بما يؤول إليه ، وعبر عنه فى المرة الأولى بصورته التى رآها ؛ لأنه فى المرة الأولى كان طفلا ، فلما رأى الثلجَ فى طَسْتِ الذهبِ اعتقده ثلجًا ، حتى عَرَف تأويلَه بعد . وفى المرةِ الثانيةِ كان نَبيئاً ، فلما رأى طَسْتَ الذهب مملوءا ثلجاً علم التأويل لحينه واعتقده فى ذلك المقام حكمةً وإيمانا ، فكان لفظُه فى الحديثين على حَسَب اعتقاده فى المقامين .

مناسبة الذهب للمعنى المقصود :

وكان الذهبُ فى الحالتين جميعا مناسباً للمعنى الذى قُصِدَ به . فإن نظرتَ إلى لفظِ الذهبِ ، فمطابق للإذهابِ ، فإن الله - عز وجل - أراد أن يُذهِبَ عنه الرِّجْسَ ، ويُطَهِّرَه تطهيرا ، وإن نظرتَ إلى معنى الذهب وأوصافِه وجدْتَه أنقى شىء وأصفاه ، يقال فى المثل : أنقى من الذهب . وقالت بَرِيرَةُ فى عائشة - رضى الله عنها - ما أعلم عليها إلا ما يَعْلَمُ الصَّائغُ على الذَّهبِ الأحمر . وقال حُذَيفة فى صِلَةَ بن أشْيَمَ رضى الله عنهما : إنما قلبُه من ذهب ، وقال جرير بن حازمٍ فى الخليلِ بن أحمد : إنه لرجلٌ من ذهب ، يريدون : النقاء من العُيوبِ ، فقد طابق طَسْتُ الذهب ما أريد بالنبى - صلى الله عليه وسلم - من نقاءِ قلبِه . ومن أوصاف الذهب أيضاً المطابقةِ لهذا المقامِ ثقلُه ورُسُوبُه ، فإنه يُجعَل فى الزِّيبَقِ الذى هو أثقلُ الأشياء ، فيرسب ، والله تعالى يقول : (إنَّا سَنُلْقى عليك قَوْلاً ثَقِيلا) المُزَّمِّل : ٥ . وقال عمرُ بن الخطاب - رضى الله عنه : إنما ثَقُلت موازينُ المُحِقِّين يوم القيامة ، لاتباعهم الحقّ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضَعُ فيه إلا الحقُّ

. . . .

أن يكونَ ثقيلاً ، وقال فى أهلِ الباطلِ بعكس هذا . وقد روى : أنه أُنْزِلَ عليه الوحى ، وهو على ناقتِه ، فَثَقُل عليها حتى ساخت قوائمُها فى الأرض، فقد تطابقت الصفةُ المعقولةُ والصفةُ المحسوسةُ . ومن أوصافِ الذهبِ أيضا أنه لاتأكله النارُ ، وكذلك القرآنُ : لا تأكل النارُ يومَ القيامة قلباً وعاه ، ولا بَدَناً عَمِلَ به ، قال النبي ــ صلى الله عليه وسلم : « لو كان القرآنُ فى إهابٍ ، ثم طُرِح فى النار ما احترق(١) » ومن أوصاف الذهب المناسبةِ لأوصافِ القرآن والوحى : أنَّ الأرض لا تُبليه ، وأن الثرى لا يَنْدِيه ، وكذلك القرآن لا يَخْلَق على كثْرة الرَّدِّ ، ولا يُستطاع تغييرُه ولا تبديلُه ، ومن أوصافه أيضا : نفاستُه وعِزَّته عند الناسِ ، وكذلك الحقُّ والقرآنُ عزيزٌ ، قال سبحانه : (وإنه لَكِتابٌ عَزِيز) فُصِّلت : ٤١ . فهذا إذا نظرت إلى أوصافِه ولفظِه ، وإذا نظرت إلى ذاته وظاهره، فإنه زُخْرُفُ الدُّنيا وزينتُها ، وقد فتح بالقرآنِ والوحيِ على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأمته خزائنُ الملوكِ ، وتصيَّر إلى أيديهم ذهبُها وفضتُها ، وجميعُ زُخْرُفِها وزينتها ، ثم وعِدوا باتباع القرآن والوحى قُصُورَ الذهبِ والفضةِ فى الجنة . قال ــ صلى الله عليه وسلم : «جنَّتانِ من ذَهبٍ ، آنيتُهما ومافيهما من ذهب(٢) » وفى التنزيل: (يُطاف عليهم بِصِحَافٍ من ذَهَبٍ) الزُّخْرُف: ٧١ (وَيُحَلَّوْنَ فيها من أَسَاوِرَ مِن ذهب ولُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهم فيها حرير) الحج : ٢٣ وفاطر : ٣٣

(١) رواه الطبرانى . وفى الجامع للسيوطى أنه ضعيف .

(٢) من حديث رواه الجماعة إلا أباداود : «جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .



. . . .

فكان ذلك الذهبُ يُشعر بالذهب الذى يصير إليه مَن اتبع الحقَّ ، والقرآنُ وأوصافه تشعر بأوصاف الحق ، والقرآن ولفظه يُشعر بإذهاب الرِّجس ، كما تقدم ، فهذه حكم بالغة(١) لمن تأمل ، واعتبار صحيح لمن تدبر ، والحمد لله .

وفى ذكر الطَّسْتِ وحروفِ اسمه حكمة تنظر إلى قوله تعالى : (طس. تلك آياتُ القرآنِ وكتابٍ مبين(٢))النَّمل:١ومما يسئل عنه : هل خُص هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغسل قلبه فى الطست ، أم فُعل ذلك بغيره من الأنبياء قبله، ففى خبر التابوت والسكينة ، أنه كان فيه الطَّسْتُ التى غُسِلت فيها قلوبُ الأنبياء عليهم السلام . ذكره الطبرى(٣) ، وقد انتزع بعضُ الفقهاءِ من حديث الطَّسْت حيثُ جُعِل محلاً للإيمان والحكمةِ جوازَ تحليةِ المُصْحَف بالذهب ، وهو فقه حَسَن(٤) ، ففى حديث أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ هذا الذى قدمناه ، متى علم أنه نبىٌّ .

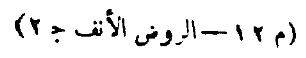
---

(١) تأويلات مغربة ، وإن كانت تشهد بذكاء ، لكنها لاترف بسكينة على القلب ، وشأن القرآن أعظم .

(٢) وهذا أغرب ، وأشد بعدا ، وتقرأ طس هكذا : « طا سين » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى: « وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة) البقرة : ٢٤٨ . وقد روى العوفى عن ابن عباس أن السكينة هى الرحمة . كما فسرها عطاء تفسيرا طيبا ، إذ قال لابن جريج لما سأله عنها : أما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وروى ابن كثير ما ذكره السهيلى بصيغة تفيد تضعيفه إذ جاء قبله بكلمة : وقيل . وخب فيها وهب بن منبه ووضع ، فأتى بالعجب العجاب من الأساطير .فقال : السكينة :رأس هرة ميتة

(٤) رد ابن القيم هذا الرأى .





. . . .

الحكمة في ختم النبوة :

والحكمة فى خاتم النبوة على جهة الاعتبار أنه لمَّا مُلِىء قلبُه حكمةً ويقينا ، خُتِم عليه كما يُختَم على الوعاءِ المملوء مِسْكاً أو دُرًّا ، وأما وَضْعُه عند نُغْض(١) كتفِه ، فلأنَّه معصومٌ من وَسْوَسة الشيطان ، وذلك الموضع منه يُوسْوِس الشيطانُ لابن آدم . روى مَيْمُون بن مهران عن عُمَر بن عبدِ العزيز أنَّ رجلا سَأل ربَّه أن يُرِيَهُ مَوْضِعَ الشيطان منه(٢) ، فأُرِيَ جَسَداً مُمَهًّى(٣) يُرى داخلُه من خارجِه ، والشيطانُ فى صُورة ضِفْدعٍ عند نُغْضِ كتفه(٤) حِذَاءَ قلبِه ، لهُ خُرْطُوم ، كخُرْطُومِ البَعُوضَة ، وقد أدخله إلى قلبِه يوسوس ، فإذا ذكر اللهَ تعالى العبدُ خَنَس(٥) .

---

(١) هو أعلى منقطع غضروف الكتف .

(٢) فى شرح المواهب : « موضع الشيطان من ابن آدم » . وفى النهاية : موقع

(٣) ضبطُها فى اللسان وفى معجم ابن فارس وفى النهاية هكذا ، وضبطها الزرقانى بضم الميم الأولى وسكون الثانية ، وتخيف الهاء اسم مفعول من : أمهاه ، أى مصفًّى ، وفى النهاية : أنه رأى ذلك منا ما ، قال : والمها : البلور ، وكل شىء صفىٌّ ، فهو ممهى تشبيها به . زاد فى الفائق : ومقلوب من مموه ، وهو مُفَعَّل من أصل الماء . أى مجعول ماء ص ١٥٤ ج ١ .

(٤) فى شرح المواهب : « وأرى الشيطان فى صورة ضفدع عند كتفه » .

(٥) فى شرح المواهب : « وقد أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه » ، والحديث مقطوع . ص ١٥٤ ج ١ شرح المواهب . وفى اللسان نقلا عن النهاية لابن الأثير : « فرأى فيما يرى النائم جسد رجل مُمَهًّى » . وحذاء : مقابل . وخنس : تأخر وغاب . وانظر ص ٤٣٩ وما بعدها فتح البارى ج ٦ .



. . . .

رد حليمة النبي « ص » :

فصل : وكانَ ردُّ حليمةَ إيَّاه إلى أمِّه وهو ابنُ خمسِ سنينَ وشهر ، فيما ذكر أبو عُمَرَ(١) ، ثم لم تره بعد ذلك إلا مرتين : إحداهما بعد تَزْويجه خديجة — رضى اللهُ عنها — جاءته تشكو إليه السَّنَة ، وأن قومَها قد أسْنَتُوا(٢) فكلّم لها خديجةَ ، فأعْطتْها عِشرينَ رأساً من غنَم وبَكَرَاتٍ ، والمرة الثانية : يوم حُنينٍ(٣) وسيأتى ذكرُها إن شاء الله.

تأويل النور الذى رأته آمنة :

فصل : وذكر النورَ الذى رأته آمنة ، حين ولدته عليه السلامُ ، فأضاءت لها قصور الشام ، وذلك بما فتح اللهُ عليه من تلك البلاد ، حتى كانت الخلافةُ فيها مدة بنى أمية ، واستضاءت تلك البلادُ وغيرُها بنورِه — صلى الله عليه وسلم — وكذلك رأى خالدُ بنُ سَعيد بن العاصِى قبل المبْعَثِ بيسيرٍ نُوراً يخرج من زَمْزَم ، حتى ظهرت له الْبُسْرُ(٤) فى نخيلِ يَثْرِب ، فقصَّها على أخيه عَمْرٍو ،

---

(١) يعنى ابن عبد البر . وفى الأصل : عمرو وهو خطأ . وفى المواهب نقلا عن ابن عبد البر أنها ردته بعد خمس ويومين ، وتفيد بعض الروايات أنها ردته فى السنة الثالثة ، أو الرابعة ، أو السادسة ، وجزم الحافظ العراقى وابن حجر أنها ردته فى الرابعة ص ١٥٠ ج١ المواهب .

(٢) أسنتوا : أجدبوا .

(٣) ذكره الأموى .

(٤) البسر أوله : طَلْع ثم : خَلال بالفتح ، ثم بلح بفتحتين ، ثم بُسْر ، ثم : رُطب ثم : تمر .



عود إلى حديث ابن إسحاق :

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : «ما مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ وَقَدْ رَعَى الغَنَمَ ، قيل : وأنت يا رسولَ الله ؟ قال : وأنا» .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لأصحابه : «أنا أعربُكم ، أنا قُرَشِيٌّ ، واسْتُرْضِعْتُ في بني سَعْدِ بن بكر» . [حديث ضعيف]

قال ابن إسحاق : وزعم الناسُ فيما يتحدثون ، والله أعلم : أنّ أُمَّه السعدية لما قدمت به مكة أضلّها في الناس ، وهي مقبلة به نحو أهله ، فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطّلب ، فقالت له : إني قد قَدِمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكّة أضلّني ، فوالله ما أدري أين هو ، فقام عبدالمطّلب عند الكعبة يدعو الله أن يردّه ، فيزعمون أنه وجدَه ورقةُ بنُ نوفل بنِ أسَد ، ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبدَ المطلب ، فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبدالمطلب ، فجعله على عُنقه ، وهو يطوف بالكعبة يُعوّذه ويدعوله ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة .

قال ابن إسحاق : وحدّثني بعض أهل العلم ، أن مما هاج أمه السعدية على ردّه إلى أمه ، مع ما ذكرتْ لأمه مما أخبرتها عنه ، أن نفراً من الحبشة نصارى رأوْه معها حين رجعتْ به بعدَ فِطامه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه وقلّبوه ، ثم قالوا لها : لنأخُذَنَّ هذا الغلامَ ، فلنذْهَبَنَّ به إلى مَلِكنا وبَلدنا ؛ فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمرَه ، فزعم الذى حدثني أنها لم تكدْ تنفلت به منهم

فقال له : إنها حفيرةُ عبدِ المُطَّلِبِ ، وإن هذا النورَ منهم ، فكان ذلك سببَ مُبادرَته إلى الإسلام .



وفاة آمنة

وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بعدها

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع أُمِّه آمنة بنت وَهب ، وجدّه عبد المطلب بن هاشم فى كَلاءَة الله وحِفْظِه ، يُنْبته الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — ستَّ سنين ، توفيت أُمُّه آمنة بنت وَهْب .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم :

أن أمّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — آمنة تُوفِّيت ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم — ابن ستّ سنين بالأبْواء ، بين مكة والمدينة ، كانت قد قَدِمت به على أخواله من بنى عدىّ بن النَّجّار ، تُزيره إيّاهم ، فماتت ، وهى راجعة به إلى مكّة .

قال ابن هشام : أمّ عبد المطلب بن هاشم : سَلْمى بنت عمرو النجّارية فهذه الخُئُولة التى ذكرها ابنُ إسحاق لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيهم .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يُوضع لعبد المطلب فراش فى ظلّ الكعبة ، فكان بَنوه يجلسون حول فِرَاشه ذلك ، حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالا له ، قال : فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يأتى ، وهو غُلام جَفْر ، حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامُه ، ليؤخّروه عنه ، فيقول عبد المطلب



إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابنى ، فوالله إنّ له لشأنا ، ثم يُجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع .

رعيه الغنم :

فصل : وذكر قولَ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ نَبِيٍّ إلا وقد رَعَى الغنمَ . قيل : وأنت يارسول الله ؟ قال : وأنا » وإنما أراد ابنُ إسحاق بهذا الحديث رعَايته الغنَم فى بنى سَعْدٍ مع أخيه من الرَّضاعة ، وقد ثبت فى الصحيح أنه رعاها بمكةَ أيضا على قراريطَ لأهلِ مكةَ . ذكره البخارى ، وذكر البخارى عنه أيضاً أنه قال : ما هَمَمْتُ بشىء من أمرِ الجَاهِلِيَّةِ إلاَّ مرتين ، وروى أن إحدى المرتين كان فى غَنَمٍ يرعاها هو وغُلامٌ من قُرَيْشٍ ، فقال لصاحبه : اكْفِنِى أمرَ الغَنَمِ حتى آتىَ مكةَ ، وكان بها عُرْسٌ فيها لَهْوٌ وزَمْرٌ ، فلما دنا من الدارِ ليحضرَ ذلك ، أُلقِىَ عليه النومُ ، فنام حتى ضربته الشمسُ عِصمةً من اللهِ له . وفى المرة الآخرةِ قال لصاحبه مثلَ ذلك ، وأُلقى عليه النومُ فيها ، كما أُلقِىَ فى المرةِ الأولى . ذكر هذا المعنى ابنُ إسحاق فى غير رواية البَكَّائِىِّ . وفى غريبِ الحديث لِلْقُتَبِىِّ : « بُعِثَ موسى — صلى الله عليه وسلم — وهو راعى غنمٍ ، وبُعث داودُ — صلى الله عليه وسلم — وهو راعى غنمٍ ، وبعثتُ ، وأنا راعى غنم أهلى بأجْيَادَ(١) » وإنما جعل اللهُ هذا فى الأنبياء

---

(١) جبل بمكة ، وهما أجيادان كبير وصغير ، وهما محلتان بمكة . وقيل فيه : جياد بغير ألف وقد سبق .



. . . .

تَقْدِمَةً لهم ، ليكونوا رعاةَ الخَلْقِ ، ولتكونَ أُمَمُهمْ رعايالهم ، وقد رأى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — أنه يَنْزِع على قَلِيبٍ[١] وَحَوْلها غَنَمٌ سُودٌ ، وغَنَمٌ عُفْرٌ[٢] . قال : ثم جاء أبوبكر — رضى الله عنه — فنزَعَ نَزْعاً ضعيفاً ، واللهُ يَغْفِرُ له ، ثم جاء عمرُ فاسْتَحالَتْ غَرْباً[٣] يعنى : الدَّلْوَ ، فلم أر عَبْقَرِيًّا يَفْرِى فَرِيَّهُ[٤] فأوَّلها الناسُ فى الخلافةِ لأبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، ولولا ذِكْرُ الْغَنَمِ السود و الْعُفْرِ لَبَعُدت الرُّؤْيَا عن معنى الخلافةِ والرعاية ؛ إذِ الْغَنَمُ السُّودُ والْعُفْرُ عبارةٌ عن العربِ والْعَجَم ، وأكثرُ الْمُحدِّثين لم يذكروا الغنَمَ فى هذا الحديثِ . ذكره الْبزَّارُ فى مُسْنَدِهِ ، وأحمدُ بن حنبلٍ أيضاً ، وبه يصح المعنى ، والله أعلم .

فى كفالة العم :

فصل : وذكر كَوْنَ النبى — صلى الله عليه وسلم فى كفالة عمه يَكْلَؤُه

(١) القليب : البئر قبل أن تبنى بالحجارة ونحوها يذكر ويؤنث . وقال أبو عبيدة : هى البئر العادية القديمة . ونزع الدلو : استقى بها .

(٢) العفر : جمع عفراء : مايعلو بياضها حمرة ، أو البيضاء ليست بالشديدة البياض ، أو التى فى سراتها حمرة ، وخاصرتها بيضاء . والسَّراة : أعلى الظهر والوسط

(٣) الدَّلْو العظيمة .

(٤) يعمل عمله العظيم ، ويقطع قطعه . وفَرِيّه تقال : بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الياء أيضا ، والحديث متفق عليه بدون ذكر الغنم . وحديث : أنا أعربكم رواه ابن سعد والطبرانى ، وفى رواته مبشر بن عبيد ، وهو متروك ، وقال السيوطى : ضعيف .



. . . .

ويَحْفَظه . فَمِنْ حفظ الله له في ذلك أنه كان يتيما ليس له أبٌ يرحمه ، ولا أمٌّ تَرْأَمُه(١) لأنها ماتت ، وهو صغيرٌ ، وكان عِيَالُ أبي طالبٍ ضَفَفاً ، وعَيْشُهم شَظَفاً(٢) ، فكان يوضع الطعامُ له ولِلصِّبْيَةِ من أولادِ أبي طالبٍ ، فيتطاولون إليه ، ويتقاصر هو ، وتَمْتَد أيديهم ، وتَنْقَبِض يدُه تكرُّماً منه واسْتِحياءً ونزاهةَ نفسٍ وقناعَةَ قلبٍ ، فيصبحون غُمْصاً رُمْصاً ، مُصْفَرَّةً ألوانُهم(٣) ويُصبحُ هو — عليه السلامُ — صَقِيلاً دَهِيناً(٤) كأنه في أنعمِ عَيْشٍ ، وأعز كِفايَةٍ ، لُطْفاً من اللهِ — عز وجل — به . كذلك ذكره القُتَبيُّ في غريبِ الحديث .

موت آمنة وزيارته لها :

فصل : وذكر موت أمه آمنة بالأبواء ، وهو مَوْضع مَعْروفٌ بين مكة

---

(١) تحبه وتحنو عليه وتعطف . والمذكور في السيرة مع الحفظ والكلاءة هو : عبد المطلب ، لا أبو طالب كما في الروض .

(٢) الضفف : كثرة العيال . والشظف والشظاف : الضيق والشدة ، ويبس العيش وشدته .

(٣) الرمص ـ كما في الصحاح ـ وسخ يجتمع في الموق ، فإن سال فهو غمص ، وإن جمد فهو رمص ، يقال : عين رمصاء ، وهو أرمص . وهو أغمص ، وهي غمصاء

(٤) صقيل : مجلو . ودهين : مدهون بالدهن كناية عن حسنه ونضارته . وفي حديث الرضاع كلمات نفسرها هنا : ظئر : أصلها الناقة التي تعطف على ولد غيرها ، فتدر عليه ، فسميت المرأة التي ترضع ولد غيرها ظئرا . والجفر : الغليظ الشديد. منتقع : متغير . الحافل : الممتلئة الضرع . اربعي علينا : أقيمي وانتظري . والعجف : الهزال « عن الخشني ص ٥٦ »



. . . .

والمدينة ، وهو إلى المدينةِ أقرب كأنه سُمِّي بجَمْعِ بَوٍّ ، وهو جِلْد الْحُوارِ [١] الْمَحْشُوّ بالتبن وغيرِه ، وقيل : سُمِّىَ بالأبواء لتَبَوُّءِ السُّيُولِ فيه ، وكذلك ذكر عن كثير . ذكره قاسم بن ثابت .

وفى الحديث أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — زار قبرَ أُمّه بالأبواءِ فى أَلْفِ مُقَنَّع ، فبكى وأبكى ، وهذا حديث صحيح [٢] ، وفى الصحيح أيضاً أنه قال : استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى ، فأذن لى ، واستأذنته أن أستغفر لها ، فلم يأذن لى [٣] . وفى مُسْنَد الْبَزَّار من حديث بُرَيْدَةَ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراد أن يستغفرَ لأمه ، ضرب جبريلُ عليه السلام فى صَدْرِهِ ، وقال له : لا تستغفر لمن كان مُشْرِكا ، فرجَع وهو حزين .

وفى الحديث زيادةٌ فى غير الصحيح أنه سُئل عن بُكائه ، فقال : ذكرت ضَعْفَها وشدةَ عذابِ الله ، إن كان صَحَّ هذا .

---

(١) ولد الناقة حتى يفصل . وذكر صاحب المراصد : أن الأبواء قرية من أعمال الفرع ، والفرع : قرية من نواحى الربذة عن يسار السقيا ، بينها وبين المدينة ثمانية برد ، من المدينة بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا . وقيل : جبل عن يمين آره ويمين المصعد إلى مكة من المدينة .

(٢) رواه أحمد وفيه : « ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام إليه عمر ابن الخطاب ، وفداه بالأب والأم ، وقال : رسول الله ، مالك ؟ قال : إنى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لأمى ، فلم يأذن لى ، فدمعت عيناى رحمة لها من النار » .

(٣) مسلم وابن ماجة .



. . . .

وفى حديثٍ آخرَ ما يُصَحِّحُهُ ، وهو أن رجلا قال له : يارسولَ الله : أين أبى ؟ فقال : فى النار ، فلما وَلىَّ الرجلُ ، قال عليه السلام : إن أبى وأباك فى النار (١) ، وليس لنا أن نقولَ نحن هذا(٢) فى أبويه — صلى الله عليه وسلم لقوله عليه السلام : لا تُؤذُوا الأحياء بِسَبِّ الأمواتِ ، واللهُ عزَّ وَجلَّ يقول : ﴿ إن الذين يُؤْذُونَ الله وَرَسُولَه[لعنهم اللهُ فى الدنيا والآخرةِ] ﴾.

(١) فى رواية مسلم : فلما قفا : دعاه ، فقال : إن أبى وأباك فى النار . والحديث رواه أبو داود أيضا . وقيل عن الرجل الذى سأل : أنه أبو رزين العقيلى أو حصين بن عبيد والد عمران . وفى مسند أحمد أن أبا رزين سأل عن أمه : أين هى ، فقال : كذلك . هذا ، وقد ذكر البيهقى عدة أحاديث فى هذا ، ثم قال بعد روايته لها فى دلائل النبوة : « وكيف لا يكون أبواه وجده ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذه الصفة فى الآخرة ، وقد كانوا يعبدون الوثن ، حتى ماتوا ، ولم يدينوا دين عيسى بن مريم عليه السلام ، وكفرهم لا يقدح فى نسبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأن أنكحة الكفار صحيحة . ألا تراهم يسلمون مع زوجاتهم ، فلا يلزمهم تجديد العقد ، ولا مفارقتهن إذا كان مثله يجوز فى الإسلام » ويقول ابن كثير : « وإخباره عن أبويه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار لا ينافى الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون فى العرصات يوم القيامة كما بسطناه سندا ومتنا — فى تفسيرنا — عند تفسير قوله تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) الإسراء : ١٥ . فيكون منهم من يجيب ، ومنهم من لا يجيب . فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب ، فلا منافاة ولله الحمد والمنة » ص ٢٨١ جـ٢ البداية ، ورغم هذا فإنى أذكر بقول الله : (تلك أمة قد خلت لهـــا ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما كانوا يعملون) البقرة : ١٤١ .

(٢) إذا سئلنا صدعنا بالحق .



. . . .

الأحزاب : ٧٥ . وإنما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك الرجل هذه المقالة ، لأنه وَجَد في نفسه ، وقد قيل : إنه قال : أين أبوك أنت ؟ فحينئذٍ قال ذلك ، وقد رواه مَعْمَرُ بن راشدٍ بغير هذا اللفظ ، فلم يذكر أنه قال له : إنه أبي وأباك في النار ، ولكن ذَكَر أنه قال له : إذا مَرَرْتَ بقبرِ كافرٍ ، فبشره بالنار(١) ، ورُوِيَ حديثٌ غريبٌ لعله أن يصحَّ . وجدته بخط جَدِّي أبي عِمْران أحمد بن أبي الحَسَن القاضي – رحمه الله – بسندٍ فيه مجهولون ، ذكر أنه نقله من كتابٍ ، انْتُسِخَ مِن كتابِ مُعَوِّذِ بن داود بن مُعَوِّذ الزاهِد يرفعه إلى [عبد الرحمن ابن] أبي الزناد عن [هشام بن] عُروة ، عن [أبيه عن] عائشةَ – رضي الله عنها – أخبرت أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سأل ربَّه أن يُحْيِيَ أبويه ، فأحياهما له ، وآمنا به ، ثم أماتهما ، والله قادر على كلِّ شيء ، وليس تعجز رحمتُه وقدرتُه عن شيء ، ونبيُّه عليه السلام أهلٌ أن يَخُصَّه بما شاء من فضله ، ويُنْعِم عليه بما شاء من كرامته – صلوات الله عليه وآله وسلم – قال القرطبي في تذكرته : جزم أبو بكر الخطيب في كتاب : السابقِ واللاحق ، وأبو حفص عُمَرُ بن شاهين في كتاب الناسخ والمنسوخ له في الحديث بإسناديهما عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : حَجَّ بنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حجة الوداع ، فمر على قبر أمه ، وهو باكٍ حزين مُغْتَمٌّ ، فبكيت لبكائه – صلى الله عليه وسلم – ثم إنه نزل فقال : يا حُميراء استمسكي ، فاستندتُ إلى جَنْبِ البعير ، فمكث عني طويلا مَلِيًّا ، ثم إنه عاد إليّ ، وهو فَرِحٌ مُتَبَسِّم ، فقلت له : بأبي أنت وأمي

---

(١) ورواه البيهقي والبزار والطبراني في الكبير وفيه عن الأب : إنه في النار وقال عنه ابن كثير : غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه .



وفاة عبد المطلب : وما رثى به من الشعر

فلما بلغ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - ثمانى سنين هلك عبدُ المطّلب بنُ هاشم ، وذلك بعد الفيل بثمانى سنين .

قال ابن إسحاق : وحدثنى العباس بن عبد الله بن مَعْبد بن عَباس ، عن بعض أهله : أن عبدالمطّلِب تُوفى ورسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ابنُ ثمانى سنين

يارسول الله نزلت من عندى ، وأنت باكٍ حزين مُغْتَمٌّ . فبكيت لبكائك . ثم عدتَ إلىّ ، وأنت فَرِحٌ مبتسم ، فَبِمَّ ذا يارسول الله ، فقال : ذهبت لقبر آمنة أمى ، فسألت أن يحييها ، فأحياها فآمنت بى (١) ؛ أو قال : فآمنت . وردها الله عز وجل .

---

(١) قال ابن كثير فى البداية عن حديث ابن أبى الزناد : منكر جداً . وقال فى التفسير عن أحد الأحاديث : وأغرب منه وأشد نكارة مارواه الخطيب البغدادى فى كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة فى حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه الخ وقال الدارقطنى : باطل ، وكذا مارواه السهيلى فى الروض بسند فيه جماعة مجهولون أن الله أحيا له أباه وأمه ، وقال ابن دحية عن حديث إحياء الأم : هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع . قال تعالى : « ولا الذين يموتون ، وهم كفار » وقال : « فيمت وهو كافر » فمن مات كافرا لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة ، بل لو آمن عند المعاينة لم ينفعه ، وكيف بعد الإعادة ، ص ١٦٨ جـ ١ المواهب .

وقيل إن أمه ماتت وسنه أربع كما حكى العراقى ومغلطاى ، وقيل : ست وبه قطع ابن إسحاق . وقيل : سبع كما حكاه ابن عبد البر ، وقيل : تسع ، وينسب إلى حكاية مغلطاى أيضاً ، وقيل : اثنتا عشرة سنة وشهر وعشرة أيام ، وينسب إلى حكاية مغلطاى . وقيل : ثمان ، وهو قول ابن حبيب .



قال ابن إسحاق : حدثني محمد بن سَعيد بن الْمُسَيِّب : أن عبد المطلب لمـا حضرته الوفاةُ ، وعَرَف أنه ميت جمع بناتِهِ ، وكُنَّ ستَ نِسْوة : صفية ، وبَرّة ، وعاتكة ، وأمّ حكيم البَيْضاء ، وأُمَيْمَة ، وأرْوَى ، فقال لهن : ابكين عليّ حتى أسمع ما تقلْن قبل أن أموت .

قال ابن هشام : ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر ، إلاّ أنه لما رواه عن محمد بن سَعيد بن المسيب ، كتبناه :

فقالت صَفِيَّة بنة عبد المُطَّلِب تَبْكي أباها :

أرِقْتُ لصوت نائحةٍ بلَيْلٍ ... على رَجُل بقارعَة الصَّعيد
فَفاضَتْ عند ذَلكُمُ دُمُوعى ... على خَدى كَمُنْحَدِرِ الفَريدِ
على رَجُل كَريمٍ غير وَغْل ... له الفَضْلُ الْمُبين على العَبيد
على الفَيَّاض شَيْبَةَ ذى المَعالى ... أبيكِ الخيْرِ وارِثِ كلّ جُود
صَدُوق فى المَواطِن غير نِكْس ... ولا شَخْت المقام ولا سَنيد
طَويلِ الباع ، أرْوَع شَيْظَميّ ... مُطاعٍ فى عَشيرته حَميد
رَفيعِ البيت أبْلجَ ذى فُضول ... وغَيْثِ النَّاس فى الزّمن الحَرُودِ
كريمِ الجَدِّ ليس بذى وُصُوم ... يَرُوقُ على المُسَوَّد والمَسُودِ
عظيمِ الحِلْمِ من نَفَر كِرَام ... خَضَارِمَةٍ مَلاوِثَةٍ أُسُود
فلوْ خَلَد امْرؤٌ لقديم مجد ... ولكنْ لاسَبيلَ إلى الخُلُود
لكانَ مُخَلَّداً أخْرَى اللّيَالى ... لِفَضْل المَجد والحَسَب التَّليد

وقالت بَرّة بنت عبد المطلب تبكى أباها :

أعَيْنىّ جُودَا بِدَمْعٍ دِرَرْ ... على طَيِّب الخِيم والمُعْتَصَرْ
على ماجد الجدّ وارى الزِّناد ... جميل المُحيَّا عَظيم الخطَر
على شَيْبَة الحَمْد ذى المَكْرُمات ... وذى المَجْد والعِزّ والمُفْتخَر
وذى الحلم والفَضْل فى النّائبات ... كثير المكارِم ، جَمّ الفَجَر
له فَضْل مَجْد على قَومه ... مُنير ، يلوحُ كَضَوْء القَمَر
أتَتْهُ المَنايا ، فلم تُشْوِهِ ... بصَرْف اللّيالى ، ورَيْب القَدَر

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب تبكى أباها :

أعَيْنىّ جُودَا ، ولا تَبْخَلا ... بدمْعِكما بَعْدَ نَوْم النيامْ
أعَيْنىّ وَاسْحَنْفِرَا وَاسْكُبا ... وشُوبا بكاءَكما بالْتِدام
أعَيْنىّ ، وَاسْتَخْرِطا وَاسْجُما ... على رَجُلٍ غير نِكْس كَهَام
على الجَحْفَلِ الغَمْر فى النّائبات ... كريم المَساعى ، وفىّ الذِّمام
على شَيْبَة الحَمْدِ ، وارِى الزِّناد ... وذى مَصْدق بعدُ ثَبْت المَقام
وسَيْف لدَى الحرب صَمْصامَة ... ومِرْدَى المُخاصِم عنْد الخصام
وسَهْل الخَليقة طَلْق اليدَيْنِ ... وَفٍ عُدْمُلِىّ صَميم لُهَام
تَبَنَّكَ فى باذِخٍ بَيْتُه ... رفيعُ الذُّؤابة صَعْب المَرام

وقالت أم حَكيم البَيْضاء بنت عَبْد المُطّلِب تَبْكى أباها :

ألاَ يا عينُ جُودِى واسْتَهِلّى ... وبَكِّى ذا النَّدَى والمَكْرُمات

ألا يا عَيْنُ وَيْحك أسْعِفِينى بدمْعٍ من دُمُوع هاطلات
وَبكِّى خيرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا أباكِ الخيْرَ تيَّارَ الفُرات
طَوِيل الباع شَيْبَة ذا المعالى كريم الخِيمِ محمود الهِبَات
وَصُولاً للقَرَابة هِبْرِزِيًّا وغَيْثًا فى السِّنِين المُمْحِلات
وَلَيْثًا حين تَشْتَجِرُ العَوالى تَرُوقُ لَهُ عُيُونُ النَّاظِرَات
عَقِيلَ بَنِى كِنَانة والمُرَجَّى إذا ما الدَّهْرُ أقبَل بالهِنَات
ومَفْزَعها إذا ما هاجَ هَيْجٌ بداهية ، وخَصْم المُعْضلات
فَبكِيه ، ولا تَسَمِى بحُزْن وبكِّى ، ما بَقِيتِ ، الباكيات

وقالت أُمَيْمة بنت عبد المُطّلب تبكى أباها :

ألا هَلَكَ الراعى العشيرةَ ذو الفَقْد وساقى الحَجِيجِ ، والمحامى عن المجد
ومن يُؤْلفُ الضَّيفَ الغريبَ بيوتَهُ إذا ما سماء الناس تبْخَلُ بالرَّعد
كسبتَ وليداً خير ما يَكْسِبُ الفتى فلم تَنْفَكِكْ تزدادُ ياشَيْبة الحمْد
أبو الحارث الفَيَّاض ، خَلَّى مكانه فلا تَبْعُدَنْ ، فكل حى إلى بُعْدِ
فإنى لَباكٍ — ما بقيتُ — ومُوجَعٌ وكان له أهلا لما كان من وَجْدى
سقاكَ وَلِيُّ النَّاس فى القبر مُمطِراً فسوف أُبكِّيه ، وإن كان فى اللَّحْد
فقد كانَ زَيْنا للعَشِيرَة كُلِّها وكان حَميداً حيثُ ما كان من حَمْد

وقالت أرْوى بنتُ عبد المطّلب تبْكى أباها :

بكَتْ عَيْنى ، وحُقَّ لها البُكاء على سَمْحٍ ، سَجِيَّتُهُ الحَياء

. . . .

عَلى سَهْلِ الْخَلِيقَةِ أبْطَحِيٍّ كَرِيمِ الخِيمِ ، نِيَّتُه العَلاء
عَلى الفَيَّاضِ شَيْبَةَ ذى المعالى أبيكَ الْخَيْرِ ليسَ له كِفاء
طَويل الباع أمْلس ، شَيْظَمِيٍّ أغرَّ كأنَّ غُرّته ضِياء
أقَبِّ الكَشْحِ،أرْوعَ ذى فُضُول له الْمَجْدُ الْمُقَدَّمُ والسَّناء
أبِيِّ الضَّيْمِ ، أبْلَجَ هِبْرِزِيٍّ قَدِيم الْمَجْدِ ليسَ له خَفاء
ومَعْقِلِ مالكٍ ، ورَبِيع فِهْر وفاصِلِها إذا التُمِس القَضاء
وكان هُوَ الفَتَى كَرَما وجُوداً وبأسا حين تَنْسكب الدّماء
إذا هابَ الكُماةُ الْمَوْتَ حتى كأنّ قُلوبَ أكثرهم هَواء
مضَى قُدُما بذى رُبَد خَشِيب عليه حينَ تُبْصره البَهاء

قال ابن إسحاق : فزعم لى محمد بن سَعيد بن الْمُسَيِّب أنه أشار برأسه ، وقد أصْمَت : أنْ هكذا فابكِينى .

قال ابن هشام : المسيِّبُ بنُ حَزْن بن أبى وَهب بن عمْرو بن عائذ بن عِمْران ابن مخْزوم .

قال ابن إسحاق : وقال حُذَيفة بن غانم أخو بَنى عَدىّ بن كَعْب بن لُؤَىّ يبكى عبدَ المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف ، ويَذكر فضله ، وفضلَ قُصىّ على قُريش ، وفضلَ وَلَده من بعده عليهم ، وذلك أنه أُخِذ بغُرْم أربعة آلاف درهم بمكة ، فوقف بها فمرّ به أبو لَهَبٍ عبدُ العُزّى بن عبد المطَّلب ، فافتَكَّه :

أعَيْنَىَّ جُودَا بالدُّموع على الصَّدر ولا تَسأما ، أُسْقِيتُما سَبَلَ القَطْر

وجُودا بدَمعٍ ، واسفَحا كُلَّ شارق ... بُكاء امرِئٍ لم يُشْوِه نائبُ الدَّهْر
وسُحَّا ، وجُمَّا ، واسجُما مابَقيتما ... على ذى حَياء من قُريش ، وذى سِتر
على رجل جَلْد القُوى ، ذى حَفيظة ... جميلِ المُحَيَّا غير نِـكْس ولاهَذْر
على الماجد البُهلُول ذى الباع واللُّهى ... رَبيع لُؤَىّ فى القُحُوط وفى العُسْر
على خَيْر حَافٍ من مَعدّ وناعلٍ ... كَريم المساعى ، طيب الخِيم والنَّجْر
وخَيْرهم أصْلاً وفرْعا ومَعْدنا ... وأحظَاهُمُ بالمَـكْرُماتِ وَبالذّكْر
وأوْلاهُمُ بالمَجْدِ والحِلْم والنُّهَى ... وبالفَضْل عند المُجْحِفات من الغُبْر
على شَيْبة الحَمْد الذى كان وجهُه ... يُضِىء سَوَادَ اللَّيل كالقَمر البدْر
وساقى الحَجِيج ثم للخُبْزِ هاشم ... وعبدُ مناف ، ذلك السَّيِّد الفِهْرى
طوَى زَمْزَماعند المقام ، فأصبحت ... سِقايتُه فَخْراً على كل ذى فَخْر
لِيَبْكِ عَلَيْه كُلُّ عانٍ بكُرْبة ... وآلُ قُصَىّ من مُقِلّ وذى وَفْر
بَنُوه سَرَاةٌ ، كَهْلُهُم وشَبابُهُمْ ... تفلَّق عنهمْ بيضة الطائرِ الصَّقر
قُصَىٌّ الذى عادَى كِنانة كلَّها ... ورابطَ بيتَ الله فى العُسْر واليُسر
فإن تكُ غالتْهُ المَنايا وَصرْفُها ... فقد عاشَ مَيْمُونَ النَّقِيبَة والأمر
وأبقَى رِجالاً سادةً غيرَ عُزَّل ... مَصاليتَ ، أمثالَ الرُّدَيْنِيَّة السُّمْر
أبو عُتْبَة المُلقِى إلىّ حِبَاءه ... أغرّ ، هِجان اللَّوْن من نَفَرٍ غُرّ
وحَمزة مِثل البَدرِ ، يهتزُّ للنَّدى ... نقىّ الثياب والذّمام من الغَدر
وعبدُ مناف ماجد ذو حَفيظة ... وَصولٌ لذى القُرْبى رَحيم بذى الصِّهر
كُهُولُهمُ خيرُ الـكُهول ، ونَسْلهم ... كنَسْل المُلوك ، لاتَبورُ ولاتَحْرِى

متى ما تُلاقِ منهمُ الدّهرَ ناشِئاً ... تجِدْه بإجْرِيّا أوائلِه يجرى

هُمُ مَلَئوا البطْحاء مجداً وعزّةً ... إذا استُبِقَ الخيراتُ فى سالفِ العصْر

وفيهم بُناةٌ للعُلا ، وعِمارةٌ ... وعبدُ منافٍ جدّهم ، جابرُ الكَسْر

بإنكاحِ عوْفٍ بنتَه ، ليُجيرَنا ... من أعدائنا إذ أسلمَتْنا بنو فِهْر

فَسِرْنا تِهامِيَّ البلادِ ونجْدَها ... بأمْنِه حتى خاضت العِيرُ فى البَحْر

وهُمْ حضروا والنّاسُ بادٍ فريقُهم ... وليس بها إلا شُيُوخ بنى عَمْرو

بنَوْها دِياراً جَمّةً ، وطَوَوْا بِها ... بئارًا تسُحّ الماء من ثَبَجِ البَحْرِ

لكى يشربَ الحُجّاجُ منها،وغيرُهم ... إذا ابتدرُوها صُبْحَ تابعةِ النّحْر

ثلاثةَ أيّامٍ تظَلّ رِكابُهُمْ ... مُخَيِّسةً بينَ الأخاشِب والحِجْر

وقدْما غَنِينا قبلَ ذلك حِقْبةً ... ولا نستقى إلا بخُمّ أو الحَفْر

وهُمْ يَغفِرُون الذّنبَ ينقَم دونَه ... ويَعْفُون عن قولِ السّفاهةِ والهُجْرِ

وهم جمعوا حِلْف الأحابيش كلّها ... وهم نكّلوا عنّا غُواةَ بنى بكْر

فَخارِجَ ، إمّا أهلِكَنّ ، فلا تزَل ... لهم شاكراً حتى تُغَيّبَ فى القَبْر

ولا تنسَ ما أسدَى ابنُ لُبْنَى ؛ فإنه ... قد أسْدَى يداً مَحْقُوقةً منك بالشُّكر

وأنت ابنُ لُبْنى من قُصَيٍّ إذا انتمَوْا ... بحيث انتهى قصدُ الفؤادِ من الصّدْر

وأنتَ تناوَلْتَ العُلا ، فجمعْتَها ... إلى مَحْتِدٍ للمَجْدِ ذى ثَبَجٍ جَسْر

سبقتَ ، وفُتّ القومَ بذْلاً ونائلاً ... وسُدْتَ وليداً كلَّ ذى سُؤدَدٍ غَمْر

وأُمُّك سِرٌّ مِنْ خُزاعةَ جوْهَر ... إذا حصّل الأنسابَ يوماً ذَوُو الخُبْر

إلى سَبأ الأبطالِ تُنمى ، وتنتمى ... فأكرِمْ بها منسوبةً فى ذُرا الزُّهْر

أبُو شَمِرٍ منهمْ ، وَعَمْرو بنُ مالكٍ　　وذو جَدَنٍ من قومها وأبو الجَبْر
وأسْعد قادَ النَّاسَ عشرين حِجَّةً　　يُؤَيَّد فى تلك المواطنِ بالنَّصر

قال ابن هشام : « أُمُّك سِرٌّ من خزاعة » ، يعنى : أبا لهب ، أمه : لُبْنى بنت هاجر الُخزاعى . وقوله : « بإجْرِياًّ أوائله » عن غير ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق : وقال مَطْرود بن كَعْب الُخزاعى يَبْكى عبدَ المطلب وبَنى عبد مناف :

يا أيُّها الرَّجُلُ الُمحَوِّلُ رَحْلَهُ　　هلاَّ سألْتَ عن آل عَبدِ مَناف
هَبَلَتكَ أُمُّك ،لو حَلَلْتَ بدَارهم　　ضَمِنُوك مِنْ جُرْمٍ ومن إقْراف
الخالِطــينَ غنيَّهُم بفقيرهم　　حتى يَعُودَ فقيرُهُمْ كالــكافى
الُمنْعِمين إذا النُّجومُ تغيَّرت　　والظَّاعنين لِرِحْلة الإيلاف
والُمنْعِمِين إذا الرِّياحُ تناوَحَتْ　　حتى تغيبَ الشَّمسُ فى الرَّجَّاف
إمَّا هلــكْتَ أبا الفَعال فما جرَى　　من فوق مثلك عِقْد ذات نِطاف
إلا أبيك أخِي الَمــكارِمِ وحدَه　　والفيض مُطَّلب أبى الأضْياف

قال ابن إسحاق : فلما هَلك عبدُ المطَّلب بنُ هاشم وَلِىَ زمزمَ والسِّقاية عليهما بعده العباَّسُ بنُ عبد المطلب ، وهو يومئذ من أحدث إخوته سِناًّ ، فلم تزل إليه ، حتى قام الإسلامُ وهى بيده . فأقرَّها رسولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ له على ما مَضَى من ولايته ، فهى إلى آل العبَّاس ، بولاية العبَّاس إياها ، إلى اليوم .

كفالة أبى طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- بعد عبد المطّلب مع عَمّه أبى طالب ، وكان عبدُ المطّلب - فيما يزعمون - يُوصى به عَمّه أباطالب ، وذلك لأنّ عبدَ الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا طالب أخوان لأب وأُمّ أُمُّهما : فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عِمْران بن مَخْزُوم [بن يَقَظَة بن مُرّة] .

قال ابن هاشم : عائذ بن عِمْران بن مَخزوم .

قال ابن إسحاق : وكان أبو طالب هو الذى يَلى أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جدّه ، فكان إليه ومعه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يحيى بن عبَّاد بن عبدالله بن الزُّبَير ، أن أباه حدثه: أنّ رجلا من لِهب - قال ابن هشام : ولِهب : من أَزْدشَنُوءَة - كان عائفاً ، فكان إذا قَدِم مكّة أتاه رجالُ قُرَيش بغِلْمانهم ينظر إليهم ، ويَعْتاف لهم فيهم . قال : فأتى به أبو طالب ، وهو غلام مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شغله عنه شىء ، فلما فَرغ قال : الغلام . علىّ به ، فلمَّا رأى أبو طالب حِرْصَه عليه غَيَّبَه عنه ، فجعل يقول : وَيْلَكُمْ ! رُدُّوا علىّ الغلام الذى رأيت آنِفاً ، فوالله لَيَكُونَنَّ له شأن . قال : فانطلق أبو طالب .



. . . .

وفاة عبد المطلب

قول صفية :

ففاضت عند ذلكم دُمُوعِي على خَدِّى كَمُنْحَدِرِ الْفَرِيدِ

يروى : كمنحدِر بكسر الدال أى : كالدر المنحدِر ، وَمُنْحَدَر بفتح الدال فيكون التشبيهُ راجعاً للفيضِ ، فعلى روايةِ الكسر : شَبَّهتِ الدمْعَ بالدُّرِّ الفريد، وعلى رواية الفتحِ شبهت الفيضَ بالانحدارِ .

وقولها : أبيك الْخَيْرِ . أرادت: الخيِّر مخففت ، كما يقال : هَيْنٌ وَهَيِّنٌ ، وفى التنزيلِ : (خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) الرحمن: ٧٠ . وكان اسم أمِّ الدَّرْدَاء : خَيْرَةَ بنت أبى حَدْرَد (١) وكذلك أم الحسن بن أبى الْحَسَنِ البصرى ، اسمُها: خَيْرَةُ ، فهذا من المخفَّف ، ويجوز أن يكونَ الْخَيْرُ هٰهُنا هو ضد الشَّرِّ ، جعلته كلَّه خيراً على المبالغة كما تقول : ما زيدٌ إلاَّ عِلْمٌ أو حُسْنٌ ، وما أنت إلا سَيْرٌ ، وهو مجاز حَسَنٌ ، فعلى هذا الوجهِ لا يُثَنَّى ولا يُجْمَع ولا يُؤَنَّثُ ، فيقال : خَيْرَة .

---

(١) هى صحابية ، وكانت زوجا لأبى الدرداء . وكانت له زوجتان كل واحدة منهما كنيتها : أم الدرداء ، وهما كبرى وصغرى . والكبرى: هى الصحابية ، والصغرى: تابعية، وهى التى روت فى الصحيح . أما الكبرى فليس لها فى الصحيحين حديث . وهى خَيْرَةُ بنت أبى حدرد، واسمه : سلامة بن عمير . وهى أسلمية وفى القاموس : أبو الحدرد الأسلمى : صحابى، ولم يجىء فَعْلَع بتكرير العين غيره . والحدرد : القصير .



. . . .

وقولها : ولاشَخْت المقام ولا سَنِيد : الشَّخْتُ : [الدقيق الضامرُ لا هُزَالاً] ضدُّ الضَّخم ، تقول : ليس كذلك ، ولـكنه ضَخْمُ المقام ظاهرُه . والسَّنِيدُ : الضَّعيفُ الذى لايَسْتَقِلُّ بنفسه ، حتى يَسْنُدَ رأيَه إلى غيره .

وقولها : خَضَارِمَةٍ مَلَاوِثَةٍ . ملاوثه: جَمْعُ مِلْوَاث (١) من اللَّوْثَة ، وهى القوة ، كما قال المُـكَعْبَر :

عند الحَفِيظَةِ إنْ ذو لَوْثَةٍ لاثا

وقد قيل : إن اسْمَ الليثِ منه أُخذ ، إلاَّ أنَّ وَاوَه انقَلَبَتْ ياء ؛ لأنه فَيْعَلٌ ، فخُفف كما تقدم : فى هَيْنٍ وَهَيِّنٍ ، ولَيْنٍ و لَيِّنٍ .

وقول بَرَّةَ :

أتته المنايا فلم تُشْوِه

أى: لم تُصِبِ الشَّوَى (٢) ، بل أصابتِ المَقْتَلَ ، وقد تقدم فى حديث عبد المطلب وضرْبه بالقِدَاحِ على عبدالله ، وكان يَرَى أن السَّهْمَ إذا خرج على غيره أنَّه قد أُشْوِى ، أى : قد أخطأ مقتلَه ، أى: مقتلَ عبد المطلب وابنه ،

---

(١) فى اللسان : الملاث بفتح الميم والملوث : السيد الشريف والشيظمى : الفتى الجسم . والخضارمة : جمع خضرم بكسر الخاء والراء : الكثير العطاء . النكس : الضعيف الذى لا خير فيه . الحرود : الناقة القليلة الدر .

(٢) الشواة : جلدة الرأس ، والشوى: اليدان والرجلان والأطراف ، وما كان غير مقتل .



. . . .

ومن رواه : أشوَى بفتح الواو فالسّهم هو الذى أشوَى وأخطأ ، وبكلا الضبطين وجدتُه ، ويقال أيضاً : أشوَى الزَّرعُ : إذا أفرَكَ (١) فالأول من الشَّوَى ، وهذا من الشَّىّ بالنار ، قاله أبو حنيفة .

وقول عاتكة : ومِرْدَى المُخَاصِم ، المِرْدَى: مِفعَل من الرَّدَى ، وهو الحجر الذى يَقتل مَنْ أصيب به ، وفى المثل : كُلُّ ضَبٍّ عنده مِرْدَاتُه (٣) [أى : يقرب منه حتفه ، لأنه يُرمى به فيقتَل]

وقولُها : وَفِ. أى : وَفِىّ ، وخفف للضرورة ، وقولها : عُذْمُلِىّ . العُذْمُلِىّ : [وَالعُدَامِلُ وَالعُدامِلى] الشديد . واللُّهامُ : فُعَالٌ من لَهِمْتُ الشىء ألْهَمُه : إذا ابتَلَعْته ، قال الراجز : [رُؤْبَةُ بن العَجَّاج] .

كالحوت لا يُرْوِيه شىء يَلْهَمُهْ يُصبح عَطْشَاناً (٤) وفى البحرِ فَمُهْ

ومنه سمى الجيش : لُهَاماً

---

(١) أفرك : حان له أن يفرك . وفى اللسان : أشوى القمح : أفرك ، وصلح أن يشوى .

(٢) هذا والخيم فى قصيدة برة : السجية والطبيعة . وطيب المعتصر : جواد حين يسأل .

(٣) فى الأصل : عند . وفى مجمع الأمثال وسمط اللآلىء : «عنده» . والمرداة : الحجر الذى يرمى به ، والضب قليل الهداية ، فلا يتخذ جحره إلا عند حجر يكون علامة له من قصده ، فالحجر الذى يرمى الضب به يكون بالقرب منه . فمعنى المثل : لا تأمن الحدثان والسغير . فإن الآفات مُعَدَّة مع كل أحد : يضرب لمن يتعرض للمهلكة .

(٤) فى ديوان رؤبة : ظمآن . وانظر ص ٣٤٢ ج ٤ خزانة البغدادى .



. . . .

وقولها : على الجَحْفَلِ . جعلتْه كالجَحْفَلِ ، أى : يقوم وحده مقامه ، وَالجَحْفَلُ : لفظ مَنحُوتٌ من أصلين ، من: جَحَفَ وَجَفَلَ ، وذلك أنه يَجْحَفُ مايمر عليه أى : يَقْشِره وَ يَجْفِل : أى يَقْلَع (١) ونظيرُه نَهْشَلُ : الذئبُ ، هو عندهم منحوت من أصلين أيضا، من: نَهَشْتُ اللحمَ ونَشَلْتُه (٢) وعاتكةُ : اسمٌ منقول من الصِّفَات ، يقال : امرأةٌ عاتِكَةٌ ، وهى المُصَفَّرة لبدنها بالزَّعْفَرَانِ والطِّيبِ . وقال القُتَبِيُّ : عَتَكت القوسُ : إذا قَدُمَتْ (٣) وبه سُمِّيت المرأةُ . والقول الأولُ قولُ أبى حنيفة .

وقول أرْوَى : ومَعْقِلُ مالكٍ وربيع فِهْرٍ . تريد : بنى مالكِ بن النضر ابن كِنانَةَ . وقولها : بذى رُبَدٍ . تريد : سَيفاً ذا طرائقَ . والرُّبَدُ : الطرائقُ . وقالَ صَخْرٌ الغَىُّ [الهُذَلِيُّ] :

وصارِمٌ أُخْلِصَتْ خَشِيبَته ... أبيضُ مَهْوٌ فى مَتْنِه رُبَدُ (٤)

---

(١) يجفل فى اللسان ويجحف : يقشر : وفى الأصل : حجف بدلا من جحف ، وهذه أثبتها لخطأ الأولى .

(٢) نهشه : كمنعه ، نهسه . والنهس : أخذ اللحم بمقدم الأسنان ونتفه . ونشل اللحم : أخرجه من القدر بيده بلا مغرفة ، أو أخذ بيده عضوا ، فتناول ما عليه من اللحم بفيه .

(٣) فى القاموس : عتك القوس عتكا . وعتوكا ، فهى عاتك : احمرت قِدَماً ، وكذلك فى اللسان .

(٤) خشيبة فى الأصل : خشيشة ، وهو خطأ صوبته من اللسان . والخشيبة : الطبيعة أخلصتها المداوس والصقل ، يقال : خشب السيف . طبعه أو صقله . المهو : السيف الرقيق الشفرتين . وهي على وزن فلع ، لانها مقلوبة من موه ، لانها من الماء الذى لامه



. . . .

وقول عاتكة : تَبنَّك فى باذخٍ بيتُهُ . أى : تبنَّكَ بيتُهُ فى باذخ من الشَّرفِ ، ومعنى تَبَنَّك : تأصَّل من البُنْك وهو : الأَصْلُ . وَالبُنْكُ أيضاً : ضَرْبٌ من الطِّيب ، وهو أيضاً عود السوس(١) [شجر يغمى به البيوت ،

=هاء ، بدليل قولهم فى جمعه : أمواه . والربد : شبه غبار أو مدب نمل فى جوهره وقيل : الخشب الذى فى السيف هو أن يضع عليه سنانا عريضا أملس ، فيدلكه به . والمعنى : أن هذا السيف أرق حتى صار كالماء فى رقته . والبيت فى اللسان فى مادة خشب : ومرهف ـ برفعها ورفع أبيض ـ ومهو . وفى مادة : مها «وصارم» كما فى الروض ، وقد ورد البيت فى معجم ابن فارس فى مادة ربد كما فى الروض وقال عن الربد : «فأما ربد السيف فهو فرند ديباجته ، وهى هذلية» .

وقال فى مهو : «وسيف مهو : رقيق الحد كأنه يمر فى الضريبة مر الماء» . واللسان يرويه فى مادتى ربد ومهو كما ذكر الأستاذ عبد السلام هارون فى تعليقه على معجم ابن فارس . ويوجد البيت فى ديوان الهذليين وشرح السكرى للهذليين . . ومن معانى قصيدة عاتكة : اسحنفرا : صبا الدموع بكثرة . الالتدام : ضرب النساء وجوههن فى النياحة . استخرط الرجل فى البكاء : لج فيه . الكهام : الرجل الكليل السن . ومن معانى قصيدة أم حكيم : استهلى ، أظهرى البكاء . التيار : معظم الماء . والفرات : الماء العذب . الهِبْرِزِىّ : الحاذق فى أموره . تشتجر العوالى : تختلط الرماح فى الحرب . الهنات : جمع هنة ، وهى كناية عن القبيح . ولاتسَّمى ، أرادت : ولاتسامى . ومن غريب شعر أميمة : ذو الفقد : الفياض الكثير العطاء ، فإنى لباك : أخبرت عن نفسها إخبار المذكر على معنى الشخص . ومن غريب شعر أروى . السجية : الطبيعة ، أبطحى : نسبة إلى بطحاء مكة ، وهو الموضع السهل منها . الأقب : الضامر . الكشح : الخصر.

(١) فى اللسان وفى القاموس ماوضعته بين قوسين عن عود السوس ، ويقول الأزهرى عن البنك : إنها فارسية ومعناها : الأصل . ولهذا يقول ابن فارس فى مادة بنك : كلمة واحدة وهو قولهم : تبنك بالمكان ، أقام به .



. . . .

ويدخل عصيره فى الأدوية ، وفى عروقه حلاوة شديدة ، وفى فروعه مرارة] .

وقوله : فأشار إليهن برأسِه ، وقد أصْمَت بفتح الهمزة والميم ، هكذا قيده الشيخُ عن أبى الوليد ، ويقال : صَمَتَ وأصْمَتَ ، وسَكَت وأسْكَت بمعنى واحد ،[وسَمَح وأسمح ، وعصفت الريح وأعصفت ، وطلعت على القوم وأطلعت . ابن قتيبة فى أدب الكاتب] .

أبو جهم :

وذكر شِعْر حُذَيْفَة بن غانِم الْعَدَوِىِّ ، وهو والد أبى جَهْم بن حُذَيفة (١) ، واسمُ أبى جَهْمٍ : عُبَيْدٌ ، وهو الذى أهدى الْخَمِيصَة (٢)

---

(١) قال البخارى وجماعة : اسمه عامر ، وكنيته فى الإصابة : أبو الجهم. وأبو جهم من المعمرين، وفى نسب قريش . أبو جهم بن حذيفة بن غانم ، بن عامر ، ابن عبد الله بن عبيد بن عويج ، بن عدى بن كعب القرشى العدوى . وقد ضبط النووى عبيد بفتح العين ، وضبطت فى النسب بضمها . انظر ص ٣٦٩ نسب قريش ، وترجمة أبى جهم فى التهذيب للنووى .

(٢) الخميصة ، ثوب خز ، أو صوف معلم ، وقيل : لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلمة . وكانت من لباس الناس قديما . وهو يشير إلى ما روى فى الصحيحين من طريق عروة عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : صلى النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — فى خميصة لها أعلام . فقال : اذهبوا بخميصتى هذه إلى أبى جهم . وائتونى بأنبجانية أبى جهم . فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتى . والأنبجانية — بفتح الباء وكسرها وفتح الهمزة — نسبة إلى منبج أو أنبجان ، وهو كساء يتخذ من الصوف ، وله خمل [القطيفة أو أهدابها] ، ولا علم له ، وهى من أدون الثياب الغليظة . وإنما طلب الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأنبجانية لئلا يؤثر رد الهدية — وهى الخميصة — فى قلبه .

. . . .

لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنظر إلى عَلَمِها . الحديث . وقد رُوِى أيضاً هذا الحديثُ على وجهٍ آخرَ ، وهو أنَّ رسولَ الله - صلى اللهُ عليه وسلم - أُتى بِخَمِيصَتَيْنِ ، فأعطى إحداهما أبا جهمٍ ، وأمسك الأُخْرى ، وفيها عَلَمٌ ، فلما نظر إلى عَلَمِها فى الصلاةِ أرسلها إلى أبى جَهْمٍ ، وأخذ الأُخرى بدلا منها ، هكذا رواه الزُّبيرُ(١) . وأم أبى جَهْمٍ : يُسَيْرةُ بنتُ عبد الله بن أَذَاة ابن رِياح ، وابن أَذَاة : هو خالُ أبى قُحَافة ، وسيأتى نَسَبُ أُمِّه ، وقد قيل : إن الشعرَ لِحُذَافَةَ بن غانم ، وهو أخو حذيفةَ والد خارجة بن حذافه ، وله يقول فيه : أخارِجُ إنْ أهْلِكْ . وفى الشعر : غيرُ نِكس ولا هَذْر . النِّكسُ من السهام : الذى نُكِّسَ فى الكِنَانَة لميزَه الرامى ، فلا يأخذه لرداءته . وقيل : الذى انكسر أعلاه ، فنُكِس وَرُدَّ أعلاه أسفله ، وهو غير جيد للرمى .

وقوله : لاتَبُور ولاتَحْرِى . أى: لاتَهلِكُ ولاتَنْقُص ، ويقال للأفعى: حارِيَةٌ لرقَّتِها(٢) وفى الحديث : ما زال جسم أبى بكر يَحْرِى حُزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى : يَنقُص لحمه ، حتى مات ، والإِحْرِيَّاء : السيرة وهى إفعيلاَء من الحَرْى(٣) ، وليس لها نظيرٌ فى الأبنية إلا الإِهْجِيرا فى معنى

---

(١) رواه مرسلا .

(٢) هى التى كبرت ، ونقص جسمها ، ولم يبق إلا رأسها ونفسها وسمها .

(٣) فى الأصل: إحرياء والحرى بالحاء .وهو خطأصوابه ماأثبته.والإجرياء فى اللسان : الوجه الذى تأخذ فيه ، وتجرى عليه . وتقصر وتمد .



. . . .

الهِجِّيرى(١)

وفيها قوله : وليس بها إلا شيوخ بنى عمرو . يريد : بَنِى هَاشِم ؛ لأن اسمه عَمْرٌو .

وفيها : غَيْر عُزَّل ، وهو : جمع أعْزَل ، ولا يُجمع أفْعَل على فُعَّل ، ولكن جاء هكذا ؛ لأن الأعزَلَ فى مقابلة الرامح (٢) وقد يحملون الصفة على ضدها ، كما قالوا : عَدُوَّة ـ بتاء التأنيث ـ حَمْلا على صديقة ، وقد يجوز أن يكون أجراه مَجْرى : حُسَّرٍ جمع : حاسِر ؛ لأنه قريبٌ منه فى المعنى (٣)

تهام وشآم :

وقوله : فسرنا تَهَامِىَ البلاد مخففا مثل يمانياً ، والأصلُ فى يَمَانٍ : يَمَنِىٌّ ، خففوا الياء ، وعوَّضوا منها ألفا ، والأصل فى تَهَام: تِهامِىٌّ بكسر التاء من تِهَامِىّ لأنه منسوب إلى تِهامة(٤) ولكنهم حذفوا إحدى الياءين ، كما فعلوا فى يَمانٍ

(١) الدأب والعادة والقول السيء وكثرة الكلام. ولا تكاد تستعمل إلا فى العادة الذميمة .

(٢) فى اللسان : العزل « بضم العين والزاى » والأعزل الذى لا سلاح معه ، فهو يعتزل الحرب . أو الذى لارمح معه . وجمعهما أعزال وعُزُل وعُزْلان ، وعُزَّل . والأعزل والرامح: نجمان نيران . قال الأزهرى : وفى نجوم السماء سماكان ، أحدهما : السماك الأعزل ، والآخر: السماك الرامح . وفى شرح الشافية للرضى . « المطرد فى تكسير أفعل: فعلاء . وفى مؤنثه : فُعْل ، ولا يضم عينه إلا لضرورة الشعر ، ويجىء فعلان أيضاً كثيراً . كسودان وبيضان » .

(٣) الحاسر : من لا مِغْفَر له ولا درع ، أولا جنة له .

(٤) تهامة : تساير البحر . منها : مكة . وقيل:طرف تهامة من قبل الحجاز:=



. . . .

وفتحوا التاء من تَهامٍ لما حذفوا الياء من آخره ، لتكون الفتحة فيه كالعوض من الياء ، كما كانت الألف فى يَمانٍ ، وكذلك الألف فى شَآمٍ بفتح الهمزة ، وألف بعدها عِوَضاً من الياء المحذوفة ، فإنْ شَدَّدْتَ الياء من شآمٍ قلتَ : شأمِيّ بسكون الهمزة ، وتذهب الألف التى كانت عوضا من الياء لرجوع الياء المحذوفة ، ولا تقول فى غير النسب : شَآمٍ بالفتح والهمز ، ولا فى النسب إذا شددت (١)

= مدارج العَرْج ، وأول تهامة قبل نجد: ذات عرق ، وقيل : يخرج من مكة ، فلا يزال فى تهامة حتى يبلغ عُسْفان .

(١) هذا من النسب المسموع ، ويتميز هذا النوع بتخفيف ياء النسب المشددة ، والإتيان بألف للتعويض عنها قبل لام الكلمة . فيقال فى يَمَنِيّ : يمانى وفى شامِيّ : شآمى بياء واحدة ساكنة فيها . وبهذا يصير الاسم منقوصاً ، فتقول : قام اليمانى ، ورأيت اليمانى ، ومررت باليمانِ . ولا تجتمع ألف التعويض مع الياء إلا شذوذاً فى ضرورة الشعر . ويستحسن الاقتصار على المسموع . ولم يرد غير يمان وشآمٍ وتهامٍ وزاد الجوهرى فى الصحاح : نباطى ونباط ، وفى اللسان : ورجل شآم وتهام إذا نسبت إلى تهامة والشأم ، وكذلك : رجل يمان ، زادوا ألفاً فخففوا ياء النسبة . وفيه أيضاً عن تهامة : والنسبة إليه تِهامِيّ بكسر التاء وتشديد الياء ، وتَهامٍ بفتح التاء على غير قياس ، كأنهم بنوا الاسم على تَهْمِيّ أو تَهَمِيّ ، ثم عوضوا الألف قبل الطرف من إحدى الياءين اللاحقتين بعدها . ويقول الجوهرى : إذا فتحت التاء فى تهامٍ لم تشدد، كما قالوا: يمان وشآم إلا أن الألف فى تهام من لفظها والألف فى يمان وشآم عوض من ياءى النسبة . وفى شرح الشافية ص ٨٣ ح ٢ : وقالوا : يمان وشآم وتهامٍ . ولا رابع لها . والأصل : يمنى وشأمِى وتَهَمِى فحذف فى الثلاثة إحدى ياءى النسبة ، وأبدل منها الألف ، وجاء : يمنى وشأمى على الأصل، وجاء تهامى بكسر التاء وتشديد الياء منسوبا إلى تهامة، وجاء يمانى وشآمى =



. . . .

الياء شَأْمِيّ . وسألت الأستاذ أبا القاسم بن الرماك ـ وكان إماماً فى صنعة العربية عن البيت الذى أملاه أبو على فى النوادر ، وهو قوله :

[أَتَظْعَن عن حبيبك ثم تَبكى … عليه ، فَمَنْ دعاك إلى الفراق]

[كأنك لم تَذُق لِلْبَيْن طَعْما … فتعـــلم أنه مُرُّ الْمَذاق]

[أَقِمْ وانْعَمْ بطول القرب منه … ولا تَظْعَن فتُكْبَت باشتياق]

فما اعْتَاضَ المُفارِقُ من حَبيبٍ … ولو يُعطى الشَّآمُ مع العِراق

فقال : مُحدث ، ولم يره حُجَّةً . وكذلك وَجَدْتُ فى شِعْر حبيب : الشَّآم بالفتح كما فى هذا البيت . وليس بحجة أيضا .

[فى اللسان : «وقد جاء الشَآم لغة فى الشأم قال المجنون :

وخُبِّرْتُ لَيْلى بالشَآم مريضةً … فأقبلت من مصر إليها أعودها

وقال آخر :

أتتنا قريش قَضُّها بقضيضها … وأهل الحجاز والشَآم تَقَصَّف (١)]

وقوله :

حذف الياء من هاء الكناية :

حذف الياء من هاء الكناية بِأَمْنِهِ حتى خاضت العِيُر فى البحر *

= وكأنهما منسوبان إلى يمانٍ وشآمٍ المنسوبين بحذف ياء النسبة دون ألفها . إذ لا استثقال فيه كما استثقل النسبة إلى ذى الياء المشددة لو لم تحذف . والمراد بيمان وشآمٍ فى هذا موضع منسوب إلى الشأم واليمن . فينسب الشىء إلى هذا المكان المنسوب . ويجوز أن يكون يمانى وشآمى جمعاً بين العوض والمعوض عنه وأن يكون الألف فى يمانى للاشباع . وانظر المزهر للسيوطى ص ١٠١ ح ٢ (١) عن اللسان والأمالى

. . . .

ضرورة ، كما أنشد سيبويه : سأجعل عينيه لِنَفْسِهِ مَقْنَعَا (١) * فى أبيات كثيرة أنشدها سيبويه ، وهذا مع حذف الياء والواو ، وبقاء حركة الهاء ، فإن سكنت الهاء بعد الحذف ، فهو أقل فى الاستعمال من نحو هذا ، وأنشدوا :

وَنِضْوَاىَ مُشْتَاقَانِ لَهْ أَرِقَانِ (٢)

وهذا الذى ذكرناه هو فى القياس أقوى ؛ لأنه من باب حمل الوصل على الوقف نحو قول الراجز :

لما رأى أن لادَعَهْ ولا شِبَعْ

ومنه فى التنزيل كثير نحو إثبات هاء السكت فى الوصل ، وإثبات الألف من أنا ، وإثبات ألف الفواصل نحو : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ الأحزاب: ١٠. وهــــذا الذى ذكره سيبويه من الضرورة فى هاء الإضمار إنما هو إذا تحرك ما قبلها نحو : بِهِ ولَهِ ، ولا يكون فى هاء المؤنث البَتَّةَ لخفة الألف ، فإن سكن ما قبل الهاء نحو: فيه وبنيه كان الحَذْفُ أحسنَ من الإثباتِ ؛ فإن قلت

---

(١) الشعر لمالك بن خُرَيْم الهمدانى وهو :

فإن يك غثا أو سمينا فإننى   سأجعل عينيه لنفسه مَقْنَعا

أراد لنفسهى ، لحذف الياء ضرورة فى الوصل تشبيها بها فى الوقف إذ قال : لنفسه . يصف ضيفا فيقول : إنه يقدم إليه ما عنده من القرى ويحكمه فيه ، ليختار منه أفضل ما تقع عليه عيناه ، فيقنع بذلك انظر ص ١٠ حـ ١ الكتاب لسيبويه ط ١ .

(٢) النضو : البعير المهزول والناقة .



. . . .

فقد قرأ عيسى بن مينا : نُصْلِهِ ويُؤَدِّه وأرْجِهِ (١) ونحو ذلك فى اثنى عشر

---

(١) يعنى الآيات القرآنية : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونُصْلِه جهنم ، وساءت مصيراً) النساء : ١١٥ و: (ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إن تأمنه بقنطار يؤدِّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) آل عمران : ٧٥ و : (قالوا : أرجهْ وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين) الأعراف : ١١١ . وفى « يؤده ونصله » خمس قراءات . إحداها : بكسر الهاء ، وصلتها بياء فى اللفظ ، والثانية : بكسر الهاء من غير ياء . اكتفى بالكسرة عن الياء لدلالتها عليها ، ولأن الأصل ألا يزاد على الهاء شيء كبقية الضمائر ، والثالثة : إسكان الهاء ، وذلك أنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، وهو ضعيف ، وحق هاء الضمير الحركة ، وإنما تسكن هاء السكت ، والرابعة : ضم الهاء وصلتها بواو فى اللفظ على تبيين الهاء المضمومة بالواو ، لأنها من جنس الضمة كما بينت المكسورة بالياء . والخامسة : ضم الهاء من غير واو لدلالة الضمة عليها ، ولأنه الأصل ، ويجوز تحقيق الهمزة وإبدالها واوا للضمة قبلها . وأرجه يقرأ بالهمزة وضم الهاء من غير إشباع « أرجئه » ، وهو الجيد ، وبالإشباع وهو ضعيف ، ويقرأ بكسر الهاء مع الهمزة وهو ضعيف ، ويقرأ من غير همزة من أرجيت بالياء ، ثم منهم من يكسر الهاء ويشبعها ومن لا يشبعها . ومنهم من يسكنها . هذا ، ومن معانى مفردات قصيدة حذيفة كما ذكر الخشنى : السبل : المطر : كل شارق: عند طلوع الشمس . سُحًّا : صبا . جُمًّا : أجمعا وأكثرا . واسجا : أسبلا . والحفيظة: الغضب مع عزة . والهذر : الكثير الكلام فى غير فائدة . البهلول : السيد . واللهى : العطايا . وفى رواية : الندى ، وأخرى : النهى . والنجر : الأصل . والمجحفات : التى تذهب بالأموال . والغبر : السنين المقحطات . وسراة : خيار . غالته : ذهبت به . النقيبة : النفس وميمون النقيبة : يسعد فيما يتوجه له . مصاليت : شجعان . ردينية : رماح . حباء : عطاء . هجان اللون : بيض . والإجريا : ما يجرى عليه من أبغال آبائه ويتعوده . وفى القاموس : الوجه الذى تأخذ فيه وتجرى عليه . وهى بالمد =



. . . .

موضعاً بحذف الياء ، وقبل الهاء متحرك ، فكيف حسن هذا ؟ قلنا : إن ماقبل الهاء فى هذه المواضع ساكن ، وهو الياء من نُصْلِيه ويُؤَدِّيه و يُؤتيه، ولكنه حذف للجازم ، فمن نظر إلى اللفظ ، وأنَّ ماقبل الهاء متحرك أثبت الياء كما أثبتها فى : به وله ، ومن نظر إلى الكلمة قبل دخول الجازم ، رأى ما قبل الهاء ساكناً ، فحذف الياء ، فهما وجهان حَسَنَان بخلاف ماتقدم

من شرح قصيدة حذيفة :

وذكر فى هذا الشعر : وأسعدُ قاد الناس . وهو أسعد أبو حَسَّان بن أسعد ، وقد تقدم فى التَّبابِعة ، وكذلك أبو شَمِرٍ ، وهو شَمِرٌ الذى بنى سَمَرْقَنْد(١) ، وأبوه : مالك ، يقال له : الأُمْلُوك(٢) ، ويحتمل أن يكونَ أراد أبا شَمِرٍ الغَسَّانِيَّ والدَ الحرث بن أبى شَمِرٍ .

وعَمْرو بن مالك الذى ذكر أحْسَبه عَمْراً ذا الأذعار ، وقد تقدم فى التبابعة،

= القصر . تهامى البلاد ونجدها : ما انخفض منها وما علا . ثبج الشىء : أعلاه ومعظمه . مخيسة : مذللة . الأخاشب : جبال بمكة وهما جبلان ، فجمعهما مع ما عليهما ، وخم : اسم بئر . والحفر : اسم بئر . والهُجر : القبيح من الكلام الفاحش . والأحابيش : من حالف قريشاً من القبائل ودخل فى عقدها وذمتها . ونكلوا : صرفوا . نخارج : أراد : ياخارجة فحذف حرف النداء ، ورخم . وأسدى : أعطى ، والمحتد : الأصل . جسر : ماض فى أموره قوى عليها . غمر : كثير العطاء . أمك سرٌّ : خالصة النسب .

(١) فى القاموس : شمر بن أفريقش غزا مدينة السغد ، فقلعها ، فقيل : شمركند ، أو بناها ، فقيل : شمر كنت ، وهى بالتركية : القرية فعربت : سمرقند .

(٢) الأملوك : اسم جمع لملك ، وقوم من العرب ، أو هم مقاول حمير .



وهو من ملوك اليمن ، وإنما جعلهم مَفْخَراً لأبى لهب ؛ لأن أمه خُزاعية من سبأ ، والتبابعة كُلُّهم من حِمْيَر بن سَبَإ ، وقد تقدم الخلاف فى خُزَاعة .

وأبو جَبْرٍ الذى ذكره فى هذا الشعر : ملكٌ من مُلوكِ اليمن ذكر الْقُتَبِيُّ أن سُمَيَّة أم زياد ، كانت لأبى جَبْرٍ ملكٍ من ملوكِ اليمنِ ، دفعها إلى الحرث بن كَلَدَة الْمُتَطَبِّبِ فى طِبٍّ طَبَّه .

زيد أفضل إخوته :

وذكر ولايةَ العباس — رضى الله عنه — السِّقَاية ، وقال : كان من أحْدَثِ إخْوَتِهِ سِنًّا ، وكذلك قال فى صفةِ النبى — صلى الله عليه وسلم — : كان من أفضلِ قومِهِ مُرُوءةً ، وهذا مما منعه النحويون أن يقال : زيد أفضل إخوته ، وليس بممتنع ، وهو موجود فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، وغيره ، وحسُن لأن المعنى : زيد يَفْضُلُ إخوتَه ، أو يَفْضُلُ قومَه ؛ ولذلك ساغ فيه التنكير ، وإنما الذى يمتنع بإجماعٍ : إضافة أفعل إلى التثنية مثل أن تقول : هو أكرم أخويه ، إلا أن تقول : الأخوين ، بغير إضافة(١) .

---

(١) مما اشترط النحاة فى أفعل التفضيل المضاف أن يكون المضاف بعضا من المضاف إليه بشرط إرادة التفضيل ، وبقاء معناه ووجوده . ويقول الأشمونى فى شرح الألفية : « وإن لم تنو بأفعل معنى : من ، بأن لم تنو به المفاضلة أصلا ، أو تنويها ، لا على المضاف إليه وحده ، بل عليه وعلى كل ما سواه كقولهم : الناقص والأشج (يعنى يزيد بن الوليد بن عبدالملك بن مروان لنقصه أرزاق الجند ، وعمر بن عبد العزيز لشجة أصابته بضرب الدابة ، أعدلا بنى مروان . أى : عادلاهم ، فكان أفعل بمعنى فاعل ، وليس فى هذا تفضيل ، ونحو : محمد — صلى الله عليه وسلم — أفضل قريش ، أى : أفضل الناس من بين قريش . وإضافة هذين النوعين لمجرد

. . . .

من شرح شعر مطرود :

فصل : وذكر فى شعر مطرود : منعوك من جَوْرٍ ومن إقراف[1] ،

التخصيص ؛ ولذلك جازت إضافة أفعل فيهما إلى ما ليس هو بعضه بخلاف المنوى فيه معنى من ، أى : إرادة التفضيل ، فإنه لا يكون إلا بعض ما أضيف إليه ، فلذلك يجوز : يوسف أحسن إخوته ، إن قصد : الأحسن من بينهم ، أو قصد : حسنهم — رأى جعله صفة مشبهة — ويمتنع إن قصد أحسن منهم ، ص٤١ ج ٣ ط ١٣٠٥ ﻫ

ويقول ابن يعيش فى شرح المفصل : « قد علم أن أفعل إنما يضاف إلى ما هو بعضه . فليعلم أنه لا يجوز أن تقول : يوسف أحسن إخوته ، وذلك أنك إذا أضفت الإخوة إلى ضميره خرج من جملتهم ، وإذا كان خارجا منهم ، صار غيرهم وإذا صار غيرهم لم يجز أن تقول : يوسف أحسن إخوته ، كما لا يجوز أن تقول : الياقوت أفضل الزجاج ؛ لأنه ليس من الزجاج ، فحينئذ يلزم من المسألة أحد أمرين ، كل واحد منهما ممتنع . أحدهما : ما ذكرناه من إضافة أفعل إلى غيره ، إذ إخوة زيد غير زيد . والثانى : إضافة الشىء إلى نفسه ، وذلك أنا إذا قلنا : إن زيدا من جملة الإخوة — نظرا إلى مقتضى إضافة أفعل ، ثم أضفت الإخوة إلى ضمير زيد ، وهو من جملتهم — كنت قد أضفته إلى نفسه ، بإضافتك إياه إلى ضميره وذلك فاسد . فأما النوع الثانى — يعنى ابن يعيش : أفعل بمعنى فاعل ؛ وهو غير دال على معنى التفضيل — وهو أن يكون أفعل فيه للذات بمعنى فاعل ، فإنه يجوز أن تقول : يوسف أحسن إخوته ، ولا يمتنع فيه كامتناعه من القسم الأول إذ المراد أنه فاضل فيهم ، لأنه لا يلزم فى هذا النوع أن يكون أفعل بعض ما أضيف إليه ، وعليه جاء قولهم لنصيب الشاعر : أنت أشعر أهل جلدتك ، لأن أهل جلدته غيره . وإذا كانوا غيره لم تسغ إضافة أفعل إذا كان هو إياه إليهم ؛ لما ذكرته ويجوز على الوجه الثانى لأنه بمعنى : الشاعر فيهم ، أو شاعرهم » ص ٨ ج ٣ شرح المفصل لابن يعيش . وبهذا يتبين أن النحويين لم يمنعوا هذا منعا مطلقا . بل أجازوا نفس ما ذكره السهيلى .

(١) الذى فى السيرة : ضمنوك . والمقرف الذى دانى الهجنة من الفرس وغيره



. . . .

أى : منعوك من أن تُنكِح بناتِك أو أخَوَاتِك من لئيمٍ ، فيكون الابن مُقرِفًا لِلؤم أبيه ، وكرم أمه ، فيلحقك وصْمٌ من ذلك ، ونحو منه قول مُهَلْهِل (١) :

أنكحَها فقدُها الأراقِمَ فى جَنْبٍ ، وكان الحِباء من أدَمِ (٢)

= وهو الذى أمه عربية ، وأبوه ليس بعربى ، فالإقراف من قبل الأب ، والهجنة من قبل الأم .

(١) المهلهل : قال الآمدى : اسمه : امرؤ القيس بن ربيعة بن الحارث بن زهير ابن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غانم بن تغلب ، وهو الشاعر المشهور ، ويقال اسمه : عدى ، وقال ابن قتيبة : مهلهل بن ربيعة ، هو : عدى بن ربيعة ، وسمى مهلهلا ؛ لأنه هلهل الشعر ، أى : أرقه ، ويقال : إنه أول من قصد القصيد . وهو خال امرىء القيس صاحب المعلقة . وهو أخو كليب الذى هاج بمقتله حرب البسوس . وقيل : إنه مات أسيرا ، وذلك أنه لما نزل اليمن نزل فى بنى جنب ، وجنب من مذحج ، فخطبوا إليه ابنته . فقال لهم : إنى طريد بينكم ، فمتى أنكحتكم ؟! قالوا : فأجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه فى صداقها أدما ، فقال :

أنكحها فقدُها الأراقمَ فى جنب وكان الحباء من أدَم

ثم انحدر ، فلقيه عوف بن مالك أبو أسماء صاحبة المرقش الأكبر ، فأسره ، فمات فى أسره . وقيل فى وفاته غير ذلك ص ٢٣ وما بعدها ج ٢ خزانة الأدب للبغدادى ط دار العصور .

(٢) قيل عن جنب إنه لقب لا اسم أب . وفى نهاية الأرب ج ٣ ص ٦٧ جاء هذان البيتان :

أعــزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جُشَم
ليسوا بأكفائنا الكرام ، ولا يُغنون من ذلة ولا عــدم =

. . . .

أي : أنكحت لغربتها من غير كُفْء . قال مَبْرَمان(١) : أنشدنا أبو بكر ابن دريد : وكان الخِباء من أدَم ، بخاء معجمة الأعلى ، وهو خطأ وتصحيف ، وإنما هو بالحاء المهملة ، وهو معدود فى تصحيفات ابن دريد ، وفيه يقول المُفَجَّع [البصرى] ردًّا على ابن دُرَيْد :

ألستَ قِدْماً جعلتَ تَعْتَرِقُ م   الطَّرْفَ بجَهْلٍ مكان تَعْترق(٢)

وقلت : كان الخِباء من أدَمٍ   وهو حِباء يُهْدَى ، ويُصْطَدَقُ

وذلك أن مُهَلْهِلاً نزل فى جَنْبٍ ، وهو حَىٌّ وضيعٌ من مَذْحِج . فخطبت ابنته ، فلم يستطع مَنْعَها ، فزوَّجها ، وكان نقدُها من أدَمٍ ، فأنشد :

أنْكَحَها فَقْدُها الأراقِمَ فى   جَنْبٍ ، وكان الحِباء من أدَمِ

لو بأبانَيْنِ جاء خاطبُها   ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بدَم (٣)

= والاول منهما قبل : « أنكحها فقدها الخ » والآخر بعد قوله : «لو بأبانين » الذى سيأتى . والاراقم : حى من تغلب قوم المهلهل . وقد تقدم من قبل الحديث عن جنب .

(١) لقب لابى بكر الازمى .

(٢) تعترق الطرف : تشغلهم بالنظر إليها عن النظر إلى غيرها لحسنها ، وانظر المزهر ص ٣٦٦ ج ٢ للسيوطى ففيه قول المفجع . وقد رمى بدر الدين الزركشى ابن دريد بهذا التصحيف كما ذكر السهيلى ، وأورده التيجانى فى تحفة العروس وروى الشطرة الاولى هكذا : « ألم تصحف ، فقلت تعترق الخ » وروى أيضا فى غيره : « ألست عما صحفت تعترق .

(٣) الابانان : جبلان بالبادية اسم أحدهما : أبان ، والآخر : متالع ، أحدهما: =



. . . .

وقوله : حتى تغيبَ الشمسُ بالرَّجَّافِ(١) يعنى : البحر . لأنه يَرْجُف . ومن أسمائه أيضاً : خُضارَة ، [سُمِّى بذلك لخُضرَة مائه] . والدَّأْمَاء [سمى بذلك لتداوُم أمواجه أى : تراكمها ، وتكسر بعضها على بعض] وأبو خالد .

وقوله : عِقْدُ ذاتُ نِطافِ . النُّطَفُ(٢) : اللؤلؤ الصافى . ووصِيفةٌ مُنَطَّفَةٌ [ومُتَنَطِّفَة] أى : مُقَرَّطَة بِتُومَتَيْنِ [والتُّومَة : اللُّؤْلُؤة ، أو حبة تعمل من الفضة كالدُّرَّةِ] والنَّطَفُ فى غير هذا : التَّلَطُّخُ بالعَيْب ، وكلاهما من أصل واحد ، وإن كانا فى الظاهر متضادين فى المعنى ؛ لأن النُّطْفَةَ هى الماء القليل ، وقد يكون الكثير ، وكأن اللؤلؤ الصافى أُخِذ من صفاء النُّطْفَةِ . والنَّطَفَ الذى هو العيب : أُخذ من نُطْفَةَ الإنسان ، وهى ماؤه ، أى : كأنه لُطِّخ بها .

وقوله : والفَيْضِ مُطَّلب أبى الأضياف . يريد : أنه كان لأضيافه

= أبيض ، وهو لبنى أسد ، والآخر : أسود ، وهو لبنى فزارة ، هذا ، وقد روى اللسان البيتين . وفيهما : « الخباء ، ورُمَّل » بدلا من « الحباء ، وضرج » .

(١) فى السيرة : فى الرجاف .

(٢) مفردها . نطفة كهمزة « بضم النون وفتح الطاء » .

ملحوظة : فى السيرة أن فاطمة بنت عمرو بن عائذ هى أم عبدالله وأبى طالب . فى نسب قريش وعند السدوسى هى : أمهما أيضا ، وكذلك فى جمهرة ابن حزم . وفى السيرة فى نسب فاطمة هذه قال ابن إسحاق : « ابن عائذ بن عبد بن عمران » ، وفى نسب قريش لا توجد عبد بين عائذ وعمران ، وكذلك فى جمهرة ابن حزم ، وعند السدوسى ، وإلى هذا ذهب ابن هشام ، وما بين قوسين في نسب زدته فاطمة من كتب النسب ،

كالأب . والعرب تقول لكل جواد : أبو الأضياف . كما قال مُرَّةُ بن مَحْكَان [السَّعْدِي التَّمِيمِيّ سيد بنى رُبَيْع] :

أُدْعَى أباهم ، ولم أُقْرِف بأُمِّهِمُ وقد عَمِرْتُ . ولم أَعْرِفْ لهم نَسَبا

اللِّهبى العائف :

فصل : وذكر خَبَرَ اللِّهْبِيِّ العائفِ . قال ابن هشام : ولِهْبٌ : حَيٌّ من الأَزْدِ : وقال غيره : وهو لِهْبُ بنُ أُحْجَن بن كَعْب بن الحارثِ بنِ كعب ابن عبدِ الله بن مالكِ بن نَصْر بن الأَزْد . وهى القبيلة التى تُعْرَفُ بالعِيافة والزَّجْرِ (١) . ومنهم اللِّهْبِيُّ الذى زَجَر حين وقعت الحصاةُ بِصَلْعَةِ عُمَرَ

(١) العيافة : تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى المقابلة للأثر ، وهى التى تكون فى تربة حرة تشكل بشكل القدم . وقد اشتهر بها قديما بنو مدلج قبيلة من كنانة وبنولهب «بلوغ الارب للألوسى ، وانظر ص ٤٩١ الاشتقاق ، واللسان فى مادة لهب » والزجر : الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها واستعلام ما غاب عنهم . ويقول ابن خلدون عنه : هو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان . ويقول ابن القيم فى مفتاح دار السعادة عنه: «وأصل هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير، والوحش ويثيرونها ، فما تيا من منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحا ، وماتياسر منها سموه: بارحا ، وما استقبلهم منها فهو : الناطح ، وما جاءهم من خلفهم فهو القعيد .. ومن العرب من يتيمن بالسانح ويتشاءم بالبارح ومنهم غير ذلك. وقيل عن السانح والبارح غير هذا . ويقول الأزهرى : العيافة : زجر الطير ، وهو أن يرى طائرا ، أو غرابا ، فيتطير ، وإن لم ير شيئا ، فقال بالحدس كان: عيافة أيضا.وفى القاموس: العائف : المتكهن بالطير ، وكل هذا حرمه الإسلام ، وقيل فى تعريفهما غير ذلك.



قصة بحيرى

قال ابن إسحاق : ثم إنّ أبا طالب خرج فى ركبٍ تاجراً إلى الشام ، فلما تهيَّأ للرحيل ، وأجمع المسيرَ صَبَّ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم - فيما يزعمون - فرَقَّ له ، وقال : والله لَأُخْرُجَنَّ به معى ، ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا ، أو كما قال . فخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصْرَى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له : بَحِيرَى فى صَوْمَعَة له ، وكان إليه عِلمُ أهْل النصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قَطّ راهبٌ ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها – فيما يزعمون

رضى الله عنه – فأَدْمَتْه ، وذلك فى الحج ، فقال : أُشْعِر أميرُ المُؤْمنين . والله لا يَحُجُّ بعد هذا العام ، فكان كذلك(١) واللِّهْبُ : شَقٌّ فى الجبلِ (٢) [والجمع : أَلْهاب ولُهوبٌ] . وبنو ثُمالَةَ رَهْطُ المُبَرِّدِ الثُّمَالِيِّ : هُمْ بنو أسْلَم بن أَحْجَن ابن كَعْبٍ . وثُمَالَةُ : أمُّهم . وكانت العِيافة والزجر فى لِهْب قال الشاعر(٣) :

سألتُ أخا لِهْبٍ لِيَزْجُرَ زَجْرَةً   وقد رُدَّ زَجْرُ العالمين إلى لِهْبِ

وقوله : لِيَعْتَافَ لهم : وهُو يَفْتَعِل من العَيْفِ . يقال : عِفْتُ الطيرَ . واعْتَفْتُها عِيافَةً واعْتِيافاً : وعِفْتُ الطعامَ أعافُه عَيْفاً . وعافت الطيرُ الماءَ عِيافاً .

---

(١) هذا خرف أسطورى . فالله وحده هو عالم الغيب .

(٢) عند ابن دريد فى الاشتقاق ، واللهب : الشعب الضيق فى أعلى الجبل والجمع ألهاب ولهوب .

(٣) هو كثير عزة ، والبيت فى نهاية الأرب هكذا :

تيممت لهبا أبتغى العلم عندها   وقد رد علم الطائفين إلى لهب



يتوارثونه كابراً عن كابر . فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرَى، وكانوا كثيراً مايمرّون به قبلَ ذلك ، فلا يكلّمهم ، ولا يَعْرِض لهم ، حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا به قريباً من صَوْمعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك ـ فيما يزعمون ـ عن شىء رآه وهو فى صومعته ، يزعمون أنه رأى رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى صَوْمعته فى الرّكْب حين أقبلوا ، وغَمامة تُظِلّه من بين القوم . قال : ثم أقبلوا فنزلوا فى ظلّ شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلّت الشجرة ، وتهصّرت أغصانُ الشجرة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى استظلّ تحتها ، فلما رأى ذلك بَحِيرَى نزل من صَوْمعته وقد أمر بذلك الطعام فصُنع ، ثم أرسل إليهم ، فقال : إنى قد صنعتُ لكم طعاماً يامعشرَ قُريش ، فأنا أحبُّ أن تحضُروا كلُّكم ، وصغيرُكم وكبيرُكم ، وعبدُكم وحُرُّكم ، فقال له رجل منهم : والله يابَحيرَى إنّ لك لشأناً اليومَ ! ما كنتَ تصنع هذا بنا ، وقد كنّا نمُرّبك كثيراً ، فما شأنك اليومَ ؟! قال له بحيرىَ : صدقتَ ، قد كان ما تقول ، ولكنّكم ضَيْفٌ ، وقد أحببتُ أن أكرمكم ، وأصنعَ لكم طعاما ، فتأكلوا منه كُلُّكم . فاجتمعوا إليه ، وتخلّف رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بين القوم ، لحداثة سنه ، فى رِحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظَرَ بَحيرىَ فى القوم لم يَرَ الصِّفَةَ التى يعرِفُ ويجِدُ عنده ، فقال : يامعشر قُرَيش : لا يتخلفَنّ أحدٌ منكم عن طعامى ، قالوا له : يابَحيرىَ ، ماتخلّف عنك أحدٌ ينبغى له أن يأتيكَ إلا غلامٌ ، وهو أحدثُ القوم سنا ، فتخلّف فى رِحالهم ، فقال : لاتفعلوا ، ادعوه ، فليحضُر هذا الطعامَ معكم قال : فقال رجل من قُرَيش مع القوم : واللّات والعُزّى ، إن كان

لَلَؤُمٌ بنا أن يتخلّف ابن عبد الله بن عبد المطّلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتَضَنَه ، وأجلسه مع القوم . فلما رآه بَحيرَى ، جعل يَلْحَظُه لَحْظًا شديداً ، ويَنْظُرُ إلى أشياء من جَسَده ، وقد كان يَجِدُها عنده من صفته ، حتى إذا فرَغ القومُ من طعامهم وتفرّقوا ، قام إليه بَحيرَى ، فقال : ياغلام ، أسألك بحقّ اللّات والعُزَّى إلا ما أخبرتنى عَمّا أسألكَ عنه ، وإنما قال له بَحيرَى ذلك ؛ لأنه سَمِع قومه يَحلِفون بهما ، فزَعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تسألنى باللات والعُزّى شيئاً ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطُّ بُغْضَهما ، فقال له بَحيرَى : فبالله إلاَّ ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال له : سَلْنى عمَّا بدالك . فجعل يسأله عن أشياء من حالِه من نَوْمه وهَيْئته وأموره ، فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُخبره ، فيوافق ذلك ما عند بَحيرَى من صِفَتِه ، ثم نظر إلى ظهْره ، فرأى خاتَمَ النبوّة بين كَتِفَيْه على موضعه من صفته التى عنده .

قال ابن هشام : وكان مثلَ أثر المِحْجَم .

قال ابن إسحاق : فلما فَرَغَ ، أقبل على عَمِّه أبى طالب ، فقال له : ما هذا الغلامُ منك ؟ قال : ابنى . قال له بَحيرَى : ماهو بابنك ، وماينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا ، قال : فإنه ابنُ أخى ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حُبْلَى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحْذَر عليه يَهُودَ ، فوالله لئن رأوْه ، وعرفوا منه ما عرفتُ لَيَبْغُنَّه شرّاً ، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم ، فأسْرِع به إلى بلاده .

فخرج به عمُّهُ أبو طالب سريعا ، حتى أقدمَهُ مكةَ حين فرَغَ من تجارته بالشام فزعموا فيما روى الناسُ : أن زُرَيْراً وتمَّاما ودَرِيسا — وهم نفَر من أهل الكتاب — قد كانوا رأَوْا من رسول الله — صلى عليه وسلم — مثل ما رآه بَحِيرَى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمِّه أبى طالب ، فأرادوه ، فردَّهم عنه بحيرى ، وذكَّرهم اللهَ وما يجدون فى الكتاب من ذِكْرِه وصفتِه ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلُصوا إليْه ، ولَمْ يَزَلْ بهم ، حتى عرفوا ماقال لهم ، وصدّقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا عنه . فشبَّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والله تعالى يَكلَؤُه ، ويحفظه ويحوطُه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أنْ كان رجلاً أفضلَ قومه مُرُوءةً ، وأحسنَهم خُلقا ، وأكرمَهم حَسَبا ، وأحسنَهم جِوَاراً ، وأعظمهم حِلْما ، وأصدقَهم حديثا ، وأعظمَهم أمانةً ، وأبعدَهم من الفحش والأخلاق التى تُدنِّسُ الرجال ، تَنَزُّها وتَكَرُّما ، حتى مااسمه فى قومِهِ إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم — فيما ذُكر لى — يُحَدِّث عما كان الله يحفظه به فى صِغَرِه وأمْر جاهليته ، أنه قال :

لقد رأيتُنِى فى غِلْمانِ قُريش نَنقُلُ حجارةً لبعض ما يلعب به الغلْمانُ ، كلُّنا قد تعرَّى ، وأخذ إزارَه ، فجعله على رَقَبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأُقبل معهم كذلك وأُدْبر ، إذ لَكَمَنِى لاكِمٌ ما أراه ، لكمةً وَجِيعةً ، ثم قال : شُدَّ عليك إزارك . قال : فأخذتُه وشددتُه علىَّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىَّ من بين أصحابى .

. . . .

قصة بحيرى :

فصل : فى قصه بحيرى وسَفَر أبى طالبٍ بالنبى – صلى اللهُ عليه وسلَّمَ – وقع فى سِيَرَ الزُّهْرِيّ أن بَحِيرَى كان حَبْرًا من يَهُودِ تَيْماء(١) ، وفى المسعودى : أنه كان من عبد الْقَيْسِ ، واسمُه : سَرْجِسُ ، وفى المعارف لابن قُتَيْبَةَ ، قال : سُمِع قبل الإسلام بقليلٍ هاتفٌ يهتف : ألاَ إن خيرَ أهلِ الأَرْضِ ثلاثة : بَحِيرَى ، ورِبابُ بنُ الْبَرَاء الشَّنِّيّ (٢) والثالثُ : الْمُنتظَرُ ، فكان الثالثُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – قال الْقُتَبِيُّ : وكان قَبْرُ رِبَاب الشَّنِّيّ ، وقبر ولدِه من بعده ، لايزال يُرى عليها طَشٌّ ، والطَّشُّ : المطرُ الضَّعيفُ(٣) .

وقال فيه : فَصَبَّ(٤) رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – بعمه . الصَّبَابَةُ : رِقَّةُ الشوقِ ، يقال : صَبِبْتُ – بكسر الباء – أَصَبُّ ، ويذكر عن بعض السَّلَفِ أنه قرأ : ﴿ أَصَبُّ إليهنَّ وأكُنْ من الجاهِلين ﴾ يوسف : ٣٣

---

(١) بليد فى أطراف الشام، بينها وبين وادى القرى على طريق حاج دمشق .

(٢) هو فى المعارف : أرباب بن رئاب من عبد القيس .

(٣) نص قول ابن قتيبة فى المعارف : « كان لا يموت أحد من ولد أرباب فيدفن إلا رأوا طشا على قبره » ونص كلامه عن الرسول – كما زعموا – صلى الله عليه وسلم – « وآخر لم يأت بعد . النبى (ص) » ص ٣٠ تحت باب : من كان على دين قبل مبعث النبى «ص» وهو خبر مصنوع ولاشك

(٤) وفى رواية – كما جاء فى الطبرى وشرح الخشنى – ضبٌّ ، وفسرها الأخير بقوله : تعلق به وامتسك .



. . . .

وفى غير رواية أبى بَحْرٍ : ضَبَثَ به رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى : لَزِمه قال الشاعر :

كأن فؤادى فى يد ضَبَثَتْ به مُحاذِرَةً أن يَقْضِبَ الحبلَ قاضبُه

فكان رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ذاك ابنَ تسعِ سنين فيما ذكر بعضُ من ألَّف فى السِّيَرِ ، وقال الطبرى : ابن ثِنْتَىْ عشرة سنة[1] .

من صفات خاتم النبوة :

وذكر فيه خاتَمَ النبوة وقول ابن هشام : كان كأثر المِحْجَم يعنى : أثَرَ المِحْجَمَةِ القابضةِ على اللحم ، حتى يكون ناتئًا . وفى الخبر أنه كان حوله خِيلاَن فيها شَعَراتٌ سُودٌ . وفى صفته أيضا أنه كان كالتفاحة ، وكَزِرِّ الحَجَلَةِ وفسره الترمذى تفسيرا وهِم فيه فقال : زِرُّ الحَجَلَة يقال : إنه بَيْضٌ له فتوهَّم الحَجَلَةَ من القَبَجِ [2] وإنما هى حَجَلَةُ السَّرِير ، واحدةُ : الحِجَال ، وزِرُّها الذى يدخل فى عُرْوَتِها — قال على — رِضوانُ الله عليه — لأهل العراق : يا أشْبَاهَ الرجال :

---

(١) فى الطبرى : وهو ابن تسع سنين ، وقيل ، ثلاث عشرة . حكاه أبو عمر وقال ابن الجوزى ، اثنتا عشرة سنة وشهران وعشرة أيام. وفى سيرة مغلطاى: وشهر

(٢) هو الحجل ، وفى اللسان أنه الكروان ، وأنه معرب ، وهو بالفارسية . كبج معرب؛ لأن القاف والجيم لا يجتمعان فى كلمة واحدة من كلام العرب ، وقد ضبط البخارى الحجل بضم الحاء ، وقال : إنه من حجل الفرس وبضم الحاء وسكون الجيم الذى بين عينيه ، وهو بعيد لأن الذى بين العينين اسمه الغرة لا الحجل ، والتحجيل فى القوائم .



ولا رِجَالَ، ويا طَغَامَ الأحلامِ. ويا عقولَ ربَّاتِ الحِجَالِ(١). وفى حديث آخر: كان كبيضَةِ الحمامة، وفى حديث عيَّاذِ بن عَبْدِ عَمْرٍو، قال: رأيت خاتَمَ النبوة، وكان كَرُكْبَةِ الْعَنْزِ. ذكره النَّمَرِيُّ مُسْنَداً فى كتاب الاسْتِيعاب، فهذه خمس

(١) من خطبة منسوبة إلى على بن أبي طالب، وقدرواها المبرد فى أول الكامل وهى فى كتاب نهج البلاغة الذى جمع فيه الشريف الرضى خطبا رائعة، ونسبها إلى على. وفى رأى كثير أنها للشريف نفسه، وفى المبرد كما هنا. ومعنى طغام: من لا معرفة عنده — كما ذكر المبرد — أو أوغاد الناس ورذالُ الطير، مفردها: طغامة وفى نهج البلاغة «وحلوم الأطفال وعقولُ ربات الحجال» برفع حلوم وعقول. وربات الحجال: النساء. وبداية الخطبة كما فى النهج: «أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة الخ» انظر ص ٧٤ وما بعدها نهج البلاغة ط الرحمانية، و ص ١٦٤ ج ١ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ط ٣ دار الفكر لبنان.

(٢) أما عياذ فترجمته فى الإصابة عياذ بن عمرو، أو ابن عبد عمرو الأزدى أو السلمى أو عباد بدلا من عياذ، وكان — كما جاء فى بعض الروايات — يخدم النبي «ص» فخاطبه يهودى، فسقط رداؤه عن منكبيه — وكان النبى صلى الله عليه وسلم — يكره أن يرى الخاتم. يقول عياذ. فسويته عليه، فقال: من فعل هذا؟ فقلت، أنا. قال: تحول إلى، فجلست بين يديه، فوضع يده على رأسى، فأمرها على وجهى وصدرى، وكان الخاتم على طرف كتفه الأيسر، كأنه ركبة عنز وهذه رواية ابن منده والطبرانى، ومن تبعهما وسنده ضعيف، وللخطيب من هذا الوجه، وفيه أن الخاتم مثل ركبة العنز. وفى سنده من لا يعرف «الإصابة باختصار» هذا وقد سبق الحديث عن الخاتم، ويقول ابن حجر فى الفتح ماورد من أن الخاتم كان كأثر المحجم، أو الشامة السوداء، أو الخضراء — كما فى تاريخ ابن أبي خيثمة — المكتوب عليها: محمد رسول الله — كما فى تاريخ الحاكم وغيره، أو سر فإنك المنصور، لم يثبت منها شيء، ولا يغتر بشيء مما وقع فى صحيح ابن حبان؛ فإنه غفل حيث صحح ذلك.



روايات فى صفة الخاتم : كالتفاحة وكبيضة الحمامة، وكزر الحجلة، وكأثر المحجم وكركبة العنز ورواية سادسة : وهى رواية عبد الله بن سرجس : قال : رأيت خاتم النبوة كالجمع يعنى: كالمحجمة ' [وهى الآلة التى يجتمع بها دم الحجامة عند المص] لا كجمع الكف ، ومعناه كمعنى الأول أى كأثر الجمع . وقد قيل فى الجمع : إنه جمع الكف : قاله القتبى (١) : والله أعلم .

ورواية سابعة عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ وقد سئل عن خاتم النبوة : فقال : بضعة ناشزة (٢) هكذا : ووضع طرف السبابة فى مفصل الإبهام ، أو دون المفصل ، ذكرها يونس عن ابن إسحاق ، وفى صفته أيضاً رواية ثامنة ، وهى رواية من شبهه بالسلعة(٣) ، وذلك لنتوه ، وقد تقدم حديث، فيه عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً بيان وضع الخاتم بين كتفيه

(١) يقول الزرقانى فى شرح المواهب عن تفسير السهيلى . « وهو تكلف والمتبادر فى تفسير ابن قتيبة ، وقد تبعه عليه عياض، والنووى والمصنف وغيرهم » ص ١٥٧ ج ١ وجمع بضم الجيم . وحكى ابن الجوزى وابن دحية كسرها ، وجزم به فى المفهم . والجمع صورة الكف بعد أن تجمع الأصابع وتضمها وحديث ابن سرجس فى مسلم ومسند أحمد .

(٢) حديث الخدرى رواه الترمذى فى الشمائل .

(٣) حديث السلعة رواه البيهق، وبضعة ناشزة : قطعة لحم مرتفعة ، وتروى بضعة بفتح الباء ، وضمها وكسرها « انظر المواهب ص ١٥٥ ج ١ »، ولأحمد عن الخدرى : لحم ناشز بين كتفيه ، وللبيهق ، والبخارى فى التاريخ عنه . لحمة نائتة وأحمد وابن سعد من طرق عن أبى رمثة ، والسلعة : زيادة تحدث فى البدن كالغدة تتحرك إذا حركت ، وقد تكون من حمصة إلى بطيخة .



. . . .

متى كان ، وروى التِّرْمِذِيُّ(١) فى مصنفه ، قال : حدثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج البغدادى ، حدثنا عبدُ الرحمن بن غَزْوَان أبو نوح ، أخبرنا يونس ، عن أبى إسحاق ، عن أبى بكر بن أبى موسى ، عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبى – صلى الله عليه وسلم – فى أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا ، فَحَلُّوا رحالهم : فخرج إليهم الراهبُ ، وكانوا قبلَ ذلك يمرون به ، فلا يخرج إليهم ، ولا يلتفت : فجعل يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهبُ : وهم يَحُلُون رِحَالَهم : حتى جاء فأخذ بِيَدِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسولُ ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له أشياخٌ من قريش : ما عَلَّمَك ؟. فقال : إنكم حين أشرفتم من العَقَبَةِ لم يبق حَجَرٌ ، ولا شجر إلا خَرَّ ساجِدا : ولا يسجُدان إلا لنبى ، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غُضْرُوف كتفه . ويقال : غُرضُوف مثل التفاحة . ثم رجع : فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به – وكان هو فى رِعْيَة الإبل – قال : أرسِلوا إليه . فأقبل وعليه غَمامة تُظِلُّه ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فَىْء الشجرة ، فلما جلس مال فَىْء الشجرة عليه ، فقال : انظروا إلى فىء الشجرة مال عليه ، قال : فبينما هو قائم عليهم ، وهو يناشدُهم ألاَّ يذهبوا به إلى الرومِ ، فإن الرومَ إن رأوْه عرفوه بالصفة ، فيقتُلُونه ، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم ، فقال : ما جاء بكم فقالوا : جئنا أن هذا النبيَّ خارجٌ فى هذا الشهر ،

---

(١) ورواه أيضاً الحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل وأبو نعيم والخرائطى وابن أبى عساكر ، وابن أبى شيبة .



. . . .

فلم يبق طريق إلا بُعِث إليه بأُناسٍ ، وإنا قد اخترنا خبرة بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خير منكم، فقالوا : إنما اخترنا خيرة لطريقك (١) هذا ، قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه: هل يستطيع أحدٌ من الناس رَدَّه؟ قالوا : لا ، قال : فبايعوه(٢) وأقاموا معه . قال : أنشدكم بالله أيكم وليه ؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يُناشدُه حتى رده أبو طالب ، وبعث معه أبو بكر بلالا – رضى الله عنهما – وزوَّده الراهبُ من الكعك والزيت(٣) ، قال

---

(١) فى لفظ الحديث اضطراب وخطأ ، وفى المواهب وشرحها ما يأتى : ج ١ ص ١٩٥ : « فلم يبق طريق إلا بعث إليها بأناس ، وأنا هذ أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا : إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا ، وانظر الخصائص للسيوطى ح ١ ص ٢٠٨ و ١٤٢ ح ١ السيرة الحلبية.

(٢) معناه : بايعوا بحيرا على ألا يأخذوا النبى « ص » ولا يؤذوه على حسب ما أرسلوا فيه ، وأقاموا مع بحيرا خوفا على أنفسهم إذا رجعوا بدونه ، انظر ص ٢٨٥ ح ٢ البداية والمواهب ، ومن أسماء بحيرا : جرجس وجرجيس.

وأكرر مرة أخرى بحجة من القرآن أن رسول الله « ص » لم يكن هو نفسه يعرف عن أمر نبوته شيئاً قبل أن ينزل عليه الوحى ، والآيات التى جعلت آيات له – كما ورد فى القرآن والإنجيل والتوراة – لا تتعلق بصفات جسمية ، وإنما بالحقائق النورانية من دعوته صلى الله عليه وسلم ، فهو نبى أمى اسمه : أحمد يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث ، ويضع الأغلال والإصر عن البشر .

(٣) يقول القسطلانى والزرقانى فى المواهب وشرحه : « وضعف الذهبى الحديث – حديث بحيرى – لقوله فى آخره : وبعث معه أبو بكر بلالا ، فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلا . قال ابن سيد الناس : لأنه حينئذ لم يبلغ عشر سنين ، فإن المصطفى أزيد منه بعامين ، وكان له يومئذ تسعة أعوام على ما قاله الطبرى وغيره ، أو اثنا عشر عاما على ما قاله آخرون ، ولا اشترى =



. . . .

أبو عيسى : هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ومما قاله أبو طالب فى هذه القصة :

= بلالا . قال اليعمرى : لأنه لم ينتقل لأبى بكر إلا بعد ذلك بأزيد من ثلاثين عاما ، فإنه كان لبنى خلف الجمحيين . وعندما عذب فى الله اشتراه أبو بكر رحمة له ، واستنقاذا له من أيديهم . ولفظ الذهبى فى الميزان فى ترجمة عبد الرحمن ابن غزوان : كان يحفظ وله مناكير، وأنكرماله : حديث عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبى موسى فى سفر النبى « ص » وهو مراهق مع أبى طالب إلى الشام .

ومما يدل على أنه باطل قوله : وبعث معه أبو بكر بلالا ، وبلال لم يكن خلق ، وأبو بكر كان صبياً ، وقال فى تلخيص المستدرك بعد ماذكر تصحيح الحاكم للحديث : قلت :أظنه موضوعا ؛ فبعضه باطل، ويقول عنه عباس الدورى: ليس فى الدنيا أحد يحدث به ـ أى بهذا الحديث ـ غير قراد أبى نوح ـ أى عبد الرحمن بن غزوان ـ وقد سمعه منه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين لغرابته وانفراده . وفى رواية الترمذى لم يذكر اسم الراهب ، وهو تارة يهودى ، وتارة نصرانى ، وتارة بحيرى ، وأخرى سرجس وغيره!! هذا وبصرى التى فى القصة بلد بالشام ، وهى قصبة كورة حوران . ولا ريب فى أن قصة بحيرى مخترعة وإفك صراح ، وقد استغلها عدو الإسلام ، فزعموا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقتبس دينه مما تعلمه من رهبان النصارى وأحبار اليهود ، وقد تردى فى هذه المهلكة مؤرخ ينتسب إلى الإسلام ، فزعم أن رحلتى الرسول إلى الشام كان لها أثرهما فيما صدر عنه من تشريع .

وأقول : لو أنها حدثت لتواتر خبرها ، ولأَجَّ فى مكة وما حولها من القرى ، ولبدا من رسول الله العلم بما جاءه ليلة الوحى الأولى ، وكيف ، وهو كما أكد القرآن ـــ لم يكن يعرف حتى الإيمان قبل الوحى !! .

هذا وفى رواياته متناقضات ، فبحيرى من يهود تيماء ، كما جاء فى بعض السنن للزهرى ، وفى مروج الذهب وغيره أنه كان نصرانياً من عبد القيس . والرحلة كانت مع أبى طالب ، والرحلة مع أبى بكر ، والرحلة وهو فى سن التاسعة =



. . . .

أَلَمْ تَرَنى من بعدِهم همَمْته	بفُرْقَة حُرِّ الوالدين كِرام
بأحمدَ لما أنْ شَدَدْتُ مَطِيَّتى	لترحلَ إذْ ودَّعتُه بسلام
بكى حزَناً والعِيسُ قد فَصلَتْ بنا	وأمسكت بالكفين فَضْلَ زِمامِ
ذكرت أباه ، ثم رَقرَقْتُ عَبْرةً	تجود من العينين ذاتَ سِجَامِ
فقلت : تروح راشدا فى عُمُومَةٍ	مواسين فى البَأْسَاء غير لئام
فرُحْنا مع العِير التى راح أهلها	شآمِى الهوى ، والأصْلُ غيرُ شآمِى

=أو الثانية عشرة أو الثامنة عشرة . وأبو بكر هو الذى يتوجه إلى الراهب فى رواية ، وبحيرا هو الذى ينزل فى رواية ، والراهب مجهول الاسم فى رواية ، والراهب سرجس ، أو جرجس ، أو جرجيس فى رواية !! والراهب يحذر أبا طالب من الروم ، والراهب يحذر أبا طالب من اليهود فى رواية ، وعدد الروم سبعة ، وعددهم تسعة فى رواية . هذا والكاتب الهندى خدا بخش - على ما فى قوله من اتهام لابن عباس بأنه واضع الحديث ، وابن عباس برىء من إفكه - يحكم بزيف هذه القصة فيقول : « ولكن القصة بأكملها ليست حقيقية ، بل موضوعة ، وهى من صنع خيال ابن عباس !! وربما تكون قد دونت حوالى سنة ١٠٠ هـ » ثم يستعرض موقف الصليبية من قصة هذا الراهب ، فيذكر أمورا مذهلة ترينا إلى أى حد استغل أعداء الدين هذه القصة المفتراة ، فانظر كتابه (الحضارة الإسلامية ترجمة الدكتور الخربوطلى) من ص ٤٠ . ويقول المؤرخ سيديو - رغم اعتداله : « وكان أول سفره إلى الشام مع عمه أبى طالب فى سنة ٥٨٢ م فبلغ بصرى ، فاجتمع فيها ببحيرى الذى كان اسمه لدى النصارى جرجيس أو سرجيس ، فنال حظوة عنده » ص ٦٦ تاريخ العرب العام ، ويقول غستاف لوبون عن قصة بحيرى : (وتقول القصة : إن محمدا سافر مرة مع عمه إلى سورية ، فتعرف فى بصرى براهب نسطورى فى دَيْرٍ نصرانى ، فتلقى منه علم التوراة) ص ١٣٠ حضارة العرب . وذكر هذا فى مثل هذا الأسلوب الهادىء الذى يختال بأنه سكينة من اليقين يقتحم قلب من لا يعى هذا الباطل الصريح !!

. . . .

فلما هَبَطْنا أرضَ بُصْرى تَشَرَّفوا ... لنا فوق دُورٍ ينظرون جِسَامِ

فجاء بَحِيرَى عند ذلك حاشداً ... لنا بشراب طيِّبٍ وَطعامِ

فقال: اجمَعُوا أصحابكم لطعامنا ... فقلنا: جمعناَ القوم غير غلامِ[1]

ذكره ابن إسحاق فى رواية يونس عنه، وذكر باقى الشعر.

حفظ فى الصغر:

فصل : وذكر ما كان الله سبحانه وتعالى يحفظه به: أنه كان صغيراً يلعب مع الغلمان، فتعرَّى فَلَكَمَهُ لا كمٌ. الحديث. وهذه القصة إنما وردت فى الحديث الصحيح فى حين بُنْيان الكعبة، وكان رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — ينقُلُ الحجارة مع قومه إليها، وكانوا يجعلون أُزُرَهُمْ على عواتقهم لِتقيَهم الحجارةَ، وكان رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — يحملها على عاتقه، وإزارُه مَشدُودٌ عليه، فقال له العباس رضى الله عنه: يابن أخى! لو جعلتَ إزارَكَ على عاتقك، ففعلَ فسقَط مَغْشيًّا عليه، ثم قال: إزارى إزارى! فَشَدَّ عليه إزارَه، وقام يحمل الحجارة[2]، وفى حديث آخر: أنه لما سقط، ضَمَّه العباسُ إلى نفسه، وسأله عن شأنه، فأخبره أنه نُودى من السماء: أنِ اشْدُدْ عليك إزارَكَ يا محمد، قال: وإنه لأَوَّلُ ما نُودِى. وحديثُ ابن إسحاق، إن صح أنه كان ذلك فى صغره، إذ كان يلعب مع الغلمان: فَمَحْمَلُه على أن هذا الأمر كان مرتين: مَرَّةً فى حال صغره، وَمَرَّةً فى أولِ اكْتِهالِه عند بنيان الكعبة.

(١) تبدو فى الشعر رائحة الوضع، فما عليه من العصر الذى قيل فيه سمة، ولهذا لم يروه ابن هشام.

(٢) الحديث فى البخارى ومسلم.



حرب الفجار

قال ابن هشام : فلما بلغ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعَ عشرةَ سنةً ، أو خمسَ عشرةَ سنةً ـ فيما حدثني أبو عُبيدة النحويّ، عن أبي عمْرو بن العلاء ـ هاجت حربُ الْفِجَار بين قُريش ، ومن معها من كِنانة ، وبين قَيْس عَيْلانَ . وكان الذي هاجها أنَّ عُرْوَة الرَّحَّال بن عُتْبَة بن جَعْفَر بن كِلاب بن ربيعة ابن عامر بن صَعْصَعَة بن مُعاوية بن بَكْر بن هَوَازن ، أجار لَطِيمةً للنعمان ابن الْمُنْذر ، فقال له الْبَرَّاض بن قَيْس، أحد بني ضَمْرة بن بَكْر بن عبدْ مَنَاة ابن كِنانة : أتُجيرها على كِنانة ؟ قال : نعم ، وعلى الخلْق ، فخرج فيها عُرْوَةُ الرَّحَّال ، وخرج الْبَرَّاض يطلب غفْلته ، حتى إذا كان بتَيْمَنَ ذي طَلَّال بالعالية ، غفَل عُرْوَةُ ، فوثب عليه الْبَرَّاض، فقتله في الشهر الحرام ، فلذلك سُمّي : الفِجَار . وقال الْبَرَّاض في ذلك :

وداهِيَةٍ تُهِمُّ الناسَ قَبْلي ... شَدَدْتُ لها ـ بني بَكْر ـ ضُلوعي

هدَمْت بها بُيُوتَ بني كِلابٍ ... وأرْضَعْتُ الْمَوَالِيَ بالضُّروع

رفعتُ له بذي طَلَّالَ كَفِّي ... فخرَّ يميدُ كالْجِذْع الصَّرِيع

وقال لَبيد بن مالك بن جَعْفَر بن كِلاب :

أبْلِغْ ـ إنْ عَرَضْتَ ـ بني كِلابٍ ... وعامرَ وَالخُطُوبُ لها مَوَالي

وبلغ إنْ عرضْتَ بني نُمَيْرٍ ... وأخْوَالَ القَتيل بني هِلال

بأنَّ الوَافِدَ الرَّحَّال أمْسَى ... مُقيماً عندَ تَيْمَنَ ذي طَلَال

. . . .

وهذه الأبيات فى أبيات له فيما ذكر ابنُ هشام .

قال ابن هشام : فأتى آتٍ قريشا ، فقال : إنّ البَرّاض قد قتل عُرْوَة ، وهم فى الشهر الحرام بعُكاظ ، فارتحلوا ، وهَوازنُ لاتَشْعُرُ ، ثم بلغهم الخبرُ فأتبعوهم ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، ودخلوا الحرمَ ، فأمسكت عنهم هَوازن، ثم التقَوْا بعدهذا اليوم أياما، والقومُ مُتساندون، على كلّ قَبيل من قريش وكِنانة رئيسٌ منهم ، وعلى كلّ قَبيل من قَيْس رئيسٌ منهم .

وشهد رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - بعض أيامهم ، أخرجه أعمامُه معهم ، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : كنت أُنَبِّلُ على أعمامى ، أى: أرُدُّ عنهم، نَبْلَ عدوّهم ، إذا رَمَوْهم بها .

قال ابن إسحاق : هاجت حربُ الفِجَار، ورسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - ابنُ عشرين سنة ، وإنما سمى يوم الفِجَار ، بما استحلّ هذان الحيَّان : كنانةُ وقَيْسُ عَيْلان فيه المَحارم بينهم .

وكان قائدَ قريش وكنانة حَرْبُ بن أميَّة بن عَبْد شَمْس ، وكان الظَّفَر فى أوّل النهار لقَيْس على كِنانة ، حتى إذا كان فى وسط النهار كان الظَّفَرُ لكنانة على قيس .

قال ابن هشام : وحديثُ الفِجار أطول ممَّا ذكرت ، وإنما منعنى من استقصائه قَطْعُه حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم .



حديث تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها

قال ابن هشام : فلما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمساً وعشرين سنة، تزوّج خديجةَ بنتَ خُوَيْلد بن أسَد بن عَبد العُزّى بن قُصَىّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب ، فيما حدّثنى غيرُ واحد من أهل العِلْم عن أبى عمرو المَدَنى .

قال ابن إسحاق : وكانت خديجةُ بنتُ خُوَيْلد امرأةً تاجرة ، ذاتَ شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتُضاربهم إياه ، بشىء تجعلُه لهم ، وكانت قُرَيش قوماً تِجَاراً ، فلما بلغها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مابلغها ، من صدْق حَديثه ، وعِظَم أمانته ، وكَرَم أخلاقه ، بعثَتْ إليْه ، فعَرضَتْ عليه أن يَخرُج فى مال لها إلى الشام تاجراً ، وتُعطيه أفضلَ ما كانت تُعطى غيرَه من التُّجّار ، مع غُلام لها يقال له: مَيْسَرَة ، فقَبِلَه رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامُها مَيْسَرَة ، حتى قَدِم الشام .

فنزل رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظِلّ شجرة قريباً من صَوْمَعَةِ راهب من الرّهبان ، فاطّلع الراهبُ إلى مَيْسرة ، فقال له : مَنْ هذا الرجلُ الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له مَيْسرة : هذا رجلٌ من قريش من أهل الحَرَم ، فقال له الراهبُ : ما نزل تحت هذه الشجرة قطُّ إلاَّ نبىٌّ .



ثم باع رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سِلْعَتَه التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافِلاً إلى مكة ، ومعه مَيْسَرَة ، فكان مَيْسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الْهَاجِرَةُ ، واشتدّ الحرّ ، يرى مَلَكَيْنِ يُظِلاَّنه من الشمس ـ وهو يسير على بعيره ، فلما قَدِم مكةَ على خديجة بمالها ، باعتْ ما جاء به ، فأضْعف أو قريباً. وحدّثها مَيْسرةُ عن قول الراهب ، وعمَّا كان يرى من إظلال المَلَكَيْن إياه ، وكانت خديجة امرأةً حازمةً شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها مَيْسرةُ بما أخبرها به ، بعثت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له — فيما يزعمون : يا بْنَ عَمّ ، إنى قد رَغِبتُ فيك لقَرابتك ، وَسِطَتِك فى قومك وأمانتك ، وحُسْن خلقك ، وصِدْق حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسطَ نساء قريش نسبا ، وأعظمَهُنّ شرفا ، وأكثرَهُنّ مالا ، كلُّ قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدُر عليه .

وهى خديجة بنت خُوَيلد بن أسَد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ بن كلاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر . وأمها : فاطمة بنت زائدة بن الأصمّ بن رَوَاحة بن حَجَر بن عَبْد بن مَعِيص بن عامر بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر . وأمّ فاطمة : هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن مُنْقِذ بن عمرو ابن مَعِيص بن عامر بن لُؤَى بن غالب بن فهر . وأم هَالَةَ : قِلاَبَةُ بنت سُعَيد ابن سَعْد بن سَهْم بن عَمْرو بن هُصَيْص بن كَعْب بن لُؤَى بن غالب بن فِهْر .

فلما قالت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذَكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمُّه حمزة بنُ عبد المطلب ـ رحمه الله ـ حتى دخل على خُوَيلد بن أسَد فخطبها إليه ، فتزوجها .

قال ابن هشام : وأصْدَقَها رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — عشرين بَكْرةً ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يتزوج عليها غيرَها حتى ماتت ، رضى الله عنها .

قصة الفجار

والفِجار بكسر الفاء بمعنى : المُفَاجَرة كالقتالِ والمُقَاتَلَة ، وذلك أنه كان قِتالا فى الشهرِ الحرامِ ، ففَجَرُوا فيه جميعاً ، فسمى : الفِجَارَ ، وكانت للعرب فِجَاراتٌ أربع ، ذكرها المسعودى ، آخرُها : فِجَارُ البَرَّاضِ(١) المذكور فى السيرة ، وكان لِكنانةَ ولِقَيْسٍ فيه أربعةُ أيامٍ مَذْكورة : يوم شَمْطة ، ويوم الشَّرِب ، وهو أعظمُها يوما ، وفيه قَيَّد حَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ وسُفْيان وأبو سُفْيانَ أبناء أُمَيَّةَ أنفُسَهم كى لا يَفِرُّوا ، فسُمُّوا : العَنابِسَ(٢) ، ويوم الحُرَيْرَةِ عند نَخْلَةَ ، ويوم الشَّرِبِ انهزمت قيسٌ إلاَّ بنى نَصْرٍ منهم ، فإنهم ثبتوا ، وإنما لم يقاتل رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — مع أعمامِه ، وكان يَنْبُلُ عليهم ، وقد كان بلغ سِنَّ القتالِ ؛ لأنها كانت حَرْبَ فِجارٍ ، وكانوا أيضاً كلُّهم كُفَّاراً ، ولم يأذنِ اللهُ تعالى لمؤمن أن يقاتلَ إلاَّ لتكونَ كلمةُ اللهِ هى العُلْيا .

---

(١) هى : فجار الرجل ، أو فجار بدر بن معشر ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والأولى بين كنانة وهوازن ، والثانية أيضاً : بينهما ، والثالثة : بين قريش وهوازن ، وكانت البراض بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن ، وتسمى : ثلاثة الفجارات الأول : أيام الفجار الأول . أما البراض فالفجار الآخر .

(٢) العنبس من أسماء الأسد ، والعنابس من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم ستة ، منهم الذين ذكرهم السهيلى والآخرون هم : أبو حرب وعمرو وأبو عمرو ، وسموا بالأسد ، والباقون يقال لهم : الأعياص

. . . .

والأَطِيمةُ : عِيرٌ تَحْمِلُ الْبَزَّ والْعِطرَ .

وقوله : بذى طَلاَّلَ(١) بتشديد اللام ، وإنما خففه لَبيدٌ فى الشعر الذى ذكره ابن إسحاق هٰهنا للضرورة .

منع تنوين العلم :

وقول البرّاضِ : رفعتُ له بذى طَلاَّلَ كَفِّى . فلم يَصْرفه ، يجوز أن يكونَ جعله اسمَ بُقعةٍ ، فترك إجراء الاسم للتأنيث والتعريف ، فإن قلت: كان يجب أن يقول : بذاتِ طَلاَّل ، أى : ذات هذا الاسم للمؤنث ، كما قالوا : ذو عَمْرٍو أى : صاحبُ هذا الاسمِ ، ولو كانت أنثى،لقالوا : ذاتُ هذا، فالجواب : أن قوله : بذى يجوز أن يكون وَصْفا لطربق ، أو جانب مضافٍ إلى طَلاَّل اسم البقعة . وأحسنُ من هذا كُلِّه أن يكونَ طَلاَّلُ اسْماً مذكراً علَماً ، والاسمُ العلَمُ يجوز تركُ صرفه فى الشعرِ كثيراً ، وسيأتى فى هذا الكتاب من الشواهدِ عليه ما يدلُّك على كثرته فى الكلام ، ونؤخرُ القولَ فى كشفِ هذه المسئلةِ وإيضاحِها إلى أن تأتىَ تلك الشواهدُ ـ إن شاء اللهُ ـ ووقع فى شعر البَرَّاضِ مُشَدَّداً ، وفى شعر لَبيدٍ الذى بعد هذا مُخَفَّفاً ، وقلنا : إن لبيداً خففه للضرورة ، ولم يُقَل : إنه شَدَّدَ للضرورة ، وإن الأصلَ فيه التخفيف ، لأنه فَعَّال من الطَّلِّ ، كأنه موضعٌ يكثر فيه الطَّلُّ ، فَطَلاَّل بالتخفيف لا معنى له ، وأيضاً، فإنا وجدناه فى الكلام المنثورِ مُشَدَّدا ، وكذلك تقيد فى كلام ابن

(١) تنطق بالظاء أيضاً ، وتيمن ذى طلال ، قيل : إنه واد إلى جنب فدك ، والصحيح: أنه بعالية نجد ، كما ذكر ابن هشام .والعالية : كل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعمائرها إلى تهامة . وما كان دون ذلك : فالسافلة



. . . .

إسحاق هذا فى أصلِ الشيخ أبى بَحْرٍ (١).

من تفسير شعر البراصه :

وقوله فى البيت الثانى : وألحقتُ الموالىَ بالضُّروع(٢) . جمع : ضَرْعٍ ، هو فى معنى قولهم : لئيمٌ راضعٌ ، أى : ألحقتُ الموالىَ بمنزلتهم من اللُّؤمِ ورَضاع الضُّرُوع ، وأظهرت فَسَالتَهُمْ(٣) وهَتَكْتُ بيوتَ أشرافِ بنى كِلابٍ وصُرَحائهم .

وقول لبيد : بَيْن تَيْمَنَ ذى طَلاَلٍ . بكسر الميم وبفتحها ، ولم يَصْرِفْهُ لِوَزْنِ الفِعل ، والتعريف ؛ لأنه تَفْعِل ، أو تَفْعَل من اليُمْن أو اليَمِين .

آخر أمر الفجار :

وكان آخرُ أمرِ الفِجارِ أن هَوَازِنَ وكِنانة تواعدوا للعام القابِل بعُكَاظَ فجاءوا للوعدِ ، وكان حَرْبُ بنُ أُمَيَّةَ رئيسَ قُرَيْشٍ وكِنانة ، وكان عُتْبَةُ بنُ رَبيعة يتيماً فى حِجْرِه ، فضَنَّ به حَرْبٌ ، وأشفق من خُروجه معه ، فخرج عُتْبَةُ بغير إِذْنِه ، فلم يَشْعُروا إلاَّ وهو على بعيرِه بين الصَّفَّين ينادى : يا مَعْشَرَ مُضَرَ ، عَلاَمَ تقاتلون ؟ فقالت له هَوازِنُ : ما تدعو إليه ؟ فقال : الصلح ، على أن ندفعَ إليكم دِيَةَ قَتْلاكُمْ ، ونَعْفو عن دمائِنا ، قالوا : وكيف ؟ قال : ندفع إليكم رَهْناً مِنّاً ، قالوا : ومَنْ لنا بهذا ؟ قال : أنا . قالوا : ومَنْ أنت ؟ قال : عُتْبَة بن ربيعة بن عبد شَمْس ، فرَضُوا ورضيت كِنانةُ ، ودفعوا إلى هَوازِنَ أربعين رَجُلاً : فيهم : حكيمُ بن حِزَامٍ [بن خُوَيْلد] ، فلما رأت بنو عامر بن صَعْصَعَة الرَّهْنَ

---

(١) انظر عن هذا ص ٦١ شرح السيرة للخشنى .

(٢) فى السيرة : وأرضعت .

(٣) الفسل من الرجال : الرذل .

. . . .

فى أيديهم ، عفَوْا عن الدماء ، وأطلقوهم وانقضت حَرْبُ الفِجَار(١) ، وكان يقال : لم يَسُدْ من قريشٍ مُمْلِقٌ إلاّ عُتْبَةُ وأبو طالب ، فإنهما سادا بغير مال .

فصل فى تزويجه عليه السلام خديجة رضى الله عنها

شرح قول الراهب :

ذكر فيه قول الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة إلاَّ نبيٌّ . يريد : ما نزل تحتها هذه الساعةَ إلا نبيٌّ، ولم يُرِد : ما نزل تحتها قط إلاَّ نبي؛ لبعد العهد بالأنبياء قبل ذلك ، وإن كان فى لفظ الخبر :قَطّ ، فقد تكلم بها على جهةِ التوكيد للنفي ، والشجرةُ لا تُعَمِّر فى العادة هذا العُمُرَ الطويلَ حتى يَدْرِى أنه لم يَنْزِلْ تحتها إلا عيسى ، أو غيرُه من الأنْبياء ـ عليهم السلام ـ ويَبْعُد فى العادة أيضاً أن تكون شجرةٌ تخلو من أن يَنْزِلَ تحتها أحدٌ ، حتى يجىء نبى إلاَّ أنْ تَصِحَّ روايةُ من قال فى هذا الحديث : لم يَنْزِل تحتها أحدٌ بعد عيسى بن مريمَ ـ عليه السلام ـ وهى روايةٌ عن غير ابن إسْحَاق ، فالشجرةُ على هذا مخصوصةٌ بهذه الآيةِ والله أعلم . وهذا الراهبُ ذكروا أن اسمه نَسْطُورَا(٢) ولَيْس هو بَحيرا المتقدم ذكره .

---

(١) ومن حديث حرب الفجار نفسر ما يأتى : اللطيمة : الإبل تحمل التجارة والطيب والبز وأشباههما . القوم متساندون : ليس لهم أمير واحد يجمعهم . ولم يرد فى حضور النبى « ص » حرب الفجار حديث يعتمد به .

(٢) قلت : إن الصليبية استغلت هذه الأكذوبة ، فادعى أحدهم وهو =



. . . .

تحقيق معنى الوسط :

وقول خديجة - رضى الله عنها : لِسِطَتِك فى عشيرتك ، وقوله فى وصفها : هى أَوْسَطُ قُريش نَسَبا . فالسِّطَةُ : من الوَسَطِ، مَصْدَرٌ كالعدة والزِّنة ، والْوَسَطُ من أوصاف المدح والتفضيل ، ولكن فى مقامين : فى ذكر النسب ، وفى ذكر الشهادَة . أما النسب ؛ فلأن أَوْسَطَ القبيلة أَعْرَفُها ، وأولاها بالصميم وأبعدُها عن الأطراف والوسيط ، وأجدرُ أن لاتضاف إليه الدعوة ؛ لأن الآباء والأمهات قد أحاطوا به من كل جانب ، فكان الْوَسَطُ من أجل هذا مَدْحاً فى النسب بهذا السبب ، وأما الشَّهادة فنحو قوله سبحانه : (قال أوسطُهم) وقوله : ﴿ وكذلكَ جَعَلناكم أُمَّةً وَسَطًا لتكونوا شُهَداء على الناس ﴾ البقرة : ١٤٣ فكان هذا مدحا فى الشهادة ؛ لأنها غاية الْعَدالة فى الشاهد أن يكون وَسَطا كالميزان ، لا يميل مع أحد ، بل يُصَمِّمُ على الحقِّ تصميما ، لايَجذِبُه هَوى ، ولا يميل به رغبةٌ ، ولا رَهْبَةٌ من هٰهنا ، ولا من هٰهنا ، فكان وصفه بالْوَسَط غايةً فى التزكية والتعديل ، وظن كثير من الناس أن معنى الأَوْسط : الأفضلُ على الإطلاق ، وقالوا : معنى الصلاة الْوُسْطَى : الْفُضْلى ، وليس كذلك ، بل هو فى جميع الأوصاف لاَمَدْحٌ ولاذَمٌّ ، كما يقتضى لفظ التَّوَسُّطِ ، فإذا كان وَسَطاً فى السِّمَنِ ، فهى بين الْمُمِخَّةِ (١) والْعَجفَاء . والوسطُ فى الجمال بين الحسناء

= « نيكولدس » أن اثنين من اليهود ، ومسيحيا يعقوبيا يدعى : بحيرى أمدا محمداً بكثير من المعلومات التى استفاد منها فى دينه ص ٢ ج الحضارة الإسلامية ، ويزعم « أندريا داندولو » أن هذا الراهب النسطورى « نسبته إلى فرقة مسيحية » أراد محاربة الكنيسة ، فاستغل محمداً فى هذا . وكلها مفتريات من نتن فرية خبيثة انظر خدابخش الحضارة الاسلامية .

(١) فى اللسان : الممخة بضم فكسر فخاء مشددة مفتوحة : السمينة وفى المثل : بين الممخة والعجفاء .

. . . .

والشَّوْهَاء ، إلى غير ذلك من الأوصاف ، لا يعطى مدحا ، ولا ذما ، غير أنهم قد قالوا فى المثل : أثقل من مُغَنٍّ وَسَطٍ على الذم ؛ لأن المغنى إن كان مُجيدا جدا أمتع وأطرَبَ ، وإن كان بارداً جداً أضحك وألْهى ، وذلك أيضا مما يُمتِع . قال الجاحظ : وإنما الكَرْبُ الذى يَجْثُمُ على القلوب ، ويأخذ بالأنفاس الغناء الفاتر الوَسَطُ الذى لا يُمْتِع بِحُسْن ، ولا يُضْحِك بلَهْو ، وإذا ثبت هذا فلا يجوز أن يقال فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو : أَوْسَطُ الناس . أى : أفضلهم ، ولا يوصف بأنه وَسَطٌ فى العِلْم ، ولا فى الجود ، ولا فى غير ذلك إلا فى النسب والشهادة ، كما تقدم ، والحمد لله ، والله المحمود .

من الذى زوج خديجة ؟

فصل : وذكر مشى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى خُوَيْلِدِ بنِ أسدٍ مع عمه حمزة — رضى الله عنه — وذكر غيرُ ابن إسحاق أن خُوَيلداً كان إذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنكح خديجةَ — رضى الله عنها — هو عمُّها عَمْرو بن أسد ، قاله المبرد وطائفة معه ، وقال أيضاً : إن أبا طالب هو الذى نهض مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو الذى خَطَب خُطْبَةَ النكاح ، وكان مما قاله فى تلك الخطبة : « أما بعد : فإن محمدا مِمَّنْ لا يُوازَن به فتى من قريش إلا رَجَحَ به شرفا ونُبْلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مُسْتَرْجَعة ، وله فى خديجةَ بنت خُوَيلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » فقال عمرو : هو الفَحْل الذى لا يُقْدَعُ أنفُه ، فأنكحها منه ، ويقال : قاله وَرَقَةُ بن نَوْفل ، والذى قاله المبرد هو الصحيح ؛ لما رواه

---

(١) ونص الخطبة فى نهاية الارب : «الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم =



. . . .

الطَّبَرِيُّ عن جُبَيْر بن مُطْعِم ، وعن ابن عباس ، وعن عائشةَ — رضى الله عنهم كلهم — قال : إن عَمْرو بن أسد هو الذى أنكَح خديجةَ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — وأن خُوَيلداً كان قد هلك قبل الفِجَار ، وخُوَيلد ابن أسد هو الذى نازَع تُبَّعا الآخِر حين حَجّ ، وأراد أنْ يحتمل الركنَ الأسودَ معه إلى اليمن ، فقام فى ذلك خُوَيلد، وقام معه جماعةٌ ، ثم إنَّ تُبَّعاً رُوِّعَ فى منامه تَرويعا شديداً حتى ترك ذلك ، وانصرف عنه والله اعلم .

فصل : وذكر الزُّهْرِيُّ فى سِيَره ، وهى أول سيرة أُلِّفت فى

= وزرع إسماعيل ، وضِئْضِيء معد «أى معدنه وأصله» وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسُوّاس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكامَ على الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به ، فإن كان فى المال قلٌ ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمدٌ من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى كذا . وهو والله بعد هذا له نبأٌ عظيم ، وخطب جليل » ص ٩٨ ح ١٦ نهاية الأرب . وفى رواية أن صداقها كان اثنتى عشرة أوقية ذهباً ونَشًّا ، وقال المحب الطبرى فى السمط الثمين : إنه كان عشرين بكرة . وفى المنتقى : أربعمائة دينار . وفيه أيضاً أن ورقة بن نوفل خطب بعد أبى طالب فقال : « الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهلُ ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علىَّ يامعاشر قريش بأنّى قد زوجت خديجة بنت خويلد ، من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار ثم سكت ، فقال أبو طالب ، قد أحببت . أن يشركك عمها » فقال عمها : اشهدوا على يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد ، وشهد على ذلك صناديد قريش .

. . . .

الإسلام ، كذا روى عن [عبد العزيز بن محمد بن عبيد] الدَّرَاوَرْدِي أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لشريكه الذى كان يَتَّجِرُ معه فى مالِ خديجة : هَلُمَّ فَلْنَتَحدثْ عند خديجة ،وكانت تُكرِمُهما وتُتْحِفُهما(١) ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مُسْتَنْشِئة (٢)ـ وهى الكاهنة ـ كذا قال الخطابى فى شرح هذا الحديث ، فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ، فقال : كلا ، فقالت : ولم ؟ ! فوالله مافى قريش امرأة ، وإن كانت خديجة إلا تراك كُفْئًا لها ، فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاطبا لخديجة مُسْتَحْيِيا منها ، وكان خويلدٌ أبوها سكرانَ من الخمر ، فلما كُلِّم فى ذلك أنكحها ، فألقت عليه خديجة حُلَّة وَضَمَّخَته بخَلُوق(٣) فلما صحا من سُكْره قال : ما هذه الحُلَّةُ والطِّيب ؟ فقيل: إنك أنكحت محمدا خديجة ، وقد ابتنى بها ، فأنكر ذلك ، ثم رَضِيَهُ وأمضاه، ففى هذا الحديث أن أباها كانَ حَيا ، وأنه الذى أنكحها . كما قال ابن إسحاق.

وقال راجزٌ من أهل مكة فى ذلك :

لاَ تَزْهَدِي خَـــدِيجَ فى محمدِ نَجْمٌ يضىء كإضاء الفَرْقَد(٤)

---

(١) التحفة بالضم وكهمزة : البر واللطف والطرفة.

(٢) كانت من مولدات قريش، يقال : يستنشى الاخبار ، أى : يبحث عنها . وقال الأزهرى : إن مُسْتَنْشِئة علم لتلك الكاهنة .

(٣) الخلوق : ضرب من الطيب . والضمخ : لطخ الجسد بالطيب .

(٤) الفرقد : النجم الذى يهتدى به ، وفى شرح المواهب: « كما ضياء الفرقد » بدلا من « كإضاء الفرقد » .



أولاده صلى الله عليه وسلم منها :

قال ابن إسحاق : فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَدَه كلَّهم إلا إبراهيم : القاسمَ ، وبه كان يُكْنَى صلى الله عليه وسلم ، والطاهر ، وَالطَّيِّب ، وزينبَ ، ورُقية ، وأم كُلثوم ، وفاطمةَ ، عليهم السلام .

قال ابن هشام : أكبرُ بَنيه : القاسم ، ثم الطَّيِّب ، ثم الطَّاهر ، وأكبر بناته : رُقية ، ثم زينب ، ثم أم كُلثوم ، ثم فاطمة.

قال ابن إسحاق : فأما القاسمُ ، والطَّيِّب ، والطاهرُ فهلكوا فى الجاهلية وأما بناتهُ فكلّهن أدركْنَ الإسلام ، فأسلمن وهاجرنَ معه صلى الله عليه وسلم .

قال ابن هشام : وأما إبراهيم فأمه : مارِيَةُ القبطية. حدثنا عبد الله بن وَهْب عن ابن لَهِيعة ، قال : أمّ ابراهيم : مارِيَةُ سُرِّيّةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم التى أهداها اليه المُقَوْقِسُ من حَفْن من كُورَة أنصِنا .

قال ابن إسحاق : وكانت خديجة بنت خُوَيْلد قد ذكرت لوَرَقَةَ بن نَوْفل ابن أسَد بن عبد العُزّى — وكان ابنَ عمها ، وكان نصرانياً قد تتبّع الكتب ، وعَلِم من عِلْم الناس — ما ذكر لها غلامُها مَيْسَرَةُ من قولِ الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان المَلَكان يُظلانه ، فقال وَرَقَةُ : لئن كان هذا حقًّا يا خديجةُ ، إن محمداً لنبيّ هذه الأمة ، وقد عرفتُ أنه كائنٌ لهذه الأمّة نبيٌ يُنتظر ، هذا زمانه ، أو كما قال :

فجعل وَرَقَةُ يستبطئ الأمرَ ويقول : حتى متى ؟ فقال ورقةُ فى ذلك :

لَجِجْتُ وكنتُ فى الذكرى لُجُوجا ... لِهَمٍّ طالما بعث النَّشِيجا
وَوَصْفٍ من خديجةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فقد طَال انتظارى يا خديجا
بِبَطْنِ الْمَكَّتَين على رجائى ... حَدِيثَك أن أرى مِنْهُ خُروجا
بمَا خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّ ... مِنَ الرُّهْبانِ أَكْرَهُ أَنْ يعُوجا
بأنّ محمدا سيَسُود فِينا ... وَيَخْصِم مَنْ يكُونُ لهُ حَجِيجا
ويظهر فى البِلادِ ضِياءُ نُور ... يُقِيم به الْبَرِيّةَ أن تَمُوجا
فيَلْقى مَنْ يُحارِبُه خَسَاراً ... ويَلْقى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجا
فيالَيْتِي إذَا ما كانَ ذاكُمْ ... شَهِدْتُ فكنت أوّلَهُم وُلُوجا
وُلُوجا فى الذى كَرِهَتْ قُرَيْشٌ ... ولَوْ عَجَّتْ بمَكَّتِها عَجِيجا
أُرَجِّى بالذى كرِهوا جميعا ... إلى ذى العرش إن سَفَلوا عُرُوجا
وهَلْ أمْرُ السَّفالَةِ غيرُ كُفْر ... بِمَنْ يختار مَنْ سمكَ البُرُوجا
فإنْ يبقَوْا وَأبْقَ تَكُنْ أُمُورٌ ... يَضِجُّ الكافِرُونَ لها ضَجِيجا
وإنْ أهْلِكْ فَكلُّ فتى سَيَلْقَى ... مِنَ الأقْدارِ مَتْلَفَةً حَرُوجا

وقيل : إن عمرو بن خُوَيلد أخاها هو الذى أنكحها منه ، ذكره ابن إسحاق فى آخر الكتاب .

أولاده من خديجة :

فصل : وذكر ولده منها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر البنات ، وذكر القاسمَ والطاهرَ والطيبَ ، وذكر أن البنين هلكوا فى الجاهلية ، وقال



. . . .

الزبير — وهو أعلم بهذا الشأن — ولدت له القاسم وعبدَ الله ، وهو الطاهر ، وهو الطَّيِّبُ سُمِّي بالطاهر ، والطيبِ لأنه وُلد بعد النبوة ، واسمُهُ الذى سُمِّى به أوّلُ هو : عبد الله ، وبلغ القاسمُ المشىَ ، غير أن رضاعَتَه لم تكن كملت ، وقع فى مُسْنَد الفِرْيابى أن خديجةَ دخل عليها رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — بعد موت القاسم ، وهى تبكى : فقالت : يا رسول الله دَرّت لُبَيْنَة القاسم فلو كان عاش حتى يستكملَ رضاعة لهوَّن علىَّ ، فقال : إن له مُرْضِعا فى الجنة تستكمل رضاعته ، فقالت : لو أعلم ذلك لهون على ، فقال : إن شئت أسمعتُك صوته فى الجنة ، فقالت : بل أصدق الله ورسوله. قولها ، لُبَيْنة هى تصغير لَبنَة ، وهى قِطعة من اللبن ، كالعُسَيْلَة ، تصغير عَسَلَةٍ ذكر سيبويه اللَّبَنَةَ والعَسَلَةَ والشُّهْدة على هذا المعنى . قال المؤلف : وهذا من فقهها — رضى الله عنها — كرهت أن تُؤمن بهذا الأمر مُعَايَنَة ، فلا يكون لها أجرُ التصديق والإيمان بالغيب ، وإنما أثنى الله تعالى على الذين يؤمنون بالغيب . وهذا الحديثُ يدل أيضاً على أن القاسمَ لم يهلك فى الجاهلية . واختلفوا فى الصُّغرى والكبرى من البنات ، غير أن أمّ كلثوم لم تكن الكبرى من البنات ، ولا فاطمة ، والأصحُّ فى فاطمةَ أنها أصغرُ من أم كلثومَ (١)

---

(١) فى نسب قريش ص ٢١ : « فولد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القاسم ، وهو أكبر ولده ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية هم هكذا الأول فالأول ، ثم مات عبد الله ، ثم ولدت له مارية بنت شمعون ابنه إبراهيم » وفى زاد المعاد . وقد قيل فى كل واحدة منهن إنها أسن من اختيها ، وقد ذكر عن ابن عباس : رقية أسن الثلاث ، وأم كلثوم أصغرهن

. . . .

خديجة وبحيرى ونسبها :

وخديجة بنت خُوَيلد تسمى : الطاهرة فى الجاهلية والإسلام ، وفى سِيَرِ التَّيْمِي. أنها كانت تسمى : سيدة نساء قريش، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أخبرها عن جبريل ، ولم تكن سمعت باسمه قط ، ركبت إلى بَحِيرى الراهب ، واسمُه سَرْجِس(١) فيما ذكر المسعودى ، فسألته عن جبريل ، فقال : قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ يا سيدةَ نساء قُرَيْش أنَّى لك بهذا الاسم ؟ ! فقالتْ : بعْلى وابنُ عمى محمد أخبرنى أنه يأتيه ، فقال : قُدُّوس قُدُّوسٌ ما عَلم به إلا نَبِىٌّ مُقرَّب ، فإنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وإن الشيطان لا يجترىء أن يتَمثَّل به ، ولا أن يَتَسمَّى باسمه ، وكان بمكة غلامُ لِعُتْبَةَ بن ربيعة سيأتى ذكره ، اسمه : عدَّاس عنده علم من الكتاب ، فأرسلت إليه تسأله عن جبريل ، فقال : قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ! ! أنَّى لهذه البلاد أن يُذْكَرَ فيها جبريلُ ياسيدةَ نساء قريش ، فأخبرته بما يقول النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال عَدَّاس مثل مَقاله الراهب ، فكان مما زادها اللهُ تعالى به إيمانا ويقينا .

وذكر ابن إسْحاق نسبَ أمها فاطمة بنت زائدة بن الأصَمٍّ ، ولم يذكر اسم الأصم ، وذكره الزبير وغيره ، فقال : جُنْدُب بن هِدْم بن حَجَر ، بفتح الحاء والجيم من حَجر . كذا قيده الدَّارَقُطني(٢) ، وأخوه : حُجَيْرُ بن عبد بن مَعِيص بن عامر ،

(١) استغلت الصليبية هذا الإفك المفترى ، فبهتت القديسة العظيمة خديجة بأنها كانت على صلة بهذا الراهب المزعوم .

(٢) صوب الخشنى أيضاً فى ضبط حجر رواية الدارقطنى ص ٦٢ وفى نسب قريش عن أم خديجة : « وأمها : فاطمة بنت زائدة بن جندب ، وهو الأصم بن هدم بن رواحة بن حجير بن عبد بن معيص ، وضبط حجر بضم الحاء » ص ٢١ ، ٢٢٠ .



. . . .

وأما حَجْر بسكون الجيم فني حيّ ذي رُعَيْنٍ وإليه ينسب الحَجْرِيُّون ، وأما حجر بكسر الحاء ، فني بني الدَّيَّان: عبدُ الحِجْر بن عبد المَدَانِ ، وهم من بني الحارث ابن كعب بن مَذْحج ، وذكر يونس عن ابن إسحاق نسب أم خديجة ، كما ذكر في رواية ابن هشام، وزاد فقال: كانت أم فاطمة بنت زائدة: هالةَ بنت عبدمناف بن الحارث بن عَبْد بن مُنْقِذِ بن عَمْرو بن مَعِيص بن عامر بن لُؤَيّ ، وأمها قِلاَبة، وهي العرقة بنت سُعَيْد بن سَعْد[1] بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَيّ وأمُّها: أُمَيْمَةُ بنتُ عامرِ بن الحارث بن فِهْرٍ[2] .

من تزوجت خديجة قبل الرسول ؟

وكانت خديجة قبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عند أبي هالة ، وهو هند بن زُرَارَة ، وقد قيل في اسمه : زُرَارَة ، وهند : ابنه، ابن النَّبَّاشِ من بني عَدِيّ ابن جِرْوَةَ بن أُسَيِّد[3] ابن عمرو ابن تميم ، فهو أُسَيْدِي بالتخفيف ، منسوب إلى أُسَيِّد بالتشديد ، كذا قال سيبَوَيه في النسبِ إلى أُسَيِّد. وعدي بن جِرْوة ، يقال

---

(١) في نسب قريش : « قلابة ، وهي العرقة بنت سعيد بن سهم بن عمرو الخ » وأما قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم فلا تلقب بالعرقة انظر ص ٢٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٣٨ نسب قريش . وفي نسب هالة جدة خديجة المذكور في ابن هشام مخالفة لما في نسب قريش ، فهو في هذا كما يأتي « هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن منقذ بن عمرو بن معيص » ص ٢٢ وص ٤٣٨

(٢) في نسب قريش : « أميمة بنت عائش بن ظرب بن الحارث بن فهر » .

(٣) في متشابه القبائل لابن حبيب : « أن كل شيء في العرب أسيد – بفتح الهمزة وكسر السين سوى أسيد بن عمرو في بني تميم فإنه على مثال التصغير » ص ٤٥١ ج ٢ المزهر .

إن الزُّبَيْرَ صَحَّفه ، وإنما هوى عِذىُ بن جِرْوَةَ ، وكانت قبل أبى هَالَةَ عند عَتيق (١) بن عائذ بن عبد الله بن عَمرو بن مَخْزوم ، ولدت له عبد مَناف بن عَتيق ، كذا قال ابن أبى خَيْثَمَةَ ، وقال الزُّبَيْرُ : ولدت لعَتيقٍ جارية اسمُها : هندُ (٢) وولدت لهند أبى هالة ابنا اسمُه : هِنْدُ (٣) أيضاً ، مات بالطاعون طاعونِ البَصْرَةِ ، وكان قد مات فى ذلك اليوم نحو من سبعين ألفا ، فشُغِل الناسُ بجنائزهم عن جِنازته ، فلم يوجد من يحملها ، فصاحت نادبتهُ : واهِنْد بن هِنْداه !! وارَبيبَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم تبق جِنازةٌ إلاَّ تُركت ، واحْتُمِلَتْ جِنازتُه على أطرافِ الأصابع إعظاما لربيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكره الدَّوْلاَبِى ، ولخديجةَ من أبى هالةَ ابنان غير هذا ، اسم أحدهما : الطاهرُ ، واسم الآخر : هَالَةُ . واختلِف فى سِنِّه - صلى الله عليه وسلم - حين تَزَوَّج خديجةَ فقيل ما قاله ابن إسحاق ، وقيل : كان ابن ثلاثين سنةً ، وقيل ابن إحدى وعشرين سنة (٤) .

مارية وإبراهيم :

فصل : وذكر أن خديجةَ - رضى الله عنها - ولدت للنبى صلى الله عليه وسلم ولدَه كلَّهم إلا إبراهيمَ ، فإنه من ماريةَ التى أهداها إليه المُقَوْقِس ،

(١) وقيل : إن عتيق تزوجها بعد أبى هالة والقولان فى الإصابة .

(٢) قيل : إنها أسلمت ولها صحبة .

(٣) صحابى روى حديث صفة النبي شهد بدرا ، وقيل : أحدا . وذكر الدارقطنى وابن بكار أنه قتل مع على يوم الجمل .

(٤) فى البيهقى والحاكم أن عمره كان خمسا وعشرين ، وعمرها خمسا وثلاثين .



. . . .

وقد تقدم اسمُ المُقَوْقِس ، وأنه جُرَيْجُ بن مِينا ، وذكرنا معنى المُقَوْقِس في أول الكتاب ، وذكرنا أنه أهدى ماريةَ مع حاطِبِ بن أبي بَلْتَعَةَ ، ومع جَبْر مَوْلى أبي رُهْمٍ الغِفَارِيِّ ، واسم أبي رُهْمٍ : كُلْثُوم بن الحُصَيْن . وذلك حين أرسلها إليه رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — يدعوه إلى الإسلام ، وأهدى معها أختَها سِيرِينَ ، وهي التي وهبها رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — لِحَسَّان ابن ثابتٍ — رضي الله عنه — فأَوْلَدها عبدَ الرحمن بن حسان ، وأهدى معها المُقَوْقِسُ أيضاً غلاماً خَصِيًّا اسمُه : مأبورُ ، وبغلةً تسمى : دُلْدُلَ ، وقدحاً من قَواريرَ كان رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — يشرب فيه ، وتُوفيت ماريةُ — رضي الله عنها — سنة ستَّ عَشْرَةَ في خلافةِ عُمَرَ — رضي الله عنه — وكان عُمر هو الذي يَحْشُر الناسَ إلى جِنازتها بنفسِهِ ، وهي ماريةُ بنت شَمْعُونَ(١) القِبْطِيَّة من كُورَةِ حَفْن . وأما إبراهيمُ ابن رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم فمات ، وهو ابن ثمانيةَ عَشَرَ شهرًا في سنة عَشْرٍ من الهجرة في اليوم الذي كُسِفَتْ فيه الشمسُ ، وكانت قابلتهُ ، سَلْمَى امرأة أبي رافِعٍ ، وأرضعته أمُّ بُرْدَةَ بنت المُنْذِر النَّجَّارية امرأة البَرَاء بن أَوْس ، وسَلْمَى : هي مَوْلاةُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقابلةُ بني فاطمةَ كلِّهم ، وهي غَسَّلتها مع أسماء بنت عُمَيْس الخَثْعَمِيَّة ، وغسلها معهما عليُّ بن أبي طالب — كرَّم الله وجهه — وفي المُسْنَد من طريقِ أنسٍ أنَّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين

---

(١) زاد في نسب قريش بعد شمعون : ابن إبراهيم .



. . . .

ولدت له ماريَةُ ابنَه إبراهيم وقع فى نفسِه منه شىء، حتى نَزَلَ جبريلُ عليه السلامُ ، فقال له : السلام عليك يا أبا إبراهيم(١) .

ترجمة ورقة :

وذكر ورقةَ بن نَوْفل بن أسد بن عَبْد العُزَّى ، وأم ورقة : هندُ بنتُ أبى كبير بن عَبْدِ بن قُصَىّ ، ولا عَقِبَ له(٢) ، وهو أحد من آمن بالنبى —

---

(١) فى زاد المعاد : أن الطيب والطاهر لقبان لولده المسمى : عبد الله الذى ولد بعد النبوة . وأما إبراهيم فذكر ابن القيم أنه ولد فى العام الثامن من الهجرة وأن الذى بشره به هو أبو رافع مولاه. فوهب له عبدا ،أما الحديث المروى عن طريق أنس، ففيه ابن لهيعة ، ولا يعتد بحديث يروى عن طريقه ، وفى روايات الحديث أن مأبورا هذا كان يدخل كثيرا على مارية ، فهل يصدق مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن لمثل هذا أن يغشى بيته هكذا؟! وقد اختلف فى مابور ، فقيل إنه أخوها ، وقيل أيضاً : إنه ابن عمها ، وهو خصى،ويقول ابن أبى الحديد — على تشيعه — فى شرحه لنهج البلاغة وهو يتحدث عما بهتت به عائشة ، وعن براءتها فى سورة النور « وقوم من الشيعة زعموا أن الآيات التى فى سورة النور لم تنزل فيها .وإنما أنزلت فى مارية القبطية ، وما قذفت به مع الأسود القبطى . وجحدهم لإنزال ذلك فى عائشة جحد لما يعلم ضرورة من الأخبار المتواترة » ص ٤٤٢ جـ ٣ طبع لبنان ، وأما المرتضى صاحب كتاب الأمالى المعروف باسمه ، فافترض صحـــة الحديث ، وراح يؤول ألفاظه انظر ص ٥٤ جـ ١ أمالى المرتضى ط ١ .

(٢) اسم أبى كبير : منهب بضم الميم وسكون النون وكسر الهاء انظر ص ٢٠٧ نسب قريش ، ٢٥٦ وما بعدها .



. . . .

صلى الله عليه وسلم ــ قبل البَعْثِ (١) ، وروى التِّرْمِذِيُّ أن رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : رأيته فى المنام ، وعليه ثيابٌ بيضٌ ، ولو كان من أهلِ النار ، لم تكن عليه ثيابٌ بيضٌ ، وهو حديث فى إسناده ضَعفٌ ، لأنه يدور على عُثْمان بن عبد الرّحمن ، ولكن يُقوّيه ما يأتى بعد هذا من قوله عليه السلام : رأيت القَسَّ يعنى ، وَرَقَةَ وعليه ثيابُ حرير ، لأنه أولُ مَن آمن بى ، وصدقنى ، وسيأتى بقيةٌ من خبره (٢) فيما بعد ــ إن شاء الله ــ وقد ألْفَيْت للحديث الذى خَرَّجه الترمذيُّ فى وَرَقَةَ إسنادا جيــــدا غير الذى ذكره التِّرْمِذِيُّ ، وهو ما رواه الزُّبَيْرُ بن أبى بكر عن عبد الله بن مُعاذ الصّنْعانِيِّ عن مَعْمَرٍ عن الزُّهْرِيِّ عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْر ــ رضى الله عنه ــ قال : سئل رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن ورقة بن نوفل ، كما بلغنا فقال : رأيتُه فى المنام ، عليه ثيابٌ (٣) بِيضٌ ، فقد أظن أنْ لو كان من أهلِ النارِ لم أرَ عليه البياضَ ، وكان يذكر اللهَ فى سفره فى الجاهلية ، ويسبِّحه ، وهو الذى يقول :

---

(١) يقول ابن عساكر : « لا أعرف أحدا قال إنه ــ أى ورقة ــ أسلم » .

(٢) رواه البيهقى فى الدلائل وقال : إنه منقطع .

(٣) أخرجه أحمد عن طريق ابن لهيعة ، ولا يعتد بحديث يروى عن طريقه . وهكذا كل حديث يتحدث عن إسلام ورقة أو آخرته ، فهو ضعيف وحسبنا ما ورد عنه فى الصحيحين .



. . . .

لقد نصحتُ لأقوام ، وقلتُ لهم : أنا النذيرُ ، فلا يغرُرْكم أحَدُ
لا تَعْبُدُنَّ (١) إلهًا غيرَ خالقِكم فإن دَعَوْكُمْ (٢) فقولوا : بيننا جَدَدُ (٣)
سُبْحانَ ذي العرشِ سُبْحاناً يدوم له وقبلنا (٤) سَبَّحَ الجُودِيُّ والجُمُدُ
مُسَخَّرٌ كلُّ ما تحت السماء له لا ينبغي أن يُنَاوِي (٥) مُلْكَهُ أحدُ
لا شَيْء مما ترى تبقى بشاشتُهُ يَبْقَى الإلهُ ويُودِي المالُ والوَلَدُ
لم تُغْنِ عن هُرْمُزٍ يوما خزائنُهُ والخلد قد حاولت عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سُلَيْمان إذ تجري الرياحُ به والإنسُ والجِنُّ فيما بينها مرد (٦)
أين الملوكُ التي كانت لعزتِها من كل أوْبٍ إليها وافدٌ يَفِدُ
حَوْضٌ هنالك مَوْرودٌ بلا كذبٍ لا بُدَّ من وِرْدِهِ يوما كما وَرَدُوا (٧)

---

(١) في نسب قريش جعل لا نافية فأثبت الواو وهو خطأ - كما أعتقد - من محقق الكتاب .

(٢) في النسب « فإن أبيتم » .

(٣) في الأغاني وفي النسب « حدد » بالحاء لا بالجيم .

(٤) « في الأغاني « نعوذ به ، وقبل قد » .

(٥) في النسب : يساوي ، وفي الأغاني كما هنا .

(٦) في الأغاني : « والجن والإنس تجري بينها البرد » وكذلك في نسب قريش بدون الواو قبل « الجن » .

(٧) هذا البيت غير موجود في الأغاني ص ١١٥ مجلد ٣ والقصيدة في نسب قريش ، وبينها وبين ما هنا اختلافات وزيادات مثل :

سبحان ذي العرش الخ فقد ورد هكذا في نسب قريش

سبحان ذي العرش لا شيء يعادله رب البرية فرد واحد صمد

وورد بعده في نسب قريش :

=

. . . .

نسبه أبو الفرج[1] إلى وَرَقَة ، وفيه أبياتٌ تُنسب إلى أُمَيَّة بن أبى الصَّلْتِ ، ومن قوله فيما خبرته به خديجةُ — رضى الله عنها — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

يا للرِّجالِ لِصَرْفِ الدَّهْرِ والْقَدَرِ[2] ... وما لِشَىْءٍ قضاه اللهُ من غِيَرَ

حتى خديجةُ تدعونى لأُخْبِرَها ... أمراً أراه سيأتى الناسَ من أُخُرِ[3]

فخبَّرَتْنِى بأمرٍ قد سمعت به ... فيما مضى مِنْ قديم الدهر والعُصُرِ

بأن أحمدَ يأتيه فيخبرُه ... جبريلُ : إنك مبعوثٌ إلى البَشَرِ

فقلت : عَلَّ الذى تَرْجين ينجزُه ... لك الإلهُ فَرَجِّى الخيرَ وانتظرى

وأرسلته إلينا كى نسائله ... عن أَمْرِهِ مايَرَى فى النوم والسَّهَر

فقال حين أتانا منطِقا عَجَبًا ... يَقِفُّ منه أعالى الجِلد والشَّعَر

إنى رأيتُ أمينَ اللهِ واجهنى ... فى صورة أكملت فى أَهْيَبِ الصُّوَرِ

ثم استمر فكان الخوف يذْعَرُنى ... مما يُسَلِّمُ مِنْ حَوْلى مِن الشَّجَرِ

= سبحانه ثم سبحانا يعود له ... وقبل سبحه الجودى والجمد

والبيتان الأخيران فى الروض غير مذكورين فى النسب انظر نسب قريش ص ٢٠٨ .

(١) يعنى صاحب كتاب الأغانى .

(٢) فى الإصابة « وصرف الدهر » .

(٣) فى الإصابة

هذى خديجة تأتينى لأخبرها ... ومالنا بخفى الغيب من خبر

. . . .

فقلت : ظني وما أدرى أيَصْدُقنى   أنْسوف تُبعث تتلو مُنزَلَ السُّورِ
وسوف أُبْليك إن أعلنت دعوتهم   من الجهاد بلاَ مَنٍّ ولا كَدَرِ

متى يقصد به المفرد :

فصل : وفى شعر وَرَقَة :

بَبَطْنِ المكَّتَيْن على رَجَائى   حديثك أن أرَى منه خُرُوجا

ثنَّى مكة ، وهى واحدةٌ ؛ لأن لها بِطَاحاً وظواهرَ ، وقد ذكرنا مَنْ أهلُ البِطاح ، ومَنْ أهلُ الظواهر فيما قبل ، على أن للعرب مَذْهَباً فى أشعارِها فى تثنية البُقْعة الواحدة ، وجمعِها نحو قوله : وَمَيْتٌ بِغزَّاتِ . يريد : بغزَّةَ وبغادين . فى بغْدَاد ، وأما التثنية فكثير نحو قوله :

بالرَّقْمَتَيْنِ له أجْرٍ وأَعْراسُ   والحَمَّتَيْنِ سَقَاكِ الله مِنْ دَار(١)

وقول زهير : ودار لها بالرَّقْمَتَيْنِ(٢) . وقول ورقة من هذا : ببطن

---

(١) فى اللسان : الرقمة : الروضة ، ورقمة الوادى حيث يجتمع الماء ، وأجر : جمع جرو ، وجمع العرس وهى امرأة الرجل ورجلها ، ولبؤة الأسد : أعراس وقد استعاره الهذلى للأسد فقال :

ليثٌ هِزَبْر مُدِلٌّ حول غابته   بالرقمتين له أجرٍ وأعراسُ

قال ابن برى : البيت لمالك بن خويلد الخناعى وقبله .

يامى لا يعجز الأيامَ مجترىءٌ   فى حومة الموت رَزّامٌ وفرّاس

الرزام الذى له زئير ، والفراس الذى يدق عنق فريسته

(٢) الرقمتان — كما فى اللسان — روضتان بناحية الصمّان ، وإياهما أراد زهير . ودار لهـا بالرقمتين كأنها   مراجيع وشم فى نواشر معصم

. . . .

المكّيّتين . لا مَعْنَى لإدخال الظواهرِ تحت هذا اللفظ ، وقد أضاف إليها الْبَطْنَ ، كما أضافه الْمُبْرِقُ حين قال :

ببطن مكةَ مَقْهُورٌ وَمَفْتُونُ .

وإنما يقصد العربُ فى هذا الإشارةَ إلى جانبى كل بلدة ، أو الإشارة إلى أعلى البلدة وأسفلها ، فيجعلونها اثنين على هذا المغزى ، وقد قالوا : صِدنا بِقَنَوَيْنِ (١) وهو قنا اسم جبل ، وقال عَنْتَرَة .

شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّحْرُضَيْنِ (٢) .

وهو من هذا الباب فى أصَحِّ القولين ، قال عنترة أيضا ،

بِعُنَيْزَتَيْنِ وأهلُنا بالْعَيْلَمِ (٣)

---

(١) فى القاموس : القَنَـوان . جبلان

(٢) الدُّحْرُضان : موضعان أحدهما : دحرض ، والآخر : وسيع وقال الجوهرى : الدُّحرضان : اسم موضع . وقال : وسيع ودحرض ماءان ثناهما بلفظ الواحد ، وبيت عنترة :

شَـرِبَـتْ بماء الدُّحرضين ، فأصبحت
زوْراء تنفر عن حياض الدَّيلم

(٣) فى المراصد : عنيزة . موضع بين البصرة ومكة ، وأيضاً : بئر على ميلين من القريتين ببطن الرمة ، وعنيزة من أودية اليمامة قرب سواح ، وقرى عنيزة بالبحرين وعنيزتن تثنية الذى قبله . قيل : هو موضع آخر ، وقيل : هو الذى قبله ، ثنى كما قالوا فى عماية : عمايتان ، وفى رامة : رامتان وأمثاله كثير .

والغيلم بالغين لا بالعين . فى المراصد . واللسان : الغيلم : موضع فى شعر عنترة .

كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنـا بالغيلم



. . . .

وعُنَيْزة اسم موضع ، وقال الفرزدق :

عشِيَّةَ سال الْمِرْبَدان كلاهما(١)

وإنما هو مِرْبد البصرة . وقولهم :

تسألنى بَرامَتَين سَلْجَمَا(٢)

---

(١) الشعر للفرزدق :

عَشِيَّةَ سال المِرْبَدان كلاهما عجاجَةَ مَوْت بالسيوف الصوارم

والمربد : المكان الذى يحبسون فيه الإبل وبه سمى مربد البصرة وبه كانت مفاخرات الشعراء ، ومجالس الخطباء . وقال الجوهرى فى بيت الفرزدق إنه عنى به سكة المربد بالبصرة ،والسكة التى تليها من ناحية بنى تميم جعلهما المربدين كما يقال الأحوصان وهما : الأحوص وعوف بن الأحوص « اللسان المراصد ، ياقوت »

(٢) رامة : منزل فى طريق البصرة إلى مكة وبعده بمرحلة أخرى ديار بنى تميم ، وقيل: جبل لبنى دارم، ورامة أيضاً من قرى بيت المقدس، وللسلجم عدة معان منها أنه نبت، وقيل: هو ضرب من البقول. قال أبو حنيفة السلجم: معرب وأصله بالشين والعرب لا تتكلم به إلا بالسين ، وكذا ذكره سيبويه بالسين فى باب علل ما يجعله زائدا فقال : وتجعل السين زائدة إذا كانت فى مثل سلجم . وقيل لرامى. لم زرعتم السلجم ، فقال معاندة لقوله :

تسألنى برامتين سَلْجَما
باقى لو سألت شيئاً أمما
جاء به الكَرِىُّ أو تجشما
لو أنها تطلب شيئا أمما

وفى اللسان « فاما إكثارهم من تثنية رامة فى الشعر فعلى قولهم للبعير .ذوعثانين كأنه قسمها جزأين . ويقول ابن سيدة إنها سميت رامتين للضرورة لأنهما لو كانتا أرضين لقيل : الرامتين» .



. . . .

وإنما هو رامَة وهذا كثير . وأحسن ماتكون هذه التثنية إذا كانت فى ذكر جنة وبستان ، فتسميها جنتين فى فصيح الكلام ، إشعاراً بأن لها وجهين ، وأنك إذا دخلتها ، ونظرت إليها يمينا وشمالا رأيت من كلتا الناحيتين ما يملأ عينيك قُرَّةَ ، وصدْرَكَ مَسَرَّةَ ، وفى التنزيل : ([لقد كان لِسَبَاٍ فى مَسْكَنِهِمْ آيةٌ . جَنَّتان] عنَ يمين وشمال) إلى قوله سبحانه : ﴿وبدَّلْناهُم بجنتَيْهم جنتين﴾ سبأ : ١٥ . وفيه : ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ الآية. الكهف : ٣٢ ، وفى آخرها : (ودخل جَنَّتَه) فأفرد بعد ماثنى ، وهى [1] هى ، وقد حمل بعض العلماء على هذا المعنى قوله سبحانه ﴿ وَلِمَنْ خاف مقام ربه جَنَّتان ﴾ الرحمن : ٤٦ ، والقول فى هذه الآية يتسع ، والله المستعان .

النور والضياء :

فصل : وقال فى هذا الشعر : ويظهر فى البلادِ ضياءُ نور . هذا البيت يوضح لك معنى النور ومعنى الضياء ، وأن الضياءَ هو المنتشر عن النور ، وأن النور هو الأصل للضوء ، ومنه مبدؤه ، وعنه يصدر ، وفى التنزيل : ﴿فلما أضاءت ما حولَه ذهب اللهُ بنورهم﴾ البقرة : ١٧ . وفيه : ﴿جعل الشمسَ ضياء ، والقمرَ نوراً﴾ يونس : ٥ . لأن نور القمر ، لاينتشر عنه من الضياء ماينتشر من الشمس ، [و]لاسيما فى طرفى الشهر ، وفى الصحيح : الصلاة نور ، والصبر ضياء ، وذلك أن الصلاة هى

---

(١) فى البيضاوى : « إفراد الجنة ، لأن المراد . ماهو جنته ، وهى ماممتع به فى الدنيا تنبيها على أنه لا جنة له غيرها ، ولاحظ له فى الجنة التى وعد المتقون ، أولا تصال كل واحد من جنتيه بالآخرى ، أو لأن الدخول يكون فى واحدة » وهو أجود .



. . . .

عمود الإسلام ، وهى ذكر وقرآن ، وهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فالصبر عن المنكرات ، والصبر على الطاعات هو : الضياء الصادر عن هذا النور الذى هو القرآن، والذكر ، وفى أسماء البارى سبحانه ﴿الله نور السموات والأرض﴾ النور : ٣٥ ولا يجوز أن يكون الضياء من أسمائه ـ سبحانه ـ وقد أمليت فى غير هذا الكتاب من معنى نور السموات والأرض ما فيه شفاء ، والحمد لله .

نون الوقاية فى إن وأخواتها :

فصل : وفى شعر ورقة : فياليتى إذا ما كان ذاكم . بحذف نون الوقاية ، وحذفها مع ليت ردىء ، وهو فى لعل أحسن منه ، لقرب مخرج اللام من النون ، حتى لقد قالوا : لعلَّ وَلعَنَّ ولأن بمعنى واحد ، ولاسيما وقد حكى يعقوبُ أن من العرب من يخفض بلعل ، وهذا يؤكد حذف النون من لعلى ، وأحسن ما يكون حذف هذه النون فى إنَّ وأنَّ ولكنَّ وكأن لاجتماع النونات ، وحسّنه فى لعل أيضاً كثرة حروف الكلمة ، وفى التنزيل : ﴿لعلِّى أرجع إلى الناس﴾ يوسف : ٤٦ . بغير نون، ومجىء هذه الياء فى ليتى بغير نون مع أن ليت ناصبة، يدلك على أن الاسم المضمر فى ضربنى هو الياء ، دون النون كما هو فى : ضربك ، وضربه حرف واحد ، وهو الكاف ، ولو كان الاسم هو النون مع الياء ـ كما قالوا فى المخفوض : منِّى وعنِّى بنونين نونِ : من ، و نون أخرى مع الياء ، فإذاً الياء وحدها هى الاسم فى حال الخفض ، وفى حال النصب .

حول تقدم صلة المصدر عليه :

فصل : وفيه : حديثك أن أرى منه خروجا . قوله منه الهاء راجعة على الحديث،



. . . .

وحرف الجر متعلق بالخروج ، وإن كره النحويون ذلك ؛ لأن ما كان من صلة المصدر عندهم ، فلا يتقدم عليه ؛ لأن المصدر مقدَّر بأَنْ والفعل، فما يعمل فيه هو من صلة أَنْ ، فلا يتقدم ، فمن أطلق القول فى هذا الأصل ، ولم يخصص مصدراً من مصدر ، فقد أخطأ المَفْصِل ، وتاه فى تُضُلِّلٍ ؛ ففى التنزيل: ﴿أكان للناس عَجَباً أنْ أوْحَينا [إلى رجُلٍ منهم] ﴾ يونس : ٢ .ومعناه: أكان عجباً للناس أن أوحينا ، ولا بد للام هاهنا أن تتعلق بعجب ؛ لأنها ليست فى موضع صِفة ، ولا موضع حال لعدم العامل فيها ، وفيه أيضا : ﴿لا يَبْغُون عنها حِوَلا﴾ الكهف : ١٠٨ : ﴿ولم يَجِدوا عنها مَصْرِفا ﴾ الكهف : ٥٣ . وفيه أيضا : ﴿ لو لَيَّت منهم فرارا ﴾ الكهف : ١٨ . وتقول : لى فيك رغبة ، ومالى عنك مُعَوَّلٌ ، فيحسُن كلُّ هذا بلاَ خلاف ، وقد أجاز ابن السراج أبو بكر ، و[محمد بن يزيد] المُبَرِّد أيضا فى ضَرْباً زيداً ، إذا أردت الأمر : أن تقدم المفعول المنصوب بالمصدر ، وقال : لأن ضَرْباً ها هنا فى معنى : اضرب ، فقد خصص لك ضربا من المصادر بجواز تقديم معمولها عليها فإن كان المصدر غير أمر ، وكان نكرة لم يتقدم المفعول خاصة عليه ، بخلاف المجرور والظرف ، فالواجب إذاً رَبْطُ هذا الباب وتفصيله.

متى يجوز تقديم معمول المصدر ؟

فنقول : كل مصدر نكرة غير مضاف إلى ما بعده يجوز تقديم معموله عليه إلا المفعول لأن المصدر النكرة لا يتقدر بأنْ والفعل ؛ لأنك إن قدرته بأنْ والفعل بقى الفعل بلا فاعل ، وما كان مضافا إلى ما بعده، فالمضاف إليه فاعل فى المعنى أو مفعول ؛ فلذلك يصير المصدرُ مقدَّراً بأن والفعل، فقف على هذا الأصل ، فمنه



. . . .

حسُن قول ورقة : أن أرى منه خُروجاً ، أى : أرى خروجا منه ، وكذلك لو ذكر الدخولُ ، فقال : أرى فيه دخولا ، يريد : دخولا فيه ، لكان حسنا ، وتقول : اللهم اجعل من أمرنا فَرجاً ومَخرجا ، فمِن أمرِنا : متعلقٌ بما بعده ، وهو مصدر ، ولا خَفاء فى حُسْن هذا التقديم لما ذكرناه .

ومن قول وَرَقَة بن نوفل فى معنى ما تقدم من رواية يونس عن ابن إسحاق :

أَتُبْكِرُ أم أنت الْعَشِيَّةَ رائحُ   وفى الصدر من إضْمَارِكَ الحزنَ قادح (١)

لِفُرْقَةِ قومٍ لا أحب فِرَاقَهُمْ   كأنك عنهم بعد يومين نازح

وأخبارِ صِدْقٍ خَبَّرَت عن محمد   يخبرها عنه إذا غاب ناصح

فتاك الذى وجهت ياخيرَ حُرَّةٍ   بِغَوْرٍ وبالنَّجْدَيْنِ حيث الصَّحاصِحُ (٢)

إلى سُوقِ بُصْرَى فى الركاب التى غدت   وَهُنَّ من الأحمال قُعْصٌ دَوَالِح (٣)

فخبَّرنا عن كلِّ خير بِعلمه   وللحق أبوابٌ لَهُنَّ مفاتح

---

(١) إما أن تكون اسم فاعل من قدح الزند ، أو هى أكال يقع فى الشجر والأسنان ، وهى الصدع فى العود .

(٢) الغور : ما بين ذات عرق إلى البحر ، وكل ما انحدر مغربا عن تهامة ، وموضع بديار بنى سليم . والنجد : ماخالف الغور أى تهامة : أعلاه : تهامة واليمن ، وأسفله : العراق والشام ، وأوله من جهة الحجاز . ذات عرق ، والصحاصح : جمع صحصح الأرض الجرداء المستوية .

(٣) دلح كمنع مشى بحمله منقبض الخطو لثقله ، والقعص : الموت السريع والقعاص : داء فى الصدر كأنه يكسر العنق ، وشاة قعوص : تضرب حالبها وتمنع الدرة .



حديث بنيان الكعبة وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قريش فى وضع الحجر

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يَهُمُّون بذلك ، ليُسَقِّفُوها ويهابون هَدْمها ، وإنما كانت رَضْماً فوق القامة ، فأرادوا رَفْعها وتَسْقيفها ، وذلك أن نفراً سرقوا كنزاً للكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وُجد عنده الكنز دُوَيْكا مولى لبنى مُليح بن عمرو من خزاعة. قال ابن هشام : فقطعت قريشٌ يده . وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دُوَيْك وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدّةَ لرجل من تجّار الروم ، فتحطّمت ، فأخذوا خَشَبها فأعدّوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطىّ نجار ، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعضُ ما يُصْلحها وكانت حَيَّةٌ تخرج من بئر الكعبة التى كان يُطْرَح فيها مايهدى لها كل يوم ، فتَتَشَرّقُ على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احْزَأَلَّتْ وَكَشَّتْ ، وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها . فبينا هى ذات يوم تَتَشَرّق على جدار الكعبة ، كما كانت تصنع

بأن ابنَ عبدِ الله أحمدَ مُرْسَلٌ ... إلى كلِّ مَنْ ضُمَّتْ عليه الأباطح
وظنِّى به أنْ سوف يُبْعَث صادقا ... كما أُرْسِلَ العبدان هُودٌ وصالح
وموسى وإبراهيمُ حتى يُرى له ... بهاءٌ ومنشورٌ من الذكر واضح
ويتبعه حَيَّا لُؤَىّ جماعة ... شبابُهم والأشْيَبُون الجَحاجحُ (١)

---

(١) جمع جحجح وجحجاح : السيد.



بعث الله إليها طائراً فاختطفها ، فذهب بها ، فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رَضِىَ ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا اللهُ الحيَّةَ .

فلما أجمعوا أمرَهم فى هَدْمها وبنائها ، قام أبو وَهْب بن عمرو بن عائذ ابن عبد بن عِمران بن مخزوم . قال ابن هشام : عائذ : ابنُ عمران بن مخزوم . فتناول من الكعبة حجراً ، فوثب من يده ، حتى رجع إلى موضعه . فقال : يا مَعْشرَ قريش ، لا تُدْخلوا فى بنائها من كَسْبكم إلا طَيِّباً ، لا يدخل فيها مَهْرُ بَغِىٍّ ولا بيعُ رِباً ، ولا مَظْلَمَةُ أحد من الناس ، والناس يَنْحَلون هذا الكلام الوليدَ بن المُغيرَة عبد الله بن عُمر بن مخزوم .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى عبد الله بن أبى نَجيح المكِّىّ أنه حُدِّث عن عبد الله بن صَفْوان بن أُمَيَّة بن خَلَف بن وهب بن حُذَافة بن جُمَح بن عمرو ابن هُصَيص بن كَعْب بن لُؤَىّ . أنه رأى ابنا لجعدة بن هُبَيرة بن أبى وَهْب بن عَمْرو يطوف بالبيت ، فسأل عنه ، فقيل : هذا ابنٌ لجَعْدَة بن هُبَيْرَة ، فقال عبد الله بن صفوان عند ذلك : جدُّ هذا ، يعنى : أبا وهب الذى أخذ حجراً من الكعبة حين أجمعت قريش لهدمها ، فوثب من يده ، حتى رجع إلى موضعه ، فقال عند ذلك : يامعشر قريش : لا تُدْخلُوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيها مهر بَغِىٍّ ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

فإن أبْقَ حتى يُدرِكَ الناسَ دهرُه ... فإنى به مُسْتَبْشرُ الود فارح

وإلا فإنى يا خديجة — فاعلمى ... عن ارضِك فى الأرض العريضة سائح



قال ابن اسحاق : وأبو وهب : خالُ أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وكان شريفا ، وله يقول شاعر من العرب :

غَدَتْ من نَداهُ رَحْلُها غيرُ خائب ... ولو بأبى وَهب أنختُ مَطِـيَّتى
إذا حُصِّلت أنسابُها فى الذَّوائب ... بأبيضَ من فَرْعَىْ لُؤَىِّ بن غالب
توسَّط جَدّاه فُرُوعَ الأطايب ... أَبِىٍّ لأخذِ الضَّيم يرتاح للَّندى
من الخبز يعلوهنَّ مثلُ السَّبائب ... عظيمِ رَمادِ القِدْرِ يملأ جِفانَه

ثم إن قُريشا تجزَّأت الكعبة ، فكان شِقُّ الباب لبنى عبد مناف وزُهْرَةَ وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ، وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَحٍ وسهم، ابنى عمرو بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَى . وكان شِقُّ الحِجْرِ لبنى عبد الدار بن قُصَىّ ، ولبنى أسد بن العُزَّى بن قُصَىّ ، ولبنى عَدِىِّ بن كعب بن لُؤَىّ وهو الحَطِيمُ

ثم إن الناس هابوا هَدْمها وفَرِقُوا منه . فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هَدمها ، فأخذ المِعْوَلَ ، ثم قام عليها ، وهو يقول : اللهم لم تُرَعْ ـ قال ابن هشام : ويقال : لم نَزِغْ ـ اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنَيْن ، فتربَّص الناسُ تلك اللَّيلةَ ، وقالوا : ننظرُ ، فإن أُصيب لم نهدم منها شيئاً ورددْناها كما كانت ، وإنْ لم يُصِبه شىء ، فقد رضى الله صُنْعَنا ، فهدَمْنا . فأصبح الوليدُ من ليلته غاديا على عمله ، فهَدَمَ وهَدَمَ الناسُ معه ، حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس أساسِ إبراهيم عليه السلام أفضَوْا إلى حجارة خُضر كالأسْنِمة آخذٍ بعضُها بعضا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض مَنْ يَرْوى الحديث : أنّ رجلا من قُرَيش ، ممن كان يهدمها ، أدخل عَتَلَةً بين حَجَرين منها ليقْلَعَ بها أحدهما ، فلما تحرّك الحجر تَنَقَّضَتْ مكةُ بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحاق : وحُدثت أن قريشاً وجدوا فى الركن كتاباً بالسُّرْيانية ، فلم يدروا ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا هو : « أنا الله ذو بَكَّة ، خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض ، وصوّرتُ الشَّمْس والقمر ، وحَفَفْتُها بسبعة أملاكٍ حُنَفاء ، لا تزول حتى يزولَ أخْشباها ، مُبارَكٌ لأهلها فى الماء واللبن » .

قال ابن هشام : أخشباها : جبلاها .

قال ابن إسحاق : وحُدثت أنهم وجدوا فى المقام كتاباً فيه : « مكة بيت الله الحرام يأتيها رِزْقُها من ثلاثة سُبُل ، لا يُحلُّها أوّلُ مِنْ أهلها » .

قال ابن إسحاق : وزعم ليثُ بن أبى سُلَيم أنهم وجدوا حجراً فى الكعبة قبل مَبْعث النبىّ صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة - إنْ كان ما ذكر حقاً - مكتوبا فيه : « مَنْ يَزْرَعْ خيراً ، يَحصُد غِبْطَةً ، ومن يزرع شراً ، يَحصُدْ نَدَامَةً . تعملون السيئات ، وتُجْزَوْن الحسنات ! أجَل ، كما لا يُجتنى من الشَّوك العِنَب » .

قال ابن إسحاق : ثم إنّ القبائل من قُرَيش جمَعت الحجارةَ لبنائها ، كلُّ قَبيلة تجمع على حِدَةٍ ، ثم بَنَوْها ، حتى بلغ البُنْيان موضعَ الركن ، فاختصموا فيه ، كلُّ قبيلة تُريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوَرُوا



وتحالفوا ، وأعدّوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جَفْنةً مملوءةً دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عديٍّ بن كَعْب بن لُؤَىّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فَسُمُّوا : لَعقة الدم ، فمكثت قُرَيش على ذلك أربعَ ليال أو خمسا ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا .

فزعم بعضُ أهل الرواية : أن أبا أميَّة بن الْمُغيرة بن عبد الله بن عُمَرَ بن مَخْزُوم ، وكان عامَئِذٍ أسنَّ قُرَيش كلها ، قال : يا معشرَ قُرَيش ! اجعلوا بينكم - فيما تختلفون فيه - أوّلَ من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا : فكان أولَ داخل عليهم رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رَضِينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبرَ ، قال صلى الله عليه وسلم : هَلُمَّ إلىّ ثوبا ، فأُتى به ، فأخذ الركن فوَضَعه فيه بيده ، ثم قال : لِتَأْخُذْ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا : حتى إذا بلغوا به موضعَه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وكانت قُرَيش تسمِّى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن ينزل عليه الوحى : الأمين . فلما فرَغوا من البنيان ، وبنَوْها على ما أرادوا ، قال الزُّبَير بن عبد المطلب ، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بُنْيانَ الكعبة لها .

عجِبْتُ لِمَا تَصوَّبَتِ العُقَابُ ... إلى الثُّعبان وهْىَ لها اضْطِرَابُ
وقدْ كانَتْ يكُونُ لهَا كَشِيشٌ ... وأحْيانًا يكُونُ لهَا وِثَاب
إذا قُمْنا إلى التّأسيس . شَدّت ... تُهَيِّبُنا البِناء . وَقدْ تُهَاب



فلما أن خَشِينا الرِّجْزَ . جاءت   عُقابٌ تَتْلَئِبُّ لها انْصِباب

فضَمَّتْها إليها ، ثم خَلَّتْ   لَنا البُنْيانَ ، لَيْسَ لهُ حِجاب

فقُمْنا حاشِدِينَ إلى بنــاء   لنا منهُ القَواعدُ والتُّراب

غداةَ نُرَفِّع التَّأسيسَ منهُ   وَلَيْسَ على مُسَوِّينا ثِياب

أعَزَّ بِهِ المليكُ بَنِي لُؤَيٍّ   فلَيْس لأصْلِه منهمْ ذَهاب

وقدْ حَشَدَتْ هُناك بنو عديٍّ   ومُرَّةُ قــد تَقَدَّمَها كِلاب

فَبَوَّأنا المَلِيكُ بذاكَ عِزًّا   وعندَ الله يُلْتَمَسُ الثَّوَاب

قال ابن هشام : ويُرْوَى :

وليسَ على مَساوِينا ثِياب

وكانت الكعبة على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثمانى عَشْرةَ ذراعاً ، وكانت تُكْسَى القَباطِي ، ثم كُسِيَت البُرود . وأوّل من كساها الديباجَ : الحجّاجُ بن يوسف .

بنيان الكعبة

ففى خبرها أنها كانت رَضْما فوق القامة . الرَّضْمُ : أن تُنَضَّدَ الحجارة بعضها على بعض من غير مِلاَطٍ(١) كما قال :

رُزِئْتُهُمُ فى ساعةٍ جَرَّعَتْهُمُ   كُئُوسَ المنايا تحت صَخْرٍ مُرَضَّمِ

وقوله : فوق القامة ، كلامٌ غيرُ مُبَيِّنٍ لمقدارِ ارتفاعها إذ ذاك ، وذكر

---

(١) الطين يجعل بين ساقى البناء ، ويملط به الحائط .



. . . .

غيره أنها كانت تِسعَ أذرع من عهد إسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، فلما بنتها قريشٌ قبل الإسلام زادوا فيها تسعَ أذرع، فكانت ثمان عشرة ذراعا ، ورفعوا بابها عن الأرض ، فكان لا يُصعَد إليها إلا فى دَرَجٍ أو سُلَّم ، وقد ذكرنا أول من عمل لها غَلَقاً ، وهو تُبَّع . ثم لما بناها ابنُ الزبير زاد فيها تسع أذرع فكانت سبعا وعشرين ذراعا ، وعلى ذلك هى الآن ، وكان بناؤها فى الدهر خمس مرات . الأولى : حين بناها شيثُ بن آدم(١) ، والثانية : حين بناها إبراهيم على القواعد الأولى ، والثالثة : حين بنتها قريشٌ قبل الإسلام بخمسة أعوام ، والرابعة : حين احترقت فى عهد ابن الزبير بشرارة طارت من أبى قُبَيْس ، فوقعت فى أستارها ، فاحترقت ، وقيل إن امرأة أرادت أن تُجْمِرها ، فطارت شرارة من الِمجْمَرِ(٢) فى أستارها ، فاحترقت ، فشاوروا بنُ الزبير فى هدمها مَنْ حضره ، فهابوا هدمها ، وقالوا : نرى أن تصلح ما وهَى ، ولا تهدم . فقال : لو أن بيتَ أحدِكم احترق لم يرض له إلا بأكمل صلاح . ولا يكمل إصلاحُها إلا بهدمها . فهدمها حتى أفضى إلى قواعد ابراهيمَ ، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر . فحركوا حَجَرا فرأوا تحته نارا وهَوْلا(٣) . أفزعهم فأمرهم أن يُقِرُّوا

---

(١) أول من بناها إبراهيم .

(٢) ما يوضع فيه الجمر بالدخنة ، والعود نفسه . ويقال أيضاً بضم الميم الأولى وفتح الثانية .

(٣) لم يرد فى الحديث الذى أخرجه مسلم ذكر لهذه النار بل ورد: «فنقضوه أى بناء الكعبة ـ حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه» . وفيه أنه زاد فيه خمسة أذرع ، وأن طول الكعبة كان ثمانية عشر ذراعا ، فلما زاد فيه استقصره ، فزاد فى طوله عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما : يدخل منه ، والآخر يخرج منه.



. . . .

القواعِد ، وأن يبنوا من حيث انتهى الحفرُ . وفى الخبر أنه سترها حين وصل إلى القواعِد ، فطاف الناس بتلك الأستار ، فلم تَخْل قَطُّ من طائف حتى لقد ذُكِر أن يوم قتل ابن الزبير اشتدت الحربُ ، واشتغل الناس فلم يُرَ طائف يطوف بالكعبة إلا جملٌ يطوف بها ، فلما استتم بنيانها ، ألصق بابها بالأرض ، وعمل لها خَلْفاً أى : بابا آخر من ورائها ، وأدخل الحِجْرَ فيها ، وذلك لحديث حدثته به خالتهُ عائشة ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : ألم تَرَىْ قومَك حين بنَوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم حين عجزت بهم النفقة ، ثم قال عليه السلام : لولا حِدْثان عهد قومك بالجاهلية لهدمتها ، وجعلت لها خَلْفاً[1] وألصقت بابها بالأرض ، وأدخلت فيها الحِجْرَ أو كما قال — عليه السلام — قال ابن الزبير : فليس بنا اليوم عجز عن النفقة ، فبناها على مقتضى حديث عائشة ، فلما قام عبد الملك بن مروان ، قال . لسنا من تخليط أبى خُبَيْب[2] بشىء ، فهدمها وبناها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما فرغ من بنيانها جاءه الحارث بن أبى ربيعة المعروف بالقُبَاع[3] ، وهو أخو عمر بن أبى ربيعة الشاعر ، ومعه رجل آخر ،

---

(١) وردت فى معناه أحاديث رواها البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائى والترمذى .

(٢) هو عبد الله بن الزبير ، ويقال عنه وعن ابنه أو أخيه مصعب : الخبيبان

(٣) القباع بضم القاف وفتح الباء : مكيال ضخم ، ولقد لقب الحارث بهذا لأنه اتخذه ، أو لأنه قال لأهل البصرة حين ولى عليهم وأتوه بمكيال : إن مكيالكم هذا لقباع ، وهو : الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة . وقد سقط من الروض « ابن عبد الله » وأمه : بنت أبرهة . ويقال إنه وجد الصليب فى =



. . . .

فحدثاه عن عائشة ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالحديث المتقدم ،

= عنقها حين ماتت، فخرج إلى الناس ،فقال: انصرفوا رحمكم الله ، فإن لها أهل دين هم أولى بها منا ومنكم ، فاستحسن ذلك منه . يقول عنه ابن سبة : « كان الحارث ابن عبد الله شريفا كريما دينا وسيدا من سادات قريش » وله قصص طريفة مع أخيه الشاعر عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة . انظر ص ٣١٨ نسب قريش ط ١ وص ١١٤ المجلد الأول من الأغانى طبع لبنان .

وفى حديث مسلم مما ذكره الروض عن هذا أن الحجاج لما قتل ابن الزبير كتب إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء ، أما مازاده فى طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحجر ، فرده إلى بنائه ، وسد الباب الذى فتحه ، فنقضه وأعاده إلى بنائه . وفى رواية أخرى أن الحارث بن عبد الله وفد على عبد الملك بن مروان فى خلافته ، فقال عبد الملك . ما أظن أبا خُبَيب سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، فقال الحارث : « بلى أنا سمعته منها . قال: سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثه عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا ، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه ، وأراها قريباً من سبعة أذرع . هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير فى مسلم، وزاد عليه الوليد بن عطاء : قال النبى صلى الله عليه وسلم: ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض، شرقياً وغربياً، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟ قالت : قلت : لا . قال : تعززاً ألا يدخلها إلا من أرادوا ، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى ، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط » . وفى رواية : أن عبد الملك قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين — ثم ذكر حديث عائشة — فقال الحارث لاتقل هذا ياأمير المؤمنين؛فإنى سمعت أم المؤمنين تحدث هذا . قال:لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير . ويقول ابن كثير : فهذا الحديث

. . . .

فندم ، وجعل يَنْكُتُ فى الأرض بِمِخْصَرَةٍ فى يده، ويقول : وَدِدْتُ أَنى تركت أبا خُبَيْب ، وما تحمّل من ذلك ، فهذه المرة الخامسة ، فلما قام أبو جعفر المنصور، وأراد أن يبنيها على ما بناها ابن الزبير ، وشاور فى ذلك ، فقال مالك بن أنس : أَنْشُدك الله يا أمير المؤمنين ، وأن تجعل هذا البيتَ مَلْعَبَةً للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يُغَيره إلا غيرَّه[1] فتذهب هيبتُه من قلوب الناس ، فصرفه عن رأيه فيه ، وقد قيل : إنه بنى فى أيام جُرْهُم مرة أو مرتين ؛ لأن السيل كان قد صدع حائطه ، ولم يكن ذلك بنيانا على نحو ماقدمنا ، إنما كان إصلاحاً لما وَهَى منه ، وجِداراً بُنِى بينه وبين السيل ، بناه عامر الجارود[2] ، وقد تقدم هذا الخبر ، وكانت الكعبة قبل أن يبنيها شيثٌ عليه السلام خيمةً من يا قوتة حمراء يطوف بها آدم ، ويأنَس إليها ؛ لأنها أنزلت إليه من الجنة ، وكان قد حج إلى موضعها من الهند ، وقد قيل : إن آدم هو أول من بناها ، ذكره ابن إسحاق فى غير رواية البَكَّائى . وفى الخبر أن موضعها كان غُثَاءَةً على الماء قبل أن يخلق اللهُ السموات والأرض ، فلما بدأ الله بخلق الأشياء خلق التُّرْبَةَ قبل السماء ، فلما

= كالمقطوع به إلى عائشة ؛ لأنه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة ، فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير، فلو ترك لكان جيداً . ولكن بعد مارجع الأمر إلى هذا الحال ، فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله .

(١) نقل النووى وعياض أن هذا حدث من الرشيد أو أبيه المهدى ، وأن ما لكا قال : مالك يا أمير المؤمنين . لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها .

(٢) انظر ص ١٤ من نسب قريش .



. . . .

خلق السماء، وقضاهن سبع سموات دحا الأرض، أى: بسطها، وذلك قوله سبحانه: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ النازعات: ٣. وإنما دحاها من تحت مكة؛ ولذلك سُمِّيَتْ أم القرى، وفى التفسير أن الله سبحانه حين قال للسموات والأرض ﴿ ائْتيَا طَوْعا أو كَرْها قالتا أتينا طائعين ﴾ فصلت: ١١ لم تجبه بهذه المقالة من الأرض إلا أرض الحرم[1]، فلذلك حرمها. وفى الحديث: أن الله حرم مكة قبل أن يخلق السموات والأرض، فصارت حرمتها كحرمة المؤمن، لأن المؤمن إنما حرُم دمه وعرضه وماله بطاعته لربه، وأرض الحرم لما قالت: أتينا طائعين، حرُم صيدُها وشجرُها وخَلاها إلا الإذْخِر[2]، فلا حُرْمَةَ إلا لذى طاعةٍ، جعلنا الله مِمَّن أطاعه.

---

(١) هذا من كلام كعب الأحبار وهو معروف بإسرائيلياته. وكل ما قيل عن حج آدم، وعن أصل الكعبة وعن موضعها قبل إبراهيم وعن إجابة أرض الحرم. كل هذا أكاذيب مفتراة. ومن عيوب السهيلى أنه يأتى أحياناً بأسطورة ثم يقيم عليها بناء يتوهمه ثابتا، فليست أرض الحرم وحدها هى التى أطاعت الله، بل الأرض كلها، كما بين القرآن فما بالها لم تحرم؟!

(٢) فى حديث أخرجه البخارى ومسلم. «إن هذا البلد حرمه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، ومعناه: أن الله قضى هذا كما قضى كل أمر له. هذا وفى حديث رواه مسلم: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيها، وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن المدينة. «اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم مكة، وفى حديث رواه البخارى: «إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وهذه الأحاديث تؤكد أن إبراهيم هو الذى حرم مكة، وأن النبى صلى الله عليه وسلم حرم المدينة كما حرم إبراهيم مكة..=

. . . .

سبب آخر لبنيان البيت :

وروى فى سبب بنيان البيت خبر آخرُ ، وليس بمُعارِضٍ لما تقدم ، وذلك أن الله سبحانه لما قال للملائكته : ﴿ إنى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً ، قالوا : أتجعل فيها من يُفسِد فيها ﴾ البقرة : ٢٩ .

خافوا أن يكون الله عاتباً عليهم لاعتراضهم فى علمه ، فطافوا بالعرش سبعاً ، يسترضون ربَّهم ، ويتضرعون إليه ، فأمرهم سبحانه أن يبنوا البيت المعمور فى السماء السابعة ، وأن يجعلوا طوافهم به ، فكان ذلك أهونَ عليهم من الطواف بالعرش ، ثم أمرهم أن يبنوا فى كل سماء بيتا ، وفى كل أرض بيتا ، قال مجاهـــد : هى أربعةَ عَشَر بيتا ، كل بيتٍ منها مَنَا صاحبِه ، أى : فى مقابلته ، لو سقطت لسقطت بعضها على بعض .

حول بناء الكعبة مرة أخرى :

روى أيضاً أن الملائكة حين أسست الكعبة انشقت الأرضُ إلى منتهاها ، وقذفت فيها حجارة أمثال الإبل ، فتلك القواعد من البيت التى رفع إبراهيم وإسمٰعيل ، فلما جاء الطوفان رفعت، وأودع الحجر الأسود أبا قبيس [١] .

= وفى هذا نظر ، فالله جل شأنه هو الذى يحل ويحرم لا النبيون ، ولم يذكر تحريم المدينة فى القرآن كما ذكر تحريم مكة ، « والإذخر » : الحشيش الطيب الرائحة .

(١) ليس لكل ما قاله عن الملائكة هنا سند صحيح، ولم يرد حديث طواف الملائكة المذكور هنا سوى : « أبو الفرج » فى كتابه « مثير الغرام » ، وليس من البر فى الدين أن تفترى الأكاذيب لتعظيم أمر ، شأنه بالصدق فى النفوس أعظم ، والحق لا يحميه لباطل ، والجمال يشينه الكذب



. . . .

وذكر ابن هشام أن الماء لم يَعْلُها حين الطوفان ، ولكنه قام حولها ، وبقيت فى هواء إلى السماء (١) ، وأن نوحا قال لأهل السفينة ، وهى تطوف بالبيت : إنكم فى حرم الله ، وحول بيته ، فأحرموا لله ، ولا يمس أحد امرأة ، وجعل بينهم وبين السماء حاجزا ، فتعدى حام ، فدعا عليه نوح أن يَسْوَدَّ لون بنيه ، فاسْوَدَّ كُوشُ بن حام ونسله إلى يوم القيامة ، وقد قيل فى سبب دعوة نوح على حام غير هذا (٢) ، والله أعلم .

وذكر فى الخبر عن ابن عباس ، قال : أولُ من عاذ بالكعبة حوتٌ صغير ، خاف من حوت كبير ، فعاذ منه بالبيت ، وذلك أيام الطوفان . ذكره يحيى بن سلام ، فلما نَضَبَ ماء الطوفان ، كان مكان البيتِ رَبْوَةً من مَدَرَةٍ (٣) وحج إليه هود وصالح ، ومن آمن معهما ، وهو كذلك (٤) .

---

(١) كلام لا سند له ، وقد روى أن من أسباب بنائها احتراقها أو تصدعها من السيل ، فكيف لم ترتفع إلى الهواء .

هذا وفى السيرة عن السفينة أنها كانت لرجل من تجار الروم، ولكن ورد عن الأموى أنها كانت لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد سرحها قيصر مع باقوم الرومى إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس للحبشة وقيل عن باقوم القبطى إنه كان مولى سعيد بن العاصى بن أمية وفى الإصابة أن اسم الرجل الذى بنى الكعبة لقريش باقوم وكان روميا ، وكان فى سفينة حبستها الريح ، فخرجت إليها قريش ، وأخذوا خشبها ، وقالوا له : ابنها على بناء الكنائس .

(٢) لأنه رأى عورة أبيه إصحاح ٩ سفر التكوين .

(٣) المدر — محركة — قطع الطين اليابس ، أو العلك الذى لا رمل فيه واحدة مدرة .

(٤) لم يرد هذا فى نقل صحيح .



. . . .

ويُذْكر أن يَعْرُبَ قال لهودٍ عليه السلام : ألا نَبنيه ؟ قال : إنما يبنيه نبي كريم يأتى من بعدى يتخذه الرحمن خليلا ، فلما بعث الله إبراهيم وشبَّ إسمعيلُ بمكة أمِرَ إبراهيمُ ببناء الكعبة ، فدلته عليه السَّكِينة[١] ، وظَلَّلَتْ له على موضع البيت ، فكانت عليه كالْجُحْفة[٢] ، وذلك أن السَّكِينة من شأن الصلاة ، فجُعِلت عَلَمَا على قبلتها حكمةً من الله سبحانه[٣] ، وبناه عليه السلام من خمسة أجْبُل ، كانت الملائكة تأتيه بالحجارة منها ، وهى : طُورُ تَيْنَا ، وطُور زَيْتا[٤] اللذين بالشام ، والْجُودِىّ وهو بالجزيرة[٥] ، ولُبْنَان[٦] وحِراء وهما بالحرم ، كل هذا جمعناه من آثار مروية . وانتبه لحكمة الله كيف جعل بناءها من خمسة أجبل ، فشاكل ذلك معناها ؛ إذ هى قبلة للصلاة الخمس وعمود الإسلام ، وقد بنى على خمس ، وكيف دلت عليه السكينة؛ إذ هو قبلة للصلاة ، والسَّكينةُ من شأن الصلاة . قال عليه السلام : « وأْتُوها

---

(١) وهى عند رواة هذا : ريح خجوج ، ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، فتطوت على موضع البيت كطى الجحفة . والخجوج : الريح الشديدة المَرّ ، أو الملتوية فى هبوبها .

(٢) بقية الماء فى جوانب الحوض .

(٣) مرة أخرى ينبى على أسطورة رأيا وحديث السكينة ليس له سند صحيح

(٤) تينا تقال بالكسر وبالفتح ويقول القاموس وتينا هى بمعنى سيناء

(٥) يعنى جزيرة ابن عمر فى شرقى دجلة من أعمال الموصل

(٦) فى المراصد ، لبنان جبلان قرب مكة يقال لهما ، ابن الأسفل وابن الأعلى وفوق ذاك جبل يقال له : المبرك برك الفيل به



. . . .

وعليكم السكينة(١) » فلما بلغ إبراهيمُ الركن جاءه جبريلُ بالحجر الأسود من جوف أبي قُبَيْس ، وروى الترمذى عن ابن عباس عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « أُنزِل الحجر الأسودُ من الجنة أشد بياضا من اللبن ، فسوَّدته خطايا بنى آدم(٢) » ، وروى الترمذى أيضاً من طريق عبد الله بن عمرو مرفوعاً أن الركن الأسود والركن اليمانى ياقوتتان من الجنة ، ولولا ما طُمِسَ من نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب ، وفى رواية غيره : لأَبْرَءَا من استلمهما من الخَرَسِ والجُذام والبَرَصِ(٣) ، وروى غير الترمذى من طريق على رحمه الله أن العهدَ الذى أخذه الله على ذرية آدم حين مسح ظهرَه ألا يُشركوا به شيئاً كتبه فى صَكٍّ ، وألقمه الحجَر الأسوَد ؛ ولذلك يقول المستلم له : إيمانا بك ، ووفاء بعهدك(٤) ، وذكر هذا الخبر الزبيرُ ، وزاد عليه أن الله سبحانه أجرى نهرا أطيب

---

(١) فى حديث رواه الجماعة إلا الترمذى : « إذا سمعتم الإقامة ، فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم ، فصلوا ، وما فاتكم فأتموا »

(٢) لا يعتد بمثل هذا . وفى البخارى : « فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وهما — أى إبراهيم وإسماعيل — يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » وهو عند ابن أبى حاتم من كلام السدى ، ولم يرو البخارى ولا مسلم شيئاً من هذا .

(٣) الأحاديث الصحيحة تخالف ما رواه الترمذى ، وتخالف ما رواه بعده ، والقرآن يؤكد أن الله هو الذى بيده الشفاء لا الركن اليمانى . إنما هو مكر الأساطير بدين الله الحق ! !

(٤) لا يشهد لما قاله حديث صحيح ، ولا آية من كتاب الله ، وإليك التفسير الصحيح لآية أخذ العهد عن الحسن البصرى ، كما رواه عنه جماعة من السلف والخلف =



. . . .

من اللبن ، وأين من الزبد ، فاستمد منه القلمُ الذى كتب العهدَ ، قال : وكان أبو قُبَيْس يسمى : الأمين ؛ لأن الركن كان مُودَعا فيه ، وأنه نادى إبراهيمَ حين.

= (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال : (ويجعلكم خلفاء الأرض). وقال : (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال : (وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ، قالوا : بلى) أى : أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالا . وقال - أى الحسن البصرى - والشهادة تكون تارة بالقول، وتارة تكون حالا . . كما أن السؤال تارة يكون بالمقال ، وتارة يكون بالحال . قالوا - يعنى جماعة من السلف والخلف - ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا — يعنى استخراج الذرية من ظهر آدم واستنطاق الله لها — كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة له) ثم فسروا هذا الإشهاد بأنه الفطرة التى فطر الله الناس عليها من الإقرار بالتوحيد. انظر ابن كثير فى تفسير الآية. هذا وقد حكم الطبرى بعدم صحة نسبة ماروى من أحاديث فى هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحديث موقوف على ابن عمر . ولهذا قال : الظاهر يدل على أنه خبر من الله عن قيل بنى آدم بعضهم لبعض ، لأنه جل ثناؤه قال : « وأشهدهم على أنفسهم . ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا». فكأنه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرين حين أقروا . فقالوا : بلى شهدنا عليكم بما أقررتم به على أنفسكم . وفى مكان آخر: « وأشهدهم على أنفسهم » أى: أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك . ويقول المرتضى فى أماليه . « وقد ظن بعض من لا بصيرة له ، ولا فطنة عنده أن تأويل هذه الآية أن الله استخرج من ظهر آدم جميع ذريته ، وهم فى خلق الذر ، فقررهم بمعرفته ، وأشهدهم على أنفسهم وهذا التأويل مع أن العقل يبطله ويحيله مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه ، لأن الله تعالى قال : وإذ أخذ ربك من بنى آدم ، ولم يقل . من آدم ، وقال: من ظهورهم، ولم يقل : من ظهره ، وقال : ذرياتهم ، ولم يقل . ذريته ، ثم أخبر تعالى بأنه =



. . . .

بلغ بالبنيان إلى موضع الركن ، فأخبره عن الركن فيه، ودله على موضعه[1] منه ، وانتبه من هٰهنا إلى الحكمة فى أن سوّدته خطايا بنى آدم دون غيره من حجارة الكعبة وأستارها ، وذلك أن العهدَ الذى فيه هى الفِطْرة التى فُطِر الناسُ عليها من توحيد الله ، فكل مولود يولد على تلك الفطرة، وعلى ذلك الميثاقِ ، فلولا أن أبويه يُهَوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسانه ، حتى يسودَّ قلبُه بالشرك ، لما حال عن العهد ، فقد صار قلب ابن آدم محَلا لذلك العهد والميثاق ، وصار الحجرُ محلا لما كتب فيه من ذلك العهد والميثاق ، فتناسبا ، فاسْوَدَّ من الخطايا قلبُ ابنِ آدم بعدما كان وُلد عليه من ذلك العهد ، واسود الحجرُ بعد ابيضاضه ، وكانت الخطايا سببا فى ذلك حِكْمةً من الله سبحانه ، فهذا ما ذُكر فى بنيان الكعبة ملخصا ، منه ما ذكر الْماَوَرْدِيُّ ، ومنه ماذكره الطبرى ، ومنه ماوقع فى كتاب التمهيد لأبى عُمر ، ونبذ أخذتها من كتاب فضائل مكة لِرَزِين بن معاوية ، ومن كتاب أبى الوليد الأزرقى فى أخبار مكة ، ومن أحاديث فى المسندات المروية ، وسنورد فى باقى الحديث بعض ما بلغنا فى ذلك مستعينين بالله . وأما الركن

= فعل ذلك ، لئلا يقولوا : إنهم كانوا عن هذا غافلين ، أو يعتذروا بشرك آبائهم ، وأنهم نشئوا على دينهم وسنتهم ، وهذا يقتضى أن الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه ، وأنها تناولت من كان له آباء مشركون ، وهذا يدل على اختصاصها ببعض ولد آدم ، فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله ، ثم استشهد بدليل عقلى على بطلانه أيضاً . واستدل ببعض النقول الصحيحة ، انظر ص ٢٠ وما بعدها ح ١ ط ١

(١) لست أدرى — والسهيلى رجل كبير العقل - كيف يردد هذه الأساطير الصغيرة ؟ ! .



. . . .

اليمانى فسُمِّى باليمانى – فيما ذكر القُتَبِىُّ – لأن رجلا من اليمن بناه اسمه : أُبَىُّ بن سالم وأنشد :

لنا الركنُ من بيتِ الحرام وراثةً بقيةَ ما أبــقى أُبىُّ بنُ سالم

حول بناء المسجد الحرام :

وأما المسجدُ الحرام فأول من بناه عمر بن الخطاب ، وذلك أن الناس ضيقوا على الكعبة ، وألصقوا دورهم بها، فقال عمر : إن الكعبة بيت الله ، ولابد للبيت من فناء ، وإنكم دخلتم عليها ، ولم تدخل عليكم ، فاشترى تلك الدورَ من أهلها وهدمها ، وبنى المسجدَ المحيط بها ، ثم كان عثمان ، فاشترى دورا أخرى ، وأغلى فى ثمنها ، وزاد فى سعــة المسجد فلما كان ابنُ الزبير زاد فى إتقانه ، لافى سَعَته ، وجعل فيه عَمَداً من الرُّخَام ، وزاد فى أبوابه ، وحسَّنَها ، فلما كان عبد الملك بن مَرْوان زاد فى ارتفاع حائطِ المسجد ، وحمل إليه السَّوارِى فى البحر إلى جُدَّةَ ، واحتملت من جُدَّة على العجل إلى مكةَ ، وأمر الحجاج بن يوسف فكساها الديباجَ ، وقد كنا قدَّمنا أن ابنَ الزبير كساها الديباجَ قبل الحجَّاج، ذكره الزبير بن بكار ، وذكرنا أيضا أن خالد بن جعفر بن كِلاَبٍ ممن كساها الديباجَ قبل الإسلام ، ثم كان الوليدُ بن عبد الملك ، فزاد فى حَلْيها ، وصرف فى مِيزابها وسَقْفها ما كان فى مائدة سليمان بن داود عليهما السلام من ذهبٍ وفضةٍ ، وكانت قد احتملت إليه من طُلَيْطِلَة من جزيرةِ الأَنْدُلس ، وكانت لها أطواقٌ من ياقوتٍ وزَبَرْجَدٍ ، وكانت قد احتُمِلت على بغل قوى فتفسَّخ تحتها ، فضَرَب منها الوليدُ حِلْية



. . . .

للكعبة ، فلما كان أبو جعفر المنصور وابنهُ محمد المهديُّ زاد أيضا فى إتقان المسجد ، وتحسين هيئته ، ولم يحدُث فيه بعد ذلك عملٌ إلى الآن . وفى اشتراء عمر وعثمانَ الدورَ التى زادا فيها دليلٌ على أن رِباعَ أهل مكة مِلكٌ لأهلها ، يتصرفون فيها بالبيع والشراء إذا شاءوا ، وفى ذلك اختلاف .

كنز الكعبة والنجار القبطى :

فصل : وذكر ابنُ إسحاق دُوَيْكاً الذى سرق كنزَ الكعبة ، وتقدَّم أن سارقاً سرق من مالها فى زمن جُرْهم ، وأنه دخل البئر التى فيها كنزُها فسقط عليه حجرٌ فحبسه فيها، حتى أُخرج منها ، وانتُزِع المالُ منه، ثم بعث الله حَيَّة لها رأس كرأس الجَدْيِ ، بيضاء البطن سَوْدَاء المَتْنِ ، فكانت فى بئرِ الكعبة خمسمائة عام فيما ذكر رزين ، وهى التى ذكرها ابن إسحاق ، وكانت لا يدنو أحدٌ من بئر الكعبة إلا احْزَأَلَّت(١) أى : رفعت ذَنَبها ، وكَشَّت أى: صَوَّتت(٢) . وذكر ابن إسحاق أن سفينةً رماها البحر إلى جدة، فتحطَّمت . وذكر غيرُه عن ابن مُنَبِّهٍ أن سفينة خجَّتْها الريح إلى الشُّعَيْبة ، وهو مَرْفأ السفن من ساحل بحر الحجازِ ، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . والشُّعيبة بضم الشين ذكره البكرى ، وفسر الخطابى خجَّتها : أى دفعتها بقوة ، من الريح الخَجُوج أى : الدَّفُوع .

---

(١) فى الأصل، وفى شرح السيرة للخشنى: اخزألت بالخاء ، وهو خطأ صوبته من نسخ أخرى للسيرة ومن اللسان والقاموس .

(٢) وللخشنى : الكشيش صوت جلدها إذا تقبض بعضه فى بعض . وفى السيرة . تنشرق : أى تبرز للشمس .



. . . .

قال ابن إسحاق : وكان بمكة نجار قِبطى ، وذكر غيره أنه كان عِلْجاً (١) فى السفينة التى خَجَّتها الريحُ إلى الشُّعَيْبة ، وأن اسمَ ذلك النجار : يا قوم(٢) وكذلك روى أيضا فى اسم النجار الذى عمل مِنْبَر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طَرْفاء الغابة ، ولعله أن يكون هذا ، فالله أعلم .

الحية والدابة :

فصل : وذكر خبر الْعُقَابِ، أو الطائر الذى اختطف الحية من بئر الكعبة ، وقال غيره : طرحها الطائر بالْحَجُونِ ، فالتقمتها الأرض . وقال محمد بن الحسن المقرى هذا القولَ ، ثم قال : وهى الدابة التى تكلم الناسَ قبل يوم القيامة ، واسمها : أَقْصَى فيما ذُكِر ، ومحمد بن الحسن المقرى هو النَّقَّاشُ ، وهو من أهل العلم ـ والله أعلم بصحة ما قال ، غير أنه قد روى فى حديث آخر أن موسى عليه السلام سأل ربَّه أنْ يُرِيَه الدابة التى تُكَلِّم الناسَ ، فأخرجها له من الأرضِ ، فرأى منظرا هالَه وأفزعه ، فقال : أىْ رَبِّ : رُدَّها ، فردَّها(٣) .

لم نزع :

وذكر ابن إسحاق حديثَ الحجَر الذى أُخِذَ من الكعبة ، فوثب من يد آخذه ، حتى عاد إلى موضعه ، وقال غيره: ضربوا بالْمِعْوَل فى حجر من أحجارها،

---

(١) الرجل من كفار العجم .

(٢) وقيل . يا قوم أوبا قول . وقد سبق وانظر ص ٦٣ شرح السيرة للخشنى .

(٣) لا يروى فى حقيقة صفات الدابة حديث يعتد به. والدابة تطلق على الإنسان. فلنقف عند القرآن والنقاش يكذب ويروى المناكير وليس فى تفسيره حديث صحيح.



. . . .

فلمعت برقة كادت تخطِف أبصارهم ، وأخذ رجل منهم حجرا ، فطار من يده ، وعاد إلى موضعه . وذكر ابن إسحاق قولهم : اللهم لم تُرَعْ ، وهي كلمة تقال عند تسكين الرّوع ، والتأنيس ، وإظهار اللين والبر في القول ، ولارَوْع في هذا الموطنِ فيُنْفى ، ولكن الكلمةَ تقتضي إظهار قصد البِر ؛ فلذلك تكلموا بها ، وعلى هذا يجوز التكلم بها في الإسلام ، وإن كان فيها ذكر الرّوْع الذي هو مُحالٌ في حق الباري تعالى ، ولكن لما كان المقصود ما ذكرنا ، جاز النطقُ بها (١)، وسيأتي في هذا الكتابِ إن شاء الله زيادة بيان عند قوله : فاغفر فداءٌ لك ما اقتفينا .

ويروى أيضاً : اللهم لم نَزِغْ ، وهو جَليٌّ لا يشكل .

من تفسير حديث أبي لهب : وذكر قولهم : لا تَدخلوا في هذا البيت مهرَ بَغِيٍّ وهي الزانية ، وهي فَعُول من البِغاء ، فاندغمت الواو في الياء ، ولا يجوز عندهم أن يكون على وزن فَعيل ، لأن فعيلا بمعنى : فاعل يكون بالهاء في المؤنث كرحيمة وكريمة . وإنما يكون بغير هاء إذا كان في معنى : مفعول نحو : امرأة جَريح وقتيل .

وقوله : ولا بيع ربا يدل على أن الرِّبا كان محرّما عليهم في الجاهلية ، كما كان الظلم والبغاء ، وهو الزنا محرما عليهم ، يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع

---

(١) الروع : الفزع ، ولا يجوز مطلقاً نسبته إلى الله ، ثم إنه لم يرد قول صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا . وفي شرح الزرقاني على المواهب : « اللهم لم ترع » أي : لم تفزع الكعبة ، فأضمرها لتقدم ذكرها ، وهذا أولى من إعادة السهيلي الضمير لله ، وهو نقد حق ، وهو رأى الخشني في شرحه للسيرة . هذا إن كان للحديث سند صحيح .



. . . .

إبراهيم عليه السلام ، كما كان بقى فيهم الحجُّ والعُمْرة وشىء من أحكام الطلاق والعِتْقِ وغير ذلك . وفى قوله سبحانه : ﴿ وأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وحرَّم الربا ﴾ البقرة : ٢٧٥ دليل على تقدم التحريم .

الحجر الذى كان مكتوبا :

فصل : وذكر الحجر الذى وُجد مكتوباً فى الكعبة ، وفيه: أنا الله ذو بكَّة الحديث . روى مَعْمَرُ بن راشد فى الجامع عن الزهرى أنه قال : بلغنى أن قريشا حين بَنَوْا الكعبة ، وجدوا فيها حجرا ، وفيه ثلاثةُ صُفُوحٍ(١) فى الصَّفح الأول : أنا الله ذُو بَكَّةَ صُغْتُها يوم صُغْت (٢) الشمسَ والقمر إلى آخر كلام بن إسحٰق ، وفى الصَّفح الثانى : أنا الله ذو بَكَّة ، خلقت الرَّحِمَ ، واشتقت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بَتَتُّه ، وفى الصَّفْح الثالث : أنا الله ذو بَكَّة(٣) ، خلقت الخير والشر ، فطُوبَى لمن كان الخير على يديه ، وويلٌ لمن كان الشر على يديه ، وفى حديث ابن إسحٰق : لا يُحِلُّها أولُ من أهْلها، يريد ـ والله أعلم ـ ما كان من استحلالِ قريشٍ القتالَ

---

(١) فى البداية « أصفح » وهو أنسب وصفحة الشىء : جانبه

(٢) . فى البداية : صنعتها وهو يناسب رواية : خلقتها التى فى السيرة

(٣) فى البداية : « إنى أنا الله » فى جميع المواضع . والقصة ولاشك مصنوعة، ووراء بعضها رجل من أهل الكتاب ، ففيما ذكر السهيلى وابن هشام ما يدل على هذه النسبة . وإن كانت كلمات حق . فى الإصحاح الخامس والسادس والسابع من إنجيل متى بعض كلماته . أما قوله : « خلقت الرحم ـ إلى تبته » فحديث رواه أبو داود والترمذى « أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته »



فيها أيام ابن الزبير ، وحُصَيْنِ بن نُمَيْرٍ ثم الحجاج بعده ، ولذلك قال ابن أبى ربيعة :

ألا مَنْ لقلبٍ مُعَنًّى غَزِلْ   بِحُبِّ الْمُحِلَّةِ أختِ الْمُحِلّ

يعنى بالمحل : عبدَ الله بن الزبير لقتاله فى الحرم .

حول الحجر الأسود وقواعد البيت :

فصل : وذكر اختلافَهم فى وضع الركن ، وأن رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو الذى وضعه بيده ، وذكر غيره أن إبليس كان معهم فى صورة شيخ نَجْدِيٍّ ، وأنه صاح بأعلى صوته : يامعشر قريش : أرضيتم أن يضع هذا الركنَ ، وهو شرفكم غلامٌ يتيمٌ دون ذوى أسنانكم ، فكاد يثير شرًّا فيما بينهم ، ثم سكنوا ذلك . وأما وضع الركن حين بُنيت الكعبة فى أيام ابن الزبير ، فوضعه فى الموضع الذى هو فيه الآن حمزةُ بنُ عبد الله بن الزُّبَيْر ، وأبوه يصلى بالناس فى المسجد اغتنم شُغْلَ الناس عنه بالصلاة لما أحس منهم التنافسَ فى ذلك ، وخاف الخلافَ ، فأقره أبوه . ذكر ذلك الزبيرُ بن أبى بكر . وذكر ابن إسحٰق أيضاً أنهم أَفْضَوا إلى قواعد البيت ، وإذا هى خُضْرٌ كالأَسْنِمَة ، وليست هذه رواية السيرة ، إنما الصحيح فى الكتاب : كالأَسِنَّة ، وهو وهم من بعض النَّقَلة عن ابن إسحٰق والله أعلم ؛ فإنه لا يوجد فى غير هذا الكتاب بهذا اللفظ لا عند الواقدى ولا غيره ، وقد ذكر البخارى فى بنيان الكعبة هذا الخبر ، فقال فيه عن يزيد بن رُومان : فنظرت إليها ، فإذا هى كأَسْنِمة الإبل ، وتشبيهُها بالأسِنة لا يشبه إلا فى الزُّرْقة ، وتشبيهها بأسنمة



. . . .

الإبل أولى ، لعظمها ، ولما تقدم فى حديث بنيان الملائكة لها قبل هذا (١) .

شعر الزبير بن عبد المطلب :

فصل : وذكر شعر الزبير بن عبد المطلب : عجبت لِمَا تَصَوَّبت العُقاب . إلى قوله : تَتَلْئِبُ لها انْصِباب . قوله : تَتْلَئِبُ، يقال : اتْلَأَبَّ على طريقه إذا لم يُعَرِّج يَمْنَة (٢) ولا يَسْرة، وكأنه مَنْحُوتٌ من أصلين كما تقدم فى مثل هذا من تلا : إذا تبع ، وألَبَ : إذا أقام ، وأَبَّ أيضاً قريبٌ من هذا المعنى . يقال : أَبَّ إبابة ــ من كتاب العين ــ إذا استقام وتهيأ ، فكأنه مُقيمٌ مُسْتَمِرٌّ على ما يتلوه ويتبعه مما هو بسبيله ، والاسم من اتْلَأَبَّ : التَّلَأْبِيبَة على على وزن الطُّمأنينة والقُشَعْرِيرة ، قاله أبو عبيد .

وقوله : وليس على مُسَوِّينا ثيابُ . أى : مُسَوِّى البنيان . وهو فى

(١) عند أبى ذر الخشنى فى تفسير تشبهها بالأسنمة. « أراد أن الحجارة دخل بعضها فى بعض كما تدخل عظام السنام بعضها فى بعض ، ومن رواه كالأسنة فهو جمع سنان الرمح شبهها بالأسنة فى الخضرة » وفى القصيدة البائية فى السيرة . الذوائب : يريد الأنساب الكريمة . والسبائب: جمع سبيبة وهى ثياب رقاق بيض تشبه الشحم الذى يعلو الجفان بها « عن الخشنى » والحطيم : سمى حطيما ؛ لأن الناس يزدحمون فيه ، حتى يحطم بعضهم بعضا » وقيل : لأن الثياب كانت تجرد فيه عند الطواف. وذو مكة : اسم المسجد ، ومكة: اسم البلدة . تحاوزوا: انحازت كل قبيلة إلى جهة . هلم إلى ثوبا : هى كلمة سمى بها الفعل . ومعناه : أقبلوا إلينا تتلئب : تتابع فى انقضاضها

(٢) وفى القاموس : استقام وانتصب



حديث الحمس

قال ابن إسحاق : وقد كانت قُرَيش ـ لا أدرى أقبلَ الفيل أم بعده ـ ابتدعت رأى الْحُمْس رأيا رَأَوْهُ وأداروه ، فقالوا : نحن بنو إبراهيم ، وأهلُ الْحُرمة ، وولاة البيت ، وقُطَّان مكة وساكنُها ، فليس لأحدٍ من العرب مثلُ حقِّنا ، ولا مثلُ منزلتنا ، ولا تعرِفُ له العربُ مثلَ ما تعرف لنا ، فلا تعظموا شيئا من الحِلّ كما تعظِّمون الحرم ، فإنكم إنْ فعلتم ذلك استخفت العربُ بِحُرْمتكم ، وقالوا : قد عظَّموا من الحِلّ مثل ما عظموا من الحرم . فتركوا الوقوفَ على عَرَفة ، والإفاضة منها ، وهم يَعْرِفون ويُقِرّون أنها من الْمَشاعر والحجّ ودين إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويَرَوْنَ لسائر العرب أن يُفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : نحن أهلُ الْحَرَم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الْحُرمة ، ولا نعظِّم غيرها ، كما نُعظِّمها نحن الحُمْس ، والحُمس : أهلُ الحرم ، ثم جعلوا لمن وَلدوا من العرب من ساكن الحِلّ والحرَم مثلَ الذى لهم ، بولادتهم إياهم ، يَحِلّ لهم ما يحلّ لهم ، ويَحْرُم عليهم ما يَحْرُم عليهم . وكانت كِنانةُ وَخُزاعةُ قد دخلوا معهم فى ذلك .

قال ابن هشام : وحدثنى أبو عُبَيدة النحوىّ : أن بنى عامر بن صَعْصعة معاوية بن بَكْر بن هوازن دخلوا معهم فى ذلك ، وأنشدنى لعَمرو بن مَعْديكرب :

معنى الحديث الصحيح فى نقلانهم الحجارةَ إلى الكعبة أنهم كانوا ينقلونها عُراةً ، ويرون ذلك دِينا ، وأنه من باب التَّشْمير والجِدِّ فى الطاعة . وقول ابن هشام : ويروى : مَساوِينا ، يريد : السَّوْآت ، فهو جمع مَسَاءة ، مفعلة من السَّوْءة والأصل مَساوِىء ، فسهلت الهمزة .



أعَبّاسُ لَوْ كانَتْ شِياراً جِيادُنا بتَثْليثَ ما ناصَبْتَ بعدِى الأحامِسا

قال ابن هشام : تثليث : موضع من بلادِهم . والشِّيار : الحسان . يعنى بالأحامس : بَنى عامر بن صَعْصعة . وبعبّاس : عباسَ بن مِرْداس السُّلَمِى ، وكان أغار على بَنى زُبَيد بتثليث . وهذا البيت فى قصيدة لعمرو .

وأنشدنى للَقِيط بن زُرَارة الدَّارمى فى يوم جَبَلَة :

أجْذِمْ إلَيك إنها بَنو عَبْس الْمَعْشَرُ الجِلَّةُ فى القوْم الْحُمس

لأن بنى عَبْس كانوا يوم جَبلة حُلفاء فى بَنى عامر بن صَعْصعة .

ويومُ جَبَلة : يومٌ كان بين بنى حَنْظلة بن مالك بن زَيد مَناةَ بن تَميم ، وبين بنى عامر بن صَعْصعة ، فكان الظَّفر فيه لبَنى عامر بن صَعْصعة على بنى حَنظَلة ، وقُتِل يومئذ لَقِيطُ بن زُرارَة بن عُدُس ، وأُسِر حاجب بن زُرارة بن عُدُس ، وانهزم عَمْرو بن عَمْرو بن عُدُس بن زَيدْ بن عبد الله بن دَارِم بن مالك بن حَنْظلة . ففيه يقول جرير للفرزدق :

كأنَّكَ لم تَشْهَدْ لَقِيطا وحاجِبا وعَمْرَ بن عَمْرٍو إذْ دَعَوْا: يالَدارمِ

وهذا البيت فى قصيدة له :

ثم التقوا يومَ ذى نَجَب فكان الظَّفر لحَنظلة على بَنى عامر ، وقُتل يومئذٍ حسَّان بن مُعاوِيَة الكِنْدِىّ ، وهو أبو كَبْشة . وأُسِر يَزيد بن الصَّعِق

. . . .



الكلابى، وانهزم الطُّفَيل بن مالك بن جَعْفر بن كِلاب ، أبو عامر بن الطفيل .
ففيه يقول الفرزدق :

ومنهنّ إذ نجّى طُفَيل بن مالك على قُرْزُل رَجْلاً رَكُوضَ الهزائمِ

ونحنُ ضَرَبْنا هامةَ ابن خُوَيْلد يَزيد على أمّ الفِراخ الجَوائم

وهذان البيتان فى قصيدة له :

فقال جرير :

ونحنُ خَضَبْنا لابن كَبْشة تاجَه ولاقى امْرَأً فى ضَمّة الخَيْل مِصْقَعا

وهذا البيت فى قصيدة له .

وحديث يوم جَبَلة ، ويوم ذى نَجَبٍ أطول مما ذكرنا . وإنما منعنى من استقصائه ما ذكرتُ فى حديث يوم الفِجَار .

قال ابن إسحاق : ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم ، حتى قالوا : لا ينبغى للحُمْس أن يأتَقِطوا الأَقِطَ ، ولا يَسْلَئُوا السمن وهم حُرُم ، ولا يدخلوا بيتا من شَعَرٍ ، ولا يَسْتَظِلّوا – إن استظلوا – إلا فى بيوت الأَدَم ما كانوا حُرُما ، ثم رفعوا فى ذلك ، فقالوا : لا ينبغى لأهل الحِلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحلّ إلى الحرم إذا جاءوا حُجّاجا أو عُمّارا ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قَدِموا أوّلَ طَوافهم إلا فى ثياب الحُمْس . فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عُراةً ، فإن تكرّم منهم مُتَكَرِّمٌ من رجل أو امرأة ، ولم يجد

ثياب الحُمْس . فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحِلّ ، ألقاها إذا فرغ من طَوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يَمَسَّها هو ، ولا أحدٌ غيرهُ أبدا .

وكانت العرب تسمى تلك الثياب : اللَّقَى ، فحملوا على ذلك العربَ . فدانت به ، ووقفوا على عرفات ، وأفاضوا منها ، وطافوا بالبيت عُراةً ، أمّا الرجال فيطوّفون عراة . وأمّا النساء فتَضع إحداهنّ ثيابَها كلَّها إلا دِرْعا مُفَرّجا عليها ، ثم تَطوف فيه ، فقالت امرأة من العرب ، وهى كذلك تطوف بالبيت :

الْيوْمَ يَبْدُو بَعضُهُ ، أو كُلُّهُ   وما بَدا منــــهُ فَلا أُحِلُّه

ومَنْ طاف منهم فى ثيابه التى جاء فيها من الحِلّ ألقاها ، فلم ينتفع بها هو ولا غيره ، فقال قائلٌ من العرب يذكر شيئا تركه من ثيابه ، فلا يَقْرَبُه ـ وهو يُحِبُّه ـ :

كَفَى حَزَناً كَرِّى عليها كأنها   لقًى بينَ أيْدى الطَّائفِينَ حَرِيمُ

يقول : لا تُمَسُّ .

فـكانوا كذلك حتى بعث الله تعالى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل عليه حين أحكم له دينَه . وشَرعَ له سُنَنَ حجِّه : ﴿ ثمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللهَ . إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ البقرة : ١٩٩ . يعنى قريشا ، والناس: العرب ، فرفعهم فى سُنَّة الحجّ إلى عرفات، والوقوف عليها والإفاضة منها،



وأنزل الله عليه فيما كانوا حرّموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت . حين طافوا عُراةً ، وحرّموا ما جاءوا به من الحلّ من الطعام : « يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُم عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلوا وَاشْرَبُوا وَلاَتُسْرِفُوا . إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ التى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ . قُلْ : هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ القِيامَةِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » الأعراف : ٣١ : ٣٣ . فوضع الله تعالى أمرَ الحُمس، وما كانت قُرَيش ابتدعت منه، عن الناس بالإسلام ، حين بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : حدثنى عبدُ الله بنُ أبى بَكر بن محمد بن عَمْرو بن حَزْم، عن عثمان بن أبى سُلَيمان بن جُبير بن مُطْعِم ، عن عمِّه نافع بن جُبَيْر عن أبيه جُبَير بن مُطْعِم . قال : لقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن ينزل عليه الوحىُ ، وإنه لواقفٌ على بَعير له بعرَفات مع الناس من بين قومه حتى يدْفع معهم منها توفيقا من الله له ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

الحمس

فصل : وذكر الْحُمْسَ ، وما ابتدعته قريشٌ فى ذلك ، والتَّحَمُّس : التشدد، وكانوا قد ذهبوا فى ذلك مذهبَ التَّزَهُّدِ والتَّأَلُّه(١) ، فكانت نساؤهم

---

(١) فى البداية أنهم لقبوا بهذا من الشدة فى الدين والصلابة ، لأنهم عظموا الحرم تعظيما زائدا بحيث التزموا بسببه ألا يخرجوا من ليلة عرفة . . فكانوا لا يقفون بعرفات مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عليه السلام ، حتى لا يخرجوا عن نظام ما كانوا قرروه من البدعة الفاسدة



. . . .

لا يَنْسُجْنَ الشَّعَرَ ولا الْوَبَر ، وكانوا لا يَسْلَئُونَ السَّمْنَ ، وَسَلْأُ السَّمْن أن يُطْبخ الزُّبْدُ ، حتى يصير سَمْناً ، قال أبرهة :

إن لنا صِرْمَةً مُخَيَّسَة   نشرب ألبانَها ونَسْلَؤُها(١)

ذكر قول ابن معد يكرب : أعباسُ لو كانت شِياراً جِيادُنا . البيت : شِيارا من الشارة الحسنة يعنى : سِمانا حِسانا وبعد البيت :

ولكنها قِيدَتْ بصَعْدَةَ مَرَّةً   فأصْبَحْنَ مايمشين إلا تَكارُسا(٢)

وأنشد أيضاً : أَجْذِم إليك إنها بنو عَبْس(٣) . أَجْذِمَ : زَجْرٌ معروفٌ للخيل وكذلك : أرْحِبْ ، وهَبْ وهِقِطْ وهقط وهِقَبْ(٤) .

---

(١) صرمة بكسر الصاد: الإبل. مخيسة: لم تسرح ، وإنما حبست للنحر أو القسم

(٢) تكارس الشيء : تراكم وتلازب، وناصيت فى البيت الذى قبله فى السيرة بالياء والباء معا — كما يقول الخشنى — معناها وهى بالياء : عارضت ، وأردت المساواة فى المنزلة ، وقد يكون ناصبت : بمعنى إظهار العداوة ، وتثليث موضع بالحجاز قرب مكة

(٣) فى السيرة : « المعشر الجلة » الجلة : العظماء ، ومن رواه الحلة، فمعناه الذين يسكنون الحل، وفى رواية أبى ذر المعشم — وزن مقعد — بدلا من معشر »

(٤) هقط : تكرار من الطبع، وفى اللسان : أرحبى أيضاً ، ولم أجد فى مادة هب إلا « هبهب إذا زجر » وفى مادة رحب روى بيت الكميت بن معروف

نعلمها هبِ وهلا وأرحِبْ   وفى أبياتنا ولنا افتلينا

يوم جبلة :

وذكر يوم جَبَلة . وجَبَلَة(١) هضبة عالية ، كانوا قد أحْرَزُوا فيها عيالهم وأموالهم ، وكان معهم فى ذلك اليوم رئيسُ نَجْرانَ ، وهوابن الجَوْنِ الكِنْدِىّ وأخٌ للنعمان بن المنذر ، أحسب اسمه : حَسَّانَ بن وَبَرَةَ ، وهو أخو النعمان لأمِّه ، وفى أيام جَبَلَة كان مولدُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولِثِنْتَيْن وأربعين سنةً من ملك أنُوشِرْوَانَ بن قُبَاذ ، وكان مولد أبيه عبد الله لأربع وعشرين مَضت من ملك أنو شروان المذكور ، فبينه – عليه السلام – وبين أبيه عبد الله نحوٌ من ثمانِ عَشْرَةَ سنةً .

عدس والحلة والطلس :

وذكر زُرارة بن عُدُس بن زيد ، وهو : عُدُسٌ بضم الدال عند جميعهم إلا أبا عبيدة ، فإنه كان يفتح الدال منه ، وكل عُدَسٍ فى العرب سواه فإنه مفتوح الدال . وذكر الحِلَّة وهم ما عدا الُحمْس ، وأنهم كانوا يطوفون عُرَاةً إن لم يجدوا ثياب أحْمَس ، وكانوا يَقْصِدون فى ذلك طَرْحَ الثياب التى اقترفوا فيها الذنوبَ عنهم ، ولم يذكر الطُّلْسَ من العَرب ، وهم صِنْفٌ ثالث غير الحِلَّة ، والُحمْسِ كانوا يأتون من أقصى اليمن طُلْساً من الغُبَارِ ، فيطوفون بالبيت فى تلك الثياب الطُّلْسِ ، فسُمُّوا بذلك . ذكره محمد بن حبيب.

---

(١) فى حـ ٢٥ من نهاية الأرب كلام طويل عن أيام العرب . وفيه عن يوم جبلة أنه كان قبل الإسلام بأربعين سنة ، وفى الأغانى بتسع وخمسين سنة ، وفى النقائض بسبع وخمسين . وأم الفراخ : الرماح . الجواثم : الساكنة اللاطئة مع الأرض ، وسيأتى تفسير السهيلى لهما ، وهو مخالف للخشنى

. . . .

اللقى :

فصل : وذكر اللَّقى وهو الثوب الذى كان يُطْرَح بعد الطواف فلا يأخذه أحدٌ ، وأنشد :

كفى حَزَنا كَرِّى عليه كأنه لَقًى بين أيدى الطائفين حَرِيمُ

حريم : أى مُحَرَّم ، لا يؤخذ ، ولا ينتفع به ، وكل شىء مُطَرَّح ، فهو لَقًى.
قال الشاعر يصف فرخ قَطَا :

تَرْوى لَقًى أُلقِى فى صَفْصَفٍ (١) تَصْهَرُهُ الشمسُ ، فما يَنْصَهِر

تَرْوى بفتح التاء أى : تَسْتَقِى له ، ومن اللَّقى : حديث فاختِة أم حكيم ابن حزام ، وكانت دخَلت الكعبة وهى حامل مُتِمٌّ بحكيم بن حزام ، فأجاءها الْمخَاضُ ، فلم تستطع الخروجَ من الكعبة ، فوضعته فيها ، فلُفَّت فى الأنطاع هى وجنينُها ، وطُرِحَ مَثْبِرُها (٢) وثيابُها التى كانت عليها ، فجعلت لَقًى لاتقرب .

رجز المرأة الطائفة :

فصل : وذكر قول المرأة: اليوم يبدو بعضه ، أو كله (٣) البيتين ويُذكر

---

(١) البيت لابن أحمر ، والصفصف : المستوى من الأرض

(٢) الموضع تلد فيه المرأة

(٣) فى مسلم والنسائى وابن جرير عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء . الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول ، ثم ذكر البيت : اليوم يبدو بعضه الخ



. . . .

أن هذه المرأة ، هي ضُباعة بنت عامر بن صَعْصَعَة ، ثم من بني سَلَمَة بن قُشَيْر ، وذكر محمد بن حبيب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم خطبها ، فذُكرت له عنها كِبْرة ، فتركها ، فقيل : إنها ماتت كَمَداً وحُزنا على ذلك قال المؤلف : إن كان صح هذا ، فما أخَّرها عن أن تكون أمًّا للمؤمنين ، وزوجا لرسول رب العالمين إلا قولها : اليوم يبدو بعضُهُ أو كله . تَكرِمَةً من الله لنبيه وعِلْماً منه بغَيْرته ، والله أغْيَرُ منه .

أسطورة :

ومما ذُكر من تعَرِّيهم في الطواف أن رجلا وامرأة طافا كذلك ، فانضم الرجل إلى المرأة تَلذُّذاً واستمتاعا ، فلصِق عَضُدُه بعُضِدِها ، ففزعا عند ذلك ، وخرجا من المسجد ، وهما ملتصقان ، ولم يقدر أحدٌ على فَكِّ عضُده من عَضُدِها ، حتى قال لهما قائل : توبا مما كان في ضمير كما ، وأخلِصا لله التوبة ، ففعلا ، فانحل أحدهما من الآخر (١)

قرزل وطفيل :

وأنشد للفرزدق :

ومنهن إذ نجى طُفَيْل بن مالك على قُرْزُلٍ رَجْلاً رَكُوضَ الهزائم (٢)

قُرْزُل : اسم فرسه ، وكان طفيل يسمى : فارسَ قُرْزُل ، وقرزل : القيد سمى الفرس به ، كأنه يقيد ما يسابقه (٣) ، كما قال امرؤ القيس :

---

(١) هي أسطورة تروى .

(٢) في النقائض : أرخى : ورجلى .

(٣) وله عدة معان أخر .



. . . .

بمُنْجَرد قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

وطُفَيْلٌ هذا هو : والد عامر بن الطفيل ، عدو الله وعدو رسوله ، وأخو طفيل هذا : عامرٌ مُلاعِب الأسِنَّة ، وسنذكر لم سُمِّى ملاعب ، ونذكر إخوته وألقابهم فى الكتاب إن شاء الله .

الهامة :

وقوله : على أم الفِراخ الجُوائِم . يعنى : الهامة ، وهى البُوم ، وكانوا يعتقدون أن الرجُل إذا قُتِل خرجت من رأسِه هامةٌ تصيح : اسقونى اسقونى ، حتى يُؤخذ بثأره . قال ذو الإصبع العَدْوَانى :

أَضْرِبْكَ حتى تقول الهامَةُ اسقونى(١)

شرح بيت جرير :

فصل : وأنشد لجرير :

ونحن خَضَبْنا لابن كَبْشَةَ تاجَه ولاقى أمرأ فى ضَمَّة الخيل مِصْقَعا

وجدت فى حاشية الشيخ أبى بحر هذا البيت. المعروف فى اللغة أن — الْمِصْقَع: الخطيبُ البليغ ، وليس هذا موضعه، لكن يقال فى اللغة: صَقَعه: إذا ضَرَبه على شىء مُصْمَتٍ يابس ، قاله الأصمعى ، فيشبه أن يكون مِصْقَع فى هذا البيت من

---

(١) البيت من عيون قصائده ، والشطرة الاولى منه :
يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى



. . . .

هذا المعنى ، فيقال منه : رجل مِصْقَع كما يقال : مِحْرَب وفى الحديث : إن سعدا لَمِحْرَبٌ (١) ، يعنى [ابن] أبى وقاص.

ما نزل من القرآن فى أمر الحمس :

فصل : وذكر ما أنزل الله تعالى فى أمر الْحُمْسِ ، وهو قوله تعالى : ﴿يابنى آدم خُذُوا زينتكم عند كلِّ مَسْجِد، وكلوا واشربوا﴾ الآية. «الأعراف: ٣٠» فقوله : وكلوا واشربوا إشارةٌ إلى ما كانت الْحُمْسُ حرمته من طعام الحج إلا طعامَ أحْمَس ، وخذوا زينتكم: يعنى اللباسَ ، ولاَ تتعَرَّوا ، ولذلك افتتح بقوله: يابنى آدم ، بعد أن قص خبر آدم وزوجه ، إذْ يخْصِفان عليهما من وَرَق الجنة ، أى : إن كنتم تحتجون بأنه دينُ آبائكم ، فآدم أبوكم ، ودينه : سترُ الْعَوْرة ، كما قال : ملة أبيكم إبراهيم ، أى : إن كانت عبادَةُ الأصنام دينَ آبائكم ، فإبراهيم أبوكم ، ولم يكن من المشركين ، ومما نزل فى ذلك : ﴿وما كان صلاتُهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِية﴾ الأنفال : ٣٥ . ففى التفسير أنهم كانوا يطوفون عُراة ، ويصفقون بأيديهم ويصفِّرون . فالمكاء : الصفير ، والتصْدِية التصفيق (٢) قال الراجز : وأنا من غَرْوِ الهوى أُصَدِّى . ومما نزل من أمر الحمس : ﴿ وليس البِرُّ بأنْ تأْتُوا البيوتَ من ظُهورها ﴾ البقرة : ١٨٩ .

(١) تتشابه ألفاظه هنا بالخشنى فى شرح السيرة . يقال : رجل حرب بفتح فسكون ، ومحرب ـ بوزن منبر ـ ومحراب : شديد الحرب شجاع

(٢) رواه ابن أبى حاتم، وقال مجاهد : وإنما كانوا يصنعون ذلك ، ليخلطوا بذلك على النبى « ص » صلاته . وقال الزهرى : يستهزئون بالمؤمنين



. . . .

لأن الحُمْسَ لا يدخلون تحت سقف ، ولا يحول بينهم وبين السماء عتبةُ باب ولا غيرها ، فإن احتاج أحدهم إلى حاجة فى داره تسنَّم البيتَ من ظهره ، ولم يدخل من البابِ ، فقال الله سبحانه : ﴿ وأْتوا البيوتَ من أبوابِها ، واتَّقوا الله لعلكم تُفلِحون ﴾ البقرة : ١٨٩[١] .

وقوف النبي بعرفة قبل الهجرة والنبوة :

وذكر وقوف النبي صلى الله عليه وسلم بعرفةَ مع الناس قبل الهجرة ، وقبل النبوة توفيقا من الله ، حتى لا يفوته ثوابُ الحج ، والوقوف بعرفة قال جبيرُ بن مُطْعِمٍ حين رآه واقفا بعرفةَ مع الناس : هذا رجل أحْمَسُ ، فما باله لا يقف مع الحُمْس حيث يقفون[٢] ؟ !

---

(١) فى هذا ورد عن البراء فى البخارى : « كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » وقال الحسن البصرى : كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، وخرج من بيته يريد سفره الذى خرج له ، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ، ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره ، فقال الله تعالى : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها . الآية . أقول : وهذا أقرب إلى مفهوم الآية وكذلك ما ذكر عن عطاء بن أبى رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر . وسورة البقرة مدنية.

(٢) أخرج البخارى عن عائشة. قالت . كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون : الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يأتى عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله : « من حيث أفاض الناس » وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم، واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع =



إخبار الكهان من العرب، والأحبار من يهود والرهبان من النصارى

قال ابن إسحاق : وكانت الأحبار من يهود ، والرُّهبان من النصارى ، والكُهَّانُ من العرب ، قد تحدثوا بأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مَبْعثه ، لما تقارَب من زمانه . أمَّا الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، فعمَّا وَجدوا فى كتُبهم من صِفته وصِفة زمانه ، وما كان من عَهْد أنبيائهم إليهم فيه ، وأمَّا الكُهَّان من العَرب : فأتتهم به الشَّياطينُ من الجنّ فيما تَسْتَرِق من السمع إذ كانت وهى لا تُحجَب عن ذلك بالقذْف بالنجوم ، وكان الكاهنُ والكاهنة لا يزال يَقع منهما ذِكْرُ بعضِ أموره ، لا تُلقى العربُ لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يَذكرون ، فعرفوها .

فلما تقارب أمرُ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحَضَر مَبْعثه . حُجبت الشياطينُ عن السَّمْع ؛ وحِيل بينها وبين المَقاعد التى كانت تَقْعُد لاستراق السمع فيها ، فَرُمُوا بالنُّجوم ، فعرفت الجنّ أن ذلك لأمْرٍ حَدث من

. . . .

—— وأخرج الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : أضللت بعيرا لى بعرفة . فذهبت أطلبه فإذا النبي — صلى الله عليه وسلم — واقف ، قلت : إن هذا من الحمس ما شأنه هنا ، وأخرجه البخارى ومسلم ، ثم رواه البخارى من حديث موسى ابن شعبة عن كريب عن ابن عباس بما يفيد أن المراد من الإفاضة هى الإفاضة من المزدلفة لرمى الجمار .



أمر الله فى العباد ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين بعثه ، وهو يقص عليه خبر الجنّ إذ حُجبوا عن السَّمع ، فعرَفوا ما عرفوا ، وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوْا : ﴿ قُلْ : أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ . فقالُوا : إنّا سَمِعْنا قُرآنا عَجَبا يَهْدِى إلى الرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً . وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا ، ما اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً . وَأَنَّهُ كانَ يَقُول سَفِيهُنا على الله شَطَطا ، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِن على الله كَذِبا . وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ من الجن، فَزَادُوهُمْ رَهَقا » . . إلى قوله : « وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابا رَصَداً . وأنَّا لا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى الأَرْضِ ، أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ الجنّ : ١ – ٦ ثم ٩ ، ١٠

فلما سمعت الجن القرآن عرفتْ أنها إنما مُنعت من السَّمع قبل ذلك ، لئلا يُشْكل الوحىُ بشىء خبر السماء ، فيلتبس على أهل الأرض ماجاءهم من الله فيه ، لوقوع الحجَّة ، وقطع الشبهة . فآمنو وصدقوا ، ثم : ﴿ وَلَّوْا إلى قَوْمِهمْ مُنْذِرِينَ . قالُوا : ياقَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كتابا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقا لِما بينَ يَدَيْهِ ، يَهْدِى إلى الحَقّ ، و إلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم ﴾ . . . الآية . الأحقاف : ٣٠

وكان قول الجنّ : « وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ يعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الجِنّ ، فَزَادُوهمْ رَهَقا » . أنه كان الرجلُ من العرَب من قُرَيش وغيرهم



إذا سافر فنزل بَطْـنَ وادٍ من الأرض ليَبيتَ فيه ، قال : إنى أعوذ بعزيز هذا الوادى من الجنّ الليلةَ من شرّ مافيه .

قال ابن هشام : الرهق : الطغيان والسّفه . قال رؤبة بن العجّاج .

إذ تستبى الهَيَّامَة المُرَهَّقا

[بِمُقْلَتَىْ رِيمٍ وجِيدٍ أرشقا]

وهذا البيت فى أرجوزة له . والرَّهَقُ أيضا : طَلَبك الشىء حتى تدنو منه ، فتأخذه ، أوْ لا تأخذه . قال رؤبة بن العجّاج يصف حمير وَحْش :

بَصْبَصْنَ واقْشَعَرَرْن من خَوْف الرَّهَقْ

[يَمْصَعْن بالأذناب من لَوْح وَبَقْ]

وهذا البيت فى أرجوزة له . والرهق أيضا : مصدر لقول الرجل : رَهِقت الإثمَ أو العُسْرَ ، الذى أرهقتَنِى رَهَقًا شديدا ، أى : حملتُ الإثم أو العسر الذى حملتنى حملا شديدا ، وفى كتاب الله تعالى: ﴿ فخَشِينا أنْ يُرْهِقَهما طغْيانًا وكُفْراً ﴾ الكهف: ٨٠ ، وقوله: ﴿ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِى عُسْراً ﴾ الكهف: ٧٣ .

قال ابن إسحاق: وحدثنى يَعْقوب بن عُتْبَة بن المُغِيرة بن الأخنس أنه حدّث أن أوّل العرب فَزِع للرّمى بالنجوم – حين رُمى بها – هذا الحىّ من ثقيف ، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بنى عِلاَج – قال: وكان أدهى العرب وأنْكَرَها رأيا – فقالوا له : ياعمرو : ألم تَرَ ما حدث فى السماء من القَذْف بهذه النجوم ؟ قال : بلى فانظروا ، فإن كانت معالم النُّجُوم

التي يُهتدى بها في البر والبحر ، ويُتعرف بها الأنْوَاء من الصَّيف والشتاء ، لِمَا يُصلح النَّاس في معايشهم ، هي التي يُرمى بها ، فهو والله طَيُّ الدنيا ، وهلاكُ هذا الخلْق الذي فيها ، وإن كانت نجوماً غيرها ، وهي ثابتة على حالها ، فهذا لأمرٍ أراد اللهُ به هذا الخلْق ، فما هـو ؟

وقال ابن إسحاق : وذكر محمد بن مُسلم بن شهاب الزهريّ ، عن عليّ ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، عن عبد الله بن العبَّاس ، عن نفر من الأنصار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لهم : « ماذا كنتم تقولون في هذا النَّجم الذي يُرمى به ؟ قالوا : يا نبيّ الله كنَّا نقول حين رأيناها يُرمى بها : مات مَلِك ، مُلِّكَ مَلِكٌ ، وُلد مولود ، مات مَوْلودٌ ، فقال رسول الله صلى الله وسلم : ليس ذلك كذلك ، ولـكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خَلْقه أمرا سمعه حَمَلَةُ العرش ، فسبَّحوا ، فسبَّح مَن تحتهم ، فسبح لتسبيحهم مَن تحت ذلك ، فلا يزال التَّسْبيح يَهْبِط حتى ينتهى إلى السماء الدنيـا ، فيسبِّحوا ثم يقول بعضهم لبعض : مِمَّ سبَّحتم ؟ فيقولون : سبَّح مَن فوقنا فسبَّحنا لتسبيحهم ، فيقولون : ألا تسألون مَن فوقكم : مِمّ سبَّحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حَمَلَةِ العرش ، فيقال لهم : ممّ سبَّحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خَلْقه كذا وكذا ، للأمر الذي كان ، فيهبِطُ به الخبرُ من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا ، فيتحدّثوا به ، فَتَسْتَرِقُه الشياطين بالسَّمع ، على توهُّم واختلاف ، ثم يأتوا به الـكهان من أهْلِ الأرض ، فيحدثوهم به ، فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الـكُهَّان ، فيصيبون بعضاً ويُخطئون بعضا . ثم

. . . .

إن الله عز وجلّ حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقذفون بها ، فانقطعت الـكَهانةُ اليومَ ، فلا كهانة » .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عَمْرو بن أبى جعفر ، عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبى لَبِيبة ، عن علىّ بن الحسين بن علىّ رضى الله عنه بمثل حديث ابن شهاب عنه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى بعض أهل العلم : أن امرأةً من بنى سَهْم يقال لها الغَيْطَلَةُ ، كانت كاهنةً فى الجاهلية ، فلما جاءها صاحبها فى ليلةٍ من الليالى ، فأنْقَضَ تحتها ، ثم قال : أدْرِ ماأدْرِ ، يوم عَقْر ونَحْر ، فقالت قُرَيش حين بلغها ذلك : مايريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى ، فأنْقَضَ تحتها ، ثم قال : شُعُوبٌ ، ماشُعُوبْ ، تُصرع فيه كَعْبٌ لِجُنُوب : فلما بلغ ذلك قريشا ، قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمرٌ هو كائن ، فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بَدْر وأُحُد بالشِّعب ، فعرفوا أنه الذى كان جاء به إلى صاحبته .

قال ابن هشام : الغَيْطَلَةُ : من بنى مُرَّةَ بن عَبْد مناة بن كِنانة ، إخوة مُدْلِج بن مرة ، وهى أم الغياطل الذين ذكر أبو طالب فى قوله :

لقد سَفُهَتْ أحلامُ قَوْمٍ تبدَّلوا   بَنى خَلَفٍ قَيْضاً بنا والغَيَاطِلِ

فقيل لولدها : الغياطل ، وهم من بَنى سهم بن عَمْرو بن هُصَيْص . وهذا البيت فى قصيدة له ، سأذكرها فى موضعها إن شاء الله تعالى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى علىّ بن نافع الجُرَشِىّ : أنَّ جَنْبا بَطْناً



من اليمن ، كان لهم كاهنٌ فى الجاهلية ، فلما ذُكر أمر رسول الله صلى الله وسلم ، وانتشر فى العرب ، قالت له جَنْب : انظرْ لنا فى أمر هذا الرجل ، واجتمعوا له فى أسفل جبله ، فنزل عليهم حين طلعت الشمس ، فوقف لهم قائما متَّكِئا على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً ، ثم جعل يَنْزُو ، ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرم محمدا واصطفاه ، وطهَّر قلبه وحشاه ، ومُكْثُه فيكم أيها الناس قليل ، ثم اشْتَدَّ فى جبله راجعا من حيث جاء .

قال ابن إسحاق : وحدثنى من لا أَتَّهِم عن عبد الله بن كَعْب ، مولى عثمان بن عفَّان ، أنه حدّث : أن عمر بن الخطاب ، بينا هو جالس فى مَسْجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل رجل من العرب داخلاً المسجدَ ، يريد عمرَ بن الخطاب ، فلما نَظَر إليه عمر رضى الله عنه ، قال : إن هذا الرجلَ لَعَلَى شِرْكه ما فارقه بعدُ ، أو لقد كان كاهنا فى الجاهلية . فَسَلَّمَ عليه الرجلُ ، ثم جلس ، فقال له عمر — رضى الله عنه : هل أسلمتَ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال له : فهل كنت كاهنا فى الجاهلية ؟ فقال الرجل: سُبحان الله يا أمير المؤمنين ! لقد خِلْتَ فِيَّ ، واستقبلتنى بأمر ما أراك قلته لأحد من رَعِيَّتك منذ وَلِيتَ ما وليتَ ، فقال عمر : اللهمّ غَفْراً ، قد كنَّا فى الجاهلية على شرٍّ من هذا ، نعبد الأصنام ، ونَعْتَنِق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام ، قال: نعم ، والله يا أمير المؤمنين ، لقد كنتُ كاهنا فى الجاهلية ، قال: فأخبرنى ما جاءك به صاحِبُك ، قال: جاءنى قبل الإسلام بشهر أو شَيْعِه ، فقال: ألم تَرَ إلى الجنّ وإبلاسها، وإياسها من دينها، ولُحوقها بالقِلاص وأحْلاسها .



قال ابن هشام : هذا الكلام سجع ، وليس بشعر .

قال عبد الله بن كعب : فقال عمرُ بن الخطاب عند ذلك يُحَدِّث الناس : والله إنى لَعِنْدَ وثَنٍ من أوثان الجاهلية فى نَفَر من قريش ، قد ذَبح له رجل من العرب عجلاً ، فنحن ننتظر قَسْمه ليَقْسِم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل صوتا ما سمعت صوتا قَطُّ أَنْفَذَ منه ، وذلك قُبيل الإسلام بشهر أو شَيْعه ، يقول : يا ذَرِيح ، أمرٌ نَجِيح ، رجل يَصيح ، يقول : لا إله إلا الله .

قال ابن هشام : ويقال : رجل يصيح ، بلسان فصيح ، يقول : لا إله إلا الله . وأنشدنى بعض أهل العلم بالشعر .

عَجِبْتُ للجِنِّ وإبْلاسِهَا وشَدِّها العِيسَ بأحْلاسِها
تَهْوِى إلى مكَّة تبغى الهُدَى ما مُؤمنو الجِنِّ كأنجاسِها

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا من الكُهَّان من العرب .

فصل فى الكهانة

رُوِى فى مأثور الأخبار أن إبليسَ كان يخترق السَّموات قبل عيسى ، فلما بُعث عيسى ، أو وُلد حُجب عن ثلاث سماوات ، فلما وُلد محمدٌ حُجب عنها كلِّها ، وقُذفت الشياطينُ بالنجوم وقالت قريش حين كثر القذف بالنجوم : قامت الساعة ، فقال عُتْبة بن ربيعة : انظروا إلى العَيُّوق(١) فإن كان رُمى به ، فقد آن قيامُ الساعة ، وإلاَّ فلا ، وممن ذكر هذا الخبر الزبير بن أبى بكر .

(١) نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .



. . . .

رمي الشياطين :

وذكر ابن إسحاق في هذا الباب ما رُمِيَت به الشياطين ، حين ظهر القذفُ بالنجوم ، لئلا يلتبسَ بالوحى ، وليكون ذلك أظهر للحجة ، وأقطع للشبهة ، والذى قاله صحيح : ولكن القذفَ بالنجوم قد كان قديما ، وذلك موجود فى أشعار القدماء من الجاهلية . منهم : عَوْفُ بن الخِزَع ، وأوْسُ بنُ حَجَر ، وبِشْر بن أبى خازم ، وكلهم جاهلى ، وقد وصفوا الرمى بالنجوم ، وأبياتُهم فى ذلك مذكورة فى مُشْكِلِ ابن قُتَيْبَة فى تفسير سورة الجن(١) ، وذكر عبد الرزاق فى تفسيره عن مَعْمَرٍ عن ابن شهاب أنه سئل عن هذا الرمى بالنجوم : أكان فى الجاهلية ؟ قال: نعم ، ولكنه إذ جاء الإسلام غُلِّظَ وشُدِّد ، وفى قول الله سبحانه : ﴿ وأنَّا لَمَسْنَا السماءَ فوجدناها مُلِئت حَرَساً شديدا وشُهُباً ﴾ الجن : ٨ الآية ولم يقل : حُرِست دليل على أنه قد كان منه شيء ، فلما بُعث النبى - صلى الله عليه وسلم - مُلِئَتْ حرسا شديداً وشُهباً ، وذلك لِيَنْحَسِمَ أمرُ الشياطين ، وتخليطُهم ، ولتكون الآية أبْيَنَ ، والحجة أقطعَ ، وإن وجد اليوم كاهن ، فلا يدفع ذلك بما أخبر الله به من طرد الشياطين عن استراق السمع ، فإن ذلك التغليظ والتشديد كان زمنَ النُّبُوَّةِ ، ثم بقيت منه ، أعنى من استراقِ السمع بقايا يسيرة

---

(١) انظر ص ١٨٤ ح ٢ ط ١ كتاب القرطين الذى هذب فيه ابن مطرف الكنانى كتابى مشكل القرآن أو غريبه لابن قتيبة . وفى هذا يقول ابن قتيبة « وفى أيدى الناس كتب الأعاجم ، وسيرهم تنبىء عن انقضاض النجوم فى كل عصر ، وكل زمان » وفيه بشر بن خارم وهو خطأ صوابه ما أثبته ، انظر ترجمة ابن أبى خازم فى الشعر والشعراء لابن قتيبة .



. . . .

بدليل وجودهم على النُّدُور فى بعض الأزمنة ، وفى بعض البلاد . وقد سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الكُهَّان فقال : ليسوا بشىء ، فقيل: إنهم يتكلمون بالكلمة ، فتكون كما قالوا ، فقال : تلك الكلمة من الجن يحفظها الجِنى ، فيُقِرُّها فى أذن وَليه قَرَّ الزُّجاجة ، فيخلط فيها أكثرَ من مائةِ كذبة ، ويروى: قَرَّ الدَّجاجَةِ بالدال،وعلى هذه الرواية تكلم قاسم بن ثابت فى الدلائل. والزجاجة بالزاى أولى ؛ لما ثبت فى الصحيح ، فيُقِرُّها فى أذن وليه ، كما تُقرُّ القارورة ، ومعنى يُقِرُّها: يَصُبُّها ويُفْرغها ، قال الراجز :

لا تُفرِغَنْ فى أُذُنِى قَرَّها ما يَسْتَفِزُّ فأريك فقرها

وفى تفسير ابن سلام عن ابن عباس، قال: إذا رمى الشهابُ الجِنىَّ لم يُخْطِئْه، ويحرق ما أصاب ولا يقتله ، وعن الحسن قال : فى أسرع من طرفة العين ، وفى تفسير ابن سلام أيضا عن أبى قَتَادَة أنه كان مع قوم ، فرُمِى بنجم ، فقال: لا تُتْبِعوه أبصارَكم ، وفيه أيضا عن حَفْصٍ أنه سأل الحسَن : أيُتْبِعُ بصرَه الكوكب . فقال : قال سبحانه : ﴿ وجعلناها رُجُوما للشياطين ﴾ الملك : ٥ . وقال : ﴿ أوَلم يَنْظروا فى مَلَكُوتِ السَّموات والأرض ﴾ الأعراف : ١٨٥ . قال : كيف نعلم إذا لم ننظر إليه ، لأُتْبِعَنَّه بصرى .

الجن الذين ذكرهم القرآن :

وذكر النفر من الجن الذين نزل فيهم القرآن والذين : ﴿ ولَّوْا إلى قومهم

---

(١) وفى رواية : قز الزجاجة بالزاى ، أى : بصوتها إذا صب فيها الماء



. . . .

مُنذرين،قالوا:ياقومنا إنا سَمِعْنا كتاباً أُنْزِل من بعدِ موسى﴾الأحقاف: ٣٠ . وفى الحديث أنهم كانوا من جِنِّ نَصِيبين(١) . وفى التفسير أنهم كانوا يَهُوداً ؛ ولذلك قالوا : من بعد موسى ، ولم يقولوا من بعد عيسى ذكره ابن سلام(٢) . وكانوا سَبْعَةً ، قد ذُكروا بأسمائهم فى التفاسير والمُسْنَدات ، وهم : شاصر ، وماصر ، ومنشى ، ولا شى ، والأحقاب ، وهؤلاء الخمسةُ ذكرهم ابن دُرَيدٍ ، ووجدتُ فى خبر حدثنى به أبو بكر بن طاهر الإشبيلى القَيْسِىّ عن أبى عَلِىٍّ الْغَسَّانِى فى فضل عمر بن عبد العزيز قال : بينما عمرُ بن عبد العزيز يمشى فى أرض فلاةٍ فإذا حَيَّةٌ مَيِّتَةٌ فكفَّنها بفَضْلَة من رِدَائه ، ودفنها فإذا قائلٌ يقول : يا سُرَّق اشهد ، لسَمِعْتُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لك : ستموت بأرض فلاةٍ ، فيكفنك ويدفنك رجلٌ صالح ، فقال : من أنت - يرحمك الله - فقال : رجل من الجنِّ الذين تسمعوا القرآن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمَ يبق منهم إلا أنا وسُرَّقٌ ، وهذا سُرَّقٌ قد مات . وذكر ابن سلام من طريق أبى إسحاق [عَمْرو بن عبد الله بن على] السَّبِيعِى عن أشياخِه عن ابن مَسْعُودٍ أنه كان فى نَفَرٍ من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) ذكر أن من العرب من يعربها كجمع المذكر السالم ، فيقول: هذه نصيبون وهى مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من موصل إلى الشام ونصيبين أيضا من قرى حلب ، ونصيبين كذلك : مدينة على شاطىء الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم .

(٢) ما هذا الذى ينقله عن ابن سلام ؟ إنه تهويمة خيال . ولعلهم قالوا : من بعد موسى ، لأنه لم ينزل بعد التوراة كتاب تشريع ينسخ الشرائع قبله سوى القرآن ، أما الإنجيل فيذكر بما فى التوراة



. . . .

يمشون فرُفع لهم إعصارٌ ، ثم جاء إعصارٌ أعظمُ منه ، ثم انقشع ، فإذا حيَّةٌ قتيلٌ ، فعَمَدَ رجال منا إلى ردائه فشقه ، وكفَّن الحية ببعضه ودفنها ، فلما جَنَّ الليلُ إذا امرأتان تتساءلان : أيكم دفن عَمْرو بن جابر ؟ فقلنا : ما ندرى مَنْ عمرو بن جابر ؟ فقالتا : إن كنتم ابتغيتم الأجرَ فقد وجدتموه . إن فَسَقَةَ الْجِنِّ اقتتلوا مع المؤمنين منهم، فقُتِل عمرو، وهو الحيَّة التى رأيتم ، وهو من النفر الذين استمعوا القرآن من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم وَلَّوْا إلى قومهم مُنذرين ! !

ابن علاط والجن :

فصل : وأما ما ذكره فى معنى قوله سبحانه: ﴿ وأنه كان رِجالٌ من الْإِنْسِ يعوذون برجالٍ من الجِنّ﴾ الآية،الجن : ٦. فقد رُوى فى معنى ذلك عن حجاج ابن عِلَاطٍ السُّلَمِى ، وهو والد نَصْرِ بن حَجَّاج الذى قيل فيه :

أم لا سبيلَ إلى نصرِ ابن حَجَّاجِ (١)

---

(١) يقول البغدادى فى الخزانة « وحكى السهيلى فى الروض الأنف هذه الحكاية على خلاف ما تقدم . قال : الحجاج بن علاط : وهو والد نصر الذى حلق عمر رأسه ، فنفاه من المدينة ، فأتى الشام ، فنزل على أبى الأعور السلمى فهويته امرأته ، وهويها ، وفطن أبو الأعور لذلك ، بسبب يطول ذكره ، فابتنى له قبة فى أقصى الحى ، فكان بها ، فاشتد ضناه بالمرأة حتى مات كلفا بها ، وسمى المضنى ، وضربت به الأمثال ، وذكر الأصبهانى فى كتاب الأمثال له خبره بطوله » انتهى . أقول : والقصة مشهورة فى كتب الأدب والأمثال . قالوا : أول من عسّ بالليل فى الإسلام : عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فبينا يعس ليلة سمع امرأة تقول :
=



. . . .

= ياليت شعرى عن نفسى أزاهقة ... منى ، ولم أقض ما فيها من الحاج
ألا سبيل إلى خمر فأشربها ... أم لا سبيل إلى نصر بن حجاج
إلى فتى ماجد الأخلاق ذى كرم ... سهل المحيا كريم غير لجفاج
تنميه أعراق صدق حين تنسبه ... ذى نجدات عن المكروب فراج
سامى النواظر من بهزله كرم ... تضىء سنته فى الحالك الداجى
نعم الفتى فى سواد الليل نصرته ... لبائس أو لملهوف ومحتاج
يامنية لم أرب فيها بضائرة ... والناس من صادق فيها ومن داجى

قالوا : فدعا عمر بالمرأة ـ وهى الذلفا لقب فريعة بنت همام أم الحجاج ـ وضربها بالدرة ضربات، ثم سأل عنها، فلم يخبر عنها إلا بخير، وأتى بنصر، وأمر بشعره فحلق. ثم أرسل به إلى البصرة إلى مجاشع بن مسعود السلمى ، فكان ما كان منه مما ذكره السهيلى مختصراً — كما جاء فى خزانة البغدادى : وقيل إن المرأة أرسلت إلى عمر بهذه الأبيات :

قل للامام الذى تخشى بوادره ... مالى وللخمر أو نصر بن حجاج
إنى فتنت أبا حفص بغيرهما ... شرب الحليب وطرف فاتر ساجى

الخ قالوا : فبكا عمر ، وقال : الحمد لله الذى حبس الهوى بالتقوى . وبعث عمر إلى المرأة : لم يبلغنا عنك إلا خير، وقد ضرب المثل بالمرأة هذه ، فقالوا : « أصب من المتمنية » وبنصر ، فقالوا : « أدنف من المتمنى » وقالوا : إن هذه المتمنية هى الفريعة بنت همام أم الحجاج بن يوسف الثقفى. والبيت الأول يروى : « ألا سبيل إلى خمر فأشربها » وهى — كما يقص البغدادى — رواية الجاحظ وحمزة الأصبهانى والسهيلى لكنك ترى الرواية فى الروض « أم لا سبيل الخ » وروى المدائنى وغيره : هل من سبيل ، ويروى الزجاج المصراع المذكور فى الروض :

أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ورواه أبو على الفارسى فى إيضاح الشعر عن أبى عبيدة :

أو لا سبيل إلى نصر بن حجاج



. . . .

أنه قَدِم مكة فى ركب ، فأجَنَّهم الليلُ بواد مَخُوفٍ مُوحش ، فقال له الركب : قم خذ لنفسك أماناً ، ولأصحابك ، فجعل يطوف بالركب ويقول :

أُعِيذ نفسى وأعيذ صَحْبِى

من كل جِنّىٍّ بهذا النَّقْب

حتى أءوبَ سالما ورَكْبِى

فسمع قارئا : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إن اسْتَطَعْتُم أن تَنْفُذوا من أقطارِ السَّموات والأرضِ [فانفُذُوا ، لا تَنْفُذُون إلا بسلطان] ﴾ الآية . الرحمن : ٣٣ . فلما قدم مكة خبّرَ كفارَ قريش بما سمع ، فقالوا : أصبت (١) يا أبا كِلابٍ . إن هذا يزعم محمد أنه أُنزِل عليه ، فقال : والله لقد سمعتُه وسمعه هؤلاء معى ، ثم أسلم وحسُن إسلامُه ، وهاجر إلى المدينة ، وابْتَنَى بها مَسْجداً فهو يُعْرَف به(٢) .

= على أن أو بمعنى : الواو . وروايته « ألا » يستشهد بها النحويون على أنه « ألا » تستعمل للتمنى . ويقول البغدادى : وقال قوم : هذا الشعر مصنوع إلا البيت الأول « ألا سبيل الخ » وقد جمع البغدادى كل أطراف القصة ، وقال عن الشعر : « ولا يخفى ما فيه من الاختلاف من جميع الجهات حتى فى البيت الشاهد » انظر ص ٥٩ وما بعدها ح ٤ ط السلفية خزانة الأدب للبغدادى والأمثال للميدانى فى حرف الصاد مما جاء منه على وزن أفعل . و ص ٥١٣ ح ٢ ألف باء ليوسف بن محمد البلوى .

(١) روى البلوى نفس القصة . وفيها « صبأت » بدلا من أصبت وهو الأليق

(٢) ما ذكره هنا لا سند له . وسنذكر ما ورد من أحاديث حول استماع الجن . روى البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس : ما قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على =



. . . .

= الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ؛ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم : « قالوا : ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » وأنزل الله على نبيه — صلى الله عليه وسلم : (قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) وإنما أوحى إليه قول الجن » ورواه البخارى عن مسدد بنحوه ، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن أبى عوانة به ، ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث أبى عوانة ، وروى أحمد عن ابن عباس أنه قال : كان الجن يستمعون الوحى ، فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ما سمعوا حقاً ، وما زادوا باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان أحدهم لا يأتى بمقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصابت

فشكوا ذلك إلى إبليس فقال : ما هذا إلا من أمر قد حدث . فبث جنوده فإذا بالنبى — صلى الله عليه وسلم — يصلى بين جبلى نخلة فأتوه ، فأخبروه . فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض . ورواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير وقال الترمذى : حسن صحيح. وروى البخارى، قال : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة ، يقول : سمعت أباهريرة رضى الله عنه يقول: إن نبى الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : إذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء =



. . . .

ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان . فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ما ذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال . الحق ، وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وصفه سفيان بكفه فحرفها ، وبدد بين أصابعه — فيسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا ، وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء ،

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة والله أعلم . وروى أحمد عن ابن عباس قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالساً فى نفر من أصحابه ، فرمى بنجم ، فاستنار ، فقال — صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية ؟ قالوا : كنا نقول : يولد عظيم ، أو يموت عظيم ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش . فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع ، فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه ، فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعى ويونس ومعقل بن عبيد الله ، أربعتهم ، عن الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رجل من الأنصار به . وكذا رواه النسائى فى التفسير من حديث الزبيدى عن الزهرى به ، ورواه الترمذى فيه عن الحسين بن حريث عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعى . عن الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رجل من الأنصار — رضى الله عنه ، وحسب المؤمن فى مثل هذا وغيره أن يتدبر القرآن أولا ، ثم الصحيح المشهود له بالصحة القوية من الحديث

. . . .

حول انقطاع الكهانة :

فصل : وذكر ابن إسحاق حديث ابن عباس وفيه : كنا نقول إذا رأيناه : يموت عظيم أو يولد[1] عظيم ، وفى هذا دليل على ما قدَّمناه من أن القذف بالنجوم كان قديما، ولكنه إذ بُعث الرسول عليه السلام، غُلِّظ وشُدِّد — كما قال الزهرى — وملئت السماء حرساً . وقوله فى آخر الحديث : وقد انقطعت الكهانةُ اليوم ، فلا كهانةَ . يدل قولُه : اليوم على تخصيص ذلك الزمان كما قدمناه ، والذى انقطع اليوم، وإلى يوم القيامة أن تدرك الشياطينُ ما كانت تدركه فى الجاهلية الجَهْلاء ، وعند تمكنها من سماع أخبار السماء ، وما يوجد اليوم من كلام الجن على ألسنة المجانين إنما هو خَبَرٌ منهم عما يرَوْنه فى الأرض، مِمَّا لا نراه نحن كسرقه سارقٍ، أو خَبيئته فى مكان خَفِيٍّ[1] ، أو نحو ذلك ، وإن أخبروا بما سيكون كان تَخرُّصًا وتَظَنِّياً، فيصيبون قليلا ، ويخطئون كثيرا .

وذلك القليل الذى يصيبون هو مما يتكلم به الملائكة فى العَنان ، كما

= لأن موضوع الجن من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله،ولا يعرف إلا عن الوحى. وقول الله تعالى فى سورة الأحقاف وسورة الجن يؤكد أنه صلى الله عليه وسلم لم ير الجن الذين استمعوا له .

(١) ذكرته من قبل

(٢) هذا إفك يفتريه الدجاجلة . وأحب أن أذكر بقصة الجن الذين مات سليمان أمام أعينهم دون أن يعلموا (فلما خر تَبَيَّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) فلنتدبر هذه الآية المحكمة نؤمن بأن الجن لا يعرفون غيباً كما بين الله . بل إنهم لم يعرفوا حتى ما وقع تحت عيونهم ! !



. . . .

فى حديث البخارى ، فيُطرَدُون بالنجوم ، فيضيفون إلى الكلمة الواحدة أكثر من مائةِ كذبة ـ كما قال عليه السلام ـ فى الحديث الذى قدمناه ، فإن قلت : فقد كان صافُ بن صَيَّاد ، وكان يتَكَهَّنُ ، ويدَّعى النبوة ، وخَبَأَ له النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ خَبِيئاً ، فعلمه ، وهو الدُّخُّ (١) فأين انقطاع الكهانة فى ذلك الزمان ؟ قلنا : عن هذا جوابان،أحدهما ذكره الخطابى فى أعلام الحديث قال : الدُّخُّ نبات يكون من النخيل ، وخَبَأَ له عليه السلام : ﴿ فارْتَقِبْ يوم تأتى السماء بدُخانٍ مُبينٍ ﴾ الدخان : ١٠ ، فعلى هذا لم يصب ابن صياد ما خَبَأَ له النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) بضم الدال وفتحها : الدخان ، ويقول ابن الأثير فى النهاية : وفسر فى الحديث أنه أراد بذلك : (يوم تأتى السماء بدخان مبين) وقيل إن الدجال يقتله عيسى عليه السلام بجبل الدخان . انتهى . فيحتمل أن يكون أراده تعريضاً بقتله ، لأن ابن صياد كان يظن أنه الدجال ، وحديث ابن صياد متفق عليه ، وفيه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لابن صياد : ماذا ترى؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق وكاذب ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خُلط عليك الأمر ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى خبأت لك خبيئاً وخبأ له . (يوم تأتى السماء بدخان مبين) فقال : هو الدُّخ ، فقال: اخسأ . فلن تعدو قدرك الحديث . وإذا كان الله سبحانه قد نفى علم الغيب عن الجن وعن الملائكة وعن الرسل ، فكيف يجوز لنا أن ننسب إلى دجال كابن صياد أنه كان يعرف الغيب ؟ ولا أظن أن رسول الله «ص» ـ على فرض الصحة ـ قصد من الاختبار هل يعرف ابن صياد الغيب أو لا ، لأنه صلى الله عليه وسلم يؤمن قبل هذا بأن الله وحده هو عالم الغيب ، وأنه لا ابن صياد، ولا غيره يعلمون من الغيب شيئا . إنما قصد الرسول بالاختبار أن يظهر أمام الحضور وأن يوضح حقيقة ابن صياد . وهى أنه مفتر كذاب ، وأن علم الغيب إنما هو لله وحده .



. . . .

الثانى : أن شيطانه كان يأتيه بما خفِى من أخبار الأرض ، ولا يأتيه بخبر السماء لمكان القذف والرجم ، فإن كان أراد بالدُّخِّ الدخانَ بقوة جُعلت لهم فى أسماعهم ليست لنا ، فأنى الكلمة عن لسان صافٍ وحدها، إذ لم يُمكن سماع سائر الآية ؛ ولذلك قال له النبى ـ عليه السلام : اخسَأْ فلن تَعْدُو قدر الله فيك أى : فلن تعدو منزلتك من الْعَجْز عن علم الغيب ؛ وإنما الذى يمكن فى حقه هذا القدرُ دون مزيد عليه ، على هذا النحو فسره الخطابى .

الغيطلة الكاهنة وكهانتها :

فصل : وذكر حديث الْغَيْطَلَة الكاهنة ؛ قال : وهى من بنى مُرَّة بن عَبْد مَناة بن كِنانة أخى مُدْلِجٍ ، وهى : أمُّ الغَياطل الذى ذكر أبو طالب ، وسنذكر معنى الْغَيْطَلة عند شعر أبى طالب إن شاء الله . ونذكر هاهنا ما ألفيْتُه فى حاشية كتاب الشيخ أبى بحر فى هذا الموضع . قال : الغيطلة بنت مالكِ بن الحارثِ بن عمرو بن الصَّعِق ابن شَنُوق بن مُرَّةَ ، وشَنُوق أخو مُدْلِجٍ ؛ وهكذا ذكر نسبها الزبيرُ .

وذكر قولها : شُعُوب وما شعوب ، تُصرَع فيها كَعْبٌ لجُنُوب .
كعبٌ هُهنا هو : كَعْبُ بن لُؤَىٍّ ، والذين صُرِعوا لجنوبهم ببدرٍ وأُحُدٍ من أشرافِ قريش ،معظمُهم من كعب بن لُؤَىٍّ ، وشُعُوبٌ هُهنا أحسبه بضم الشين، ولم أجده مقيدا ، وكأنه جَمْعُ شِعبٍ، وقول ابن إسحاق يدل على هذا حين قال : فلم يُدْرَ ما قالت ، حتى قُتِل مَنْ قُتِلَ ببدرٍ وأُحدٍ بالشِّعب(١) .

---

(١) ومن رواه بفتح الشين فهو اسم للمنية لا يصرف ص ٦٨ الخشنى



. . . .

وذكر قول التابع : أَدْرِ ما أَدْرِ ، وقيد عن أبى عَلِيٍّ فيه رواية أخرى : وما بَدْر ؟ وهى أَبْيَنُ من هذه ، وفى غير رواية الْبَكَّائِىِّ عن ابن إسحاق أن فاطمةَ بنت النعمان النَّجَّارية كان لها تابعٌ من الجن ، وكان إذا جاءها اقتحم عليها فى بيتها ، فلما كان فى أول البعث أتاها ، فقعد على حائطِ الدار ، ولم يدخل فقالت له : لم لا تدخل ؟ فقال : قد بُعث نبي بتحريم الزِّنا ، فذلك أول ما ذُكر النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة(١) .

ثقيف ولهب والرمى بالنجوم :

فصل : وذكر إنكارَ ثقيفٍ للرَّمْى بالنجوم ، وما قاله عَمْرو بن أُمَيَّة أحد بنى عِلَاجٍ إلى آخر الحديث ، وهو كلام صحيح المعنى ، لكنّ فيه إبهاما لقوله : وإن كانت غير هذه النجوم فهو لأمرٍ حدث ، فما هو وقد فعل مافعلت ثقيف بنو لِهْبٍ عند فزعهم للرمى بالنجوم ، فاجتمعوا إلى كاهن لهم يقال له : خَطَر ، فبين لهم الخبر ، وما حدث من أمر النبوة . روى أبو جَعْفر العقيلى فى كتاب الصحابة عن رجل من بنى لِهْبٍ يقال له : لِهْبٌ أو لُهَيْب(٢) . وقد تكلمنا على نسب لِهْبٍ فى هذا الكتاب . قال لُهَيْب : حضرت مع رسول

---

(١) لا أدرى كيف يلق السهيلى وأمثاله آذانهم إلى مثل هذا الخرف ، وإلى الباطل الذى يؤكد القرآن أنه باطل . ولنتدبر عشرات الآيات فى القرآن التى تنفى علم الغيب عن غير الله . وتابعها : شيطان إنسى بدليل الزنا ! !

(٢) فى الأصل « لهيب أو لهيب » وهو خطأ صوبته من الإصابة ، فابن منده يقول : « لهيب بالتصغير بن مالك اللهبى ، وأبو عمر يقول : لهب مكبرا وبه جزم الرشاطى » .



. . . .

الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت عنده الكهانة ، فقلت : بأبي وأمي: نحن أول من عرف حراسة السماء ، وزجْرَ الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم ، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له : خَطَر بن مالك ، وكان شيخاً كبيرا ، قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة ، وكان من أعلم كهاننا ، فقلنا : يا خَطَرُ هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها ، فإنا قد فزعنا لها ، وخشينا سوء عاقبتها ؟ فقال :

إِئْتونى بسَحَر

أُخْبِرْكُمُ الخبر

أَبِخَيْرٍ أم ضرر

أو لأمْنٍ أو حذر

قال : فانصرفنا عنه يومنا ، فلما كان من غد في وجه السَّحَر أتيناه ، فإذا هو قائم على قدميه ، شاخص في السماء بعينيه ، فناديناه : أخَطَرُ يا خَطَرُ ؟ فأومأ إلينا: أنْ أمسكوا ، فانقض نجم عظيم من السماء ، وصرخ الكاهن رافعا صوته :

أصابَهُ إصابه خامَرَهُ عِقابُهُ

عاجله عذابُه أحرقه شهابُه

زايله جوابُهُ

يا وَيْلَه ما حاله بَلْبَله بَلْباله

عاوده خَبَالُه تَقَطَّعَتْ حِباله

وغُيِّرت أحواله

. . . .

ثم أمسك طويلا وهو يقول :

يا مَعْشرَ بنى قَحْطَانِ   أخبركم بالحقِّ والبيان

أقسمت بالكعبةِ والأركانِ   والبلدِ المُؤْتَمنِ السُّدَّان

لقد مُنِع السمعَ عُتَاةُ الجان   بثاقبٍ بِكَفِّ ذى سلطان

من أجْلِ مَبْعوثٍ عظيم الشانِ   يُبْعث بالتنزيل والقرآن

وبالهدى وفاصلِ القرآن   تَبْطُل به عبادةُ الأوثان

قال: فقلنا :وَيْحَكَ ياخطر إنك لتذكر أمراً عظيما،فماذا ترى لقومك؟ فقال:

أرى لِقَوْمِى ما أرى لِنَفْسِى   أن يَتْبَعوا خيرَ نَبِىِّ الإنس

بُرْهانُه مثلُ شُعاعِ الشمس   يُبعثُ فى مكةَ دارِ الحُمْس

بِمُحْكَمِ التَّنْزيلِ غير اللَّبْس

فقلنا له : يا خَطَرُ ، ومِمَّن هو ؟ فقال : والحياة والعَيْش . إنه لمن قريش ، ما فى حِلْمه طَيْش ، ولا فى خلقه هَيْش (١) يكون فى جَيْشٍ ، وأى جَيْش ، من آل قَحْطانَ وآل أَيْش ، فقلت له : بين لنا: من أى قريش هو ؟ فقال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحائم ، إنه لَمِنْ نجل هاشم ، من معشر كرائم ، يُبْعَثُ بالمَلَاحِمْ ، وقتل كل ظالم ، ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ـ ثم سكت وأغمى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة ، فقال : لا إله إلا

---

(١) ليس فى طبيعته وسجيته قول قبيح .



. . . .

الله ؛ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : لقد نطق عن مثل نُبُوَّة ، وإنه لَيُبْعَثُ يوم القيامة أمة وحده (١).

أصل ألف أصابة :

قال المؤلف : فى هذا الخبر قوله : أَصابه إصابه ، هكذا قيدته بكسر الهمزة من إصابه عَلَى أبى بكر بن طاهر ، وأخبرنى به عن أبى على الغَسَّانِيّ ، ووجهه أن تكون الهمزة بدلا من واو مكسورة مثل وِشاح وإشاح [ووسادة وإسادة] ، والمعنى : أصابه وصَابه جمع : وَصَب مثل : جَمل وجِمالة ،

معنى كلمة أيش والإعجام :

وقوله : من آل قحطان وآل أيْشٍ ، يعنى بآل قحطان : الأنصار؛ لأنهم من قحطان . وأما آل أيش ، فيحتمل أن تكون قبيلة من الجن المؤمنين، ينسبون إلى أَيْش ، فإن يكن هذا ، وإلا فله معنى فى المدح غريب ، تقول : فلان أيش هو وابن أيش ، ومعناه : أى شىء أى شىء عظيم فكأنه أراد من آل قحطان ، ومن المهاجرين الذى يقال فيهم مثل هذا ، كما تقول : هم ، وما هم؟ وزيد وما زيد ، وأى شىء زيد ، وأيش فى معنى : أى شىء ، كما يقال وَيْلُمِّه فى معنى : ويل أمه (٢) على الحذف.

---

(١) هو فى الإصابة مع اختصار واختلاف يسير عما هنا . وعيب السهيلى أنه يصدق مثل هذا ، ويعلق عليه كأنه صحيح . بينما يقول أبو عمر : إسناده ضعيف ، ورواته مجهولون ، وعمارة بن زيد راوى الحديث اتهموه بوضع الحديث.

(٢) ويل أمه : أى هو داهية . ويقول ابن جنى « وأما وزن قوله: « ويلمه فإن حكيت أصله ، فوزنه (فع لُ عـله) وإن وزنت على ما صار إليه بعد التركيب فمثالها (فيعلة) بسكون الياء وضم العين وتضعيف اللام مع فتح فإن قلت : فإن هذا مثال غير موجود ، قيل : إنما ينكر هذا : لو كان المثال أصلا برأسه ، فاما وهو فرع أدى إليه التركيب شيئاً بعد شىء ، فلا ينكر ذلك... ويجوز =



. . . .

لكثرة الاستعمال ، وهذا كما قال : هو فى جيش أيما جيش ، والله أعلم. وأحسبه أراد بآل أيش : بنى أُقَيش ، وهم حلفاء الأنصار من الجن ؛ فحذف من الاسم حرفا، وقد تفعل العرب مثل هذا ، وقد وقع ذكر بنى أُقَيش فى السيرة فى حديث البَيْعَة.

وذكر الركن والأحائم يجوز أن يكون أراد : الأحاوم بالواو ، فهمز الواو لانكسارها ، والأحاوم : جمع أحوام والأحوام جميع حَوْم ، وهو الماء فى البئر ، فكأنه أراد : ماء زمزم ، والحَوْم أيضاً : إبل كثيرة ترد الماء ، فعبر بالأحائم عن وُرَّاد زمزم ، ويجوز أن يريد بها الطير وحمامَ مكةَ التى تحوم على الماء ، فيكون بمعنى الحوائم ، وقلب اللفظ ، فصار بعد فواعل: أفاعل ، والله أعلم .

ذى جنب :

فصل : وذكر أن جَنْباً وهم حَىٌّ من اليمن اجتمعوا إلى كاهن لهم ، فسألوه عن أمر النبى – صلى الله عليه وسلم – حين رمى بالنجوم إلى آخر الحديث: جَنْبٌ هم من مَذْحِج ، وهم : عَيِّذُ الله ، وأَنَس الله ، وزَيْدُ الله ، وأوْسُ الله ، وجُعْفِى ، والحكم ، وجرْوة ، بنو سعد العشيرة(١) بن مَذْحِج ، ومَذْحج هو : مالك بن أُدَد ، وسُمُّوا : جنباً لأنهم جانبوا بنى عمهم صُدَاء

أن يكون قولهم : (ويلمه) أصله: ويل لأمه، ثم حذف حرف الجر والهمزة – التى هى فاء – والتنوين ، أو لم ينون ، لأنه نوى المعرفة كغاق ، فبقى : ويلمه) ص ١٦ التمام فى تفسير أشعار هذيل ط بغداد . وقال ابن الشجرى ، أنها تقال بضم اللام وكسرها، وانظر ص ٢٥١ حـ ٣ خزانة البغدادى ط السلفية ، فقد فصل القول فيها . وفيه أن معناها مدح خرج بلفظ الذم . وأنها تقال للمستجاد وللداهية .

(١) فى جمهرة ابن حزم عن ولد سعد العشيرة أنهم : الحكم – وبه كان يكنى – والصعب وثمرة لأمهات شتى ، وجعفى وعائذ الله ، وأوهن الله ، وزيد الله وأنس الله ، والحر أمهم : أسماء بنت أبى بكر بن عبد مناة بن كنانة ص ٣٨٣



. . . .

ويزيدا بنى سعد العشيرة بن مَذْحج(١) . قاله الدارَقُطْنِى . وذكر فى موضع آخر خلافا فى أسمائهم ، وذكر فيهم بنى غَلِيّ بالغين ، وليس فى العرب غَلِيّ غيره ، قال مهلهل :

أنْكحها فَقْدُها الأراقِمَ فى جَنْبٍ، وكان الحِباء من أَدَم

معنى خلت فى وشيعه

فصل : وذكر حديث عمر ، وقوله للرجل : أكنت كاهناً فى الجاهلية؟ فقال الرجل : سُبْحانَ الله يا أمير المؤمنين لقد خِلْتَ(٢) فىَّ ، واستقبلْتَنى بأمر ما أراك استقبلت به أحداً منذ وليت ! وذكر الحديث ، وقوله : خِلت فىَّ هو من باب حذف الجملة الواقعة بعد خِلت وظننت ، كقولهم فى المثل : مَنْ يسمع يَخَل ، ولا يجوز حذف أحد المفعولين مع بقاء الآخر ، لأن حكمهما حكم الابتداء والخبر ، فإذا حذفت الجملة كلها جاز ؛ لأن حكمهما حكم المفعول ، والمفعول قد يجوز حذفه ، ولكن لابد من قرينة تدل على المراد ، فى قولهم : من يسمع يَخَل دليل يدل على المفعول ، وهو يسمع ، وفى قوله ، خِلْتَ فِىَّ دليل أيضاً ، وهو قوله : فِىَّ ، كأنه قال : خِلتَ الشَّرفِىَّ أو نحو ، هذا وقوله : قبل الإسلام بشهر أو شَيْعه أى : دونه بقليل ، وشَيْع كل شىء : ما هو تَبَع له ، وهو من

---

(١) فى الاشتقاق لابن دريد وهو يتكلم عن مذحج (ومن بطونهم بنو منبه ابن حرب بن يزيد والحارث والغلى وسَيْحان وشُمران وهِفَّان يقال لهم جنب لأنهم جانبوا قومهم) ص ٤٠٥ .

(٢) يقال : خلت بالكسر إخال وهو الأفصح ، وبنو أسد يقولون : أخال بالفتح وهو القياس . المعنى : من يتسمع أخبار الناس ومعايبهم ، يقع فى نفسه عليهم المكروه .



. . . .

الشِّياع وهى : حَطب صغار تجعل مع الكبار تَبعاً لها ، ومنه: الْمُشَيِّعَة، وهى : الشاة تتبع الغنم ، لأنها دونها فى القوة .

جليح وسواد بن قارب :

والصوت الذى سمعه عمر من العجل يا جَلِيح[(١)] سمعت بعض أشياخنا يقول :هو اسم شيطان ، والجليح فى اللغة : ما تطاير من رءوس النبات ، وخف نحو القطن وشبهه ، والواحدة : جليحة ، والذى وقع فى السيرة : ياذريح ، وكأنه نداء للعجل المذبوح لقولهم : أحمر ذَرِيحِىٌّ ، أى : شديد الحمرة ، فصار وصفاً للعجل الذبيح من أجل الدم : ومَن رواه : يا جليح ، فمآله إلى هذا المعنى ؛ لأن العجل قد جُلح أي : كشف عنه الجلد ، فالله أعلم ، وهذا الرجل الذى كان كاهناً هو سواد بن قارب الدوسِىّ فى قول ابن الكلبى ، وقال غيره : هو سَدُوسِىّ (٢) وفيه يقول القائل :

أَلاَ لِلَّهِ علم لا يُجَارَى ... إلى الغايات فى جَنْبى سواد
أتيناه نسائله امتحانا ... فلم يَبْعَل ، وأخبر بالسَّدَادِ(٣)

وهذان البيتان فى شعر وخبر ذكره أبو على القالى فى أماليه ، وروى غير ابن إسحاق هذا الخبر عن عمر على غير هذا الوجه، وأن عمر مازحه، فقال: مافعلت :

---

(١) هذه رواية البخارى .

(٢) قال ابن حبيب : كل سدوس فى العرب مفتوح إلا سدوس بن أجمع ابن أبى عبيد بن ربيعة بن نصر .

(٣) فى الأمالى (وتحسب أن سيعمد بالعناد) والخبر كما قال مطولا فى الأمالى ص ٢٨٩ جـ ٢ ط ٢ والشعر منسوب إلى عارف الشاعر . وهو كلام لخسبه كلام لا يحنو عليه عقل ، ولا يصالحه دين



. . . .

كهانتُك ياسواد؟! فغضب، وقال: قد كنت أنا وأنت على شرٍّ من هذا من عبادة الأصنام وأكل المَيْتَاتِ، أفتُعيرني بأمر تبت منه؟! فقال عمر حينئذ: اللَّهُمَّ غَفْراً. وذكر غير ابن إسحاق في هذا الحديث سِياقَةً حسنة وزيادة مفيدة، وذكر أنه حَدَّث عمر أن رَئِيَّه جاء ثلاث ليال متواليات، هو فيها كلها بين النائم واليقظان، فقال: قم ياسَوَادُ، واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، قد بُعث رسول لله — صلى الله عليه وسلم — من لُؤَيٍّ بن غالب يدعو إلى الله وعبادته، وأنشده في كل ليلة من الثلاث الليالي ثلاثة أبيات معناها واحد وقافيتها مختلفة:

عجبت لِلْجِنِّ وتَطْلابها ... وشَدِّها العِيسَ بِأَقْتابِها
تَهوِى إلى مكةَ تبغى الهــدى ... ما صادقُ الجن كَكَذّابها
فارحَل إلى الصَّفْوَة من هاشم ... ليس قُداماها(١) كأذْنابها

وقال له فى الثانية:

عَجِبْتُ للجن وإبلاسِها ... وشَدِّها العِيسَ بأَحْلاسِها
تَهوِى إلى مكة تبغى الهُدى ... ما طاهرُ الجنِّ كأَنجاسِها
فارْحَل إلى الصفوةِ من هاشمٍ ... ليس ذُنَابى الطيرِ من رأسِها(٢)

---

(١) فى الخصائص للسيوطى: قدام، وهو صحيح المعنى أيضا.

(٢) فى البداية لابن كثير، وفى الخصائص للسيوطى: ما مؤمنوها مثل أرجاسها. واسم بعينيك إلى رأسها. وفى السيرة الحلبية: ما خير الجن كأنجاسها، وارم بعينيك إلى رأسها، بدلا من: «ما طاهر الجن الخ و ليس ذنابى الطير الخ».



. . . .

وقال له فى الثالثة :

عجبت للجنِّ وتنفارِها(١) وشدِّها العيسَ بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ماموْمنُ الجن ككفّارِها(٢)
فارحل إلى الأتقين من هاشمٍ ليس قُداماها كأدبارها(٣)

وذكر تمام الخبر، وفى آخر شعر سواد قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنشده ما كان من الجنى رَئِيِّه ثلاث ليال متواليات ، وذلك قوله :

أتانى نَجِيِّى بعد هَدْءٍ ورَقْدَةٍ(٤) ولم يك فيما قد بَلَوْتُ بكاذب
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلَّ ليلة أتاك نبىٌّ(٥) من لُؤَىِّ بن غالب
فرفّعتُ أذيالَ الإزار وشمّرتْ بِىَ العِرْمِسُ الوَجْناءُ هُجُولَ السَّباسِبِ(٦)
فأشهد أن الله لا شىءَ غيرُه وأنك مأمون على كل غائب

---

(١) فى الخصائص : وتجسارها.
(٢) فى الخصائص : ليس ذو الشر كأخيارها .
(٣) فى الخصائص : مامؤمنو الجن ككفارها .
(٤) فى الخصائص: « رئى ، وليل وهجعة » .
(٥) فى الخصائص : رسول .
(٦) فى الخصائص :
فشمرت عن ساقى الإزار ، ووسطت بى الذِّعلِبُ الوجناء عند السباسب
والعرمس : الناقة الصلبة . والوجناء : العظيمة الوجنتين . والهجول : جمع هجل : المطمئن من الأرض . والسباسب : جمع . سبسب ، وهى المفازة من الأرض ، أو الأرض البعيدة المستوية . والذعلب بكسر الذال واللام أو الذعلبة : الناقة السريعة .

. . . .

وأنكَ أدنَى المرسلين وَسِيلةً (١) إلى الله يا ابنَ الأكرَمين الأطايب

فَمُرْنا بما يأتيك من وحي رَبِّنا (٢) وإن كان فيما جئتَ شَيْبُ الذَّوائِب

وكن لى شفيعا يوم لا ذُو شفاعةٍ بِمُغْنٍ (٣) فَتيلاً عن سَوادِ بن قارب

(١) فى الخصائص : شفاعة، ولا يجوز أن نفهم أنه وسيلة إلى الله إلا بالمعنى الشرعى المحكم الذى ينفى الشرك ، ويثبت التوحيد ، والوسيلة هنا : حبه وحب الله وطاعته وطاعة الله ، أى : اتباع ما جاء به ، والانتهاء عما نهى عنه . أما المعنى الشركى الذى ينفى الإيمان ، فهو أن نتوسل بذاته أو قبره لا بطاعته وحبه .

(٢) فى الخصائص : يا خير من مشى ، وفى رواية : يا خير مرسل .

(٣) فى الخصائص : سواك . وطلب الشفاعة من غير الله هو طلبها ممن لا يملكها ، ولا ينبغى لمسلم أن يطلب من رسول الله الشفاعة ؛ لأنه لا يملكها ، وإنما له أن يطلبها من الله سبحانه ، ولنتدبر معا قوله سبحانه : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » وغيرها من الآيات التى تقطع بأن أحدا لا يملك من أمر الشفاعة شيئا إلا الله سبحانه ، وهذا البيت يؤكد أن القصة موضوعة ، وأن القصيدة مصنوعة ، فلم يكن من دين صحابى ، بل لم يكن من دين مسلم أن يتوجه بطلب الشفاعة إلى رسول الله «ص» . والبيت من البيوت التى يستشهد بها النحويون . والشاهد فيه قوله : « بمغن » حيث أدخل الباء الزائدة فى خبر لا ، كما تدخل فى الخبر المنفى بليس وما ، وذاك قليل ، وهذه الباء لتأكيد النفى عند الكوفيين ، أما عند البصريين فهى لدفع توهم الإثبات . ورأى الكوفيين هو الصحيح . ولا نافية حجازية تعمل عمل ليس ، ولهذا رفعت ذو . وقد روى البخارى قصة سواد بن قارب فى إسلام عمر عن يحيى بن سليمان الجوفى عن ابن وهب ، عن عمرو ـ وهو محمد بن زيد ـ أن سالما حدثه عن عبد الله بن عمر ـ بنحو مما ذكره ابن هشام . وسواد بن قارب من أهل السراة ـ كما قيل ـ من جبال البلقاء له صحبة ـ كما يحكى ـ ووفادة . وقيل : كان من أشراف اليمن ، وهناك فى بعض الطرق التى روى منها هذا الحديث ما يثير حوله الشك ، بل فى ألفاظه نفسها . والقرآن لا يشهد له ، وتدبر قول الله سبحانه : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث =



. . . .

سواد ودوس عند وفاة الرسول « ص » :

واسَوَادِ بن قارب هذا مقامٌ حميدٌ فى دَوْسٍ حين بلغهم وفاةُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقام حينئذ سوادٌ، فقال : يامعشر الأَزْدِ، إن من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم ، ومن شقائهم ألاَّ يتعظوا إلا بأنفسهم، ومن لم تنفعه التجارب ضرته ، ومن لَمْ يَسَعْه الحقُّ لم يسعه الباطلُ ، وإنما تسْلِمون اليوم بما أسلمتم به أمس ، وقد علمتم أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قد تناول قوما أبْعَدَ منكم فَظفِر بهم ، وأَوْعَد قوما أكثر منكم فأخافهم ، ولم يمنعه منكم عُدَّة ولا عدد ، وكل بلاء مَنْسِىٌّ إلا ما بقى أثره فى الناس، ولاينبغى لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكَر من أهل العافية للعافية ، وإنما كَفَّ نبىَّ الله عنكم ما كفَّكم عنه ، فلم تزالوا خارجين مما فيه أهلُ البلاء ، داخلين مما فيه أهلُ العافية ، حتى قدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خطيبُكم ونقيبُكم فَعَبَّر الخطيبُ عن الشاهد ، ونقَّب النقيب عن الغائب ، ولست أدرى لعله تكون للناس جَوْلَةٌ فإن تكن ، فالسَّلَامَةُ منها: الأَنَاةُ ، والله يُحبُّها، فأحِبُّوها . فأجابه القوم وسمعوا قوله ، فقال فى ذلك سوادُ بن قارب :

= لا ترونهم » ، والجليح — كما فسر — هو الوقح المكافح بالعداوة ، وفى رواية . يا آل ذريح ، وهو بطن مشهور فى العرب ، والقلاص : جمع قلص ، وهذه جمع قلوص . الفتية من النياق ، والأحلاس : جمع حلس ما يوضع على ظهر البعير ليق الرجل من الدبر ، وأبلس الرجل : سكت ذليلا أو مغلوبا ، والعيس : الإبل الكرام . انظر ص ١٤٤ ج ٧ فتح البارى ، و ص ٢٥٢ ج ١ الخصائص للسيوطى ج ١ دار الكتب الحديثة ، ص ٦٨ شرح السيرة للخشنى ، وبلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ومجمع الزوائد للهيثمى .



. . . .

جلّت مصيبتُك الغداةَ سواذ ... وأرى المصيبةَ بعدها تزْداد

أبقى لنا فَقْـــدُ النبى محمدٍ ... ـ صلى الإله عليه ـ ما يعتاد

حُزْنا لعَمْرُكَ فى الفؤادِ مُخامِرًا ... أوهل لمن فقـــد النبيَّ فؤاد ؟

كنا نَحُلُّ به جنَابا مُمرِعًا ... جَفَّ الجَنابُ ، فأجدب الرُّوَّادُ

فبكت عليه أرضُنا وسماؤنا ... وتصدَّعت وَجْداً به الأكباد

قَلَّ المتاعُ به ، وكان عِيانُه ... حُلُمًا تضمَّنَ سَكْرَتَيْه رُقاد

كان العِيان هو الطَّريفَ وحزنُه ... باقٍ لَعَمْرُكَ فى النفوسِ تِلاَد

إن النبيَّ وفاته كحياته ... الحقُّ حَقٌّ والجهـــادُ جهادُ

لو قيل : تَفْدُون النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ... بُذِلت له الأموالُ والأَولاد

وتسارعت فيه النفوسُ ببذلِها ... هذا له الأغياب والأشهاد

هذا ، وهذا لا يرد نَبِيَّنا ... لو كان يَفْدِيه فداه سَواد

أنّى أحاذر والحوادثُ جَمَّةٌ ... أمرًا لِعاصفِ ريحه إرْعَادُ

إن حَلَّ منه ما يُخاف فأنتُم ... للأرض ـ إن رجفت بنا ـ أوتاد

لو زاد قومٌ فَوْق مُنْية صاحِبٍ ... زِدْتُم ، وليس لِمُنْيَةٍ مزْدادُ

كاهنة قريش

فأعجب القومَ شِعْرُه، وقولُه : فأجابوا إلى ما أحب ، ومن هذا الباب خَبَرُ سَوْدَاء بنت زُهْرَة بن كلاب ، وذلك أنها حين وُلدت ورآها أبوها زَرْقاء شَيْماء (١) أمر بوأدِها ، وكانوا يَئِدُون مِنَ البنات ما كان على هذه الصفة فأرسلها إلى الحَجُون لتدفن هناك،فلما حفرلها الحافرُ،وأراد دفنها سمع هاتفايقول:

(١) صافية البياض فيها شامة ، تعطيها جمالا .

. . . .

لا تئدْن الصَّبيَّة ، وخلّها فى البريَّة ، فالتفت فلم ير شيئا ، فعاد لدفنها، فسمع الهاتفَ يهتف بسجع آخر فى المعنى ، فرجع إلى أبيها، فأخبره بما سمع ، فقال : إن لها لشأنا ، وتركها، فكانت كاهنةَ قُرَيْش ، فقالت يوما لبنى زُهْرة : إن فيكم نذيرةً، أو تلد نذيراً ، فاعْرِضوا عَلَيَّ بناتكم ، فعُرِضْنَ عليها ، فقالت فى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين ، حتى عُرِضت عليها آمنةُ بنتُ وَهْبٍ ، فقالت : هذه النذيرةُ ، أو تلد نذيرا ، وهو خبر طويلٌ ذكر الزُّبَيْرُ منه يسيرا، وأورده بطوله أبو بكر النَّقَّاشُ ، وفيه ذكر جَهَنَّمَ — أعاذنا اللهُ منها — ولم يكن اسمُ جَهَنَّمَ ، مَسْمُوعا به عندهم ، فقالوا لها : وماجَهَنَّم ، فقالت : سيخبركم النذيرُ عنها (١) .

---

(٢) ليس صدق النبوة فى حاجة إلى أن نكذب له . وتصديق مثل هذه المفتريات تكذيب للقرآن الذى يؤكد أن علم الغيب إنما هو لله وحده . وإذا كان محمد «ص» نفسه لم يكن يعرف الإيمان قبل النبوة ، ولم يكن يعرف بالتالى أنه نبى ، فكيف ننسب هذا العلم إلى غيره من طواغيت الوثنية ؟ ! هذا وبعض اللغويين يقول عن جهنم: إنها معربة ، والأكثرون على أنها عربية أصيلة من جهنام مثلثة الجيم - يقال : ركية جهنام أو جهنم : بعيدة القعر وحديث عاصم بن عمرو هو فى البداية عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى، وفى تفسير ابن كثير : عاصم بن عمرو عن قتادة . ورواه ابن إسحاق أيضا عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة ، أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود ابن سلمة : يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته ،



إنذار يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن سحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن رجال من قومه، قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى وهُداه ، لِمَا كنَّا نسمع من رجال يَهود ، كنَّا أهلَ شِركٍ أصحابَ أوثان ، وكانوا أهلَ كتاب ، عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نِلْنا منهم بعضَ ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه تقارب زمانُ نبيّ يُبعَث الآن نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرَم ، فكنَّا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسولَه صلى الله عليه وسلم أجَبْناه حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرَفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فآمنَّا به ، وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآياتِ من البقرة : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ، وكانُوا مِن قَبلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الَّذِين كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ؛ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرِين﴾ . البقرة : ٧٩

قال ابن هشام : يستفتحون : يستنصرون ، ويستفتحون أيضا : يتحاكمون ، وفي كتاب الله تعالى : ﴿رَبَّنا افْتَحْ بَيْنَنا وَبينَ قَوْمِنا بالحق،

=وقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم .

وقال أبو العالية في تفسير الآية : كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى البيهقي : كانت اليهود تقول : اللهم ابعث لنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس ، يستفتحون به ، أي : يستنصرون به .

وأنتَ خَيْرُ الفاتِحِينَ) . الأعراف : ٨٩ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى صالحُ بن إبراهيم بن عَبْد الرحمن بن عَوْف عن محمود بن لَبيد أخى بَنى عَبْد الأشْهل عن سَلَمة بن سَلامة بن وَقْش ـ وكان سَلَمَةُ من أصحاب بَدْر ـ قال : كان لنا جارٌ من يَهُودَ فى بنى عَبْد الأشْهل ، قال : فخرج علينا يوما من بيته ، حتى وقف على بنى عَبْد الأشْهل — قال سَلَمَةُ : وأنا يومئذ أحْدثُ مَن فيه سِناًّ ، علىَّ بُرْدةٌ لى ، مُضْطَجِعٌ فيها بفِناء أهلى — فذكر القيامةَ والبَعْث والحِساب والميزان والجنَّة والنار ، قال : فقال ذلك لقوم أهلِ شِرْكٍ أصحاب أوثان ، لا يرَوْن أنّ بعثا كائنٌ بعد الموت ، فقالوا له : وَيْحَكَ يافلان !! أوَ ترى هذا كائنا ، أنّ الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنَّة ونار ، يُجزَون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم ، والذى يُحلَف به ، ويوَدُّ أن له بحظِّه من تلك النار أعظمَ تَنُّورٍ فى الدار ، يُحْمُونه ثم يُدخلونه إياه فيُطَيِّنونه عليه ، بأن ينْجو من تلك النار غدا ، فقالوا له : وَيْحكَ يافلان ! فما آية ذلك ؟ قال : نبىٌّ مَبْعوث من نحو هذه البلاد ـ وأشار بيده إلى مكة واليمن ـ فقالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إلىَّ ، وأنا من أحدثهم سِنًّا ، فقال : إن يَسْتَنفِدْ هذا الغلامُ عمرَه يُدْرِكه. قال سَلَمة : فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو حَىٌّ بين أظهرنا ، فآمنَّا به ، وكفر به بَغْيًا وحسداً . قال : فقلنا له : وَيْحكَ يافلان ! ! ألست الذى قلتَ لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى . ولكنْ ليس به .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عُمر بن قَتادة عن شيخ من بنى قُرَيظة قال :



قال لى : هل تدرى عمّ كان إسلام ثعلبة بن سَعْية وأسيد بن سَعْية وأسد ابن عبيد نفرٍ من بنى هَدْل ، إخوة بنى قُريظة ، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا ساداتهم فى الإسلام . قال : قلت : لا ، قال : فإن رجلاً من يهود من أهل الشام ، يقال له : ابن الهَيّبان ، قدم علينا قُبيل الإسلام بسنين ، فحل بين أظْهرنا ، لا والله ما رأينا رجلاً قطُّ لا يصلى الخمس أفضل منه ، فأقام عندنا فكنا إذا قَحط عنا المطرُ قلنا له : اخرُج يابن الهَيّبان فاستسق لنا ، فيقول : لا والله، حتى تُقدّموا بين يدى مَخْرَجكم صدقةً ، فنقول له : كم ؟ فيقول: صاعاً من تمر : أو مُدَّيْن من شعير . قال : فنخرجها ، ثم يَخْرج بنا إلى ظاهر حرّتنا ، فيستسقى اللهَ لنا . فوالله ما يَبْرحُ مجلسه، حتى تمرّ السحابة ونُسْقَى ، قد فعل ذلك غيرَ مرّة ولا مرتين ولا ثلاث . قال : ثم حضرته الوفاةُ عندنا . فلما عرف أنه ميّت ، قال : يامعشر يهودَ ، ما ترونه أخرجنى من أرض الخَمْر والخَمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا : إنك أعلم ، قال : فإنى إنما قدمتُ هذه البلدةَ أتوكّف خروجَ نبىّ قد أظلّ زمانُه ، وهذه البلدة مُهاجَره ، فكنت أرجو أن يُبعثَ ، فأتبعه ، وقد أظلّكم زمانُه ، فلا تُسْبَقُنّ إليه يا معشر يهود ، فإنه يُبعث بسَفْك الدماء ، وسَبْى الذرارى والنساء مِمّن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه . فلما بُعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاصر بنى قُرَيظة ، قال هؤلاء الفتية ، وكانوا شباباً أحداثاً : يا بنى قُرَيظة ، والله إنه للنّبىُّ الذى كان عَهِد إليكم فيه ابنُ الهَيّبان ، قالوا : ليس به ، قالوا : بلى والله ، إنه لهو بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، وأحرزوا دماءهم وأموالَهم وأهليهم .

قال ابن إسحاق : فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

• • • • • • • •

. . . .

حديث سلمة :

فصل : وذكر ابن إسحاق حديث سَلَمَة بن سَلَامَة بن وَقْشٍ ، وما سمع من اليهودى حين ذكر الجنةَ والنار ، وقال : آية ذلك نبيٌّ : مبعوثٌ قد أظلَّ زمانُه إلى آخر الحديث ، وليس فيه إشكال ، وابن وَقْشٍ يقال فيه : وَقَش بتحريك القاف وتسكينها ، والوَقْش : الحركة (١) .

حديث ابن الهيبان وبنوا سعية :

فصل : وذكر حديث ابن الْهَيَّبَان (٢) ، وما بَشَّر به من أَمْرِ النبى — صلى الله عليه وسلم — وأن ذلك كان سببَ إسلام ثعلبة بن سَعْيَة وأَسِيد بن سَعْية وَأَسَدَ بن سَعْيَة ، وهم من بنى هَدْل ، والْهَيَّبَانُ من المسمين بالصفات ، يقال : قُطْن هَيَّبان أى : منتفش ، وأنشد أبو حنيفة :

---

(١) روى حديث ابن وقش أحمد ، وصححه ابن حبان من طريقه ، ورواه البيهقى عن الحاكم بإسناده من طريق يونس بن بكير « ج ٦ ص ٤٥٤ فتح البارى » ص ٣٠٩ ج ٢ البداية . وقد ورد أن اسم الجار اليهودى هو : يوشع ، وهناك بعض كلمات فى أحمد تخالف ما هنا . فقد ذكر فروة مكان بردة ، ويطبقونه مكان يطينونه . ووضع كلمة نحو مكان : إلى فى قوله : إلى مكة . وذكر : ومتى نراه بدلا من : متى تراه ؟

(٢) معناها : الكثير والجبان والتيس والخفيف والراعى والتراب وزبد أفواه الإبل ، وقد يخفف ، وقد يقال : هيفان . بتضعيف الياء مع فتحها - وقوله فى حديث ابن الهيبان : أتوكف خروج نبى : أنتظر وأستشعر . أطل زمانه : أشرف وقرب .



. . . .

تُطِيرُ اللُّغَامَ الْهَيَّبَانَ ، كأنه جَنَى عُشَرٍ تَنفيه أشْداقُها الْهُدْلُ (١)

والْهَيَّبَان أيضا : الجبان ، وقد قدمنا الاختلاف فى هَدَلٍ ، وأما أَسِيد ابن سَعْيَة ، فقال إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف المدنى ، عن ابن إسحاق ، وهوأحد رواة المغازى عنه أُسَيد بن سعية بضم الألف ، وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق ، وهو قول الواقدى وغيره أَسِيد بفتحها قال: الدارَقُطْنِي : وهذا هو الصواب ، ولا يصح ما قاله إبراهيم عن ابن إسحاق ، وبنو سَعْيَةَ هؤلاء فيهم أنزل الله عز وجل(٢) ﴿ من أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمةٌ ﴾ آل عمران : ١١٣ الآية ، وسَعْية أبوهم يقال له : ابن العريض ، وهو بالسِّين المهملة ، والياء المنقوطة باثنين .

---

(١) البيت لذى الرمة يصف إبلا وإزباد مشافرها ، قال الأزهرى : وجنى العشر : يخرج مثل رمانة صغيرة ، فتنشق عن مثل القز ، فشبه لغامها به . . . وهو فى اللسان : تمج . واللغام : زبد أفواه الإبل . والعشر : نوع من الشجر، يحشى فى المخاد . والهدل : استرخاء المشفر الأسفل من الجمل ، أو عظم الشفة واسترخاؤها . وهدل: جمع هدلاء . وفى الروض : خبي عشر تبقيه وهو خطأ .

(٢) فى ابن كثير نقلا عن ابن عباس أنها نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة . وفى مسند أحمد عن ابن مسعود : أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء . ثم خرج إلى المسجد . فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم . فنزلت : (لَيْسُوا سَوَاء من أهل الكتاب — إلى قوله — والله عليم بالمتقين) .



. . . .

سعنة الحبر وإسلامه :

وأما سُعْنَةُ بالنون ، فزيد بن سُعنة حبر من أحبار يهود ، كان قد داين النبيّ — صلى الله عليه وسلم — فجاءه يتقاضاه قبل الأجَل ، فقال : ألا تَقضِينى يا محمد ، فإنكم يابنى عبد المطلب مُطْلٌ ، وما أردت إلا أن أعلم علمكم ، فارتعد عمر ، ودار ، كأنه فى فَلَك ، وجعل يلحظ يميناً وشمالاً ، وقال : تقول هذا لرسول الله ياعدُوّ الله ؟ ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا إلى غير هذا منك أحوجُ ياعمر : أنْ تأمرَنى بحسن الأداء ، وتأمرَه بحسن التَّبِعَة ، قم فاقْضِه عنى ، فو الله ماحل الأجَلُ ، وزده عشرين صاعاً بما روَّعته ، وفى حديث آخر : أنه قال : دعه ؛ فإن لصاحب الحق مقالا ، ويذكر أنه أسلم(١) لما رأى من موافقة وصف النبى عليه السلام لِما كان عنده فى التوراة ، وكان يجده موصوفا بالحلم ، فلما رأى من حِلمه ما رأى أسلم ، وتوفى غازياً مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تَبُوك ، ويقال فى اسمه : سَعْية بالياء كما فى الأول ، ولم يذكره الدارقطنى إلا بالنون .

---

(١) روى قصة إسلامه الطبرانى وابن حبان والحاكم وأبو الشيخ فى كتاب أخلاق النبى - صلى الله عليه وسلم - وغيرهم من طريق الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده عن عبد الله بن سلام ، قال زيد بن سعنة : ما من علامات النبوة شىء إلا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت إليه إلا خصلتين. لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما . . فذكر الحديث بطوله . . ومدار الحديث على محمد بن أبى السرى الراوى له عن الوليد ، وثقه ابن معين ، ولينه أبو حاتم ، وقال ابن عدى : محمد كثير الغلط . وأخرجه أبو نعيم فى الدلائل.



حديث إسلام سلمان رضى الله عنه

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصمُ بن عُمر بن قَتادة الأنصارى ، عن محمود بن لَبيد ، عن عبد الله بن عبَّاس ، قال : حدثنى سَلْمان الفارسى مِنْ فيه قال : كنتُ رجلاً فارسيًّا من أهل إصْبَهان من أهل قَرْية يُقال لها : جَىّ ، وكان أبى دِهْقانَ قَرْيته ، وكنتُ أحبَّ خَلْق اللهِ إليه ، لم يزل به حُبُّه إياى حتى حَبسنى فى بيته كما تُحْبَس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية حتى كنتُ قَطِنَ النار الذى يوقدها ، لا يتركها تَخْبو ساعةً . قال : وكانت لأبى ضيعةٌ عظيمة ، قال:فشُغل فى بُنيانٍ له يوماً ، فقال لى : يا بنى ، إنى قد شُغلت فى بُنيانى هذا اليوم عن ضَيْعتى ، فاذهب إليها ، فاطَّلعها — وأمرنى فيها ببعض ما يُريد — ثم قال لى : ولا تَحْتَبِسْ عنى ؛ فإنك إن احتبستَ عنى كنتَ أهم إلى من ضَيْعتى ، وشَغَلْتنى عن كل شىء من أمرى . قال : فخرجت أريد ضيعتَه التى بعثنى إليها ، فمررتُ بكنيسة من كنائس النَّصارى ، فسمعت أصواتَهم فيها وهم يصلُّون ، وكنت لا أدرى ما أمْرُ الناس ، لِحَبْس أبى إيَّاى فى بيته ، فلما سمتُ أصواتَهم دخلتُ عليهم ، أنظر ما يَصنْعون ، فلما رأيتُهم ، أعجبتْنى صلاتهم ، ورغبتُ فى أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه ، فوالله ما بَرِحْتُهم حتى غَرَبت الشمسُ ، وتركت ضيعة أبى فلم آتِها ، ثم قلت لهم : أين أصْل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . فرجعت إلى أبى ، وقد بعث فى طلبى ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أىْ



بنىّ أين كنت ؟ أو لم أكُنْ عَهِدْتُ إليك ما عهدتُ ؟ قال : قلت له : يا أبتِ ، مررتُ بأناس يصلّون فى كنيسة لهم ، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زِلْت عندهم حتى غرَبت الشمس ، قال : أى بُنى ، ليس فى ذلك الدينِ خيرٌ ، دينُك ، ودينُ آبائك خيرٌ منه ، قال : قلت له : كلا والله ، إنه لخيرٌ من ديننا . قال : نخافنى ، فجعل فى رِجْلَىَّ قيداً ، ثم حبسنى فى بيته .

قال : وبعثت إلى النَّصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركْبٌ من الشام فأخبرونى بهم . قال : فَقَدِم عليهم ركبٌ من الشام تُجار من النصارى ، فأخبرونى بهم ، فقلت لهم : إذا قَضَوْا حوائجَهم ، وأرادُوا الرَّجعة إلى بلادهم ، فآذِنونى بهم : قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم ، أخبرونى بهم ، فألقيتُ الحديدَ من رِجلىّ ، ثم خرجت معهم ، حتى قَدِمْت الشام فلما قَدِمتُها قلت : مَنْ أفضلُ أهل هذا الدين عِلْما ؟ قالوا : الأُسْقُفّ فى الكنيسة .

قال : فجئته ، فقلت له : إنى قد رَغِبْت فى هذا الدين ، فأحببت أن أكونَ معك ، وأخْدُمُك فى كنيستك ، فأتعلَّم منك ، وأصلى معك ، قال : ادخُل ، فدخلت معه . قال : وكان رَجُلَ سَوْء ، يأمرهم بالصدقة ، ويرغِّبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ، ولم يُعْطه المساكين ، حتى جمع سَبْع قِلال من ذهب ووَرِق . قال . فأبغضتهُ بغضا شديدا ، لما رأيته يَصْنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصّارى ، ليدفنوه ، فقُلْتُ لهم : إنّ هذا كان رجلَ سَوْء ، يأمركم بالصدقة ، ويرغّبكم فيها ، فإذا جئتموه بها ، اكتَنَزَها لنفسه ، ولم يُعْطِ المساكينَ منها شيئا . قال : فقالوا لى : وما عِلْمُكَ بذلك ؟

قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدُلَّنا عليه ، قال : فأرَيتُهم موضِعَه ، فاستخرجوا سَبْع قِلال مملوءة ذهبا وَوَرِقا . قال : فلما رأوها قالوا : والله لا نَدْفنه أبداً . قال : فصَلبوه ، ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر ، فجعلوه مكانه .

قال : يقول سلمان : فما رأيتُ رجلا لا يصلي الخمس ، أرىَ أنه كان أفضلَ منه ،وأزهد فى الدنيا ، ولا أرغبَ فى الآخرةولا أدأبَ ليلاولانهاراًمنه . قال : فأحببته حبًّا لم أحبَّهشيئا قبله مِثْلَه . قال : فأقمتُ معهزمانا ، ثم حضرتْه الوفاةُ ، فقلتُله : يافلان ، إنى قد كنت معك،وأحببتك حبًّا لم أحبَّه شيئا قبلك ، وقد حَضَرك ماترى من أمر الله تعالى ، فإلى مَنْ تُوصى بى ؟ وبم تأمرنى ؟ قال : أىْ بُنَىّ ، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه ، فقد هلك الناس ، وبدّلواوتركوا أكْثَر ما كانواعليه ، إلارجلابا لمَوْصِل ، وهو فلان ، وهو على ما كنتُ عليه فالْحق به .

فلما مات وغُيِّب لحقتُ بصاحب المَوْصل ، فقلت له : يا فلان ، إن فلانا أوصانى عند موته أن ألحقَ بك ، وأخبرنى أنكعلى أمره، قال: فقال لى : أقِمْ عندى ، فأقمتُ عنده ، فوجدتُه خيرَ رجلٍ على أمْرِ صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرتْه الوفاة ، قلت له يا فلان : إن فلانا أوصى بى إليك ، وأمرنى باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ماترى ، فإلى من تُوصى بى ؟ وبِمَ تأمرنى؟ قال : يا بنىّ ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنَّا عليه ، إلا رجلا بنَصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

• • • • • • • • • • •



فلما مات وغيِّب لحقت بصاحب نَصيبين ، فأخبرته خبرى ، وما أمرنى به صاحباىَ ، فقال : أقِمْ عندى ، فأقمتُ عنده فوجدته على أمر صاحبيه . فأقمتُ مع خَير رجلٍ ، فو الله مالبِثَ أن نَزل به الموتُ ، فلما حُضِر ، قلت له : يا فلان ، إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى من تُوصى بى ؟ وبِمَ تأمرنى ؟ قال : يا بنىّ ، والله ما أعلمه بَقِى أحدٌ على أمرنا آمُرك أنْ تأتيه إلا رجلاً بعَمُّورِيَةَ من أرض الروم ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأتِه ، فإنه على أمْرِنا .

فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبرى ، فقال : أقِمْ عندى ، فأقمت عند خَير رجلٍ ، على هَدْى أصحابه وأمْرِهم . قال : واكْتَسَبت حتى كانت لى بقرات وغُنَيمة . قال : ثم نزل به أمرُ الله ، فلما حُضِرِ ، قلت له : يا فلان ، إنى كنت مع فلان ، فأوصى بى إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إلى فلان ، ثم أوصى بى فلان إليك ، فإلى مَنْ تُوصى بى ؟ وبِمَ تأمرنى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنَّا عليه مِن الناس آمرك به أن تأتيه ، ولـكنه قد أظلّ زمان نبىّ ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى أرض بين حرّتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى ، يأكل الهديَّة ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كَتِفَيْه خاتَم النبوّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل .

قال : ثم مات وغُيِّب ، ومكثت بعمُّورِيَةَ ماشاء الله أن أمكث ، ثم مرّ بى نَفَر مِنْ كَلْبٍ تجَّار ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب ، وأعطيكم بَقراتى



هذه وغُنَيمتي هذه ، قالوا : نعم فأعْطيتُهُمُوها ، وحملونى معهم ، حتى إذا بلغوا وادى القُرى ظلمونى ، فباعونى من رجل يهودى عبْداً ، فكنت عنده ، ورأيت النخلَ ، فرجوت أن يكون البلد الذى وَصَف لى صاحبى ، ولم يَحِقّ فى نفسي ، فبينا أنا عنده ، إذ قَدِم عليه ابنُ عمّ له من بَنى قُرَيظة من المدينة ، فابتاعنى منه ، فاحتملنى إلى المدينة ، فو الله ما هو إلا أن رأيتها ، فعرفتها بصِفَة صاحبى ، فأقمت بها ، وبُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بمكة ما أقام ، لا أسمع له بذكر ، مع ما أنا فيه من شغل الرّقّ ، ثم هاجر إلى المدينة ، فوالله إنى لفى رأس عَذْق لسيدى أعمل له فيه بعضَ العمل ، وسيِّدى جالس تحتى ، إذ أقبل ابنُ عمّ له ، حتى وقف عليه ، فقال : يا فلان ، قاتل الله بنى قَيْلة ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقُباء على رجل قَدِم عليهم من مكّة اليوم ، يزعمون أنه نبىّ .

قال ابن هشام : قيلة : بنت كاهل بن عُذْرة بن سَعْد بن زَيْد بن لَيْث ابن سَوْد بن أسْلُم بن الحافِ بن قُضاعة ، أم الأوس والخزرج .

قال النعمان بن بَشير الأنصارى يمدح الأَوْسَ والخَزْرَجَ :

بهاليلُ مِنْ أولاد قَيْلة لم يَجِدْ ... عليهم خَليطٌ فى مُخالطةٍ عَتْباً
مسَاميح أبْطال يُرَاحُون للندَى ... يرَوْنَ عليهم فِعْلَ آبائهم نَحْبَا

وهذان البيتان فى قصيدة له :

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عُمر بن قتادة الأنصارىّ ، عن محمود



ابن لَبيد ، عن عبد الله بن عبَّاس ، قال: قال سَلْمان : فلما سمعتُها أخذَتْني العُرَواء . قال ابن هشام : العُرَوَاء : الرِّعدة من البرد والانتفاض ، فإن كان مع ذلك عَرَق فهى الرُّحَضاء ، وكلاهما ممدود ـ حتى ظننتُ أنى سأسقط على سيدى ، فنزلت عن النخلة ، فجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ فغضب سيِّدى ، فلَكمنى لَكْمَةً شديدة ، ثم قال : مالك ولهذا ؟ أَقْبِلْ على عملك . قال : قلت : لاشىء ، إنما أردت أن أستَثبِتَه عما قال .

قال : وقد كان عندى شىء قد جمعته ، فلما أمسيتُ أخذتُه ، ثم ذهبت به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بقُباء ، فدخلت عليه ، فقلت له : إنه قد بلغنى أنك رجلٌ صالح ، ومعك أصحاب لك غُرباء ذَوُو حاجة ، وهذا شىء قد كان عندى للصَّدَقة ، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم ، قال : فقرَّبته إليه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : كلوا ، وأمْسَكَ يدَه ، فلم يأكل . قال : فقلت فى نفسى : هذه واحدة . قال ثم انصرفتُ عنه ، فجَمعت شيئا ، وتحوّل رسول الله ـ صلى الله عليه وسَلَّمَ ـ إلى المدينة ، ثم جئته به ، فقلت له : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هَديَّة أكْرمتكَ بها . قال : فأكل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ، وأمر أصحابه ، فأكلوا معه . قال : فقلت فى نفسى : هاتان ثِنْتَانِ ، قال: ثم جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ببَقيع الغَرْقَدِ ، قد تَبِعَ جِنَازَةَ رجلٍ من أصحابه ، علىّ شَمْلَتَانِ لى ، وهو جالس فى أصحابه ، فسلَّمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره ، هل أرى الخاتمَ الذى وَصف لى صاحبى ، فلما رآنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ



استَدْبَرْتُه ، عَرَفَ أنى أستَثْبِتُ فى شىء وُصف لى ، فألقى رداءه عن ظهره .

فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبّله ، وأبكى . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحوّل ، فتحوّلت فجلستُ بين يديه . فقصصت عليه حديثى ، كما حدّثتُك يابن عبّاس ، فأعجب رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ أن يسمع ذلك أصحابُه . ثم شغل سَلْمانَ الرِّقُّ حتى فاته مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدرٌ و أُحُد .

قال سَلْمانُ : ثم قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتِبْ ياسَلْمان . فكاتبت صاحبى على ثلثمائة نخلة أُحْيِيها له بالفَقِير ، وأربعين أوقية . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : أعينوا أخاكم ، فأعانونى بالنخل ، الرجلُ بثلاثين وَدِيَّةً ، والرجل بعشرين وَدِيَّةً ، والرجل بخَمْسَ عشرةَ وديةً ، والرجل بعشرٍ ، يُعين الرجل بقَدر ماعنده ، حتى اجتمعت لى ثلثمائة وديّةٍ ، فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : اذهب ياسَلْمان فَفَقِّر لها ، فإذا فَرَغت فأْتِنِى ، أكُنْ أنا أضعها بيدى . قال : فَفَقَّرت ، وأعاننى أصحابى ، حتى إذا فرغتُ جئتُه ، فأخبرتهُ ، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معى إليها ، فجعلنا نقرّب إليه الوَدِىّ ، ويضعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده ، حتى فَرَغْنا . فوالذى نَفْس سَلْمان بيده ، ما ماتت منها وَدِيةٌ واحدة . قال : فأدّيتُ النخل ، وبَقِى علىّ المال . فأُتِىَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمثل بَيْضة الدَّجاجة من ذهب ، من بعض المَعادن ، فقال : ما فعل الفارسىّ المُكاتَب ؟ قال : فدُعيت له ، فقال : خُذْ هذه ، فأدِّها ممَّا عليك ياسَلْمان » .



قال : قلت : وأين تَقَع هذه يا رسول الله مما علىّ ؟ فقال : خُذْها ، فإنّ الله سيؤدّى بها عنك . قال : فأخذتها ، فوزنت لهم منها — والذى نفسُ سَلْمان بيده — أربعينَ أوقية ، فأوفيتُهم حقَّهم منها ، وعَتَق سَلْمانُ . فشهدتُ مع رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — الخَنْدَقَ حُرًّا ، ثم لَمْ يَفُتْنى معه مَشْهَدٌ .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حَبيب ، عن رجل من عَبْد القَيْس عن سَلْمان : أنه قال : لمَّا قلت : وأين تقع هذه مِنَ الذى علىّ يارسول الله ؟ أخذها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقلَّبها على لسانه ، ثم قال : خذها فأوْفِهمْ منها . فأخذتها ، فأوفيتهم منها حقَّهم كلَّه ، أربعين أوقية .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عُمَر بن قَتادة ، قال : حدثنى من لاأتهم عن عُمر بن عبدالعزيز بن مَرْوان ، قال : حُدثت عن سلمان الفارسىّ : أنه قال : لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين أخبره خبرَه : إنّ صاحبَ عَمُّورِيَة قال له : ائْتِ كذا وكذا من أرض الشام ، فإنّ بها رجلا بين غَيْضَتَيْن ، يخرج فى كل سنة مِن هذه الغَيْضة إلى هذه الغَيْضة مُسْتَجِيزاً ، يعترضه ذَوُو الأسقام ، فلا يدعو لأحدٍ منهم إلا شُفِى ، فاسأله عن هذا الدين الذى تبتغى ، فهو يخبرك عنه ، قال سَلْمان : فخرجتُ حتى أتيت حيث وصف لى ، فوجدتُ الناسَ قد اجتمعُوا بمَرْضاهم هنالك ، حتى خرج لهم تلك الليلةَ ، مُسْتَجِيزاً من إحدى الغَيْضَتَيْنِ إلى الأخرى ، فغَشِيَه الناسُ بمَرْضاهم ، لا يدعو لمريض إلا شُفِى ، وغلبونى عليه ، فلم أخلُص إليه حتى دخل الغَيْضة التى يريدأن يدخل ،

إلا مَنْـكِبَهُ . قال : فتناولتهُ : فقال : مَنْ هذا ؟ والتفتَ إليَّ ، فقلت : يرحمك الله ، أخبرني عن الحَنِيفِيَّة دين إبراهيم . قال : إنك لتسألني عن شيء ما يسأل عنه الناسُ اليومَ ، قد أظلَّكَ زمانُ نبيّ يُبعث بهذا الدين من أهل الحرم ، فأْتِه فهو يَحْمِلُكَ عليه . قال : ثم دخل . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسلمان : لئن كنتَ صدَقتني يا سلمان ، لقد لقِيتَ عيسى بنَ مَرْيَم على نبيِّنا وعليه السلام .

حديث سلمان :

فصل : وذكر حديث سَلْمان بطوله ، وقال : كنت من أهل إِصْبَهان هكذا قيده البكرى فى كتاب المُعْجَم بالكسر فى الهمزة [١] ، وإصْبَه بالعربية : فَرَسٌ ، وقيل : هو العسكر ، فمعنى الكلمة : موضع العسكر أو الخيل [٢] ، أو نحو هذا . وليس فى حديث سلمان على طوله إشكال ، ووقع فى الأصل

---

(١) فى المراصد : فتح الهمزة هو الأكثر والأشهر .

(٢) فى البكرى : إصبه بلسان الفرس : البلد ، وهان : الفرس ، فمعناه : بلد الفرسان . وقال : إن إصبه بالفارسية : العسكر ، وإن هان معناه : ذاك ، فمعنى الاسم : العسكر ذاك . وفى المراصد : إنها لفظ معرب من سباهان بمعنى : الجيش ، فيكون معناه على حذف المضاف : مدينة الجيش . وإصبهان — كما فى المراصد - مدينة عظيمة ، مشهورة من أعلام المدن وأعيانها . وأصبهان : اسم للاقليم بأسره ، وكانت مدينتها أولا : جيّ ، ثم صارت اليهودية ، وهى من نواحى الجبل .



. . . .

فى هذا الحديث : فلما رآنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ استَدْبَرْتُه ، ورأيت فى حاشية الشيخ : أستَدِيرُ به ، وكذلك وقع فيه : أحييها له بالفَقِير ، وفى حاشية الشيخ : الوجه التَّفْقِير .

أسماء النخلة :

والْفَقِيرُ للنَّخلة (١) . يقال لها فى الكَرْمَة : حَيِيَّة ، وجمعها : حَيَايَا ، وهى الخَفِيرة ، وإذا خرجت النخلة من النواة فهى : ـَرِيسة ، ثم يقال لها: وَدِيَّة ، ثم فَسِيلة ، ثم أَشَاءَة ، فإذا فاتت اليد فهى : جَبَّارة ، وهى الْعَضِيد ، والكَتِيلة ، ويقال للتى لم تخرج من النواة ، لكنها اجْتُثَّتْ من جنب أمها: قَلْعَةَ وجَثِيثة ، وهى الجثائث والهِرَاء ، ويقال للنخلة الطويلة : عَوَانة بلغة عمان ، وعَيْدَانة بلغة غيرهم ، وهى فَيْعالة من عَدَن (٢) بالمكان ، واختلف فيها قول صاحب كتاب العين ، فجعلها تارة : فَيْعالة من عَدَن ، ثم جعلها فى باب المعتل العين فَعْلانة .

ومن الْفَسِيلة حديث أنس : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) فى الخشنى : أحييها له بالفقير ، أى : بالحفر وبالغرس ، يقال : فقر الأرض : إذا حفرها ، ومنه سميت البئر: فقيرا . وقال الوقشى : الصواب هنا: التفقير . وأراد الوقشى هنا : المصدر ، وهو الأحسن . والفقير أيضا : البئر تغرس فيها النخلة الصغيرة ، والمكان السهل يحفر فيه ، ومخرج الماء من القناة

(٢) لزم المكان ، فلم يبرحه .



. . . .

قال : إن قامت الساعة ، وبِيَدِ أحدكم فَسِيلة ، فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة ، فليَغرِسها[1] من مصنف حماد بن سلمة . والذين صحبوا سلمان من النصارى كانوا على الحقّ على دين عيسى بن مريم ، وكانوا ثلاثين يُداولُونه سيداً بعد سيد[2] .

من فقه حديث سلمان :

وذكر فى آخر الحديث أنه جمع شَيْئاً ، فجاء به النبيّ — صلى الله عليه وسلم — ليختبره : أيأكل الصدقة ، أم لا ، فلم يَسْئله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحُرٌّ أنت أم عَبْدٌ ، ولا : من أين لك هذا ، فى هذا من الفِقْهِ : قبولُ الهديَّةِ وتركُ سؤال المُهْدِى ، وكذلك الصَّدقة .

حكم الصدقة للنبى ومصدر مال سلمان :

وفى الحديث : مَنْ قُدِّمَ إليه طعَامٌ فليأكل ولا يَسْئل . وذكر أبو عبيد فى كتاب الأموال حديث سَلْمَانَ حُجَّةً على من قال إن العبد لايملك ، وقال : لو كان لايملِك ماقبل النبى — صلى الله عليه وسلم — صدقَتَه ، ولاقال لأصحابه: كلوا صدقته . ذكر غير ابن إسحاق فى حديث سَلْمان الوجهَ الذى جمع منه سلمانُ ما أهدى للنبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : قال سَلْمان: كنت عبداً لامرأةٍ ، فسألتُ سيدتى أن تهبَ لى يوما ، فعملت فى ذلك اليوم على صاع أو

---

(١) أحمد فى مسنده ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وقال السيوطى : ضعيف

(٢) فى البخارى : تداول سلمان بضعة عشر من رب إلى رب .



. . . .

صاعين من تَمْر ، وجئت به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رأيته لا يأكل الصدقة، سألت سيدتى أن تَهَبَ لى يوما آخر ، فعملت فيه على ذلك، ثم جئت به هدية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقبله وأكل منه، فبيَّن فى هذا الرواية الوجهَ الذى جمع منه سلمانُ ما ذُكر فى حديث ابن إسحاق ، والصدقة التى قال النبى عليه السلام : لا تحِلُّ لمحمد ، ولا لآل محمد هى المفروضة دون التَّطَوُّع ، قاله الشافعى، غير أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن تحل له صدقة الفَرض ولا التطوع ، وهو معنى قول مالك .

وقال الثورى : لا تَحِلُّ الصدقة لآل محمد فرضُها ولا نفْلُها ولا لمواليهم ، لأن مَوْلَى القوم من أنفسهم، بذلك جاء الحديث. وقال مالك : تحل لمواليهم ، وقالت جماعة، منهم أبو يوسف : لا تَحِلُّ لآل محمد صدقة غيرهم، وتَحِلُّ لهم صدقة بعضهم على بعض ، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب (١) .

---

(١) فى حديث رواه مسلم : إنا لا نأكل الصدقة ، وفى حديث رواه أحمد بإسناد قوى : إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة. ويقول القسطلانى : والحكمة فى ذلك صيانة منصبه الشريف عن أوساخ أموال الناس: ويقول الزرقانى عن الصدقة، ولأنها تنبىء عن ذل الآخذ وعز المأخوذ منه . ص ٢٢٠ وما بعدها ج ٥ المواهب اللدنية . أما الهدية فكان يقبلها ، ففى البخارى أنه أهديت إليه ديباج مزررة بالذهب ، فقسمها فى ناس من أصحابه ، وعزل منها واحدا لمخرمة بن نوفل . وفيه أيضا أن ملك أيلة أهدى إليه بغلة بيضاء ، فكساه رسول الله بردة وكان أصحابه يهدون إليه ، فيكافئهم أضعافها.وفى حديث سلمان بضع كلمات إليك معناها . دهقان : شيخ القرية العارف بالفلاحة ، وما يصلح الأرض . قطن النار =



. . . .

أول من مات بعد الهجرة :

وقول سَلمان : فأتيت رسول الله وهو فى جِنَازَةِ بعض أصحابه . صاحبُه الذى مات فى تلك الأيام : كُلثوم بن الهِدْم الذى نزل عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم . قال الطبرى : أول من مات من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة بأيام قليلة : كُلثومُ بن الهِدْم(١) ، ثم مات بعده أسعد بن زُرَارَةَ .

فصل : وذكر ابن إسحاق فى مكاتبة سلمان أنه فَقَر لثلاثمائة وَدِيَّة أى : حفر ، وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضعها كلها بيده ، فلم تمت منها وَدِيَّة واحدة ، وذكر البخارى حديث سَلْمان كما ذكره ابن إسحاق غير أنه ذكر أن سلمان غرس بيده وَدِيَّة واحدة ، وغرس رسول الله ـ

= خادمها . الأسقف فى الكنيسة : هو عالم النصارى الذى يقيم لهم أمر دينهم ، ويقال : أسقف بتخفيف الفاء أو تضعيفها مع ضم الهمزة وإسكان السين وضم القاف . العذق بفتح العين : النخلة . وبكسرها : الكباسة وهى عنقود النخلة وبها ليل : جمع بهلول ، السيد . يراحون ؛ يهتزون . النحب : النذر . العرواء : الرعدة . الشملة . الكساء الغليظ يلتحف به .

(١) ابن امرىء القيس بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصارى الأوسى . ذكر ابن عقبة وغيره أن النبى « ص » نزل عليه بقباء أول ما قدم المدينة . وآخرون قالوا : إنه نزل على سعد بن خيثمه . قال الواقدى : كان نزوله على كلثوم ، وكان يتحدث فى بيت سعد ابن خيثمة ؛ لأن منزله كان منزل القرآن .



. . . .

صلى الله عليه وسلم ـ سائرها ، فعاشت كلها إلا التي غرس سَلْمَانُ . هذا معنى حديث البخاري .

أسطورة نزول عيسى قبل بعثة النبي :

فصل : وذكر عن داود بن الحُصَيْن قال : حدثني مَنْ لا أتهم عن عمر ابن عبد العزيز قال : قال سلمانُ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر خبرَ الرجل الذي كان يخرج مُسْتَجِيزاً من غَيْضَةٍ إلى غَيْضَةٍ ، ويلقاه الناسُ بمرضاهم، فلا يدعو لمريض إلا شُفي ، وأن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : إن كنت صَدَقْتَنِي يا سلمان ، فقد رأيتَ عيسى بن مريم . إسنادُ هذا الحديث مقطوع ، وفيه رجل مجهول ، ويقال: إن ذلك الرجلَ هو الحسنُ بن عمارة (١)، وهو ضعيف بإجماع منهم ، فإنْ صح الحديثُ ، فلا نَكَارَةَ في مَتْنِه ، فقد ذكر الطبري أن المسيح عليه السلام نزل بعد ما رفع ، وأمُّه وامرأةٌ أُخرى عند الجِذْع الذي فيه الصليب يَبْكِيَان (٢)، فكلمهما، وأخبرهما أنه لم يُقْتَل ، وأن الله رفعه

---

(١) وقيل عن الرجل المبهم إنه شيخ عاصم بن عمر بن قتادة . والحديث أيضا منقطع بل معضل بين عمر بن العزيز وسلمان رضى الله عنه . وقوله : لئن كنت صدقتني الخ غريب جداً بل منكر — كما ذكر ابن الأثير في البداية ص ٣١٤ ح ٢ .

(٢) إنها كذبة صليبية لا يجوز ترديدها. وانتدبر أن الله سبحانه لم يذكر لعيسى عليه السلام سوى ثلاثة أطوار ككل البشر : «والسلام عليّ يوم وُلدت، ويوم أمُوت ، ويوم أبعث حيا » كما قيلت تماما عن يحيى ، والصليبيون يزعمون أنه سينزل ، ويجعل العالم كله يكرز بالإنجيل، وآيات نزوله: عودة ملك سليمان إلى اليهود اومن =



. . . .

وأرسل إلى الحواريّين ، ووجههم إلى البلاد ، وإذا جاز أن ينزل مرة جاز أن ينزل مرارا،ولكن لا يُعلم أنه هو حتى ينزلَ النزول الظاهرَ فيكسر الصليبَ ويقتل الخنزيرَ كما جاء فى الصحيح والله أعلم ، ويروى أنه إذا نزل تزوج امرأة من جُذام(١) ، ويدفن إذا مات فى الرَّوضة التى فيها النبى عليه السلام .

= أين جاء الطبرى وغيره بما زعموه عن نزول عيسى؟ وقد يقال هنا — كما قالوا — لئن صح الخبر ، فإنه يدل على أن عيسى قدهرب من الذى جاءوا يطلبونه ليصلبوه، وأن هؤلاء الطالبين أخذوا غيره ، وأن الذين رأوا عيسى بعد هذا ظنوا أنه بعث بعد صلبه ؛ إذ كانوا يظنون أنه قد أخذ ، وصلب .

(١) لا يستفيد من ترديد مثل هذا سوى الذين يحبون القضاء على الإسلام . وقد روى حديث نزول عيسى الشيخان والترمذى وأحمد ، أما تزوجه فقد ذكره ابن الجوزى فى كتاب الوفا . وقد قيل: إن هذا الحديث معارض فى دلالته بما تدل عليه أحاديث أخرى . كالحديث الذى ورد فى الصحيحين دالا على أن الحبش سينقضون الكعبة ، والحديث الذى ورد فى البخارى مؤكدا أن بين يدى الساعة أى : قرب مجيئها — أياما ينزل فيها الجهل ، ويرفع العلم ، ويكثر فيها الهرج — أى القتل — وكالحديث الذى شكا فيه بعض الناس لأنس من ظلم الحجاج فقال لهم : اصبروا فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم . على حين يذكر فى حديث عيسى أنه سيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، وأن المال سيفيض حتى لا يقبله أحد ، كما يؤكد زوال الشحناء والتباغض والتحاسد ، فأين هذا من ذاك؟ وهل يعتبر هذا شراً من أيامنا هذه ، كما يقول الحديث السابق ؟ وقيل : إنه معارض أيضا بقوله سبحانه الذى يقص به قول عيسى يوم القيامة : « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم . فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »،فأين الحديث هنا عن كسر الصليب وقتل الخنزير ؟ لماذا لم يقل : فلما أنزلتنى فعلت وفعلت ، وعلمت أنهم غيروا !؟



ذكر ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى وعبيد الله

ابن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل

قال ابن إسحاق : واجتمعت قُرَيش يوما فى عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظِّمونه ويَنْحَرُون له ، ويعكُفُون عنده ، ويُديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم ، فى كل سنة يوما ، فخلَص منهم أربعةُ نَفَر نَجِيًّا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقُوا ، وليكتُم بعضُكم على بعض ، قالوا : أجل، وهم : وَرَقة ابن نَوْفل بن أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَىّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لؤى، وعُبيد الله بن جَحْش بن رِئاب بن يَعْمَر بن صَبْرة بن مُرّة بن كبير بن غَنْم ابن دُودان بن أسد بن خُزَيْمَة ، وكانت أمه أُمَيْمَةَ بنت عبد المطلب . وعثمان ابن الحُوَيْرِث بن أسَد بن عبد العُزّى بن قُصى ، وَزَيد بن عَمْرو بن نُفَيل ابن عبد العُزَّى بن عبد الله بن قُرْط بن رِيَاح بن رِزَاح بن عدىّ بن كَعْب ابن لؤىّ ، فقال بعضهم لبعضٍ : تعلَّموا والله ما قومُكم على شيء ! لقد أخْطَئُوا دينَ أبيهم إبراهيم ! ما حجَرٌ نُطيف به ، لا يسمع ولا يُبْصر ، ولا يضرّ ولا ينفع؟! ياقوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرّقوا فى البُلْدان يلتمسون الحنيفية ، دينَ إبراهيم .

فأمَّا وَرَقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية ، واتَّبعَ الكتبَ من أهلها ، حتى علم علما من أهل الكتاب . وأمّا عُبيد الله بن جَحْش ، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأتهُ أمّ



حَبيبة بنت أبى سُفيان مُسْلِمَةً ، فلما قدمها تنصَّر ، وفارق الإسلام ، حتى هلك هنالك نَصْرانيًّا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى محمد بن جعفر بن الزُّبير ؛ قال : كان عُبَيدالله ابن جَحْش — حين تنصَّر — يَمُرّ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم هنالك من أرض الحبشة ، فيقول : فقَّحْنا وصَأْصَأْتُمْ ، أى : أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ، ولم تُبصروا بعد ، وذلك أن وَلَد الكَلْب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر ، صأصأ ؛ لينظر . وقوله : فقّح : فتح عينيه .

قال ابنُ إسحاق : وخَلَف رسولُ الله صلى عليه وسلم بعده على امرأته أم حَبيبة بنت أبى سفيان بن حَرْب .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن علىّ بن حسين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فيها إلى النَّجَاشىّ عَمْرو بن أُميَّة الضَّمْرِىّ ، فخطبها عليه النجاشى ؛ فزوّجه إياها ، وأصدقها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار . فقال محمد بنُ علىّ : ما نرى عبدَ الملك بن مَرْوان وَقَفَ صَدَاقَ النساء على أربعمائة دينار إلا عن ذلك . وكان الذى أمْلكها للنَّبِىّ صلى الله عليه وسلم خَالدُ بن سَعيد بن العاص .

قال ابن إسحاق : وأمَّا عثمان بن الحُوَيرث ، فَقَدِمَ على قَيْصَرَ ملك الروم فتنصَّر ، وحسنت منزلته عنده . قال ابن هشام : ولعثمان بن الحُوَيرث عند قيصر حديثٌ ، منعنى من ذكره ما ذكرتُ فى حديث حرب الفِجَار .



قال ابن إسحاق : وأمّا زيد بن عَمْرو بن نُفَيل فوقف ، فلم يدخل فى يهوديّة ولا نَصْرانية ، وفارق دينَ قومه ، فاعتزل الأوثان والمَيْتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ، وَنهَى عن قتل المَوءودة ، وقال : أعْبدُ ربّ إبراهيم ، وبادَى قومَه بعَيْبِ ما هم عليه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى هشام بن عُرْوَة عن أبيه ، عن أمّه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، قال : لقد رأيت زيدَ بن عمرو بن نُفَيل شيخا كبيرا مُسْنِداً ظهرَه إلى الكعبة ، وهو يقول : يا مَعْشَرَ قريش ، والذى نفسُ زيدِ ابن عمرو بيده : ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهمّ لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحبّ إليك عَبدَتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

قال ابن إسحاق : وحُدّثت أن ابنَه سعيدَ بن زَيْد بن عمرو بن نُفَيْل وعُمرَ بن الخطاب ، وهو ابن عمّه ، قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنَسْتَغْفِر لزيد بن عمرو ؟ قال : نعم ، فإنه يُبعث أمّةً وحده .

وقال زيد بن عُمرو بن نُفَيْلٍ فى فِراق دين قومه ، وما كان لَقِىَ منهم فى ذلك :

أرَبًّا واحِداً ، أمْ ألفَ رَبّ ... أدينُ إذا تُقُسِّمت الأمُورُ
عَزَلْتُ اللاّتَ والعُزّى جميعاً ... كَذَلك يَفْعَل الجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلا العُزّى ، أدينُ ولا ابْنَتَيْها ... ولا صَنَمَىْ بنى عمرٍو أزُورُ

ولا هُبَلاً أدينُ ، وكانَ رَبًّا لنَا فى الدَّهر إذْ حِلْمِى يَسِيرُ
عَجِبْتُ . وفى اللَّيالى مُعْجِباتٌ وفى الأيَّامِ يَعْرِفُها البَصيرُ
بأنَّ اللهَ قَدْ أفْنَى رِجالاً كثيراً كان شأنَهُمُ الفُجُورُ
وأبقى آخَرين بِبِرِّ قَوْمٍ فيَرْبُلُ مِنْهُمُ الطفلُ الصَّغيرُ
وَبَيْنا الْمَرْءُ يعثُرُ ثاب يوما كما يَتَروّح الغُصْن الْمَطيرُ
وَلَكِنْ أعْبُدُ الرَّحمنَ ربى ليَغْفِرَ ذَنْبِىَ الرَّبُّ الغَفُورُ
فتَقْوَى الله رَبِّكُمُ احفَظُوها مَتى ما تَحْفَظُوها . لا تَبُورُوا
تَرَى الأبْرَارَ . دَارُهُمُ جِنان وللكُفَّارِ حامِيَةٌ سَعِيرُ
وخِزْىٌ فِى الحياةِ وَإنْ يَمُوتوا يُلاقُوا ما تَضيقُ بِه الصُّدُورُ

وقال زيد بن عمرو بن نفيل أيضاً — قال ابن هشام : هى لِأُمَيَّةَ بن أبى الصَّلْتِ فى قصيدة له . إلا البيتين الأولين والبيت الخامس وآخرها بيتا . وعجز البيت الأول عن غير ابن إسحاق : —

إلى اللهِ أُهْدِى مِدْحتى وثَنائِيا وقَوْلاً رَصِيناً لا يَنِى الدَّهرَ باقِياَ
إلى المَلِكِ الأعلى الذى ليس فوقه إلٰه ، وَلا رَبٌّ يكونُ مُدَانِيا
ألا أيها الإنسانُ إيَّاك والرَّدَى فإنَّك لا تَخْفِى مِنَ اللهِ خافِياَ
وإيَّاكَ لا تجعَلْ معَ الله غيرَه فإنَّ سَبيلَ الرُّشْد أصبحَ بادِياَ
حَنانَيْكَ إن الجن كانت رَجاءَهم وأنتَ إلٰهى رَبُّنا وَرَجائِياَ
رضِيتُ بكَ — اللَّهم — رَبًّا فلن أُرَى أدينُ إلٰهاً غيركَ اللهُ ثانِيا

وأنت الذى مِنْ فضل مَنٍّ ورحمة بعثتَ إلى موسى رسولاً مُنَادِياً

فقلت له : يا اذْهَبْ وهارون فادْعُوَا إلى الله فِرْعَوْنَ الذى كان طاغيا

وقولا له : آ أنتَ سَوّيت هذه بلا وَتَدٍ ، حتى اطمأنَّتْ كما هيا

وقولا له : آ أنت رفَّعت هذه بلا عَمَدٍ ، أَرْفِقْ - إذاً - بك بانيا

وقولا له : آ أنت سوّيت وَسْطها مُنيراً ، إذا ما جَنَّه اللَّيلُ هادِيا

وقولا له : من يُرْسلُ الشمسَ غُدوةً

فيُصْبح ما مسَّت من الأرض ضاحيا

وقولا له : من يُنْبت الحبَّ فى الثَّرى

فيُصبح منه البَقْلُ يَهْـــتزّ رابيا

ويُخرج منه حبَّه فى رءوسه وفى ذاك آياتٌ لمن كان وَاعِيا

وأنت بفَضْل منكَ نجَّيْت يُونُسًا وقد بات فى أضعاف حُوتٍ لياليا

وإنى لو سبَّحْتُ باسمِكَ ربَّنا لَأُكْثِر - إلا ما غفرتَ - خَطائيا

فربَّ العِبادِ أَلْقِ سَيْبا ورحمةً علىّ ، وبارك فى بَنِىَّ وماليا

وقال زيد بن عمرو يعاتب امرأته صفية بنت الحضرمىّ .

قال ابن هشام : واسم الحضرمىّ : عبدُ الله أحد الصَّدِف، واسم الصَّدِف : عمرو بن مالك أحد السَّكون بن أشْرَس بن كِنْدِىّ ، ويقال : كِنْدة بنُ ثَوْر بن مُرتِّع بن عُفَيْر بن عَدِىّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدَدَ ابن زيد بن مِهْسَع ابن عمرو ابن عريب بن زيد بن كَهْلَانِ بن سبأ ، ويقال : مُرْتِع بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

قال ابن إسحاق: وكان زيد بن عمرو قد أجمع الخروجَ من مكة، ليضرب في الأرضِ يطلب الحنيفية دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فكانت صَفيةُ بنت الحضرمي كلما رأته قد تهيأ للخروج، وأراده، آذنت به الخطّاب بن نُفَيل، وكان الخطّاب ابنُ نُفَيل عمه وأخاه لأمه، وكان يُعاتبه على فِراق دين قومه، وكان الخطّاب قد وكّل صفيَّة به، وقال: إذا رأيتيه قد همّ بأمر فآذِنيني به — فقال زيد:

لا تحبسيني في الهوا ... نِ صفيُّ ما دابي ودابُهْ
إني إذا خِفْتُ الهوا ... نَ، مُشَيَّعٌ ذُلُلٌ رِكابه
دُعْمُوصُ أبوابِ الملو ... كَ وجائبٌ للخَرْقِ نابُه
قَطّاع أسباب تذِل ... بغير أقرانٍ صِعابه
وإنما أخذ الهوا ... نَ العَيْرُ إذ يُوهَى إهابه
ويقول: إني لا أذلّ ... بصكّ جَنْبيه صِلابه
وأخي ابن أُمّيَ، ثم عَمّـ ... ـيَ لا يُواتيني خطابه
وإذا يُعاتبني بسُو ... ءٍ قلت: أعياني جَوابه
ولو أشاء لقلت: ما ... عندي مَفاتحُهُ وبابه

قال ابن إسحاق: وحُدِّثت عن بعض أهل زَيْد بن عمرو بن نُفَيل: أن زيداً إذا كان استقبل الكعبة داخل المسجد، قال: لبيّك حقًّا حقا، تعبُّداً ورِقًّا.

عُذْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ إبراهِيم ، مستقبلَ القبلة ، وهو قائمٌ

إذ قال :

أنفي لك اللهمَّ عانٍ راغمُ مهما تُجَشِّمْني فإني جاشمُ

البرَّ أبغي لا الخال ، ليس مُهَجِّرٌ كمن قال .

قال ابن هشام : ويقال : البر أَبقَى لا الخال ، ليس مُهَجِّرٌ كمن قال : قال وقوله : « مستقبل الكعبة » عن بعض أهل العلم .

قال ابن إسحاق : وقال زيد بن عمرو بن نُفيل :

وأسلمْتُ وَجْهِي لمن أسلمتْ له الأرضُ تحمِلُ صخراً ثِقالا

دَحاها فلمّا رآها اسْتَوَت على الماء ، أرسَى عليها الجبالا

وأسلمْتُ وَجْهِي لمن أسلمتْ له المُزْنُ تَحمِل عَذْبا زُلالا

إذا هي سِيقَت إلى بَلْدَةٍ أطاعَت ، فَصَبَّت عليها سِجالا

وكان الخطاب قد آذى زيدا ، حتى أخرجه إلى أعلى مكة ، فنزل حِراء مقابل مكة ، ووكّل به الخطابُ شبابا من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم ، فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة ، فكان لا يدخلها إلا سرًّا منهم ، فإذا علموا بذلك ، آذنوا به الخطّاب ، فأخرجوه ، وآذَوْه كراهيةَ أن يُفْسد عليهم دينَهُم ، وأن يُتابعه أحدٌ منهم على فِرَاقه . فقال - وهو يعظِّم حرْمته على من استحلَّ منه ما استحل من قومه :

لَاهُمَّ إنى مُحْرِمٌ لا حِلَّهْ   وإنّ بَيْتِى أَوْسَطَ الْمَحِلَّهْ
عند الصَّفَا ليس بذى مَضَلَّهْ

ثم خرج يطلب دينَ إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار ، حتى بلغ المَوْصِلَ والجزيرة كلّها ، ثم أقبل فجال الشّامَ كلَّه ، حتى انتهى إلى راهب بِمَيْفَعَةَ من أرض البَلْقَاء ، كان ينتهى إليه عِلْمُ أهلِ النّصرانية فيما يزعمون ، فسأله عن الحنيفيَّةِ دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطلب دينا ما أنت بواجدٍ مَنْ يَحملك عليه اليومَ ، ولكن قد أظلَّ زمانُ نبىّ يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفيَّة ، فالْحَق بها ، فإنه مبعوثٌ الآن ، هذا زمانه ، وقد كان شامَّ اليهوديةَ والنّصرانيةَ ، فلم يَرْضَ شيئاً منهما ، فخرج سريعاً ، حين قال له ذلك الراهبُ ما قال ، يريد مكة ، حتى إذا توسَّط بلاد لَخْمٍ ، عَدَوْا عليه فقتلوه ـ فقال وَرَقَةُ بن نوفل بن أسد يبكيه :

رَشَدْتَ ، وأنعمتَ ابنَ عمرو ، وإنّما   تجنَّبْت تنُّوراً من النَّار حامِياً
بدِينِكَ ربّاً ليس ربٌّ كمِثْله   وتَرْكِكَ أوثانَ الطَّواغى كما هِيا
وإدْرَاكِكَ الدينَ الذى قد طلبتَه   ولم تَكُ عن تَوْحيد ربِّك ساهيا
فأصبحت فى دارٍ كريمٍ مُقامُها   تُعَلَّلُ فيها بالكرامة لاهيا
تُلاقى خَليلَ الله فيها ، ولم تَكُنْ   من النَّاس جَبَّاراً إلى الدار هاويا
وقد تُدرِكُ الإنسانَ رحمةُ ربِّه   ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

قال ابن هشام : يُروى لِأُمَيَّةَ بن أبى الصَّلْت البيتان الأولان منها ، وآخرها

بيتا فى قصيدة له . وقوله : « أوثان الطواغى » عن غير ابن إسحاق .

ذكر حديث ورقة بن نوفل :

فصل : وذكر حديث وَرَقَة بن نوفل (١) ، وعبيد الله بن جَحْش ، وعثمان ابن الْحُوَيْرِث ، وزَيْد بن عَمْرو بن نُفَيْل وما تَنَاجَوْا به ، وقال : زيد بن عمرو ابن نفيل إلى آخر النسب ، والمعروفُ فى نسبه ونسب ابن عمه عمر بن الخطاب : نُفَيل بن رِياح(٢) بن عبد الله بن قُرْط بن رِزاح(٣) بتقديم رياح على

---

(١) نسب ورقة ، هو ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب وقد تقدم الكلام عنه . وفى الصحيحين ما يدل على أنه لقى النبى ، ولكنه مات قبل أن يدعو رسول الله إلى الإسلام . وحديث رؤية النبى لورقة فى الجنة حديثه منقطع ، وحديث أنه سأل رسول الله « ص » عن كيفية مجىء الوحى ، وأنه قال : يأتينى من السماء وجناحاه لؤلؤ ، وباطن قدميه أخضر . هذا مروى عن طريق روح بن مسافر ، وهو أحد الضعفاء ، والحديث فى روايته سماع ابن عباس من ورقة ، وابن عساكر يقول : لم يسمع ابن عباس من ورقة ، ولا أعرف أحدا قال : إنه أسلم .

(٢) فى الإصابة : نفيل بن عبد العزى بن رياح .

(٣) فى الإصابة بعده : ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب . وإليك ماذكر المصعب الزبيرى عن هذا النسب : عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح ابن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ص ٣٤٦ نسب قريش ، ورزاح بكسر الراء وفتحها . والفتح عند الدارقطنى . وقد وردت عن زيد عدة أحاديث ، منها مارواه البخارى ، وفيه : « كان يحيى الموءودة يقول للرجل ، إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيكها مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤنتها » .

وحديث إسناد ظهره إلى الكعبة ـ وسيأتى فى الروض ـ أخرجه البخارى من =



. . . .

عبد الله ، ورِزاح بكسر الراء قيده الشيخُ أبو بحر ، وزَعم الدارَقُطْنى أنه رَزاح بالفتح ، وإنما رِزاح بالكسر : رِزاح بن ربيعة أخو قُصَىٍّ لأمه الذى تقدم ذكره(١) .

الزواج من امرأة الأب فى الجاهلية :

وأمُّ زيد هى : الحَيْدَاء بنت خالد الفَهْمية ، وهى امرأة جده نُفَيْل ولدت له الخَطَّابَ (٢) فهو أخو الخطاب لأمه ، وابن أخيه ، وكان ذلك مُبَاحا فى الجاهلية بشرع متقدِّم(٣) ،ولم تكن من الحُرُمَاتِ التى انتهكوها ، ولا من العظائم التى ابتدعوها ، لأنه أمر كان فى عمود نسب رسول الله — صلى الله

طريق هشام من طريق الليث تعليقا ، والنسائى من طريق أبى أسامة ، والبغوى من طريق على بن مسهر كلهم عن هشام ، وزادوا فيه : « يحيى الموءودة يقول للرجل إن أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، فأنا أكفيك مئونتها » ، وورد فى رواية الطبرانى أنه كان يسجد للكعبة بدلا من راحته وقال عنه ابن دريد فى الجمهرة : رفض الأوثان فى الجاهلية ، وامتنع من أكل ما ذبح لغير الله — عزوجل — والتزم الحنيفية دين إبراهيم ، إلى أن قتله أهل ميفعة ، قرية من قرى البلقاء بقرب دمشق من لخم أو جذام .

(١) والحديث الذى ذكره ابن إسحاق ، وفيه سؤال سعيد بن زيد وعمر ، بن الخطاب لرسول صلى الله عليه وسلم الاستغفار لزيد . . . فى رواية أحمد والطبرانى والبزار أن سعيدا هو الذى سأل ، وقال البيهقى عن الحديث : فيه المسعودى وقد اختلط ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) وكان عمرو بن نفيل قد خلف على امرأة أبيه بعد أبيه ، وكان لها من نفيل أخوه الخطاب .

(٣) من أين له هذا ؟



. . . .

عليه وسلم — فكنانة تزوج امرأة أبيه خُزَيْمة ، وهى بَرَّةُ بنت مُرٍّ ، فولدت له النَّضْرَ بن كنانة ، وهاشمٌ أيضا قد تزوج امرأة أبيه واقدة فولدت له ضعيفة (١) ، ولكن هو خارج عن عمود نسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم —لأنها لم تلد جَدًّا له ، أعنى : واقِدة ، وقد قال عليه السلام : أنا من نكاح لا من سِفاح (٢) ، ولذلك قال سبحانه : (ولاَ تَنْكِحُوا ما نكح آباؤُكم من النساء إلاَّ ما قد سَلَف) النساء : ٢٢ . أى : إلا ما سلف من تحليل ذلك قبل الإسلام: وفائدة هذا الاستثناء ألاَّ يُعاب نسبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) وليعلم أنه لم يكن فى أجداده من كان لِغَيَّةٍ (٤) ولا من سِفاح . ألا ترى أنه لم يقل فى شىء نهى عنه فى القرآن : إلا ما قد سلف ، نحو قوله : (ولا تقربوا الزِّنا) ولم يقل إلا ما قد سلف : (ولا تقتلوا النفسَ التى حَرَّم الله) الإسراء : ٣٠ ولم يقل إلا ما قد سلف ، ولا فى شىء من المعاصى التى نهى عنها إلا فى هذه ، وفى الجمع بين الأختين ؛ لأن الجمع بين الأختين قد كان مباحا أيضا فى شرع من قبلنا ، وقد جمع يعقوبُ بين راحِيل وأختها لِيَا (٥) فقوله : إلا ما قد سلف

---

(١) يقول المصعب الزبيرى فى نسب قريش ص ١٧ : « وكانت ضعيفة بنت هاشم عند عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فولدت له عبد يغوث ، وعبيد يغوث »

(٢) لا ريب فى طهارة نسبه الشريف ، ولا ريب فى أنه كان من نكاح صحيح بين عبد الله أبيه وآمنة أمه . لكن هذه الأحاديث التى ترفع هذه الكلية ، حتى آدم أحاديث ضعيفة ، ولهذا لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة ، فلا تراها إلا عند ابن سعد وابن عساكر وابن أبى شيبة . وأحسن تعبير عن هذه الحقيقة جزء من حديث أخرجه أبو نعيم : « لم يلتق أبواى قط على سفاح » .

(٣) لا يجوز قصر الآية على ما ذكر وحده .

(٤) الزِّنا ، ويقال بكسر الغين وفتحها .

(٥) هما فى سفر التكوين : راحيل وليئة ابنتا لابان ، وقصتهما مع يعقوب =



. . . .

الْتِفَاتَةٌ إلى هذا المعنى، وتنبيه على هذا المغزَى ، وهذه النكتة لَقِنْتُها من شيخنا الإمام الحافظ أبي بكر محمد بن العربي ـ رحمه الله ـ وزيد هذا هو : والد سعيد ابن زيد أحد العشرة الذين شُهِد لهم بالجنة ، وأم سعيد : فاطمة بنت نَعْجَة ابن خلف الْخُزاعي [عند الزبير : بَعْجَة بن أُمَيَّة بن خُوَيْلِد بن خالد بن اليعمر بن خزاعة] .

تفسير بعض قول ابن جحش :

وذكر قول عبد الله بن جحش حين تنصر بالحبشة : فقَّحْنا وصَأْصَأْتُم ، وشرح فَقَّحْنا بقوله : فقَّح الجَرُوُ : إذا فتح عينيه ، وهكذا ذكره أبو عبيد ، وزاد: جَصَّص أيضا ، وذكر أبو عبيد : بَصَّص بالباء حكاها عن أبي زيد (١) ، وقال القالى : إنما رواه البصريون عن أبي زيد بياء منقوطة باثنتين ، لأن الياء تبدل من الجيم كثيرا كما تقول : أيل وأجل ، ولرواية أبي عبيد وَجْهٌ ، وهو أن يكون بَصَّص من البصيص ، وهو البريق .

بعض الذين تنصروا :

فصل : وذكر عثمان بن الْحُوَيْرِث مع زيد ، وورقة وعبيدالله بن جحش ، ثم قال : وأما عثمان بن الحويرث فإنه ذهب إلى الشام ، وله فيها مع قيصر خبر ، ولم يذكر ذلك الخبر ، وذكر الْبَرْقِيُّ عن ابن إسحاق أن عثمان بن الْحُوَيْرِث قدم على قيصر ، فقال له : إني أجعل لك خَرْجا على قريش إن جاءوا

ـــــــــــ

= في الإصحاح التاسع والعشرين من التكوين ، وفيه أن لابان خدع يعقوب وزوجه غير التي كان يريدها أولا ، لأنها الكبرى ، ثم زوجه ليئة .

(١) في القاموس : بصص الجرو : جصص . وانظر ص ١٣٦ نوادر أبي زيد



الشام لتجارتهم ، وإلا منعتهم ، فأراد قيصر أن يفعل فخرج سعيد بن العاصى ابن أُمَيَّة وأبو ذئب ، وهو : هشام بن شُعْبة بن عبد الله بن أبى قيس بن عبدوَدِّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر إلى الشام ، فأُخذا فحبسا ، فمات أبو ذئب فى الحبس ، وأما سعيد بن العاصى ، فإنه خرج الوليد بن المغيرة ، وهو أمية فتخلصوه فى حديث طويل ، رواه ابن إسحاق عن يعقوب بن عُتْبَة بن المغيرة ابن الأَخْنَسِ . وأبو ذئب الذى ذكر هو : جد الفقيه محمد بن عبد الرحمن ابن المغيرة بن الحارث بن أبى ذئب ، يُكَنَّى : أبا الحارث من فقهاء المدينة، وأمه بُرَيْهَةُ بنت عبد الرحمن بن أبى ذئب ، وأما الزبير فذكر أن قيصر كان قد توّج عُثْمانَ ، وولاّه أمر مكة ، فلما جاءهم بذلك أَنِفوا من أن يدينوا الملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى : ألا إنَّ مكة حَيٌّ لَقَاحٌ لا تدين الملك (١) . فلم يتم له مرادُه ، قال : وكان يقال له : البِطْرِيق (٢) ، ولا عقب له ، ومات بالشام مسموما، سمه عَمْرُو بن جَفْنَةَ الغَسَّانى الملك .

اعتزال زيد بن عمرو بن نفيل الأوثان :

فصل : وذكر اعتزال زيد الأوثان وتركه طواغيتَهم ، وتركه أكل ما نُحِرَ [على الأوثان] (٣) والنُّصُبِ . روى البخارى عن محمد بن أبى بكر ،

---

(١) أى لا تخضع للملوك .

(٢) فى القاموس : البطريق : كـكبريت ، القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل ، ثم الطرخان على خمسة آلاف ، ثم القـومس على مائتين ، والختال .

(٣) ما بين القوسين زدته من السيرة .



. . . .

قال : أخبرنا فُضَيْل بن سليمان ، قال : أخبرنا موسى ، قال : حدثني سالم ابن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لقي زيدَ ابن عَمْرو بن نُفَيْل بأسفل بَلْدَح (١) قبل أن ينزل على النبي – عليه السلام – الوحي ، فقُدِّمت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم ، سُفْرةٌ أو قدَّمها إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد: إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا ماذُكر اسمُ الله عليه ، وأن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ، ويقول : الشاةُ خلقها الله ، وأنزل لها من السماء الماء ، وأنبت لها من الأرض الْكَلَأَ ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟! إنكاراً لذلك ، وإعظاما له . قال موسى بن سالم بن عبد الله : ولا أعلم إلا ما تُحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نُفَيْل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ، ويَتْبَعُه، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم ، وقال له إني لعلي أن أدين بدينكم ، فأخبِرُوني ، فقال: لا تكون على ديننا، حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، قال زيد : ما أفرُّ إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً ، وأنَّى أستطيعه ، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا ، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نَصْرانيا ، ولا يعبد إلا الله ، فخرج زيد فلقى عالما من النصارى ، فذكر مثله ، فقال لن : تكون على ديننا، حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفرّ إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئاً أبدا ، وأنى أستطيع ، فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن

---

(١) بلدح : واد قبل مكة من جهة المغرب ، أو مكان في طريق التنعيم .



. . . .

يكون حنيفا ، قال: وما الحنيفُ ؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله ، فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إنى أُشْهِدُك أنى على دين إبراهيم. وقال الليث: كتب إلىّ هشام بن عُرْوَةَ عن أبيه، عن أسماء بنت أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نُفَيْل قائما مُسنِداً ظهرَه إلى الكعبة ، يقول : يا معشر قريش ، والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى، وكان يُحْيِي المَوْءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أكفيك مَئُونتها، فيأخذها، فإذا تَرَعْرَعَت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مَئُونتها. إلى هاهنا انتهى حديث البخارى.
وفيه سؤال يقال: كيف وفق الله زيداً إلى ترك أكل ما ذبح على النُّصُب، وما لم يذكر اسمُ الله عليه ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان أولى بهذه الفضيلة فى الجاهلية لما ثبت الله له ؟ فالجواب من وجهين ، أحدهما : أنه ليس فى الحديث حين لقيه بِبَلْدَح ، فقُدِّمت إليه السُّفْرَة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أكل منها ، وإنما فى الحديث أن زيداً قال حين قُدِّمت السفرة : لا آكل مما لم يُذكر اسم الله عليه : الجواب الثانى (١) : أن زيداً إنما فعل ذلك برأى

---

(١) جوابه الثانى غير مقبول ، وزعمه أن ما ذبح لغير الله لم يكن محرما فى دين إبراهيم قول بغير دليل . والأنصاب : أحجار كانت حول الكعبة يذبحون عليها للأصنام . وإليك بعض الآراء حول هذا الحديث .

قال ابن بطال: كانت السفرة لقريش قدموها للنبى، فأبى أن يأكل منها ، فقدمها النبى « صلى الله عليه وسلم » لزيد بن عمرو ، فأبى أن يأكل منها ، وقال مخاطباً لقريش الذين قدموها أولا : إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم . وقال صاحب الفتح : وما قاله محتمل ، لكن لا أدرى من أين له الجزم بتلك .



رآه، لا بشرع متقدم ، وإنما تقدم شرع إبراهيم بتحريم الميتة، لا بتحريم ماذُبح لغير الله ، وإنما نزل تحريمُ ذلك في الإسلام، وبعض الأصوليين يقولون : الأشياء قبل وُرود الشرع عَلَى الإباحة ، فإن قلنا بهذا، وقلنا إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم كان يأكل مما ذُبح على النصب ، فإنما فعَل أمراً مباحاً، وإن كان لا يأكل منها فلا إشكال ، وإن قلنا أيضاً : إنها ليست على الإباحة ، ولا على التحريم ، وهو الصحيح، فالذبائح خاصةً لها أصل في تحليلِ الشرع المتقدم كالشاة والبعير ، ونحو ذلك ، مما أحلَّه الله تعالى في دين من كان قبلنا ، ولم يقدَحْ في ذلك التحليل المتقدم ما ابتدعوه ، حتى جاء الإسلام ، وأنزل الله سبحانه : (ولا تأكُلوا مِمَّا لم يُذْكرِ اسمُ الله عليه) الأنعام: ١٢١. ألا ترى كيف بَقيت ذبائحُ أهل الكتاب عندنا على أصلِ التحليل بالشَّرْع المتقدِّم ، ولم يقدَحْ في التحليل ما أحدثوه من

ــ وقال الخطابي . كان النبي « صلى الله عليه وسلم » لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام ، ويأكل ما عدا ذلك ، وإن كانوا لا يذكرون اسم الله عليه ، لأن الشرع لم يكن نزل بعد ، بل لم ينزل الشرع بمنع أكل مالم يذكر اسم الله عليه إلا بعد المبعث بمدة طويلة . وقال صاحب الفتح : وهذا الجواب أولى مما ارتكبه ابن بطال ، وعلى تقدير أن يكون زيد بن حارثه ذبح على الحجر المذكور ، فإنما يحمل على أنه إنما ذبح عليه لغير الأصنام . وأما قوله تعالى : « وما ذبح على النصيب» ، فالمراد به ماذبح عليها للأصنام، وفي الفتح أيضاً: أن الجواب على قوله: فذبحنا شاة على بعض الأنصاب يعني : الحجارة التي ليست بأصنام ، ولا معبودة وإنما هي من آلات الجزار التي يذبح عليها ؛ لأن النصب في الأصل حجر كبير ، فمنها ما يكون عندهم من جملة الأصنام ، فيذبحون له ، وعلى اسمه ، ومنها مالا يعبد ، بل يكون من آلات الذبح ، فيذبح الذابح عليه لا للصنم ، وكان امتناع زيد منها حسما للمادة .



. . . .

الـكُفْرِ ،وعبادة الصُّلْبان ،فـكذلك كان ما ذبحه أهلُ الأوثانِ مُحَلاًّ بالشرع المتقدم ، حتى خصه القرآن بالتحريم .

زيد وصعصعة والموءودة :

فصل : وذكر خبر الْمَوْءودَةِ ، وما كان زيد يفعل فى ذلك ، وقد كان صَعْصَعَةُ بن معاويةَ جدّ الفَرَزْدَقِ رحمه الله يفعل مثل ذلك ، ولما أسلم سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : هل لى فى ذلك من أجر؟ فقال فى أصح الروايتين: لك أجرُه إذا مَنَّ الله عليك بالإسلام ، وقال الْمُبَرِّد فى الـكامل عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلاما لم يصح لفظُه ولا معناه ، ولا يشهد له أصل . والأصول تشهد له بهذه الرواية التى ذكرناها ؛ لما ثبت أن الـكافر إذا أسلم ، وحَسُن إسلامُه ، كُتب له كلُّ حسنة كان زَلَفها ، وهذا الحديث أخرجه البخارى ، ولم يَذْكر فيه : كل حسنة كان زَلَفها ، وذكرها الدارَقُطْنى وغيره ، ثم يكون القِصاص بعد ذلك : الحسَنةُ بعَشر أمثالِها ، والموءودةُ مَفْعُولَةٌ من وَأَده إذا أثقله قال الفرزدق :

ومِنَّا الذى مَنَع الوائدا تِ ، وأحيا الْوَئيدَ ، فلم يُوأَدِ

يعنى : جدَّه صَعْصَعة بن مُعاوية بن ناجية بن عِقَال بن محمد بن سفيان بن مُجاشع . وقد قيل : كانوا يفعلون ذلك غَيْرةً على البنات ، وماقاله الله فى القرآن هو الحق من قوله : (خَشْيَةَ إمْلاقٍ) وذكر النقاش فى التفسير : أنهم كانوا يئِدون من البنات ، ما كان منهن زَرْقاء أو بَرْشاء أو شَيماء أو

. . . .

كَشْحَاء (١) تشاؤماً منهم بهذه الصفاتِ قال الله تعالى : ﴿ وإذا المَوْءودةُ سُئِلَتْ بأيِّ ذَنبٍ قُتِلت (٢) ﴾ التكوير : ٨ : ٩ .

العزى :

فصل : وذكر شِعْرَ زيد بن عَمْرو وفيه : عَزَلْتُ اللاَّت والعُزَّى جميعاً . فأما اللاَّتُ فقد تقدم ذكرها ، وأما العُزَّى ، فكانت نخلاتٍ مجتمعةً ، وكان عَمْرُو بن لُحَيّ قد أخبرهم — فيما ذكر — أن الربَّ يُشَتِّي بالطائف عند اللات ، و يُصَيِّف بالعُزَّى ، فعظموها وبَنَوْا لها بيتاً ، وكانوا يهدون إليه كما يهدون إلى الكعبة ، وهى التى بَعَثَ رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — خالدَ بن الوليد ليكسرها ، فقال له سادنها : يا خالد احْذَرْها ؛ فإنها تَجْدَع

(١) الزرقاء : العمياء أو من بها ذلك . والبرشاء : من فى لونها نقط مختلفة حمراء ، وأخرى سوداء أو غبراء . والشيماء : من كثرت فى بدنها الشامات ، والشامة . علامة فى البدن ، يخالف لونها لون سائره ، والكشحاء : الموسومة بالنار فى كشحها ، بسبب داء فى كشحها ، وربما كانت : الكسحاء .

(٢) ورد فى فتح البارى ص ١١٥ ج ٧ : « كان أهل الجاهلية يدفنون البنات وهن بالحياة ، ويقال : كان أصلها من الغيرة عليهن لما وقع لبعض العرب حيث سبي بنت آخر فاستفرشها ، فأراد أبوها أن يفتديها منه ، فخيرها ، فاختارت الذى سباها ، فحلف أبوها : ليقتلن كل بنت تولد له ، فتبع على ذلك ، غير أن القرآن ذكر أن وأدهن كان خشية الفقر ، أو من الفقر . ولهذا قال سبحانه : « نحن نرزقهم وإياكم » لمن كانوا يئدون خشية الفقر ، وقال لمن يئدون من الفقر : « نحن نرزقكم وإياهم » . عجل لهم البشارة برزق الوالدين ، فهى فى هذا المقام أولى بالذكر .



. . . .

ومُكَنِّع ، (١) فهدمها خالدٌ وترك منها جِذْمَها(٢) وأساسها ، فقال قَيِّمُها : والله لتعودَنَّ ولتنتقِمَنَّ مِمَّن فعل بها هذا ، فذُكر - والله أعلم - أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال لخالد : هل رأيت فيها شيئاً ؟ فقال : لا ، فأمره أن يرجع ، ويستأصل بقيتَها بالهدم ، فرجع خالد ، فأخرج أساسَها ، فوجد فيها امرأة سَوْداء مُنْتَفِشَة الشعر تَخْدِش وجْهَها ، (٣) ، فقتلها ، وهرب القَيِّمُ ، وهو يقول : لا تُعْبَد العُزَّى بعد اليوم . هذا معنى ما ذكر أبو سعيد النَّيسابورى فى المَبْعَث . وذكره الأزْرَقِى أيضاً ورَزِين .

معنى يربل :

وقوله : فيَرْبُل منهم الطفلُ الصغير . ألفيت فى حاشية الشيخ أبى بحر رَبَل الطفلُ يَرْبل إذا شب وعظم . يربَل بفتح الباء أى يكبر وينبت ، ومنه أخذ تَرْبيل الأرض(٤) . وقوله : كما يَترَوَّحُ الغصنُ : أى : يَنْبُت ورقه بعد سقوطه(٥) .

---

(١) فى بعض الروايات ورد : أن ذلك كان حين أرسل خالد إلى ذى الخلصة ليهدمها ، وفيها صنم يعبدونه ، فقال له السادن : « لا تفعل ، فإنها مكنعتك » بضم الميم وفتح الكاف وتضعيف النون مع كسرها أى مقبضة يديك ، ومشلتهما .

(٢) الجذم بكسر الجيم وفتحها : الأصل

(٣) يجب أن نفهم أنها إن صح الحديث شيطانة من الإنس كانت تخدع الناس بحيلها ، فيظنون أن للعزى حياة وقدرة أو جنيا يتلبس بها

(٤) فى القاموس : ربلوا يربلون ا — بكسر الباء أو ضمها فى المضارع ، كثروا أو كثرت أموالهم وأولادهم وفى الخشنى : ربل الطفل يربل بضم الباء فى المضارع : شب وعظم ، والربل : ما اخضر من الشجر

(٥) عند الخشنى : يهتز ويخضر



. . . .

أعراب نعت النكرة المتقدم :

وقوله : وللكفار حاميةً سَعِير . نصب حاميةً على الحال من سعير ؛ لأن نعت النكرة إذا تقدم عليها نصب على الحال ، وأنشد سيبويه فى مثله :

لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ(١)

وأنشد أيضاً [لذى الرُّمَّة] :

وتحت الْعَوالِي والْقَنا مُسْتَكِنَّةً ظِباءٌ أعارَتْها العيونَ الجآذِرُ

---

(١) يرى ابن الحاجب فى أماليه على أبيات المفصل أنه يجوز أن تكون كلمة موحشا حالا من الضمير فى « لمية » لأن جعل الحال من المعرفة أولى من جعلها من النكرة متقدمة عليها، لأن هذا هو الكثير الشائع ، وذلك قليل ، فكان أولى ، ويذهب ابن جنى فى شرح الحماسة والزمخشرى فى تفسير : «وجعلنا فيها فجاجا سبلا » والخبيصى فى شرحه لكافية ابن الحاجب يذهبون إلى أن موحشا حال من طلل ، لأنها وصف لنكرة ، وتقدمت عليها , والكرمانى يرى أن موحشا لا يجوز أن تكون حالا من طلل؛ لأنها مبتدأ، والحال لا تكون إلا من الفاعل أو المفعول ، والبيت هو :

لميـــة موحشا طلل يلوح كأنــــه خلل

والخلل ـ بكسر الخاء ـ جمع خلة وهى بطائن يغشى بها أجفان السيوف منقوشة بالذهب وغيره والبيت ينسب لكثير عزة كما فعل سيبويه ص ٢٧٦ ج١ الكتاب، ومن يقول بهذا يرويه «لعزة موحشا» لأن عزة اسم محبوبة كثير ، وقيل إن البيت لذى الرمة ، ومن يقول بهذا يرويه : «لمية موحشا» لأن مية اسم محبوبة ذى الرمة انظر ص ٣٤٤ ج ٢ ، ص ١٨٩ ج ٣ خزانة الأدب للبغدادى طبع السلفية وهناك آخر :

لميـــة موحشا طلل قديم عفـــاه كل أسحم مستديم



. . . .

والعامل فى هذا الحال: الاستقرارُ الذى يعمل فى الظرفِ،ويتعلّق به حرف الجر ، وهذا الحال على مذهب أبى الحسن الأخفشِ لا اعتراضَ فيها ؛ لأنه يجعلُ النكرة التى بعدها مرتفعةً بالظرف ارتفاعَ الفاعل ، وأما على مذهب سيبويه ، فالمسئلةعَسيرةٌ جداً؛ لأنه يلزمه أن يجعلها حالا من المضمر فى الاستقرار؛ لأنه معرفة ، فذلك أولى من أن يكون حالا من نكرة ، فإن قدر الاستقرار آخر الكلام ، وبعد المرفوع كان ذلك فاسداً ؛ لتقدم الحال على العامل المعنوى. وللاحتجاج له وعليه موضع غير هذا .

من معانى شعر زيد :

فصل : وأنشد أيضاً لزيد : إلى الله أهدى مِدْحَتى وثنائيا . وفيه : ألا أيها الإنسان إيَّاكَ والرَّدَى . تحذير من الردى ؛ والردى هو الموت ، فظاهر اللفظ متروكٌ ، وإنما هو تحذير مما يأتى به الموتُ ، ويبديه ويكشفه من جزاء الأعمال ؛ ولذلك قال : فإنك لا تخفى من الله خافياً . وفيه :

وإنى وإن سَبَّحْتُ باسمك رَبَّنا لأُكْثِرُ إلا ما غفرت خَطَايِيا

معنى البيت : إنى لأُكثِرمن هذا الدعاء الذى هو باسمك رَبَّنا إلا ما غفرتَ « وما » بعد إلا زائدة ، وإن سبحت : اعتراضٌ بين اسم إن وخبرها، كما تقول : إنى لأُكثِر من هذا الدعاء الذى هو باسمك رَبَّنا إلا والله يغفر لى لأفعل كذا ، والتسبيح هنا بمعنى الصلاة ، أى : لا أعتمد وإن صليت إلا على دعائك واستغفارك من خطاياى .



. . . .

تفسير حنانيك :

وقوله : حَنَانَيْكَ بلفظ التثنية ، قال النحويون : يريد حنانا بعد حنان ، كأنهم ذهبوا إلى التضعيف والتكرار ، لا إلى القصر على اثنين خاصة دون مزيد .
قال المؤلف رحمه الله : ويجوز أن يريد حنانا فى الدنيا ، وحنانا فى الآخرة ، وإذا قيل هذا لمخلوق نحو قول طَرَفَةَ :

أبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بعضَنا حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهون من بعض

فإنما يريد : حنانَ دَفْعٍ ، وحَنانَ نَفْعٍ ؛ لأن كل من أمَّل مالكا ، فإنما يؤمله ليدفع عنه ضَيْرًا ، أو ليجلب إليه خيرا .

تعدية أدين :

وقوله : فلن أرى أدين إلٰها . أى : أدين لإلٰهٍ ، وحذَفَ اللامَ وعدَّى الفعل ؛ لأنه فى معنى : أعبد إلٰها .

حول اسم الله :

وقوله : غيرك اللهُ برفع الهاء ، أراد : ياألله ، وهذا لا يجوز فيما فيه الألف واللام ، إلا أن حكم الألف واللام فى هذا اللفظ المعظم يخالف حكمها فى سائر الأسماء ، ألا ترى أنك تقول : يأيها الرجل ، ولا ينادى اسم الله بيأيُّها ، وتقطع همزته فى النداء ، فتقول : يا ألله ، ولا يكون ذلك فى اسمٍ غيره إلى أحكام كثيرة يخالف فيها هذا الاسم لغيره من الأسماء المعرفة ، ولعل بعض



. . . .

ذلك أن يُذكر فيما بعد ـ إن شاء الله ـ وقد استوفيناه فى غير هذا الكتاب ، وفيه بيت حَسَن لم يذكره ابن إسحاق ، وذكره أبو الفرج[١] فى أخبار زيد وهو :

أدِين إلهًا يُستجار ، ولا أرى أدين لمن لم يسمع الدهرَ داعياً

حذف المنادى مع بقاء الياء :

وفيه : فقلت : ألا يا اذهب[٢] على حذف المنادى ، كأنه قال : ألا يا هذا اذهب ، كاقرىء : ألا ياسجدوا ، يريد : ياقوم اسجدوا ، وكما قال غَيْلان :

ألا يا اسْلَمِي يا دارَمَيَّ على البِلى[٣]

---

(١) فى كتابه الأغانى .

(٢) الذى فى السيرة : فقلت له : يا اذهب ، وفى بعض نسخها : فقلت له : اذهب .

(٣) هو لذى الرمة ، غيلان بن عقبة من بنى صعب بن مالك بن عبد مناة ويكنى أبا الحارث . انظر ص ٧٤ ج ١ خزانة الأدب ، ففيها تفصيل الأسباب التى من أجلها لقب غيلان بذى الرمة ، وفى الروض بعضها ، وبيت الشعر كما قال ، وبقيته : « ولا زال منهلا بجرعائك القطر » . ويرى الجوهرى فى الصحاح أن قوله سبحانه : « ألا ياسجدوا » بالتخفيف معناه : يا هؤلاء اسجدوا ، لحذف المنادى اكتفاء بحرف النداء . وقال غيره : إن يا فى هذا الموضع إنما هى للتنبيه ، كأنه قال : ألا اسجدوا ، فلما أدخلت عليه ياء التنبيه سقطت الألف التى فى اسجدوا ، لأنها ألف وصل ، وذهبت الألف التى فى « يا » لاجتماع الساكنين ، لأنها والسين ساكنتان

. . . .

وفيه : اذهب وهارونُ ، عطفا على الضمير فى اذهب ، وهو قبيح إذا لم يؤكد ، ولو نصبه على المفعول معه لكان جيدا .

تصريف اطمأنت وأشياء :

وقوله : اطمأنت كما هيا ، وزنه افْلَعَلَّت ، لأن الميم أصلها أن تكون بعد الألف ، لأنه من تطأمن أى : تطأطأ ، وإنما قدموها لتباعد الهمزة التى هى عين الفعل من همزة الوصل ، فتكون أخف عليهم فى اللفظ كما فعلوا فى أشياء حين قلبوها فى قول الخليل وسيبويه فرارا من تقارب الهمزتين (١). كما هيا . ما : زائدة لِتَكُفَّ الكاف عن العمل ، وتهيئها للدخول على الجمل ، وهى : اسم مبتدأ ، والخبر محذوفٌ ، التقدير : كما هى عليه ، والكاف فى موضع نصب على الحال من المصدر الذى دل عليه ، اطمأن ، كما تقول : سِرْتَ مثلَ سير زيد ؛ فمثلُ حالٌ من سَيْرِك الذى سرته ، وفيه : أَرْفِقْ إذاً بك بانيا . أَرْفِقْ تعجب ، وبك فى موضع رفع لأن المعنى : رفُقْت ، و بانيا تمييز ، لأنه يصلح أن يجر بمن ، كما تقول : أَحْسِنْ بزيدٍ مِنْ رجلٍ ، وحرف الجر متعلق بمعنى التعجب ؛ إذ قد

---

(١) وزن أشياء عند الأخفش : أفعلاء . وعند غيره أفعال ، وعند سيبويه والخليل ، لفعاء ، ويقول الخليل : أشياء اسم للجمع ، كان أصله : فعلاء ، شيئاء فاستثقلت الهمزتان ، فقلبوا الهمزة الأولى إلى أول الكلمة ، فجعلت لفعاء ، كما قلبوا أنوقا ، فقالوا : أينقا ، وكما قلبوا ، قووسا : قسيا . وقول الخليل هو مذهب سيبويه والمازنى ، وجميع البصريين إلا الزيادى منهم . أما الأخفش ، فيقول : أصل أشياء ، أشيئاء على وزن أشيعاع ، فاجتمعت همزتان بينهما ألف فحذفت الهمزة الأولى .



. . . .

علم أنك متعجب منه ، ولِبَسْطِ هذا المعنى وكشْفه موضع غير هذا ـ إن شاء الله ـ وبعد قوله :

وقد بات فى أضعاف حُوتٍ لياليا

بيت لم يذكره ابن إسحاق ، ووقع فى جامع ابن وهب وهو :

وأنبت يَقْطِيناً عليه بِرَحْمَةٍ   من الله لولا ذَاكَ أصبح ضَاحِياً(١)

صفية بنت الحضرمى :

وذكر صفيةَ بنت الحَضْرَمِىّ ، واسم الحضرمى : عبد الله بن عمار(٢) ، وسيأتى ذكر نسبها عند ذكر أخيها بَعْدُ .

الدعموص والخرم في الشعر :

وقوله : دُعْموص أبواب الملوك . يريد : ولاَّجاً فى أبواب الملوك ، وأصل الدُّعْموص : سمكة صغيرة كَحَيَّةِ الماء ، فاستعاره هنا ، وكذلك جاء فى حديث أبى هريرة يرفعه : صغاركم دَعاميص(٣) الجنة ، وكما استعارت عائشة العصفور

---

(١) اليقطين : كل شىء ذهب بسطا فى الأرض ، ومنه : القرع والبطيخ وغيرهما. وضاحيا : عاريا بارزا للشمس .

(٢) فى السيرة ورد اسم الحضرمى : عبد الله بن عباد . ويقول الخشنى : والصواب : عماد لا عبَّاد . قاله ابن الدباغ وابن أبى الخصال وغيرهما .

(٣) رواه أحمد ومسلم والبخارى فى الأدب . وقد فسر الخشنى الدعموص=

. . . .

حين نظرت إلى طفل صغير قد مات ، فقالت : طُوبَى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءاً ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ إن الله خلق الجنة ، وخلق لها أهلا ، وخلق النار ، وخلق لها أهلا » أخرجه مسلم ، وفى هذه الأبيات خَرْم فى موضعين ، أحدهما قوله :

ولو أشاء لقلت ما عندى مَفَاتِحُهُ وبابه

والآخر قوله :

وإنما أخذ الهوانَ الـ عَيْرُ إذ يُوهى إهابه

وقد تقدم مثل هذا فى شِعر ابن الزِّبَعْرَى ، وتكلمنا عليه هنالك بما فيه كفاية . وقوله : ويقول . إنى لا أذِلُّ أى : يقول العير ذلك بِصَكٍّ جَنْبَيْه صِلابُهُ ، أى : صِلاب ما يوضع عليه ، وأضافها إلى العَيْر لأنها عِبْؤُه وحمله .

لغويات ونحويات :

وذكر قوله : البِرَّأَ بغى لا الخال(١) قال ابن هشام : البرَّأَ بغى : بالنصب ، والخال : الخُيَلاء والكِبر : وقوله : ليس مُهَجِّر كمن قال ، أى : ليس من هَجَّر وتكيَّس ،

= بقوله . « دويبة تغوص فى الماء مرة بعدمرة ، يشبه بها الرجل الذى يكثر الدلوج فى الأشياء . فيعنى أنه يكثر الدخول على الملوك » .

(١) هو فى الطبرانى والبزار مع اختلاف يسير ، وفيه المسعودى ، وقد اختلط

. . . .

كَمَنْ آثر القائِلة والنوم(١)، فهو من : قال يَقِيل ؛ وهو ثلاثى ، ولكن لايُتعجَّب منه . لا يقال: ما أُقيله!! قال أهل النحو : استَغْنَوْا عنه :بما أَنْوَمه ، ولِذكر السر(٢) فى امتناع التعجب من هذا الفعل موضع غير هذا . وقول زيد: إنى مُحْرِمٌ لا حِلَّة . مُحْرِمٌ أى : ساكن بالحرَم ، والحِلَّة: أهلُ الحِلِّ . يقال للواحد والجميع : حِلَّة. ذكر لقاء زيد الراهبَ بِمَيْفَعَة هكذا تقيد فى الأَصْل بكسر الميم من مِيْفَعة(٣) ، والقياس فيها : الفتحُ ؛ لأنه اسمٌ لموضعٍ أخذ من اليَفَاع ، وهو المرتفع من الأرض . وقوله : شامٌّ اليهوديةَ والنصرانية، هو فاعل من الشَّمِّ كما قال يزيد بن شَيْبان حين سأل النَّسَّابة من قُضَاعَةَ ، ثم انصرف ، فقال له النَّسَّابة : شامَمْتنامُشامَّة الذئبِ الغنمَ(٤) ، ثم تنصرف . فى حديث ذكره أبو عَلىٍّ

---

(١) تعبير الخشنى فى تفسيرها أبسط، فقد قال : المهجر الذى يسير فى الهاجرة أى : القائلة وقوله : كمن قال : يريد كمن استراح فى القائلة ، ولم يسر ص ٧٤ .

(٢) فى المطبوعة : السير .

(٣) فى المراصد : بفتح الميم وبالفاء المفتوحة : قرية من أرض البلقاء من الشام ، وهى أيضاً فى دار همدان باليمن .

(٤) الخبر فى الأمالى لأبى على القالى ص ٢٩٧ حـ ٢ ط ٢ . وفيه أن يزيد سأل الشيخ : من الرجل ؟ ومن القوم ؟ فأرمَّ القوم ينظرون إلى الشيخ هيبة له ، فقال الشيخ : رجل من مهرة ـ بفتح الميم وإسكان الهاء وفتح الراء ـ ابن حيدان ـ بفتح الحاء وسكون الياء ـ ابن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، فقلت ــ القائل يزيد ــ حياكم الله ، وانصرفت فقال الشيخ : قف أيها الرجل ، نسبتنا فانتسبنا لك ، ثم انصرفت ، ولم تكلمنا .. أو شاممتنا مشامة الذئب الغنم ، ثم انصرفت ، والخبر كله خبر أدبى لطيف .



. . . .

في النوادر ، ومعناه : استَخْبَرَ فاستعاره من الشم ، فنصب اليهوديةَ والنصرانيةَ نَصْبَ المفعول ، ومن خفض جعل شامّ اسم فاعل من شَمَمْت ، والفعل أولى بهذا الموضع ، كما تقدم، وقول ورقة : رَشِدْت وأنعمت ابن عمرو، أى : رَشَدْت وبالغت فى الرشد ، كما يقال : أمْعَنت النظر وأنعمته ، وقوله : ولو كان تحت الأرض سبعين واديا بالنصب . نصب سبعين على الحال ، لأنه قد يكون صفةً للنكرة ، كما قال : فلو كنت فى جُبٍّ ثمانين قامة(١) وما [يكون] صفة للنكرة يكون حالاً من المعرفة ، وهو هنا حال من البعد ، كأنه قال : ولو بَعُد تحت الأرض سبعين . كما تقول : بَعُد طويلا ، أى : بعداً طويلا ، وإذا حذفت المصدر ، وأقمت الصفة مقامه لم تكن إلا حالا ، وقد تقدم قولُ سيبويه فى ذلك فى مسئلة : ساروا رُوَيْداً ، ونحو هذا : دارى خَلْف دارِك فَرْسَخاً ، أى : تقرب منها فَرْسَخاً إن أردت القرب ، وكذلك إن أردت البعد ، فالبعد والقرب مقدَّران بالفرسخ ، فلو قلت : دارى تقرب منك قربا مقدرا بفرسخ ، لكان بمنزلة من يقول : قُرْبا كثيرا أو قليلا ، فالفرسخ موضوع موضعَ كثيرٍ أو قليل فإعرابه كإعرابه ، وكذلك قول الشاعر :

لا تعجبوا فلو ان طول قَنَاته   مِيلٌ إذا نظم الفَوارسَ مِيلا

---

(١) الشعر للأعشى ، وهو كما فى اللسان :

لئن كنت فى جب ثمانين قامة   ورقيت أسباب السماء بسلم

وصف بالثمانين ، وإن كان اسما لأنه فى معنى طويل . والبيت من شواهد سيبويه .



صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإنجيل

قال ابن إسحاق : وقد كان – فيما بلغني عما كان وضَعَ عيسى بنُ مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل لأهل الإنجيل – من صِفَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما أثبت يُحَنّس الحوارىُّ لهم ، حين نَسخ لهم الإنجيلَ عن عهد عيسى بن مريمَ عليه السلام فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم إليهم أنه قال : من أبغضنى فقد أبغض الربّ ، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائعَ لم يَصْنعها أحدٌ قبلى ، ما كانت لهم خطيئةٌ ، ولكن من الآن بَطِرُوا وظَنُّوا أنهم يَعُزُّوننى ، وأيضا للرب ، ولكن لا بُدّ من أن تتم الكلمة التى فى النّاموس : أنهم أبغضونى مجَّانا ، أى : باطلاً . فلو قد جاء المُنْحَمَنَّا هذا الذى يُرسله الله إليكم من عند الربِّ ، وروح القدس هذا الذى من عند الربّ خَرَج ، فهو شَهيدٌ علىّ وأنتم أيضا ؛ لأنكم قديما كنتم معى فى هذا ، قلتُ لكم : لكيما لا تشكوا .

والمُنْحَمَنَّا بالسُّريانيَّة : محمد : وهو بالرومية : البَرَقْلِيطس ، صل الله عليه وآله وسلم .

أى : نظمهم نظما مستطيلا ، ووضع مِيلا موضعَ مُسْتَطِيلا ، فإعرابُه كإعرابه ، فهو وَصْفٌ للمصدر ، وإذا أُقيم الوصفُ مقام الموصوف فى هذا البابِ لم يكن حالاً من الفاعل ، لكن من المصدر الذى يدل الفعلُ عليه بلفظه نحو : ساروا طويلا ، وسقيتها أحْسَنَ من سَقْى إبلك ، ونحو ذلك .



. . . .

بحنس الحوارى :

فصل : وذكر يُحَنَّس الحَوارِىّ(١) وسيأتى فى آخر الكتاب ذكرُ الحَوارِيِّينَ كُلِّهم بأسمائهم . وذكر قوله : أبغضتمونى مَجّانًا ، أى : باطلا . وكذلك جاء فى الحكمة : يابْنَ آدمَ علِّم مَجّانًا ، كما عُلِّمت مجّانًا ، أى : بلاثمن . وفى وصايا الحكماء : شاوِرْ ذَوِى الأَسْنان والعقول يُعطُوكَ من رأيهم مَجّانًا ؛

---

(١) هو يوحنا صاحب الإنجيل الرابع فى العهد الجديد . هذا وقد ورد ما قاله ابن هشام فى الإصحاح الخامس عشر والسادس عشر من إنجيل يوحنا ؛ وأذكره هنا — كما هو اليوم فى هذا الإنجيل — لنوازن ، ولنعرف تحريف الكلم عن مواضعه : « الذى يبغضنى يبغض أبى أيضاً ، لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيرى لم تكن لهم خطية ، وأما الآن ، فقد رأوا ، وأبغضونى أنا وأبى ، لكن لكى تتم الكلمة المكتوبة فى ناموسهم إنهم أبغضونى بلاسبب . ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضاً ، لأنكم معى من الابتداء . . قد كلمتكم بهذا لكيلا تعثروا » . وأنقل ما ورد بعد هذا من نفس الإنجيل ، وفى نفس الغرض من الإصحاح رقم ١٦ . « أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى » فى نسخة : الفارقليط » ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى دينونة . . إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » وهذه البشارة تنطبق تماما على محمد صلى الله عليه وسلم . وهنالك كثير من البشارات التى وردت فى العهد القديم والعهد الجديد . وقد حرف المغرضون ترجمة كلمة الفارقليط لكيلا تنطبق البشارات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وحسبنا هذا .



. . . .

ما أخذوه باليمن ، أى بطول التجارب ، ومن صفة النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول الله سبحانه : أنت عَبْدى ورسولى (١) سَمَّيْتُكَ المتوكلَ ، ليس بِفَظّ ولاغليظ ، ولاسَخَّاب(٢) فى الأَسْواق ، ولايَدْفع السَّيِّئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضَه الله حتى يقيم به الْمِلَّة الْعَوْجاء ، فيفتح به عيونا عُمْياً وآذانا صُمًّا ، وقلوبا غُلْفاً ؛ بأن يقولوا : لا إله إلاَّ اللهُ .

من صفات النبى عند الأحبار

ومما وجد من صفته — صلى الله عليه وسلم — عند الأحبار ما ذكره الواقدى من حديث النعمان التَّيْمى . قال : وكان من أحبار يهودَ باليمن ، فلما سمع بذكر النبى – صلى الله عليه وسلم – قدم عليه ، فسأله عن أشياء ، ثم قال : إن أبى كان يختم على سِفْرٍ ، ويقول : [لا تقرأه] على يهود (٣) حتى تسمع بنبى قد خرج بيَثْرِبَ ، فإذا سَمِعْتَ به فافتحه . قال نعمان : فلما سمعتُ بك فتحت السفر ، فإذا فيه صِفَتُك كما أراك الساعة ، وإذا فيه: ما تُحِلُّ وما تُحَرِّم ، وإذا فيه : إنك خيرُ الأنبياء وأمتُك خير الأمم ، واسمك : أحمد ، وأمتك الحامدون . قُرْبانهم: دماؤُهم ، وأناجيلُهم : صُدورُهم ، وهم لا يحضرون قتالا

---

(١) جاء قبله : « إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن . (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وحرزا للأميين » .

(٢) فى رواية : صخاب أو صخوب .

(٣) أصل العبارة فى الروض : « على سفر يقول . على يهود » والتصويب من السيرة الحلبية ص ٢٥٠ ح ١ .



مبعث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما

قال : حدَّثنا أبو محمد عبدُ الملِك بن هشام ، قال : حدثنا زيادُ بنُ عبدِ الله الْبَكَّائى عن محمد بن إسحاق المطلبي قال : فلما بلغ محمدٌ رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — أربعين سنةً بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين ، وكافَّةً للناس بشيراً ، وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبلَه بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كل مَنْ آمن بهم وصدقهم ، فأدَّوْا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه . يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ﴿ وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ ، قال : أأَقْرَرْتُمْ وأخَذْتُمْ على ذَلِكُمْ إصْرِي﴾ : أي ثِقَل ما حمَّلتكم من عَهْدِي : ﴿ قالُوا أقْرَرْنا ، قال : فاشْهَدُوا وأنا مَعَكُمْ مِنَ الشاهِدِينَ ﴾ آل عمران : ٨١ ، فأخذ

إلا وجبريلُ معهم ، يتحنّن الله عليهم كتحنُّن النَّسْر على فراخه ، ثم قال لي : إذا سمعت به فاخرج إليه ، وآمِنْ به ، وصدِّق به ، فكان النبي — صلى الله عليه وسلم — يحب أن يسمع أصحابُه حديثه ، فأتاه يوما ، فقال له النبي — صلى الله عليه وسلم : يا نُعْمَانُ حدِّثنا ، فابتدأ النعمانُ الحديث من أوله ، فرُؤى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — يومئذ يتبسم ، ثم قال : أشهد أني رسول الله ، وهو الذي قتله الأسودُ الْعَنْسِيُّ ، وقطَّعه عضوا عضوا ، وهو يقول : إن محمدا رسولُ الله ، وإنك كذاب مُفْترٍ على الله ، ثم حرَّقه بالنار .



الله ميثاق النَّبيِّين جميعا بالتصديق له ، والنصر له ممن خالفه ، وأدَّوْا ذلك إلى مَنْ آمن بهم ، وصدقهم من أهل هذين الكتابين .

قال ابن إسحاق : فذكرَ الزُّهْرىّ عن عُرْوة بن الزُّبير ، عن عائشة رضى الله عنها أنها حدَّثته : أن أوّل ما بُدىء به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من النُّبوّة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به : الرُّؤْيا الصادقة ، لايرى رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفَلَق الصبح . قالت : وحَبَّب اللهُ تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شىء أحبّ إليه من أن يخلوَ وحدَه .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الملك بن عُبَيْد الله بن أبى سُفْيان ابن العَلاَء ابن جارية الثَّقَفِىّ ، وكان واعيةً ، عن بعض أهل العلم :

أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراده الله بكرامته ، وابتدأه بالنبوّة ، كان إذا خرج لحاجته أبْعَدَ حتى تَحسَّرَ عنه البيوتُ ، ويُفضى إلى شِعاب مكة وبُطون أوْديتها ، فلاَ يمرُّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحجَر ولاشَجَر ، إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . قال : فيلتفت رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حولَه ، وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى إلا الشجَر والحجارة . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ، ما شاء اللهُ أن يمكث ، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء فى شهر رمضان .

قال ابن إسحاق : وحدّثنى وَهْب بنُ كَيْسان ، مولى آل الزبير .



قال : سمعتُ عبد الله بن الزُّبير وهو يقول لعُبَيد بن عُمَير بن قتَادة الليثيّ :
حدِّثنا ياعُبيد ، كيف كان بدء ما ابتُدىء به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من النبوّة ، حين جاءه جبريلُ عليه السلام ؟ قال : فقال عبيدٌ — وأنا حاضرٌ يُحدّث عبدَ الله بن الزبير ، ومَنْ عنده من الناس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجاور فى حِرَاء من كلّ سنة شهراً ، وكان ذلك مما تَحَنَّثُ به قريشٌ فى الجاهلية . والتَّحنُّث : التَّبَرُّرُ .

قال ابن إسحاق : وقال أبو طالب :

وثَوْرٍ ومَنْ أرْسَى ثَبِيراً مكانَه ... وراقٍ ليَرْقى فى حِراء ونازِلِ

قال ابن هشام : تقول العرب : التحنُّث والتحنُّف ، يريدون الحَنيفية فيُبْدِلون الفاء من الثاء ، كما قالوا : جَدَفٌ وجَدَثٌ ، يريدون . القبر . قال رؤبة ابن العَجَّاج :

لو كان أحْجَارِى مع الأجْدَاف

يريد : الأجداث : وهذا البيت فى أرجوزة له . وبيت أبى طالب فى قصيدة له ، سأذكرها إن شاء الله فى موضعها .

قال ابن هشام : وحدثنى أبو عُبيدة أن العرب تقول : فُمَّ ، فى موضع : ثُمَّ ، يبدلون الفاء من الثاء .

قال ابن إسحاق : حدثنى وهب بنُ كَيْسان قال : قال عُبيد [بن عمير] :



فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجاور ذلك الشّهرَ من كلّ سنةٍ ، يُطْعِم مَنْ جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى عليه وسلم جواره ، من شهره ذلك ، كان أوّلَ ما يبدأ به ـ إذا انصرف من جواره ـ الكعبةُ ، قبل أن يدخل بيتَه ، فيطوف بها سَبْعا ، أو ماشاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته ، حتى إذا كان الشهرُ الذى أراد اللهُ تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السَّنة التى بعثه اللهُ تعالى فيها ، وذلك ، الشهر: شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حِراء ، كما كان يخرج لِجواره ومعه أهلُه ، حتى إذا كانت الليّلةُ التى أكرمه اللهُ فِيها برسالته ورَحِم العبادَ بها ، جاءه جبريلُ عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءنى جبريلُ ، وأنا نائم ، بِنَمَط من دِيباجٍ فيه كتابٌ ، فقال: اقرأ ، قال : قلت: ما أقرأ ؟ قال فغَتَّنى به، حتى ظننتُ أنه الموت ، ثم أرسانى، فقال: اقرأ، قال . قلت: ما أقرأ ؟ قال : فغَتَّنى به، حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسانى ، فقال : اقرأ ، قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ قال : فغَتَّنى به ، حتى ظننتُ أنه الموت ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، قال : فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ماصنع بى ، فقال: « اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ الّذِى عَلّمَ بالقَلَمِ . عَلّمَ الإنْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ » : قال : فقرأتها ، ثم انتهى ، فانصرف عنى ، وهببتُ من نومى ، فكأنما كُتِبتْ فى قلبى كتابا . قال : فخرجتُ حتى إذا كنتُ فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظرُ ، فإذا جبريلُ فى صورة رجل صافٍّ قَدَمَيْه فِى أفق السماء يقول :

يا محمد ، أنت رسولُ الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدّم وما أتأخّرُ ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، قال : فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فمازلتُ واقفا ما أتقدّم أمامى، وما أرجع ورائى ، حتى بَعثتْ خديجةُ رُسلَها فى طلبى ، فبلغوا أعْلى مكة ، ورجعوا إليها ، وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى .

وانصرفتُ راجعا إلى أهلى، حتى أتيت خديجةَ، فجلست إلى فخذها مُضيفا إليها، فقالت: يا أبا القاسم ، أين كنتَ ؟ فوالله لقد بعثتُ رُسلى فى طلبك ، حتى بلغوا مكة ورجعوا لى ، ثم حدثْتها بالذى رأيتُ ، فقالت : أبشر يابنَ عمٍّ واثبُتْ فو الذى نفسُ خديجةَ بيَدِهِ إنى لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمّة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابَها ، ثم انطلقت إلى ورَقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ ، وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصَّر ، وقرأ الكتبَ ، وسَمِع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرتْه بما أخبرها به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أنه رأى وسمع ، فقال ورقةُ بن نوفَل : قُدُّوس قُدُّوس ، والذى نفس ورقةَ بيده ، لئن كنتِ صَدَقْتِينى ياخديجةُ لقد جاءه النامُوسُ الأكبرُ الذى كان يأتى موسَى ، وإنه لنبيُّ هذه الأمة ، فقولى له : فليثبُتْ . فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورَقة بن نوفل ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جِوارَه وانصرف ، صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة ، فطاف بها ، فلَقيه ورقةُ بن نوفل ، وهو يطوف بالكعبة ،فقال : يابن أخى أخْبرنى بما رأيتَ وسمعتَ ، فأخبره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقةُ : والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك النَّاموسُ



الأكبرُ الذى جاء موسى ، وَلتُكَذَّبَنَّهْ ولتؤْذَيَنَّهْ ، ولتُخْرَجَنَّهْ ، ولتُقاتَلَنَّهْ ،
ولئن أنا أدركتُ ذلك اليومَ لأَنْصُرَنَّ الله نصرا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه ،
فقبَّل يافوخه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

قال ابن إسحاق : وحدثنى إسماعيل بن أبى حَكيم مولى آل الزبير : أنه
حُدِّث عن خديجة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
أى ابنَ عمّ ، أتستطيع أن تُخْبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم
قالت : فإذا جاءك فأخْبرنى به . فجاءه جبريلُ عليه السلام ، كما كان يصنع ، فقال
رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لخديجة : ياخديجة ، هذا جبريلُ قد جاءنى ، قالت :
قم يابن عمّ فاجلس على فخذى اليسرى ، قال : فقام رسول — الله صلى الله عليه
وسلم — فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قالت : فتحولْ ،
فاجلس على فخذى اليمنى ، قالت : فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قالت : فتحول
فاجلس فى حجرى ، قالت : فتحول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلس
فى حجرها ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قال : فتحسَّرت وألقت خِمارها —
ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى حِجرها — ، ثم قالت له : هل تراه ؟
قال : لا ، قالت يابن عمّ ، اثبُتْ وأبْشِر ، فوالله إنّه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان .

قال ابن إسحاق : وقد حدثتُ عبدَ الله بن حسن هذا الحديث ، فقال : قد
سمعتُ أمى فاطمة بنت حُسين تحدّث بهذا الحديث عن خديجة ، إلا أنى سمعتها
تقول : أدخلتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وبين درْعها ، فذهب عند

• • • • • • • • •



ذلك جبريلُ ، فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن هذا لَمَلَكٌ ، وما هو بشيطان .

كتاب المبعث

متى بعث رسول الله ؟ :

ذكر ابن إسحاق أن رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — بُعث على رأس أربعين من مولده عليه السلام (١) ، وهذا مَرْوِيٌّ عن ابن عباس ، وجُبَيْر بن مُطْعِم وقَبَاثِ بن أَشْيَم ، وعطاء وسعيد بن المُسَيَّب ، وأنس بن مالك وهو صحيحٌ عند أهل السِّيَر والعلم بالأثَر ، وقد روى أنه نُبِّئَ لأربعين وشهرين من مولده ، وقيل لقباث بن أشْيَم : من أكبر ، أنت أم رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رسولُ الله أكبرُ مني ، وأنا أَسَنُّ منه ، ووُلد رسول

(١) اضطربت الأقوال حول سنه صلى الله عليه وسلم حين بعث . فبعض يقول : إنه بعث بعد اثنتين وأربعين سنة ، وهو مروى عن مكحول . وآخرون يقولون : وهو ابن ثلاث وأربعين ، وهو رأى الواقدى وابن عاصم والدولابى . ومما ذكره ابن حجر فى الفتح : حديث ابن عباس : فمكث بمكة ثلاث عشرة أصح مما عند أحمد من وجه آخر عنه : أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن ثلاث وأربعين ، فمكث بمكة عشرا ، وأصح مما أخرجه مسلم من وجه آخر عنه : أقام بمكة خمس عشرة سنة .

وبعثه فى رمضان هو المشهور عند الجمهور . وفى الفتح أيضاً : فعلى الصحيح المشهور أن مولده فى ربيع الأول يكون حين أنزل عليه ابن أربعين سنة وستة أشهر ، وفى حديث رواه الشيخان والترمذى أنه بعث لأربعين سنة ، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه .



. . . .

الله — صلى الله عليه وسلم — عام الفيل ، ووقفت بى أمى على رَوْثِ الفيل ويُرْوى: خَزْقِ الطير،فرأيته أَخْضَرَ مُحِيلاً ، أى: قد أتى عليه حَوْل ، وفى غير رواية البَكَّائى من هذا الكتاب أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لبلال : لا يَفُتْكَ صيامُ يوم الاثنين ؛ فإنى قد وُلدت فيه ، وبُعثت فيه ، وأموت فيه (١) .

إعراب لما آتيتكم :

وذكر ابن إسحاق قول الله سبحانه : « وإذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتيتُكم من كتابٍ وحِكْمَةٍ »(٢) الآية . وما فى هذه الآية : اسمٌ مبتدأ (٣) بمعنى : الذى ، والتقدير : لَلَّذِى آتينا كم من كتاب وحكمة ، ولا يصح أن تكون فى موضع نصب على إضمار فعل ، كما ينتصب ما يشتغل عنه الفعل

---

(١) فى مسلم عن أبى قتادة أن النبى صلى الله عليه وسلم ، سئل عن صوم يوم الاثنين ، فقال : « ذلك يوم ولدت فيه ، وأنزل على فيه » أحمد ومسلم وأبو داود . وزيادة : « وأموت فيه » لا تتفق وهدى القرآن ، فالبشر لا يعرفون : متى يموتون حتى النبيون .

(٢) يقول طاووس والحسن البصرى وقتادة فى تفسير الآية : « أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا » وهذا التفسير حق . وتنكير كلمة رسول فى الآية يؤيده .

(٣) يقول العكبرى فى إعرابها : « فيها وجهان . أحدهما أن ما بمعنى الذى وموضعها رفع بالابتداء ، واللام : لام الابتداء دخلت لتوكيد معنى القسم ، وفى الخبر وجهان . أحدهما : من كتاب وحكمة . أى الذى أو تيتموه من الكتاب . والنكرة هنا كالمعرفة ، والثانى : الخبر: لتؤمنن به والهاء عائدة على المبتدأ . واللام

. . . .

بضميره ، لأن ما بعد اللام الثانية لا يجوز أن يعمل فيما قبلها ، ومالا يجوز أن يعمل فيه ما قبله ، فلا يجوز أن يكون تفسيراً لما يعمل فيه ، وقد قيل : إن ماهذه شَرْط . والتقدير : لمهما آتيتكم من كتاب وحكمة لتؤمِنُنَّ به ، وهو ظاهر قول سيبويه ، لأنه جعلها بمنزلة: إن ، وقول الخليل : إنها بمنزلة الذى ، أى : إنها اسمٌ لا حرف ، ويمكن الجمع بين قوليهما على هذا ، فتكون اسما ، وتكون شرطا ، ويحتمل أيضاً أن تكون على قول الخليل : خبرية فى موضع رفع بالابتداء ، ويكون الخبر: لَتُؤْمِنُنَّ به ولتنصُرُنه ، وإن كان الضميران عائدين على الرسول ، لا على الذى ، ولكن لما قال: رسول مُصَدِّقٌ لما معكم ، ارتبط الكلام بعضه ببعض ، واستغنى بالضمير العائد على الرسول عن ضمير يعود

= جواب القسم ، لأن أخذ الميثاق قسم فى المعنى ، فأما قوله : «ثم جاءكم» ، فهو معطوف على: ما آتيتكم، والعائد على «ما» من هذا المعطوف فيه وجهان . أحدهما: تقديره : ثم جاءكم به ، واستغنى عن إظهاره بقوله: به فيما بعد . والثانى :أن قوله: لما معكم فى موضع الضمير ، تقديره : «مصدق له» ؛ لأن الذى معهم هو الذى آتاهم. ويجوز أن يكون العائد ضمير الاستقرار العامل فى مع ، ويجوز أن تكون الهاء فى : به ، تعود على الرسول ، والعائد على المبتدأ : محذوف ، وسوغ ذلك طول الكلام ، وأن تصديق الرسول تصديق للذى أوتيه ، والقول الثانى: أن ما : شرط واللام قبله ، لتلقى القسم كالتى فى قوله : لئن لم ينته المنافقون ، وليست لازمة بدليل قوله: وإن لم ينتهوا عما يقولون، فعلى هذا تكون «ما» فى موضع نصب بآتيت والمفعول الثانى: ضمير المخاطب ، و «من كتاب» مثل «من آية» فى قوله : ما ننسخ من آية ، وباقى الكلام على هذا الوجه ظاهر » ثم ذكر وجه إعرابها إذا قرئت بفتح اللام وتشديد الميم ، كما ذكر قبل وجه إعرابها إذا قرئت بكسر اللام وتخفيف الميم ص٨٣ ج١ إملاء ما من به الرحمن لأبى البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبرى.



. . . .

على المبتدأ ، وله نظير فى التنزيل منه قوله تعالى : (والذين يُتَوَفَّوْن منكم) البقرة : ٢٣٤ خبره : يَتَرَبَّصْنَ بأنفسهن ، ولم يعد على المبتدأ شىء ، لتشَبُّث الكلام بعضه ببعض ، وقد لاح لى بعد نظرى الكتابَ أن الذى قاله الخليل وقول سِيبَوَيْه قَوْلٌ واحد ، غير أنه قال : ودخول اللام على ما ، كدخولها على إن ، يعنى : فى الجزاء ، ولم يرد أن يعمل ما جزاء ، وإنما تكلم على اللام خاصّة والله أعلم .

النبوة وأولو العزم :

وذكر قول ابن إسحٰق : والنُّبُوءة أثقال ومُؤْنة لا يحملها ولا يستطيعها إلا أهلُ القوة والعزم من الرسُلِ ، ووقع فى رواية يونس عن ابن إسحٰق فى هذا الموضع عن ربيعة ابن أبى عبد الرحمن قال : سمعت وهب بن مُنَبِّهٍ وهو فى مسجد منى ـ وذُكر له يونسُ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كان عبداً صالحاً ، وكان فى خُلُقه ضيق ، فلما حُمِلت عليه أثقالُ النُّبُوءة ، ولها أثقال تَفَسَّخ تحتها تَفَسُّخ الرُّبَع تحت الحِمْل الثقيل (١) ، فألقاها عنه وخرج هاربا ، وفى رواية عن ابن إسحٰق : إن أُولى العزم من الرسُل منهم : نوحٌ وهودٌ وإبراهيمُ أما نوحٌ فلقوله : (ياقَوْمِ إنْ كان كَبرُ عليكم مَقَامى وتذكيرى بآياتِ الله) يونس : ٧١ وأما هود فلقوله : (إنى أُشْهِد الله واشْهدوا أنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكون) هود : ٥٤ وأما إبراهيم ، فلقوله هو والذين معه : (إنا بُرَآء منكم ومِمَّا تَعْبدون من دون

---

(١) الرُّبَع بضم الراء وفتح الباء : الفصيل ، ينتج فى الربيع ، وهو أول النتاج والمقصود : ضعف وعجز .



. . . .

الله) وأمر الله نبينا أن يصبر كما صبر هؤلاء (١) .

أول مابدئ به النبي صلى الله عليه وسلم من النبوة :

﴿ فصل ﴾ وذكر ابن إسحٰق : مابدىء به النبي — صلى الله عليه وسلم — من النُّبُوة، إذ كان لايمر بحجر، ولاشجر إلا قال: السلامُ عليك يارسول الله (٢)، وفى مصنف التِّرْمِذِى ومسلم أيضاً أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عَلَىَّ قبل أن يُنَزَّل عَلَىَّ ، وفى بعض المسندات زيادة أن هذا الحجرَ الذى كان يُسَلِّم عليه هو الحجر الأسود ، وهذا التسليم : الأظهر فيه أن يكون حقيقةً، وأن يكون الله أنطقه إنطاقا كما خلق الحنينَ فى الجِذْع (٣)، ولكن ليس من شرط الكلام الذى هو صوت وحرف : الحياةُ والعلمُ والإرادة ، لأنه صوتٌ كسائرِ الأصوات ، والصوتُ : عَرَض فى قول

(١) من أشهر الأقوال عن أولى العزم أنهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، ودليلهم أن الله نص على أسمائهم فى الأحزاب فقال : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ، ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الأحزاب : ٧ كما نص عليهم فى سورة الشورى: « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وماوصى به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه » الشورى: ١٣ . وقيل إنهم جميع الرسل ، وتكون من لبيان الجنس .

(٢) فى الترمذى والدارمى « قال على : كنت مع النبى « ص » بمكة فخرجنا فى بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولاشجر إلا وهو يقول: السلام عليك يارسول الله» وروى مثله الطبرانى فى الأوسط ، وفيه مجهول .

(٣) ورد حنين الجذع فى حديث رواه البخارى والنسائى والترمذى .



. . . .

الأكثرين ، ولم يخالف فيه إلا النّظّام ، فإنه زعم أنه جِسْمٌ ، وجعله الأشعريُّ اصْطِكاكاً في الجواهر بعضها لبعض ، وقال أبو بكر بن الطيب : ليس الصوت نفسَ الاصطكاك ، ولكنه معنى زائد عليه ، وللاحتجاج على القولين ولهما موضع غير هذا ، ولو قَدَّرت الكلام صفةً قائمة بنفس الحَجَر والشَّجر ، والصوتَ عبارة عنه ، لم يكن بُدٌّ من اشتراط الحياة والعلم مع الكلام ، والله أعلم : أي ذلك كان ، أكان كلاما مقرونا بحياة وعلم ، فيكون الحجر به مؤمنا ، أو كان صوتا مجردا غير مقترن بحياة ؟ وفي كلا الوجهين هو عَلَمٌ من أعلام النُّبُوءة (١)، وأما حَنِين الجِذْع فقد سمي حنينا ، وحقيقة الحنين يقتضي شرط الحياة ، وقد يحتمل تسليمُ الحجارة أن يكون مضافا في الحقيقة إلى ملائكة يسكنون تلك الأماكن ، يَعْمُرُونها ، فيكون مجازا من قوله تعالى : (واسْئَلِ القَريةَ)(٢) والأول أظهر ، وإن كانت كل صورة من هذه الصور التي ذكرناها فيها عَلَمٌ على نبوته — عليه السلام — غير أنه لا يسمى معجزة(٣) في اصطلاح المتكلمين إلا ما تَحدَّى به الخَلْقَ ، فعجزوا عن معارضته .

---

(١) ليس لأحد أن يتكلم عن حقيقة مثل هذا ، فالله وحده هو أعلم بالحقيقة .

(٢) القرية — كما يقول الراغب في مفرداته — اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس ، وللناس جميعا . وبهذا لا يكون في الآية مجاز كما هو المشهور .

(٣) يجب أن نسميها بما سمى الله ، وهي : آية ، وبهذا تتجاوب الكلمة مع سكينة القلب والفكر وتقديسهما ، ونخلصها مما دار حول المعجزة من جدال ، واضطرم من شحناء وموازنات بينها وبين السحر والكرامة . والله سبحانه يسمى ما أعطاه للرسل آيات ، لا معجزات فلنقف عند هذا .



. . . .

مدلول تفعل :

وذكر حديث عُبَيْدِ بن عُمَيْرٍ أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يجاور بغار حِرَاء (١) ويتحنَّثُ فيه، قال : والتَّحنُّثُ : التَّبَرُّرُ . تَفَعُّلٌ من الْبِرِّ، وتَفَعُّلٌ : يقتضى الدخول فى الْفِعل، وهو الأكثر فيها مثل: تَفَقَّهَ وتَعَبَّدَ وتَنَسَّكَ وقد جاءت فى ألفاظ يسيرة تعطى الخروج عن الشيء واطِّراحه، كالتَّأَثُّم والتَّحَرُّج . والتَّحَنُّثُ بالثاء المثلثة (٢)، لأنه من الْحِنْث، وهو الْحِمْل الثَّقِيلُ، وكذلك

---

(١) جبل بينه وبين مكة ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى منى، ويقصر ويمد

(٢) فى كتاب الأضداد للصغانى : تحنث إذا أتى الحنث، وإذا تجنبه، ومثله فى كتاب الأضداد لأبى بكر الأنبارى، وفيه : تحوب الرجل إذا تجنب الحوب، وهو الإثم العظيم، ولا يستعمل تحوب فى المعنى الآخر . وقال بعض أهل اللغة . تصدق الرجل إذا أعطى، وتصدق إذا سأل « ص ١٤٥، ١٥٤ الأضداد ط ١٣٢٥ هـ لمحمد ابن القاسم بن بشار الأنبارى أبى بكر . ويقول الخشنى عن رأى ابن هشام فى التحنث وأنه التحنف : « فالجيد فيه أن يكون فيه التحنث هو الخروج من الحنث أى : الإثم، كما يكون التأثم الخروج عن الإثم، لأن تفعّل قد تستعمل فى الخروج عن الشيء، وفى الانسلاخ عنه، ولا يحتاج فيه إلى الإبدال الذى ذكره ابن هشام » ص ٧٥ : هذا ولصيغة تفعّل معان مذكورة فى مصادرها فانظرها مثل ج ١ ص ١٤٠ الشافية للرضى . وفى الصحيحين أنه جاور بحراء شهراً . وذكر ابن إسحاق أنه شهر رمضان . وليس هنالك نص صريح أو صحيح يبين لنا كيف كان يتحنث . وأذكر هنا بقول الله سبحانه عما كان عليه محمد قبل البعثة : « ما كنتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ »، وقوله : « ووجدك ضالا فهدى » فهى إذا كانت عزلة عن مجتمع جاهلى عربدت فيه الخطيئة . والمفهوم من كلام ابن هشام أن هذا التحنث أمر كانت تأتيه قريش فى جاهليتها .



. . . .

التَّقَذُّر ، إنما هو تباعدٌ عن القَذَرِ ، وأما التَّحنُّفُ بالفاء ، فهو من باب التَّبرُّر ، لأنه من الحنيفيَّة دين إبراهيم ، وإن كان الفاء مُبْدَلَةً من الثَّاء ، فهو من باب التَّقَذُّر والتأثُّم ، وهو قول ابن هِشَام ، واحتجَّ بجَدَف وجَدَث ، وأنشد قول رُؤبَةَ : لوكان أحْجَارِى مع الأجْدَاف ، وفى بيت رُؤبَةَ هذا شاهدٌ وردٌّ على ابن جِنِّى حيث زعم فى سِرِّ الصناعة أن جَدَف بالفاء لايجمع على أجدَاف ، واحتج بهذا لمذهبه فى أن الثاء هى الأصل ، وقول رُؤبَةَ (١) ردٌّ عليه ، والذى نذهب إليه أن الفاء هى الأصل فى هذا الحرف ، لأنه من الجَدْف وهو القَطْع ، ومنه مِجْدَافُ السفينة ، وفى حديث عمر فى وصف الجن : شرابهم الجَدَفُ وهى الرَّغْوَة ، لأنها تُجْدَف من الماء ، وقيل : هى نبات يقطع ويؤكل . وقيل : كل إناء كشف عنه غطاؤه : جَدَفٌ ، والجَدَفُ : القبر من هذا ، فله مادة وأصل فى الاشتقاق ، فأجْدِر بأن تكون الفاء هى الأصل والثاء داخلة عليها . (٢)

حول مجاورته فى حراء :

وقوله : يُجاور فى حراء إلى آخر الكلام . الجِوار بالكسر فى معنى المجاورة

---

(١) هو جزء من بيت من أرجوزة يعاتب بها رؤبة أباه العجاج . وقبله .

لا تَعْجِلَنَّ الحتفَ ذا الإتلاف والدَّهرُ إن الدهر ذو ازدلاف
بالمرء ذو عصف وذو انصراف لو كان أحجارى مع الأجداف
تعفو على جُرثومة العوافى تضربها الأمطار والسوافى

انظر ص ١٠٠ من ديوان رؤبة ط ليبسيج ببرلين

(٢) الجدف بالذال والدال : القبر ، وكذلك الجدث . وفى القاموس عن الجدف أنه نبات باليمن يغنى آكله عن شرب الماء عليه . وهو أيضا مارمى به التراب من زبد أوقذى . وكل ماهو بالدال من هذا يقال بالذال أيضا .



وهى الاعتكاف ، ولا فرق بين الجوار والاعتكاف إلا من وجه واحد ، وهو أن الاعتكاف لايكون إلا داخل المسجد ، والجِوارُ قد يكون خارجَ المسجد كذلك قال ابن عبد البر ، ولذلك لم يُسَمَّ جوارُه بحِراء اعتكافا ، لأن حراء ليس من المسجد، ولكنه من جبال الحرم ، وهو الجبل الذى نادى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم — حين قال له ثَبيرُ وهو على ظهره : اهبط عنى ؛ فإنى أخاف أن تُقتَل على ظهرى فأعذَّب ، فناداه حِراء : إلىَّ إلىَّ يارسولَ الله (١) .

كيفية الوحى :

فصل : وذكر نزول جبريل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : فى الحديث : فأتانى وأنا نائم، وقال فى آخره : فهببت من نومى، فكأنما كُتِبَتْ فى قلبى كتابا، وليس ذكرُ النوم فى حديث عائشة ولا غيرها، بل فى حديث عروة عن عائشة مايدل ظاهره على أن نزول جبريل حين نزل بسورة اقرأ ، كان فى اليقظة؛ لأنها قالت فى أول الحديث : أول ما بُدىء به رسول الله — صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الصادقة ، كان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ، ثم حَبَّبَ الله إليه الخلاء — إلى قولها — حتى جاءه الحقُّ ، وهو بغار حراء ، فجاءه جبريلُ . فذكرت فى هذا الحديث أن الرؤيا كانت قبل نزول جبريل على النبى — عليه السلام — بالقرآن ، وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبى — صلى الله عليه وسلم — جاءه جبريلُ فى المنام قبل أن يأتيه فى اليقظة تَوطِئَةً وتيسيراً عليه.

---

(١) حديث يروى فى السير ، وذكره عياض فى الشفاء بلاسند فهى أسطورة .



ورفقاً به ، لأن أمر النُّبُوءة عظيم ، وعِبْؤُها ثقيل ، والبشر ضعيف ، وسيأتى فى حديث الإسراء من مقالة العلماء مايؤكد هذا ويصححه . قد ثبت بالطرق الصِّحاح عن عامر الشّعبى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكل به إسرافيلُ، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحى والشيء (١) ثم وكل به جبريلُ فجاءه بالقرآن والوحى، فعلى هذا كان نزولُ الوحى عليه — صلى الله عليه وسلم — فى أحوال مختلفة، فمنها: النوم كما فى حديث ابن إسحاق، وكما قالت عائشة أيضاً: أول مابدىء به رسول الله — صلى الله عليه وسلم : الرؤيا الصادقة (٢) وقد قال إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ فقال له ابنه : ﴿ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ الصافات : ١٠٢ ، فدل على أن الوحى كان يأتيهم فى المنام ، كما يأتيهم فى اليقظة .

ومنها : أن يُنْفَثَ فى رُوعه الكلام نَفْثاً ، كما قال عليه السلام : إن رُوح القُدُس نَفَث فى رُوعِى أن نفساً لن تموتَ ، حتى تَستكمِلَ أجلَها ورزقَها ،

---

(١) هذا مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة .

(٢) ورد هذا فى حديث — رواه الشيخان والترمذى . وقد روى البخارى حديث الوحى فى كتاب التعبير من صحيحه وفى التفسير ، وفى بدء الوحى ، واختار ما فى التعبير، لأن سياقه فيه أتم . وفى زاد المعاد أنه قيل: إن مدة الرؤية كانت ستة أشهر ويقول النووى عن حديث الرؤيا الذى روته عائشة: إنه من مراسيل الصحابة ؛ لأن عائشة لم تدرك هذه القصة ، فتكون سمعتها من النبى « ص » أو من صحابى » ص ٥٨١ ج ٨ فتح البارى .

فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب [١] . وقال مجاهد ، وأكثر المفسرين فى قوله سبحانه: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا﴾ الشورى : ٥١ . قال هو أن ينفث فى روعه بالوحى .

ومنها : أن يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس [٢]، وهو أشده عليه، وقيل : إن ذلك ليستجمع قلبه عند تلك الصلصلة ، فيكون أوعى لما يسمع ، وألقن لما يلقى .

ومنها : أن يتمثل له الملك رجلا ، فقد كان يأتيه فى صورة دحية [٣] بن

---

(١) أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة ، وعلم عليه السيوطى بأنه ضعيف ، ورواه بتمامه ابن أبى الدنيا فى كتاب القناعة والحاكم من حديث ابن مسعود ، وابن ماجة عن جابر ، والطبرانى من حديث أبى أمامة . والروع بضم الراء : النفس والقلب والذهن والعقل .

(٢) ورد هذا فى حديث متفق عليه .

(٣) دحية بكسر الدال وقد تفتح ـ بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد ابن امرىء القيس بن الخزرج ، أول مشاهده الخندق . نزل دمشق وسكن المزة ، وعاش إلى خلافة معاوية . وذكر مقاتل أن التجارة التى سيأتى ذكرها كانت لدحية قبل إسلامه . وكان معها طبل ، كما ورد فى كتاب المراسيل فى حديث رواه أبو داود . هذا وقد نزل جبريل على الرسول «ص» بصورة رجل غير دحية ، كما جاء فى حديث أبى هريرة فى الصحيحين ، وذلك حين جاءه جبريل يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان . وفى آخر الحديث . هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . وقد وصف جبريل فى صورته هذه ـ كما جاء فى مسلم ـ بأنه رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فلو أنه كان فى صورة دحية لعرفوه .



. . . .

خليفة ، ويُروى أن دِحْية إذا قدم المدينة لم تبق مُعْصِرٌ (١) إلا خرجت تنظر إليه لفرط جماله . وقال ابن سلام فى قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارةً أو لهواً ﴾ الجمعة : ١١ . قال : كان اللهو نظرَهم إلى وجه دِحْيةَ لجماله .

ومنها : أن يتراءى له جبريل فى صورته التى خلقه الله فيها ، له ستمائة جناح ، ينتشر منها اللؤلؤ والياقوتُ .

ومنها : أن يكلمه الله من وراء حجابٍ : إما فى اليقظة كما كلمه فى ليلة الإسراء ، وإمَّا فى النوم ، كما قال فى حديث معاذ الذى رواه الترمذى ، قال : أتانى ربى فى أحسن صورة ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ، فقلت : لا أدرى . فوضع كفَّه بين كتفيَّ ، فوجدت بَرْدَها بين ثُنْدُوَتَيَّ (٢) وتجلى لى علم كل شيء ، وقال : يا محمد ، فيم يختصم المَلَأُ الأعلى ، فقلت : فى الكفَّارات ، فقال : وما هُنَّ !؟ فقلت : الوضوء عند الكَريهات ، ونَقْل الأقدام إلى الحسنات ، وانتظار الصلوات بعد الصلوات ، فمن فعل ذلك عاش حَميداً ، ومات حَميداً ، وكان من ذنبه كَمَنْ ولدته أمُّه ، وذكر الحديث (٣) . فهذه ستة أحوال ، وحالة سابعة قد قدمنا ذكرَها ، وهى

---

(١) المرأة بلغت شبابها وأدركت .

(٢) ثندوة بضم فسكون ، فضم فواو مفتوحة فتاء ، وقد تفتح الثاء : لحمة الثدى أو أصله .

(٣) أحمد وعبد الرازق والترمذى والطبرانى عن ابن عباس مرفوعا ، وابن مردويه والطبرانى من حديث معاذ ، وقال البيهقى فى الأسماء والصفات : « هذا حديث مختلف فى إسناده . ثم ذكر طرقه ، وقال : وكلها ضعيف ، وأحسن طريق فيه رواية جهضم بن عبد الله – وهى منقطعة – ثم رواية موسى بن خلف =



. . . .

نزول إسرافيل عليه بكلمات من الوحى قبل جبريل[١] فهذه سبعُ صور فى كيفية نزول الوحى على محمد – صلى الله عليه وسلم – لم أر أحداً جمعها كهذا الجمع ، وقد استشهدنا على صحتها بما فيه غُنْيَة ، وقد أملينا أيضاً فى حقيقة رؤيته عليه السلام ربَّه فى المنام على أحسن صورة ، ويُروَى : على صورة شاب مسئلة بديعةً كاشفة لقناع اللَّبس ، فاتُنْظر هنالك .

من تفسير حديث الوحى :

فصل : وذكر فى الحديث أن جبريل أتاه بِنَمَطٍ[٢] من ديباج فيه كتاب، فقال : اقرأ، قال بعض المفسرين فى قوله : (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه) إنها إشارة إلى الكتابِ الذى جاءه به جِبْرِيلُ حين قال : اقرأ، وفى الآية أقوال غير هذه ، منها : أنها إشارة إلى ما تضمنه قوله سبحانه: ألم ؛ لأن هذه الحروف المقطعة تضمنت معانى الكتاب كله ، فهى كالترجمة له .

= وفيه ما يثبت أنه كان فى النوم ، وذكر ابن الجوزى أن طرق هذا الحديث مضطربة .

(١) ورد فى أثر عن الشعبي فى تاريخ الإمام أحمد ويعقوب بن سفيان وابن سعد والبيهقى . وهو مرسل أو معضل . وكلاهما من أقسام الضعيف ، وقد أنكره الواقدى ، وقال : لم يكن به من الملائكة إلا جبريل . قال الشامى : وهو المعتمد . وهو معارض للأحاديث الصحيحة .

(٢) وعاء كالسفط . وهذا من مرسلات عبيد بن عمير .



. . . .

معنى اقرأ باسم ربك :

وقوله : ما أنا بقارىء ، أى : إنى أمِّيٌّ ، فلا أقرأ الكتب ، قالها[1] ثلاثا فقيل له : اقرأ باسم ربك ، أى : إنك لاتقرؤه بحَوْلِكَ ، ولا بصفة نفسك ، ولا بمعرفتك، ولكن اقرأ مفتتحا باسم[2] ربك مستعينا به، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك عَلَقَ الدم، ومَغْمَزَ الشيطان بعد ما خلقه فيك ، كما خلقه فى كل إنسانٍ. والآيتان المتقدمتان لمحمد ، والآخرتان: لأمته ، وهما قوله تعالى:(الذى علَّم بالقلم علَّم الإنسان مالم يعلَمْ)لأنها كانت أُمَّةً أُمِّيَّةً لا تكتب ، فصاروا أهل كتابٍ ،وأصحابَ قلمٍ ، فتعلموا القرآن بالقلم ، وتعلمه نبيُّهم تلقينا من جبريل نزله على قلبه بإذن الله، ليكون من المرسلين .

حول بسم الله :

فصل: وفى قوله : اقرأ باسم ربك من الفقه: وجوب استفتاح القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم[3] ، غير أنه أمْرٌ مُبْهَمٌ لم يبين له بأى اسم من أسماء ربه يفتتح ،

---

(١) قيل إن ما استفهامية ، لما ورد فى رواية أبى الأسود عن عروة : كيف أقرأ ؟ وابن إسحاق عن عبيد بن عمير ، ماذا أقرأ ؟ وقد جوز الأخفش دخول الباء على الخبر المثبت ، وجزم به ابن مالك فى: بحسبك زيد ، فجعل الخبر بحسبك وجعل الباء زائدة وسيأتى فى الشرح وفى الروض .

(٢) أى ناويا بقراءته وجه الله سبحانه ، ويجب فى قراءة القرآن الاستفتاح أولا بالاستعاذة ، فقد جاء الأمر بها صريحاً فى القرآن .

(٣) يقول ابن كثير : افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل. ثم اختلفوا : هل هى آية مستقله فى أول كل سورة، =



. . . .

حتى جاء البيان بعدُ فى قوله : (بسم الله مَجْرِيها) هود : ٤١ ثم قوله تعالى : (وإنه بِسْمِ الله الرحمن الرحيم) النمل : ٣٠ . ثم كان بعد ذلك ينزل جبريل عليه ببسم الله الرحمن الرحيم مع كل سورة ، وقد ثبتت فى سواد المصحف بإجماع من الصحابة على ذلك ، وما ذكره البخارى من مصحف الحسن البصرى ، فشذوذ ، فهى على هذا من القرآن ، إذ لا يكتب فى المصحف ماليس بقرآن ، ولا يلتزم قول الشافعى أنها آية من كل سورة ، ولا أنها آية من الفاتحة ، بل نقول : إنها آية من كتاب الله تعالى ، مقترنة مع السورة ، وهو قول داود وأبى حنيفة ، وهو قول بيِّن القوة لمن أنصف ، وحين نزلت بسم الله الرحمن الرحيم سبَّحت الجبال ، فقالت قريش : سَحَرَ محمد الجبال(١) ذكره النقاش ، وإن صح ما ذكره ، فلمعنًى مّا سبَّحت عند نزولها خاصة ، وذلك أنها آية أنزلت على آل داود ، وقد كانت الجبال تسبِّح مع داود ، كما قال الله تعالى : (إنا سخَّرنا الجبالَ معه يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشراق) ص : ١٨ وقال : (إنه من سُلَيْمانَ ، وإنه بِسْمِ الله الرحمن الرحيم) النمل : ٣٠ .

وفى الحديث ذكر نَمَطَ الديباج من الكتاب ، وفيه دليل وإشارة إلى

= كتبت فى أولها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها : أو أنها إنما كتبت للفصل بين السور لا أنها آية . على أقوال العلماء سلفا وخلفا ؟ هذا وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « كانت قراءته مدا مدا ، ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم يمد باسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم » .

(١) كيف عرفت قريش أنه تسبيح للجبال ؟ والله يقول : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فكيف يفقه عتاة الشرك ؟



أن هذا الكتابَ يفتح على أمّته مُلك الأعاجم ، ويسلبونهم الديباجَ والحرير الذى كان زِيّهم و زينَتهم ، وبه أيضا ينال ملكُ الآخرة ولباسُ الجنة وهو الحرير والديباج [١] ، وفى سِيَر موسى بن عقبة ، وسير سليمان بن المعتمر زيادة ، وهو أن جبريلَ أتاه بدُرْنُوكٍ [٢] من ديباج مَنْسوج بالدُّر والياقوت ، فأجلسه عليه . غير أن موسى بن عقبة قال: ببساط ، ولم يقل: دُرْنُوك ، وقال فى سير ابن المعتمر: إن الله تعالى أنزل عليه : (أَلَمْ نَشْرَح لكَ صَدْرَكَ) الآيات ، كأنه يشير به ، فمسح جبريلُ صدره ، وقال : اللهم اشرحْ صدرَه ، وارفع ذكره ، وضع عنه وِزْرَه ، ويصحح ماروا ه ابن المعتمر أن الله تعالى أنزل عليه : (ألم نشرح لك صدرك) الآيات ، كأنه يشير إلى ذلك الدعاء الذى كان من جبريل ، والله أعلم [٣] .

الغط :

وقوله فى الحديث : فغطّنى [٤] ، ويروى : فَسَأَبنى ، ويروى : سَأَتَنى ، وأحسبه أيضا يروى: فَذَعَتَنى [٥] وكلها بمعنى واحد ، وهو الخَنْق والغَمّ ، ومن الذَّعْتِ حديثه الآخر: أن الشيطانَ عرض له ، وهو يصلى قال : فَذَعَتُّه ، حتى وجدت بَرْدَ لِسانه على يدى ، ثم ذكرت قول أخى سليمان : (رَبِّ هَبْ لى مُلْكاً

(١) هكذا يبنى على روايات واهية أمورا هى حقائق لاتبنى على مثل هذا الباطل .
(٢) فى النهاية لابن الأثير : ستر له خمل وجمعه : درانك ، ويقال : درموك أيضا ، وفى القاموس . ضرب من الثياب أو البسط كالدرنيك بكسر الدال والطنفسة كالدِّرنك كزبرج .
(٣) رواية ضعيفة لايعتد بها فلماذا يعتد بها السهيلى ؟
(٤) غطنى : ضمنى وعصرنى ، والغت : حبس النفس .
(٥) ذعته — أيضا — : ذأته ومعكه فى التراب ، ودفعه دفعا عنيفا وتقال بالدال أيضا والسَّأبُ : العصر فى الحلق ، والسأت : الخنق .

لاينبغى لأحدٍ من بَعْدِى) الحديث ، وكان فى ذلك إظهارٌ للشدة والجِد فى الأمر ، وأن يأخذ الـكتابَ بقوة ، ويترك الأناةَ فإنه أمر ليس بالهُوَيْنَى ، وقد انتزع بعضُ التابعين وهو شُرَيْحٌ القاضى من هذا : ألا يُضرَب الصبى على القرآن

---

(١) فى البخارى فى باب التفسير : « إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة — أوكلمة نحوها — ليقطع على الصلاة ، فأمكننى الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد ، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان — عليه الصلاة والسلام : رب اغفر لى ، وهب لى ملـكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، قال روح — يعنى ابن عبادة راوى الحديث : فرده خاسئا . وهكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة به ، وروى مسلم فى صحيحه عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ، فسمعناه يقول : أعوذ بالله منك ، ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثا ـ وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال صلى الله عليه وسلم : إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يتأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أن آخذه . والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة . وفى حديث أحمد عن أبى سعيد الخدرى أنه كان فى صلاة الصبح فالتبست عليه القراءة ، وأنه قال بعد انتهاء الصلاة : (لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى ، فمازلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين ـ الإبهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة) ولقد قيل هنا : كيف يقال : إن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ذكر دعوة سليمان ، ولم يذكر إنظار الله لإبليس حتى يوم الدين ؟ وربنا أعلم بما كان .



. . . .

إلا ثلاثا كما غَطَّ جبريلُ عليه السلام محمداً - صلى الله عليه وسلم - ثلاثا ، وعلى رواية ابن إسحٰق أن ذلك في نومه كان[1] ، يكون في تلك الغَطَّات الثلاث من التأويل ثلاثُ شدائد ، يُبتلى بها أولا ، ثم يأتى الفرج والرَّوْح ، وكذلك كان لَقِيَ هو وأصحابه ، شدةً من الجوع فى شِعْب الخيف ، حين تعاقدت قريش ألاَّ يبيعوا منهم، ولا يتركوا مِيرَةً تصل إليهم ، وشدةً أخرى من الخوف والإيعاد بالقتل ، وشدةً أخرى من الإجلاء عن أحب الأوطان إليه ، ثم كانت العاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين .

ما أنا بقارىء :

وقوله فى حديث ابن إسحٰق : اقرأ ، قال : ما أقرأ ، يحتمل أن تكون ما استفهاما ، يريد : أى شىء أقرأ ؟ ويحتمل أن تكون نفيا ، ورواية البخارى ومسلم تدل على أنه أراد النفى ، أى : ما أُحسِن أن أقرأ ، كما تقدم من قوله : ما أنا بقارىء[2] .

---

(١) رواية المنام من مراسيل عبيد بن عمير ، وهى مخالفة لرواية الصحيحين المسندة المرفوعة ، والجمع بين الروايتين بأن هذا كان مرتين : الأولى فى المنام والأخرى فى اليقظة تأويل فاسد ، فلو أن هذا حدث ، ما حدث له كل ذلك الذى أصابه من شدة الوحى فى المرة الأخرى .

(٢) فإن قيل : لم كرر ثلاثا ؟ أجاب أبو شامة : بأن يُحمل قوله أولا : ما أنا بقارىء على الامتناع ، وثانيا : على الإخبار بالنفى المحض ، وثالثا : على الاستفهام ، ويؤيده أن فى رواية أبى الأسود فى مغازيه عن عروة أنه قال : كيف أقرأ ؟ وفى رواية ابن عمير عن ابن إسحاق : ماذا أقرأ ؟ ، وفى مرسل الزهرى فى دلائل البيهقى : كيف أقرأ . وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية .

. . . .

رؤيته جبريل ومعنى اسمه:

وذكر رؤيته لجبريل ، وهو صَافٌّ قدميه ، وفى حديث جابر أنه رآه على رَفْرَفٍ[1] بين السماء والأرض ، ويروى: على عرش بين السماء والأرض ، وفى حديث البخارى الذى ذكره فى آخر الجامع أنه حين فَتَرَعنه الوحى ، كان يأتى شواهق الجبال يهم بأن يُلقى نفسه منها ، فكان جبريل يَتَراءى له بين السماء والأرض ، يقول له : أنت رسول الله ، وأنا جبريل . واسم جبريل سُرْيانى ، ومعناه : عبد الرحمن ، أو عبد العزيز . هكذا جاء عن ابن عباس موقوفا ومرفوعا أيضاً ، والوقف أصله . وأكثر الناس على أن آخر الاسم منه هو اسم الله ، وهو: إيل ، وكان شيخنا رحمه الله يذهب مذهب طائفة من أهل العلم فى أن هذه الأسماء إضافتها مقلوبة ، وكذلك الإضافة فى كلام العجم ، يقولون فى غلام زيدٍ: زيد غلامٍ ، فعلى هذا يكون إيل عبارة عن العبد ، ويكون أولُ الاسم عبارةً عن اسم من أسماء الله تعالى ، ألا ترى كيف قال فى حديث ابن عباس: جبريل وميكائيل، كما تقول : عبدالله وعبد الرحمن ، ألا ترى أن لفظ عبد يتكرر بلفظ واحد ، والأسماء ألفاظها مختلفة .

حول معنى إل وخرافة الرهبان :

وأما إلٌّ بالتشديد من قوله تعالى : (إلاًّ ولا ذِمَّة) التوبة : ١٠ فحَذَارِ

---

(١) البساط أو الستر ، وأصله ما كان من الديباج ، وغيره رقيقا حسن الصنعة ، ثم توسع فيه .



. . . .

حَذار من أن تقول فيه : هو اسم(١) الله ، فتسمى الله باسم لم يُسَمِّ به نفسه ألا ترى أن جميع أسماء الله تعالى معرفة ، و« إلٌّ » نكرة ، وحاشا لله أن يكون اسمه نكرة ، وإنما الألُّ كل ماله حُرْمة وحق ، فمما له حق ويجب تعظيمه : القرابة والرَّحِمُ والجوار والعهد ، وهو من أَلَلْت : إذا اجتهدت فى الشىء وحافظت عليه ، ولم تضيعه ، ومنه : الألُّ فى السير وهو الجد ، ومنه قول الكُمَيت [يصف رجلا] .

وأنتَ ما أنت فى غَبْراء مُجْدِبةٍ إذا دَعَتْ أَلَلَيْهَا الكاعبُ الفُضُل (٢)

يريد : اجتهدت فى الدعاء ، وإذا كان الأَلُّ بالفتح المصدرَ ، فالإلُّ بالكسر : الاسم كالذِّبْح من الذَّبح ، فهو إذاً الشىء المحافَظ عليه ، وقول الصِّدِّيق : [عن كلام مُسَيْلِمَةَ] : هذا كلام لم يخرج من إلٍّ ولا برٍّ ، أى : لم يصدر عن ربوبية ، لأن الرَّبوبية حقُّها واجبٌ مُعظَّمٌ ، وكذلك فسّره أبو عُبَيْد ، واتفق فى اسم جبريل عليه السلام أنه موافق من جهة العربية لمعناه ، وإن كان أعجميا ، فإن الجبرَ هو إصلاح ما وهى ، وجبريل موكل بالوحى ، وفى الوحى إصلاح ما فسد ، وجَبْرُ ماوَهَى من الدين ، ولم يكن معروفا بمكة ولا بأرض العرب فلما أخبر النبىُّ صلى الله عليه وسلم خديجة به انطلقت تسئل مَنْ عنده علمٌ من الكتاب كعَدَّاس ونَسْطُور الراهب (٣) ، فقال لها : قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ! أنّى لهذا الاسم أن

---

(١) له الحق فى أن يحذر من هذا ، فهو ليس من الأسماء الحسنى ، وإن كان موجودا فى بعض معاجم اللغة .

(٢) فى الأصل : إليهما ، والبيت فى اللسان هكذا :

وأنت ما أنت فى غبراء مظلمة إذا دعت ألَلَيْها الكاعبُ الفُضُل

(٣) تكلمت عن هذا من قبل ، وعداس ـ كما قيل ـ نصرانى من نينوى وانظر قصته فى السيرة الحلبية ص ٢٧٨ ج ١ .



. . . .

يُذكر في هذه البلاد ، وقد قدمنا هذا الخبرَ عنها ، وهو في سِيَرِ التَّيْمِي لما ذكرناه قبل ، وفي كتاب المُعَيْطِي عن أشهب قال : سئل مالك عن التَّسَمِّي بجبريل أو من يُسَمِّي به ولدَه ، فكره ذلك ، ولم يعجبه .

معنى الناموس :

وقول ورقة : لقد جاءه الناموسُ الأكبرُ الذي كان يأتي موسى . الناموس : صاحب سِرِّ المَلِكِ . قال بعضهم: هو صاحبُ سِرِّ الخير، والجاسوسُ : هو صاحبُ سر الشر (١) ، وقد فسره أبو عبيد وأنشد :

فأبلغ يَزِيدَ إنْ عَرَضْتَ ومُنْذِراً عَمَّهُمَا والمُسْتَشِرَّ المُنَامِسا (٢)

لم ذكر موسى ولم يذكر عيسى :

وإنما ذكر ورقةُ موسى ولم يذكر عيسى ، وهو أقرب ، لأن وَرَقَةَ كان قد تنصَّر ، والنصارى لا يقولون في عيسى : إنه نبيٌّ يأتيه جبريلُ ، إنما يقولون فيه : إن أُقْنُوماً(٣) من الأقانيم الثلاثة اللاَّهُوتِيَّة حل بناسُوتِ المَسيح ، واتَّحَدَ به على اختلافٍ بينهم في ذلك الحلول ، وهو أُقنومُ الكلمة ، والكَلِمَةُ عندهم : عبارةٌ عن العِلم ، فلذلك كان المسيحُ عندهم ، يعلم الغيب ، ويخبر بما في غد ، فلما كان هذا من مذهب النصارى الكَذَبة على الله ، المدعين المحال ، عدل عن ذكر

(١) جزم البخارى فى أحاديث الأنبياء أنه صاحب السر ، وقال ابن دريد : صاحب الوحى ، وأهل الكتاب يسمون جبريل : الناموس الأكبر . والخشنى يقول : أصل الناموس هو : صاحب سر الرجل فى خيره وشره .

(٢) البيت للكميت كما ذكر اللسان وفيه : « وعميهما ، والمستسر » بدلا من «عمهما والمستشر» ومعنى المُنامس : الداخل فى الناموس .

(٣) الأقنوم : كلمة رومية معناها : الأصل .



عيسى إلى ذكر موسى لعلمه ، أو لاعتقاده أن جبريلَ كان ينزل على موسى ، لكن وَرَقَةَ قد ثبت إيمانهُ بمحمد عليه السلامُ (١) وقد قدمنا حديث الترمذى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآه فى المنام ، وعليه ثياب بيضٌ إلى آخر الحديث .

حول هاء السكت والفعل تدرك :

وقول ورقة : لَتُكَذَّبَنَّهْ ، ولَتُؤذَيَنَّهْ ، ولا يُنطق بهذه الهاء إلا ساكنة لأنها هاء السكت ، وليست بهاء إضمار . وقوله : إن أُدْركْ ذلك اليوم أنصرْكَ نصراً مُؤَزَّرا ، وقال فى الحديث : إن يُدْركنى يومُكَ وهو القياسُ ، لأن ورقةَ سابقٌ بالوجودِ ، والسابقُ هو الذى يُدْركه من يأتى بعدَه ، كما جاء فى الحديث : أشقى الناس من أدركته الساعة وهو حى ، ورواية ابن إسحاق أيضا لها وَجْهٌ ، لأن المعنى : أرى ذلك اليوم ، فسمَّى رؤيته إدراكا ، وفى التنزيل :

(١) غير صواب قوله هذا ، فإن الجن الذين سمعوا القرآن قالوا : (سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) ، وخير أن نقول : إنه قال ذلك ـ كما ذكر الشيخ رشيد رضا رحمه الله فى الوحى المحمدى ـ لأن الشبه بين الوحى إلى موسى ومحمد عليهما السلام أتم ؛ لأن كلا منهما أوتى شريعة تامة مستقلة فى عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية ، وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة ، وناسخا لبعض الأحكام التى يقتضيها الإصلاح ، ومبشرا بالنبى الذى يأتى بعده بالشرع الكامل العام الدائم . ولهذا يرد ابن حجر فى فتح البارى بقوله : « أما ماتمحل له السهيلى من أن ورقة كان على اعتقاد النصارى فى عدم نبوة عيسى ودعواهم أنه أحد الأقانيم ، فهو محال لا يعرج عليه فى حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل فى التبديل ولم يأخذ عمن بدل » ص ٢٩ ج ١ ط الحلبى وص ٢١٤ ج ١ شرح المواهب .

. . . .

﴿ لا تُدْرِكُه الأبصارُ ﴾ أي : لا تراه على أحد القولين . وقوله : مُؤَزَّرا من الأَزْر وهو القوة والعون .

شرح : أو مخرجى ؟ :

فصل : وفى حديث البخارى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لورقةَ : أَوَ مُخْرِجِيَّ هم . لا بُدَّ من تشديد الياء فى مخرجى ، لأنه جمع ، والأصل مُخْرِجُويَ فأُدْغمت الواوُ فى الياء (١) وهو خبر ابتداء مقدَّم ، ولو كان المبتدأ اسما ظاهر الجاز تخفيفُ الياء ، ويكون الاسمُ الظاهرُ فاعلا لا مبتدأ ، كما تقول: أضارب قومُك ، أخارجٌ إخوتُك فتُفْرِد ، لأنك رفعت به فاعلا ، وهو حَسَنٌ فى مذهب سيبويه والأخفش ، ولولا الاستفهام ما جاز الإفراد إلا على مذهب الأخفش، فإنه يقول : قائم الزيدون دون استفهام ، فإن كان الاسم المبتدأ من المُضْمَرات نحو : أخارجٌ أنت ، وأقائم هو ؟ لم يصح فيه إلا الابتداء ، لأن الفاعلَ إذا كان مُضْمَراً لم يكن منفصلا لا تقول : قام أنا ، ولا ذهب أنت

---

(١) فى المواهب . وأصله مخرجون لى حذفت اللام تخفيفا ونون الجمع للاضافة إلى ياء المتكلم ، فصار : أو مخرجوى اجتمعت الواو والياء وسبقت الواو ـ بالسكون ، فقلبت ياء ، ثم أدغمت فى ياء المتكلم ، وقلبت الضمة : كسرة لمناسبة الياء ، والهمزة للاستفهام . ولم يقل . وأمخرجى مع أن الأصل أن يجاء بالهمزة بعد العاطف نحو . فأين تذهبون ؛ لاختصاص الهمزة بتقديمها على العاطف تنبيها على أصالتها نحو : أولم يسيروا ؟ هذا مذهب سيبويه والجمهور ، والاستفهام : إنكارى ؛ لأنه استبعد إخراجه من وطنه وهو حرم الله من دون سبب يقتضيه وكذلك ورد فى ص ٤٣ بدائع الفوائد جـ ٣ للامام ابن القيم .



. . . .

وكذلك لا تقول : أذاهبٌ أنت على حدِّ الفاعل ولكن على المبتدأ ، وإذا كان على حَدِّ المبتدأ ، فلابد من جمع الخبر ، فعلى هذا تقول : أَمُخْرِجِيَّ هم ، تريد : مخرجون ، ثم أضفت إلى الياء ، وحذفت النون ، وأدغمت الواو كما يقتضى القياس .

حول اليافوخ والذهاب إلي ورقة :

فصل : وذكر أن ورقة بن نوفل لقى النبى عليه السلام ، فقبل يأفُوخَه قد تقدم ذكر اليافوخ ، وأنه يَفْعُول مهموز ، وأنه لا يقال فى رأس الطفل يافوخ حتى يشْتَدّ وإنما يقال له : الغاذية ، وذكرنا قول العجاج :

ضَربٌ إذا أصاب اليآفيخ حَفَر . ولوكان يافوخ فَاعُولاً ، كما ظن بعضهم لم يجز همزهُ فى الواحد . ولا فى الجمع (١) وفى رواية يونس عن ابن إسحاق بسنده إلى أبى مَيْسرةَ عمرو بن شُرَحْبِيل (٢) أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) هو فى اللسان فى مادة أفخ ، وقال : هو حيث التقى عظم مقدم الرأس وعظم مؤخره ، وهو الموضع الذى يتحرك من رأس الطفل . وفيه أيضا : قال الليث : من همز اليأفوخ ؛ فهو على تقدير يفعول . ومن لم يهمز ، فهو على تقدير فاعول من اليفخ ، والهمز أصوب .
وفى القاموس : أفَخَه : ضرب يافوخَه والجمع : يوافيخ ، وهذا يدل على أن أصله يفخ ؛ ووهم الجوهرى فى ذكره هنا . وفى المعجم الوسيط جمعه : يوافيخ ، ولكنه قال : اليافوخ : هو اليأفوخ وهو فجوة مغطاة بغشاء تكون عند تلاقى عظام الجمجمة ، وهما يأفوخان ، يأفوخ أمامى، ويأفوخ خلفى .

(٢) ذكره البخارى وغيره فى التابعين ، ووثقه ابن معين وآخرون ، وقد=



. . . .

وسلم. قال لخديجة : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداءً ، وقد خشيتُ والله أن يكونَ لهذا أمرٌ . قالت : معَاذَ اللهِ ما كان الله ليفعلَ ذلك بك . فو الله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحمَ . وتَصْدُقُ الحديث، فلما دخل أبو بكر ، وليس [عندها] رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ثم ذكرت خديجةُ له ذلك ، فقالت : ياعَتيقُ اذهبْ مع محمد إلى وَرَقةَ ، فلما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ أبو بكر بيده . فقال : انطلق بنا إلى ورقة بن نوفل . فقال : ومن أخبرك ؟ قال : خديجة ، فانطلقا إليه ، فقصَّا عليه ، فقال : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداءً خلفى : يا محمد يا محمد ، فأنطلقُ هارباً فى الأرض . فقال له : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبُت ، حتى تسمع مايقول لك . ثم ائتنِى ، فأخبرنى ، فلما خلا ناداه : يامحمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . حتى بلغ : ولاالضالِّين . قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقةَ ، فذكر ذلك له ،فقال له ورقة: أبشِر، ثم أبشِر فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابنُ مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبى مرسل ، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا . ولئن أدركنى ذلك لأُجاهدَنَّ معك . فلما تُوفِّىَ ورقةُ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت القَسَّ فى الجنة ، وعليه ثياب الحرير ، لأنه آمن بى وصدقنى ، يعنى : وَرَقَة ، وفى رواية

= أخرج هذا الحديث البيهقى ، وذكر أنه منقطع ، وغرضه من سياقه بيان أنه معارض بحديث الصحيح فى أن أول ما نزل : اقرأ . والعجيب أن يحاول العينى التوفيق بين هذه المتضادات بأن خديجة أرسلته مرة مع الصديق، وذهبت هى به أخرى، وسألت عداسا بمكة ، وسافرت إلى بحيرى ـ كما روى التيمى ـ وهو توفيق يعتد به .



. . . .

يونس أيضا أنه عليه السلام قال لرجل سَبَّ ورقة : أما عَلِمْتَ أنى رأيت لورقة جَنَّةً أو جنتين ، وهذا الحديث الأخير قد أسنده البزار (١) .

لقد خشيت على نفسى :

فصل : وفى الصحيح أنه قال لخديجة : لقد خشيت على نفسى ، وتكلم العلماء فى معنى هذه الخشية بأقوال كثيرة ، فذهب أبو بكر الإسماعيلى (٢) إلى أن هذه الخشيةَ كانت منه قبل أن يحصل له العلمُ بأن الذى جاءه ملك من عند الله ، وكان أشق شىء عليه أن يقال عنه : مجنون ، ولم ير الإسماعيلى أن هذا محال فى مبدإ الأمر ؛ لأن العلمَ الضرورى قد لا يحصل دفعة واحدة ، وضرب مثلا بالبيت من الشعر تسمع أوله ، فلا تدرى أَنَظْمٌ هو أم نثر ، فإذا استمر الإنشاد ، علمت قطعا أنه قُصِد به قَصْد الشعر ، كذلك لما استمر الوحىُ واقترنت به القرائن المقتضية للعلم القطعى ، حصل العلم القَطْعِىّ ، وقد أثنى الله تعالى عليه بهذا العلم فقال : (آمن الرسولُ بما أُنْزِل إليه من ربه والمؤمنون) إلى قوله : (وملائكته وكتبه ورُسُله) فإيمانه بالله وبملائكته إيمان كَسْبِىٌّ موعود عليه بالثوابِ الجزيل ، كما وعد على سائر أفعاله المُكتَسبة كانت من أفعال القلب أو أفعال الجوارح ، وقد قِيل فى قوله : لقد خشيت على نفسى ، أى : خشيت ألا أنهض بأعباء النبوة ، وأن أضعف عنها ، ثم أزال الله خشيته ، ورَزَقه الأيْدَ والقوة والثبات والعصمة ، وقد قيل : إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه ، ولا غَرْوَ ، فإنه بشر يَخْشى من القتل

(١) ورواه الحاكم فى مستدركه . وهذه روايات ساقطة لا يعتد بها .

(٢) أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلى الجرجانى ، قال الحاكم : كان واحد عصره ، وشيخ المحدثين والفقهاء مات ٣٧١ .



. . . .

والإذاية الشديدة ما يخشاه البشر ، ثم يُهوِّن عليه الصبرُ في ذات الله كلَّ خشية ، ويجاب إلى قلبه كلٌّ شجاعة وقوة ، وقد قيل في معنى الخشية أقوال غير هذه رغبت عن التطويل بذكرها(١) .

---

(١) في فتح الباري : «اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولا . أولها : الجنون ، وأن يكون مارآه من جنس الكهانة . جاء مصرحا به في عدة طرق ، وأبطله أبو بكر بن العربي ، وحق له أن يبطل ، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له : أن الذي جاءه ملك ، وأنه من عند الله تعالى . ثانيها : الهاجس وهو باطل أيضا ، لأنه لا يستقر ، وهذا استقر ، وحصلت بينهما المراجعة ، ثالثها: الموت من شدة الرعب ، رابعها : المرض ، وقد جزم به ابن أبي جمرة . خامسها : دوام المرض ، سادسها : العجز عن حمل أعباء النبوة ، سابعها :العجز عن النظر إلى الملك من الرعب ، ثامنها : عدم الصبر على أذى قومه ، تاسعها : أن يقتلوه ، عاشرها : مفارقة الوطن ، حادي عشرها : تكذيبهم إياه ، ثاني عشرها : تعييرهم إياه ، وأولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب : الثالث واللذان بعده ، وما عداها معترض والله الموفق » ص ٢٧ ج١ ط الحلبي .

هذا ، ويحسن أن ننقل هنا بعض ما ورد في الصحيحين حول هذا عن مشكاة المصابيح عن ابن عباس ، قال : بعث رسول « ص » لأربعين سنة ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحىَ إليه ، ثم أمر بالهجرة ، فهاجر عشر سنين ، ومات ، وهو ابن ثلاث وستين سنة . « متفق عليه »

وعنه : قال : أقام رسول الله « ص » بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ، ويرى الضوء سبع سنين ، ولا يرى شيئا . وثماني سنين يوحى إليه ، وأقام بالمدينة عشرا ، وتوفي وهو ابن خمس وستين « متفق عليه » والأولى أضبط .

« بدء الوحي »

وعن عائشة رضي الله عنها : قالت : أول مابدي به رسول الله « ص » من



. . . .

الوحى : الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاء الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . فقال: ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ،فأخذنى ، فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله - ص - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة ، فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة: كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، فقالت : يابن عم . اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة : يا بن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله - ص - خبر ما رأى فقال ورقة : هذا هو الناموس الذى أنزل الله على موسى . ياليتنى فيها جذعاً . ياليتنى أكون حيا ، إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله «ص» : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى « متفق عليه »

وزاد البخارى فى حديث منقطع : « حتى حزن النبى - فيما بلغنا - وهو الزهرى راوى الحديث السابق عن عائشة ، وأما هذا فرواه بلاغا ، فهو لهذا منقطع - حزناً غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه ، تبدى له جبريل ، فقال : يا محمد : إنك رسول الله حقا ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه» البخارى .

وعن جابر : أنه سمع رسول الله يحدث عن فترة الوحى قال : فبينا أنا أمشى



. . . .

=سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه رعبا ، حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى ، فقلت : زملونى زملونى ، فزملونى فأنزل الله تعالى : (يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) ثم حمى الوحى وتتابع «متفق عليه» .

كيفية الوحى : وعن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ، فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله - ص - أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده على - فيفصم عنى ، وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى ، فأعى ما يقول . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

مدة المجاورة : عن يحي بن أبى كثير قال : سألت أباسلمة بن عبد الرحمن عن أول مانزل من القرآن ، قال : يأيها المدثر ، قلت : يقولون : اقرأ بسم ربك قال أبو سلمة : سألت جابرا عن ذلك ، وقلت له مثل الذى قلت لى : فقال لى جابر : لا أحدثك إلا بما حدثنا به رسول الله - ص - قال : جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فنوديت ، فنظرت عن يمينى ، فلم أر شيئا ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت عن خلفى ، فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئا ، فأتيت خديجة ، فقلت : دثرونى ، فدثرونى ، وصبوا على ماء باردا . فنزلت : (يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) وذلك قبل أن تفرض الصلاة : «متفق عليه ورواه الترمذى والنسائى» .

ونلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتحنث بعد البعثة فى غار ما ، فهى إذا ليست سنة شرعية ، كان يعتكف فى المسجد العشر الأواخر من رمضان فحسب ، ولو كان يريد عبادة ، لتعبد فى البيت الحرام . إنما أراد البعد عن المجتمع الآبق الشريد . ولكنه فى النبوة عاش فى هذا المجتمع يدعوه إلى الحق=



. . . .

ويقاومه بالحق ، لأن الفرار من المعركة إلى خلوة أو كهف ليس من شيمة الرسل ولا المسلمين .

وإليك تفسير بعض ما ورد فى الحديث : فلق الصبح : ضوءه وإنارته والصبح نفسه : شبه ما جاء فى اليقظة ، ووجد فى الخارج طابقا لما رآه فى النوم : بالصبح فى إنارته ووضوحه .

« ما أنا بقارىء » ما : نافية ، وقيل : إنها استفهامية ، وضعف القاضى عياض هذا بدخول الباء فى خبرها ، وهذه لا تدخل على ما الاستفهامية ولكن الأخفش يجوز دخول الباء على الخبر المثبت ، وجزم به ابن مالك فى : بحسبك زيد ، فجعل الخبر حسبك ، والباء زائدة ، وقد يقوى هذا ما ذكرته من قبل من روايات حول هذا . « غطنى » ثبت لفظ الغط ثلاثا . فى رواية البخارى للحديث فى بابى التعبير والتفسير ، وسقطت الثانية فى بدء الوحى .

« بلغ منى الجهد » تروى بفتح الجيم والنصب أى بلغ الغط منى غاية وسعى ، وروى بضم الجيم والرفع ، أى : بلغ منى الجهد مبلغه . « زملونى » غطونى بالثياب ولفونى بها « الروع » الفزع « كلا » نفى وإبعاد أى : لا تقل هذا ولا خوف عليك .

« لا يخزيك » لا يهينك ولا يفضحك وللكشميهنى . يحزنك بالنون « تصل الرحم » تصل القرابة بإحسانك إليهم « وتحمل الكل » : أى تحمل الثقل من كل ما يتكلف ، ويدخل فيه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك .

« تكسب المعدوم » بفتح التاء . وروى بضمها أى : تعطى الناس مالا يجدونه وتقرى الضيف : تهيء له طعامه وتنزله « وتعين على نوائب الحق » حوادث الحق ، وهذه جامعة لكل ما سبق ولغيره . وهى صفة جامعة لكل أعمال المروءة والبر والنجدة « ورقة ابن نوفل » وصفه الراوى فى رواية أخرى « وكان امرءا تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى . فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب . وفى رواية يونس ومعمر : ويكتب من الإنجيل بالعربية »

. . . .

ولمسلم : فكان يكتب الكتاب العربى ، وجمع بين الروايات بانه كان يجيد الكتابة بتلك وبهذه . وإنما وصف بالكتابة - كما قيل - لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسرا . وقد وصف ورقة فى بعض الروايات : « وكان شيخا كبيرا قد عمى » .

فقالت : « يابن عم » وقع فى مسلم : أى عم ، وهو وهم ، وقيل إنها قالت : ابن عم على حذف حرف النداء ، فتصحفت بن بأى « من ابن أخيك » وقيل : قالته هذا ، لأن عبد العزى الأب الثالث لورقة هو أخ لعبد مناف ، وهو الأب الرابع للنبى فكأنها قالت : من ابن أخى جدك . وقيل : لأن والده عبدالله فى عدد النسب إلى قصى الذى يجتمعان فيه سواء ، فكان من هذه الحيثية فى درجة إخوته ، أو قالته على سبيل التوقير لسنه « جذعا » شابا ، وأصل الجذع من أسنان الدواب وهو ما كان منها شابا فتيا « لم ينشب » لم يلبث . وهذا أصح مما روى من أن ورقة كان يمر على بلال وهو يعذب ، وقد قيل : إن ورقة توفى فى السنة الثالثة من النبوة ، وقيل : فى الرابعة ، وزعم الواقدى أنه قتل ببلاد لخم وجذام ، وقرر البلاذرى وغيره أنه دفن بمكة .

« فتر الوحى » احتبس « يتردى » يسقط « شواهق الجبال » أى : طوالها ، وهو العالى الممتنع « الرُّجز » الأوثان .

« صلصلة » صوت وأصلها وقوع الحديد بعضه على بعض . والصلصلة أشد من الصليل « يفصم عنى » ينفك وينجلى « يتفصد » يسيل تشبيها فى كثرته بالفصاد هذا وأول سورة نزلت : اقرأ ، وقد ورد هذا عند الشيخين والترمذى والحاكم والبيهقى والطبرانى وسعيد بن منصور فى سننه . ولكن ورد فى الصحيحين أيضا فى حديث جابر أن يأيها المدثر ، هى أول ما نزل . قبل الفاتحة كما روى البيهقى ، ويقول ابن حجر : الذى ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول .



ابتداء تنزيل القرآن

قال ابن إسحاق : فابتُدِئ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان ، بقول الله عزّ وجلّ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى للنَّاسِ ، وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدَى والفُرْقان ﴾ البقرة : ١٨٥ . وقال الله تعالى : ﴿ إنَّا أَنْزَلْناهُ فى لَيْلَةِ القَدْرِ . وما أدْراكَ ما ليْلَةُ القَدْرِ . لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تنزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أمْرٍ . سَلامٌ هِيَ حتى مَطْلَعِ الفَجْرِ ﴾ القدر . وقال الله تعالى : ﴿ حم والكِتاب المُبِين . إنَّا أنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ ، أمْرًا مِنْ عِنْدِنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ الدخان : ١ — ٥ . وقال تعالى : ﴿ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ وما أنْزَلْنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعانِ ﴾ الأنفال : ٤١ . وذلك مُلْتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمُشركين ببدر .

قال ابن إسحاق : وحدثني أبو جَعْفَر محمد بن عليّ بن حُسَين : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التقى هو والمُشركون ببدْر يومَ الجمعة . صبيحةَ سَبْعَ عَشْرَةَ من رمضان .

قال ابن إسحاق : ثم تَتامّ الوحيُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مؤمنٌ بالله مُصَدّق بما جاءه منه ، قد قبلَه بقَبوله ، وتحمّل منه ما حُمِّلَه على رضا العباد وسَخَطهم ، والنبوّةُ أثقال ومُؤْنة ، لا يحملها ، ولا يستطيع بها

إلا أهل القوّة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يَلْقَوْن من الناس ، وما يُرَدّ عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى .

قال : فمضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أمْرِ الله ، على ما يَلْقَى من قومه من الخلاف والأذى .

إسلام خديجة بنت خويلد

وآمنت به خديجةُ بنتُ خُوَيْلد ، وصدقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أوّلَ من آمن بالله وبرسوله ، وصدق بما جاء منه ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع شيئاً مما يكرهُهُ مِنْ رَدٍّ عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرّج الله عنه بها إذا رجَعَ إليها ، تُثَبِّته ، وتخفِّف عليه ، وتصدقُه وتهوّن عليه أمر الناس ، رحمها الله تعالى .

قال ابن إسحاق : وحدثنى هشام بن عُرْوة ، عن أبيه عُرْوة بن الزبير ، عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : أُمِرْتُ أنْ أُبَشِّرَ خديجة ببيتٍ من قَصب ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب .

قال ابن هشام : القصب ههنا : اللؤلؤ المجوَّف .

قال ابن هشام : وحدثنى مَنْ أثق به ، أنّ جبريل عليه السلام أتَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : أقرىء خديجةَ السلامَ من ربها ، فقال



رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة ، هذا جبريلُ يُقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة : اللهُ السلامُ ، ومنه السلامُ ، وعلى جبريل السلام .

قال ابن إسحاق : ثم فَتَرَ الوحىعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فترة من ذلك ، حتى شقّ ذلك عليه ، فأحزنه ، فجاءه جبريلُ بسورة الضحى ، يُقسم له ربه ، وهو الذى أكرمه بمَا أكرمه به ، ما ودّعه وما قلاه ، فقال تعالى : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلَى ﴾ . يقول : ما صَرَمك فتركك ، وما أبغضكَ منذ أحبّكَ . ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى﴾ : أى : لمَا عندى من مَرْجعك إلىّ ، خيرٌ لك مما عجّلْت لك من الكرامة فى الدنيا . ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ من الفَلَج فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عائلاً فأغْنَى ﴾ يعرّفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومنّه عليه فى يُتْمه وعَيْلته وضَلالته ، واستنقاذه من ذلك كله برحمته .

قال ابن هشام : سجَى : سكن . قال أمية بن أبى الصَّلْتِ الثقفى :

إذْ أتى مَوْهِنا وقد نام صَحْبى وسَجا اللَّيلُ بالظلاّم البَهيمِ

وهذا البيت فى قصيدة له ، ويقال للعَيْن إذا سكن طرْفُها : ساجية ، وسجا طرفها .

قال جرير بن الخَطَفَى :

ولقد رَمَيْنَكَ — حين رُحْن — بأعين
يَقتُلن من خَلَل السُّتُــــور سَواجِي

وهذا البيت فى قصيدة له . والعائل : الفقير : قال أبو خِراش الهُذلى :

إلى بيتهِ يأوى الضَّريكُ إذا شتَا ومُسْتنبِحٌ بالِى الدَّريسيْن عائلُ

وجمعه : عالة وعُيَّل ، وهذا البيت فى قصيدة له ، سأذكرها فى موضعها — إن شاء الله ، والعائل أيضاً : الذى يعول العيال . والعائل أيضاً : الخائف . وفى كتاب الله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ النساء : ٣ . وقال أبو طالب :

بِميزانِ قِسْطٍ لا يُخِس شَعيرةً له شاهدٌ من نفسِهِ غيرُ عائل

وهذا البيت فى قصيدة له ، سأذكرها — إن شاء الله — فى موضعها . والعائل أيضاً : الشىء المُثْقِل المُعيى . يقول الرجل : قد عالنى هذا الأمر : أى. أثقلنى وأعيانى ، قال الفرزدق :

تَرَى الغُرَّ الجحاجِحَ من قُرَيْشٍ إذا ما الأمْرُ فى الحدثَانِ عالا

وهذا البيت فى قصيدة له .

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ : أى لا تكن جبَّارًا ولا متكبرًا ، ولا فحَّاشا فَظًّا على الضعفاء من عباد الله . ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ : أى : بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النُّبوّة فحدّث ، أى اذكُرها ، وادْعُ إليها ، فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه ، وعلى العباد به من النبوّة سِرًّا إلى مَنْ يطمئنّ إليه من أهله .

. . . .

متى نزل القرآن ؟

فصل : وذكر قول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنْزِلَ فيه القرآنُ ﴾ البقرة : ١٨٥ . إلى آخر الآية ، مستشهداً بذلك على أن القرآن أنزل فى شهر رمضان ، وفى ليلة القدر من رمضان ، وهذا يحمل تأويلين : أحدهما : أن يكون أراد بدء النزول وأوله ؛ لأن القرآن نزل فى أكثر من عشرين سنة فى رمضان وغيره ، والثانى : ما قاله ابن عباس : أنه نزلَ جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، فجُعل فى بيت العزَّةِ مَكْنوناً فى الصحف المكرَّمة ، المرفوعة المُطَهَّرة ، ثم نزلت منه الآية بعد الآية ، والسورة بعد السورة فى أجوبة السائلين ، والنوازل الحادثة إلى أن توفى — صلى الله عليه وسلم — وهذا التأويل أشبه بالظاهر ، وأصح فى النقل والله أعلم(١) .

---

(١) نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة ، أو إلى سماء الدنيا : كلام لاسند له . والصحيح وحده هنا هو ماورد فى القرآن : «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن» . «إنا أنزلناه فى ليلة القدر» ، «إنا أنزلناه فى ليلة مباركة» ، وآيات القرآن فى وضوح جميل جليل يفقهها ذو الفطرة السليمة التى لم يفسدها جدل الكلام وسفسطته . وهى تؤكد أنه بدأ نزول القرآن فى رمضان فى ليلة القدر منه . وقوله تعالى : «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» يشير إلى أن تاريخ ليلة القدر هو تاريخ ليلة بدر . وبدر كما يقال كانت فى السابع عشر من رمضان .

ولهذا يقال إن ابتداء نزول القرآن كان فى السابع عشر من رمضان . وإذا رجعنا إلى الأحاديث نستخبرها نبأ ليلة القدر التى فيها نزل القرآن ، فإننا سنجد ماياتى : قيل: وإنها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان «البخارى» فى السبع



. . . .

حول إضافة شهر إلى رمضان :

فصل : وفي قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان ﴾ فذكر الشهر مضافا إلى رمضان ، واختار الكتاب والموثقون النطق به بهذا اللفظ دون أن يقولوا : كتب في رمضان ، وترجم البخاري والنَّسَوِيُّ[1] على جواز اللفظين جميعاً وأوردا حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم : من صام رمضان ، وإذا

= الأواخر من رمضان « متفق عليه » في تاسعة تبقى من العشر الأواخر أو في سابعة ، أو في خامسة « البخاري » في الليلة الحادية والعشرين من رمضان « البخاري » في الليلة الثالثة والعشرين « مسلم » في الليلة السابعة والعشرين « مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي » في التاسعة أو السابعة أو الخامسة « البخاري » بل ما من ليلة من ليالي رمضان سوى قلة قليلة إلا ورد فيها ما يفيد أنها ليلة القدر ، ولهذا اختلف العلماء في شأنها على أقوال كثيرة ، ذكر منها في فتح الباري مالم يذكر غيره ، وقد ذكرها الشوكاني باختصار في نيل الأوطار ، فكانت خمسة وأربعين قولا ، منها : أنها رفعت وهو قول الشيعة والفاكهاني من الحنفية ، ومنها : أنها خاصة بسنة واحدة ، وقعت في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنها خاصة بهذه الأمة ، ومنها أنها ممكنة في جميع السنة ، وهو المشهور عن الحنفية وجماعة من السلف ، ومنها أنها في ليلة معينة مبهمة ، ومنها : أنها أول ليلة من رمضان حكى عن أبي رزين ، ومنها أنها ليلة النصف من شعبان ، أو النصف من رمضان ، أو ليلة سبع عشرة من رمضان الخ . . .

انظر ص ٢٧٢ ﺣ ٤ نيل الأوطار ط عثمان خليفة . وخير مايقول البغوي : « أبهم الله تعالى هذه الليلة على الأمة ، ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس » تفسير الخازن والبغوي لسورة القدر

(١) هو أبو العباس الحسن بن سفيان النسوي ، وله مسند مشهور .



. . . .

جاء رمضان ، ولم يقل : شهر رمضان ، وقد بينت أن لكل مقام مقامه ، ولا بد من ذكر شهر فى مقام ، ومن حذفه فى مقام آخر ، والحكمة فى ذكره إذا ذكر فى القرآن ، والحكمة أيضاً فى حذفه إذا حذف من اللفظ ، وأين يصلح الحذف ، ويكون أبلغ من الذكر ، كل هذا مبين فى كتاب « نتائج الفكر » ، فهناك أوردنا فيه فوائد تعجز عنها همم أهل هذا العصر . أدناها تساوى رِحْلة عند من عرف قدرها ، غير أنا نشير إلى بعضها ، فنقول : قال سيبويه : ومما لا يكون العمل إلا فيه كله : المحرم وصفر ، يريد أن الاسم العلم يتناول اللفظ كله ، وذلك إذا قلت : الأحد أو الاثنين ، فإن قلت يوم الأحد أو شهر المحرم كان ظرفا ، ولم يجر مجرى المفعولات ، وزال العموم من اللفظ ، لأنك تريد : فى الشهر وفى اليوم ، ولذلك قال عليه السلام : من صام رمضان ، ولم يقل شهر رمضان ؛ ليكون العمل فيه كله ، وهذه إشارة إلى بعض تلك الفوائد التى أحكمناها فى غير هذا الكتاب .

حب الرسول « ص » وطنه :

بقية من حديث ورقة ، وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لَتُكَذَّبَنَّهْ ، فلم يقل له النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ، ثم قال : وَلَتُؤْذَيَنَّهْ ، فلم يقل له شيئاً ، ثم قال : ولَتُخْرَجَنَّهْ ، فقال : أو مُخْرِجِىَّ هم ؟ ففى هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقته على النفس ، وأيضاً فإنه حرَمُ الله وجوار بيته ، وبلدة أبيه إسماعيل ، فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه مالم تتحرك قبل ذلك ، فقال : أو مُخرِجىّ هم ؟ والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه ، وذلك أن الواو



. . . .

تُرَدّ إلى الكلام المتقدم ، وتُشعر المخاطَب بأن الاستفهام على جهة الإنكار ، أو التفجع لكلامه أو التألم منه .

ذكر عبد الله بن حسن :

فصل : وذكر عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، وقوله : حدثتنى أمى فاطمة بنت الحسين أن خديجة أدخلته بين ثوبها . الحديث[1] عبد الله هذا هو : عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب ، وأمُّه : فاطمة بنت الحسين أخت سُكَيْنة ، واسمها : آمنة ، وسكينة لقب لها التى كانت ذات دُعَابةٍ ومَزْح ، وفى سكينة وأمها الرباب يقول الحسين بن على — رضى الله عن جميعهم :

كأن الليلَ موصولٌ بلَيْلٍ إذا زارت سُكينةُ والرَّباب[2]

أى : زادت قومها ، وهم : بنو عُلَيْم بن جَنابٍ من كَلْبٍ ، ثم من بنى

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) من قصيدة تنسب إلى الحسين فى سكينة ابنته وأمها الرباب زوجته ، منها:

لعمرك إننى لأحب دارا تضيفها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل بعد مالى وليس للائمى فيها عتاب
ولست لهم وإن عتبوا مطيعا حياتى ، أو يغيبنى التراب

وهى فى الأغانى ، ومقاتل الطالبيين ، وفى نسب قريش ، انظر ص ٥٩ نسب قريش ط ١ .



. . . .

كَعْبِ بن عُلَيْمٍ (١) ، ويعرف بنو كعب بن عُلَيْم ببنى زَيدَ غير مصروف ؛ لأنه اسم أمهم ، وعبدالله بن حسن هو والد الطالبِيِّينَ القائمين على بنى العباس، وهم : محمد ويحيى وإدريس(٢) مات إدريس بإفريقية فارًّا من الرشيد ، ومات مسموماً فى دُلاَّعةٍ(٣) أكلها ، ووقع فى كتاب الزبير بن أبى بكر قال : قال عبد الرحمن بن زيد : قال آدم عليه السلام : مما فُضِّل به علىّ ابنى صاحبُ البعير أن زوجَه كانت عوناً له على تبليغ أمر الله ، وأن زوجى كانت عوناً لى على المعصية (٤) .

حديث عبد الله بن جعفر وغيره عن خديجة :

فصل : وذكر حديث عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم — أمر أن يبشر خديجة ببيت من قَصَبٍ ، لاصَخَب

---

(١) والرباب أم سكينة هى بنت امرىء القيس بن عدى بن أوس بن جابر ابن كعب بن عليم بن جناب .

(٢) خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن على أبى جعفر المنصور بالمدينة ، وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة ، فقتلهما عيسى بن موسى ، أما أخوهما موسى ، فاختفى بالبصرة ، فعثر عليه ، فعفا عنه المنصور ، أما سليمان أخوهم فقتل بفخ فى خلافة موسى ، أما أخوهم إدريس فقام بالمغرب ، وبه مات ، أما يحيى فقام بالديلم ، ولكل منهم عقب سوى عيسى ، ومن أولاد عبد الله بن حسن : فاطمة وزينب ورقية. انظر ص ٥٣ نسب قريش ط ١ وجمهرة ابن حزم ص ٣٩ ط ١ .

(٣) ضرب من محار البحر .

(٤) من أين جاء بهذا ؟ .

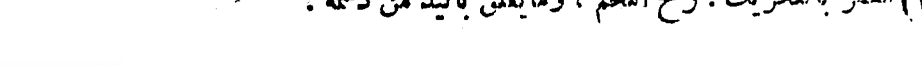
. . . .

فيه ، ولا نَصَب . هذا حديث مُرْسل (١) ، وقد رواه مسلم متصلا عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ما غِرْتَ على أحد ما غرت على خديجة ، ولقد هَلَكَتْ قبل أن يتزوجنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثلاث سنين ، ولقد أمر أن يبشرها ببيت من قَصَبٍ فى الجنة .

وفى حديث آخر أن عائشة قالت : ما تذكُر من عجوزٍ حمراء الشِّدْقين هلكت فى الدهر ، قد أَبدلَكَ الله خيراً منها ، فغضب ، وقال : والله ما أبدلنى الله خيراً منها ؛ آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواسَتْنِى بمالها حين حَرَمنى الناس ، ورُزِقت الولد منها ، وحُرِمته من غيرها ، وروى يونس عن عبد الواحد ابن أيمن المخزومى ، قال : حدثنا أبو نجيحٍ قال : أُهْدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جَزُورٌ أو لحمٌ ، فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عظماً منها ، فناوله الرسول بيده ؛ فقال : اذهب بهذا إلى فلانة ، فقالت عائشة : لم غَمِرَتْ (٢) يدُك؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغضَبا : إن خديجةَ أوصتنى بها ، فغارت عائشة ، وقالت : لكأنه ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة ، فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغضَباً ، فلبث ما شاء الله ثم رجع ، فإذا أم رُومان قالت يارسول الله : مالك ولعائشة؟! إنها حَدَثَة ، وإنك أحق من تجاوز عنها ، فأخذ بِشِدْقِ عائشة ، وقال : ألست القائلةَ : كأنما ليس على الأرضِ امرأةٌ إلا

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد وردت البشارة فى حديث رواه الشيخان والترمذى . ويقول ابن الأثير : لم يتقدمها رجل ولا امرأة بإجماع المسلمين ، ص ٢٣٧ ج ١ مواهب .


(٢) الغمر بالتحريك : زنخ اللحم ، ومايعلق باليد من دسمه .



. . . .

خديجة ، والله لقد آمنت بى إذ كفر قومُك ، ورزقت منى الولد وحُرِمتموه ، وفى صحيح مُسْلِم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : خير نسائها : مريمُ بنت عِمران ، وخير نسائها : خديجة ، والهاء فى نسائها حين ذكر مريم عائدةٌ على السماء ، والهاء فى نسائها حين ذكر خديجة عائدةٌ على الأرض ، وذلك أن هذا الحديثَ رواه وَكِيعٌ وأبو أُسامة وابن نُمَيْر فى آخرين ، وأشار وكيعٌ من بينهم حين حدث بالحديث بإصبعه إلى السماء عند ذكر مريم ، وإلى الأرض عند ذكر خديجة ، وهذه إشارة ليست من رأيه ، وإنما هى زيادة فى حديثه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزيادة العدل مقبولة ، ويحتمل أن يكون معنى إشارته إلى السماء والأرض عند ذكرهما ، أى : هما خير نساء بين السماء والأرض وهذا أثبت عندى بظاهر الحديث . ولعلنا أن نذكر اختلاف العلماء فى التفضيل بين مريم وخديجة وعائشة ـ رضى الله عنهن ـ وأزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، وما نَزَع به كلُّ فريق منهم .

حول ما بشرت به خديجة :

وأما قوله : ببيتٍ من قَصَبٍ ، فقد رواه الخطَّابى مفسراً ، وقال فيه : قالت خديجة : يارسولَ الله ، هل فى الجنة قَصَبٌ ؟ فقال : إنه قَصَبٌ من لُؤلؤٍ مُجَبَّى . قال الخطابى : يجوز أن يكون معناه : مُجَوَّباً من قولك : جُبْت الثوبَ إذا خرقته ، فيكون من المقلوب ، ويجوز أن يكون الأصل مُجَبَّباً بباءين من الجَبِّ وهو القطع أى : قطع داخله [1] ، وقلبت الباء ياء ، كما قالوا : تظنَّيت من

(١) هو فى السيرة : مجوف . وفى النهاية لابن الأثير : وقيل : هو من الجوبة وهو نقير يجمع فيه الماء .



الظَّنِّ ، وتقصَّيت أظفارى ، وتكلم أصحاب المعانى فى هذا الحديث ، وقالوا : كيف لم يبشرها إلا ببيتٍ ، وأدنى أهل الجنة منزلةً مَن يُعطَى مسيرة ألف عام فى الجنة ، كما فى حديث ابن عمر ، خرَّجه الترمذى ، وكيف لم ينعت هذا البيت بشىء من أوصاف النعيم والبهجة أكثر من نفى الصَّخَب وهو :رفع الصوت ، فأما أبو بكر الإسكاف ، فقال فى كتاب فوائد الأخبار له : معنى الحديث: أنه بُشِّرت ببيت زائد على ما أعد الله لها مما هو ثواب لإيمانها وعملها ؛ ولذلك قال : لا صَخَب فيه ولا نَصَب ، أى : لم تَنْصَب فيه ، ولم تَصْخَب . أى : إنما أُعْطِيَتْه زيادة على جميع العمل الذى نصبت فيه. قال المؤلف رحمه الله : لاأدرى ما هذا التأويل ، ولا يقتضيه ظاهر الحديث ، ولا يوجد شاهد يعضده ، وأما الخطابى،فقال : البيت هاهنا عبارة عن قصر ، وقد يقال لمنزل الرجل : بيته ، والذى قاله صحيح ، يقال فى القوم : هم أهل بيت شرف وبيت عز ، وفى التنزيل: (غَيْرَ بَيتٍ من الْمُسْلِمِين) ولكن لذكر البيت هٰهنا بهذا اللفظ ولقوله: ببيت ، ولم يقل: بقصر معنى لائق بصورة الحال ، وذلك أنها كانت رَبَّةَ بيت إسلام لم يكن على الأرض بيت إسلام إلاَّ بيتها حين آمنت ، وأيضا فإنها أول من بنى بيتاً فى الإسلام بتزويجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورغبتها فيه، وجزاء الفعل يذكر بلفظ الفعل ، وإن كان أشرف منه لما جاء : «من كسا مسلما على عُرْيٍ كساه الله من حُلَلِ الجنة، ومن سقى مسلما على ظمإٍ سقاه الله من الرحيق[1] ، ومن هذا الباب قوله عليه السلام : من بنىَّ لله

---

(١) روايته : أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عرى كساه الله تعالى من خضر=



. . . .

مَسْجِدا بنى الله له مثله فى الجنة (١) لم يرد مثله فى كونه مسجدا ، ولا فى صفته ولكن قابل البنيان بالبنيان، أى كما بَنى يُبنى له، كما قابل الكُسْوَة بالكُسْوة والسُّقْيا ، بالسُّقيا ، فهاهنا وقعت المماثلة ، لا فى ذات المَبْنِيِّ أو المَكْسُوِّ ، وإذا ثبت هذا ، فمن هٰهنا اقتضت الفصاحة أن يُعَبِّر لها عما بُشِّرت به بلفظ البيت ، وإن كان فيه مالا عينٌ رأته ، ولا أذنٌ سَمِعَتْه ، ولا خَطَر على قلب بشر ، ومِن تَسْمِية الجزاء على الفعل بالفعل فى عكس ما ذكرناه قوله تعالى : (نَسُوا الله فَنَسِيَهُم) : (ومَكَروا ومَكَرَ اللهُ)(٢) .

= الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلما على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم » ويقول المنذرى عنه : رواه أبو داود من رواية أبى خالد بن يزيد بن عبدالرحمن الدلانى ، وحديثه حسن ، والترمذى: بتقديم وتأخير، وقال : حديث غريب ، وقد روى موقوفا على أبى سعيد ، وهو أصح وأشبه ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف موقوفا على ابن مسعود .

(١) البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وابن ماجة عن عثمان ، وفيه: « يبتغى به وجه الله » .

(٢) يقول الذين يؤولون الصفات التى ورد بها القرآن عن الآيات التى جاء فيها نسبة الكيد والاستهزاء والنسيان إلى الله مايأتى : « هذا كله إنما يحسن على وجه المقابلة ، ويحسن أن يضاف إلى الله تعالى ابتداء ، فيقال : إنه يمكر ويكيد ويخادع وينسى ، ولوكان حقيقة لصلح إطلاقه مفرداً عن مقابله كما يصح أن يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر » ويرد ابن القيم ردا طيبا فى الصواعق المرسلة ، فيقول: « الصواب أن معانيها ـ أى الكيد وخلافه ـ تنقسم إلى محمود ومذموم ، فالمذموم منها يرجع إلى الظلم والكذب . . . فما كان منها متضمناً للكذب والظلم ، فهو

. . . .

وأما قولُه: لا صَخَب فيه ، ولا نَصَب ، فإنه أيضاً من باب ما كنا بسبيله.

مذموم ، وما كان منها بحق وعدل ومجازاة على القبيح ، فهو حسن محمود ، فإن المخادع إذا خادع بباطل وظلم حسن من المجازى له أن يخدعه بحق وعدل، وكذلك إذا مكر واستهزأ ظالما متعديا ،كان المكر به والاستهزاء عدلا حسنا ،كما فعله الصحابة بكعب بن الأشرف،وابن أبى الحقيق، وأبى رافع وغيرهم ممن كان يعادى رسول الله « ص » فخادعوه حتى كفوا شره وأذاه بالقتل ، وكان هذا الخداع والمكر نصرة لله ورسوله . . وجزاء المسيء بمثل إساءته جائز فى جميع الملل مستحسَنٌ فى جميع العقول ، ولهذا كاد سبحانه ليوسف حين أظهر لإخواته ما أبطن خلافه جزاء لهم على كيدهم له مع أبيه ، حيث أظهروا أمرا وأبطنوا خلافه ، ثم قرر أن هذه الأفعال لا يجوز ذمها على الإطلاق ، ولامدحها على الإطلاق ، كما لايجوز أن يشتق منها أسماء وصفات لله سبحانه ؛ لأن الله لايوصف إلا بالأنواع المحمودة على الإطلاق ، ولهذا لم يرد فى أسمائه الحسنى : المريد أو المتكلم أو الفاعل أو الصانع،لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم،فلايجوز مطلقا اشتقاق الماكر والمخادع والمستهزىء مما ورد فى الآيات ، وتسمية الله بها ، لأنه سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق . . فلا يكون الاستهزاء والمكر والخداع منه قبيحا البتة ، فلا يمتنع وصفه به ابتداء لا على سبيل المقابلة . . فإطلاق ذلك عليه سبحانه على حقيقته دون مجازاة ؛ إذ الموجب للمجاز منتفٍ ».

وأقول : كل مسلم يتدبر القرآن لايشعر أبدا بمثل ما يفتريه المعطلة والجهمية ولايخر على آياته أصم أعمى ، ويغمر قلبه اليقين بأن الله الذى من علينا فعلمنا البيان يستحيل أن نحكم عليه بأنه أخطأ فى البيان عن صفاته وأسمائه وأفعاله ، أو أراد أن يضللنا بألفاظ لايراد بها معانيها التى لها فى لغة القرآن ، فلنصف الله بما وصف به نفسه ، ولنسمه بما سمى به نفسه ، ولننسب إليه مانسبه هو إلى نفسه جل جلاله دون تأويل أو تحريف أو تمثيل أوتشبيه أو تعطيل لشىء من هذا كله فإننا نؤمن بأن قوله -سبحانه- هو الحق ، وأنه ليس كمثله شىء .



. . . .

لأنه ـ عليه السلام ـ دعاها إلى الإيمان، فأجابته عَفواً، لم تحوِجه إلى أن يَصْخَب كما يصخب الْبَعْل إذا تعصَّت عليه حليلَتُه، ولا أن ينصَب، بل أزالت عنه كل نصب، وآنَسَتْه من كل وحشة، وهَوَّنت عليه كل مكروه، وأراحته بمالها من كل كَدٍّ ونصَب، فوصف منزلها الذى بُشِّرت به بالصفة المقابلة لفعالها وصورته.

وأما قوله: من قَصَب، ولم يقل: من لؤلؤ، وإن كان المعنى واحداً، ولكن فى اختصاصه هذا اللفظَ من الْمُشاكلة المذكورة والمقابلة بلفظ الجزاء للفظ العمل أنها ـ رضى الله عنها ـ كانت قد أحرزت قَصَب السَّبْقِ إلى الإيمان دون غيرها من الرجال والنِّسْوان. والعربُ تسمى السابقَ مُحْرِزا لْلقَصَب. قال الشاعر:

مَشَى ابن الزُّبَيْر الْقَهْقَرَى، وتقدمت أُمَيَّةُ حتى أحْرَزُوا القَصَبَاتِ

فاقتضت البلاغةُ أن يعبر بالعبارة المشاكِلة لعملها فى جميع ألفاظ الحديث فتأمله

الموازنة بين خديجة وعائشة:

فصل: وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة: هذا جبريلُ يُقرئك السلام من ربك. الحديث[1] يُذْكَر عن أبى بكر بن داود أنه

---

(١) فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة: «أتى جبريل النبى «ص» فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب».



. . . .

سُئِل: أعائشة أفضلُ، أم خديجة ؟ فقال: عائشةُ أقرأها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم السلامَ من جبريل [1] ، وخديجة أقرأها جبريلُ السلامَ من ربِّها على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - فهى أفضل ، قيل له : فمن أفضلُ ، أخديجةُ أم فاطمةُ ؟ فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم - قال : إن فاطمةَ بَضْعَةٌ منى [2] فلا أَعْدِل ببَضْعَة من رسول الله أحداً ، وهذا استقراء حَسَنٌ ، ويشهد لصحة هذا الاستقراء أنَّ أبا لُبَابَة حين ارْتَبَطَ نفسَه ، وحلف ألا يَحُلَّه إلا رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءت فاطمةُ لِتَحُلَّهُ ، فأبى من أجل قَسَمه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : إنما فاطمة مُضْغَةٌ منى ، فحلته وسنذكر الحديث بإسناده فى موضعِه ، إن شاء الله تعالى ، ويدل أيضا على تفضيل فاطمة قولُه - عليه السلام - لها : أما تَرْضَيْن أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة [3] إلاَّ مريم ؟ فدخل فى هذا الحديث أمُّها وأخواتُها ، وقد تكلم الناس فى المعنى الذى سادت به فاطمةُ غيرَها دون أخواتها ، فقيل : إنها وَلَدت سيدَ هذه الأمة ، وهو الحسنُ الذى يقول فيه النبى - صلى الله عليه وسلم :

---

(١) عن أبى سلمة أن عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائش : هذا جبريل يقرئك السلام . قالت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى مالا أرى » متفق عليه .

(٢) عن المسور بن مخرمة أن رسول الله « ص » قال : « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى » وفى رواية : « يريبنى ما أرابها ، ويؤذينى ما آذاها » متفق عليه .

(٥) فى حديث متفق عليه عن عائشة « ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة ، أو نساء المؤمنين » ولم يأت لمريم فيه ذكر .



. . . .

إن ابنى هذا سيد[1] ، وهو خليفةٌ ، بَعْلُها خليفة أيضاً. وأحسن من هذا القول قول : من قال: سادت أخواتها وأمَّها، لأنهن مُتن فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكن فى صحيفته ، ومات أبوها وهو سيد العالمين ، فكان رُزْؤُه فى صحيفتها وميزانها ، وقد روَى البَزَّار من طريق عائشةَ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لفاطمة : هى خير بناتى ؛ إنها أصيبت بى ، فحق لمن كانت هذه حاله أن يسودَ نساء أهل الجنة ، وهذا حَسَنٌ ، والله أعلم . ومن سُؤْدُدِها أيضاً أن المهدى الْمُبشَّر به آخر الزمانِ من ذُرِّيتها ، فهى مخصوصةٌ بهذا كله والأحاديث الواردة فى أمر المهدى كثيرة[2] ، وقد جمعها أبو بكر بن أبى خَيْثَمةَ فأكثر ، ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبو بكر الإسكاف فى فوائد الأخبار مسنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : من كَذَّب بالدَّجال فقد كفر ، ومن كذَّب بالمَهْدِىِّ فقد كفر[3] ، وقال : فى طلوع الشمس من مغربها مثلَ ذلك فيما أحسب[4] .

---

(١) من حديث رواه البخارى عن أبى بكرة قال : رأيت رسول الله «ص» على المنبر والحسن بن على إلى جنبه ، وهو يقبل على الناس مرة ، وعليه أخرى ، ويقول : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» ونحن المسلمين لا يصح الآن أن نخوض فى مثل هذا ، فقد أفضت كل واحدة منهن إلى الله سبحانه

(٢) استغل هذه الأسطورة أعداء الله ، فظهر عشرات الدجاجلة يزعم كل منهم أنه هو المهدى ، ولم يخرج البخارى ولا مسلم شيئاً عن المهدى ، وجميع الأحاديث الواردة فيه لا تخلو من نقد ، واقرأ فى هذا مقدمة ابن خلدون تحت عنوان « فصل فى أمر الفاطمى »

(٣) لا يشهد لصحة هذا عقل ولا دين

(٤) نقل ابن خلدون عن السهيلى هذا فى مقدمته ص ٢٧٢ طبع عبد الرحمن محمد وقال : وحسبك هذا غلوا . على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع .



. . . .

الله السلام :

وقول خديجة : الله السلامُ ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلامُ ، علمت بفقهها ان الله سبحانه لا يُرَدُّ عليه السلام ، كما يُرَد على المخلوق ؛ لأن السلام دعاء بالسلامة فكان معنى قولها : الله السلام ، فكيف أقول عليه السلام ، والسلام منه يُسْئل ، ومنه يأتى ؟ولكن على جبريلَ السلامُ ، فالذى يحصل من هذا الكلام من الفقة أنه لا يليق بالله سبحانه إلا الثناء عليه ، فجعلت مكان رد التحية على الله ثناء عليه ، كما عملوا فى التشهد حين قالوا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان ، فقيل لهم : لا تقولوا هذا ، ولكن قولوا : التحياتُ لله ، وقد ذكرنا فى غير هذا الكتاب فوائد جمةفى معنى التحيات إلى آخر التشهد . وقولها : ومنه السلام ، إن كانت أرادت السلامَ التحية ، فهو خَبر يرادبه التشكر ، كما تقول : هذه النعمة من الله ، وإن كانت أرادت السلام بالسلامةَ من سوء ، فهو خبرٌ يراد به المسئلة ، كما تقول : منه يُسْئَل الخير . وذهب أكثرُ أهل اللغة إلى أن السلامَ والسلامةَ بمعنى واحد كالرَّضَاع والرَّضَاعة ، ولو تأملوا كلام العرب وما تعطيه هاء التأنيث من التحديد لرأوا أن بينهما فُرْقانا عظيما ، وأن الجَلاَل أعم من الجَلاَلَة بكثير ، وأن اللَّذاذ أبلغ من اللَّذاذة ، وأن الرَّضاعة تقع على الرَّضعة الواحدة ، والرَّضاع أكثرُ من ذلك ، فكذلك السلامُ ، والسلامةُ ، وقِسْ على هذا : تَمْرَةو تَمْرا ، ولَقَاة و لَقًى ، وضَرْبَة وضَرْباً ، إلى غير ذلك ، وتسمى سبحانه بالسلام لما شمل جميع الخليقة ، وعمهم من السلامة من الاختلال والتفاوت إذ الكل جارٍ على نظام الحكمة ، كذلك سَلِمَ الثَّقَلان من جَوْر وظلم أن يأتيهم من قِبَله سبحانه ، فإنما الكُلُّ مُدَبَّرٌ بفضلٍ أو عدل ، أما الكافر فلا يجرى عليه إلا عدله ، وأما المؤمنُ



فيغمره فضلُه، فهو سبحانه فى جميع أفعاله سلامٌ، لا حَيْفَ ولا ظلم، ولا تفاوت ولا اختلال، ومن زعم من المفسِّرين لهذا الاسم أنه تسمى به لسلامته من الآفات والعيوب، فقد أتى بشنيع من القول، إنما السلامُ من سُلِم منه، والسالمُ مَنْ سَلِم من غيره، وانظر إلى قوله سبحانه: (كونى بَرْداً وسلاما) وإلى قوله: (سلام هى) ولا يقال فى الحائط: سالم من العَمى، ولا فى الحَجَرِ أنه سالم من الزكام، أو من السُّعال إنما يقال: سالم فيمن تجوز عليه الآفة، ويتوقعها ثم يَسْلَم منها، والقُدُّوسُ سبحانه مُتَعَالٍ عن توقع الآفات مُتَنَزِّهٌ عن جواز النقائص، ومَن هذه صفته لا يقال: سَلِم، ولا يَتَسَمَّى بسالم، وهم قد جعلوا سلاما بمعنى سالم، والذى ذكرناه أولُ هو معنى قول أكثر السلف والسَّلامة: خَصْلَةٌ واحدة من خِصال السلام[1]:

فترة الوحى:

فصل: وذكر فترة الوحى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يذكر مقدار مدة الفترة، وقد جاء فى بعض الأحاديث المُسْنَدة أنها كانت سنتين ونصفَ سنة، فمن هنا يتفق ما قاله أنس بن مالك أن مُكْثه بمكة كان عشر سنين، وقول ابن عباس: ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً، وكان قد ابتدىء بالرؤيا الصادقة ستة أشهر، فمن عَدَّ مدة الفترة، وأضاف إليها الأشهر الستة، كانت كما قال

(١) فى النهاية لابن الأثير عن السلام: «سلامته مما يلحق الخلق من العيب والفناء والسلام فى الأصل: السلامة» وعند الراغب فى مفرداته: «وصف بذلك من حيث لا يلحقه العيوب والآفات التى تلحق الخلق» وانظر ص ١٣٥ جـ ٢ بدائع الفوائد.



. . . .

ابن عباس ، ومَنْ عدَّها من حين حَمِيَ الوحى وتتابع ، كما فى حديث جابر كانت عشر سنين . ووجهٌ آخر فى الجمع بين القولين أيضا ، وهو أن الشعبى قال : وكل إسرافيلُ بنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث سنين ، ثم جاءه بالقرآن جبريلُ (١) وقد قدمنا هذا الحديث ، ورواه أبو عمر فى كتاب الاستيعاب ، وإذا صح فهو أيضا وجه من الجمع بين الحديثين ، والله أعلم .

شرح شعر الهذلى والفرزدق :

فصل : وذكر ابن إسحاق قولَ أبى خِراشٍ خُوَيْلد بن مُرة الْهُذَلِى

إلى بيته يَأْوِى الضَّريكُ إذا شتا ومُسْتَنْبِحٌ بالى الدَّرِيسيْن عائل

الضريك : الضعيف الْمُضْطَر (٢) والْمُستنبِح الذى يضل عن الطريق فى ظلمة الليل ، فينبح ليسمعَ نُباح كَلْبٍ (٣) والدَّرِيس : الثوبُ الْخَلَقُ ، وقول الفرزدق :

---

(١) فى فتح البارى : (هذا الذى اعتمده السهيلى من الاحتجاج بمرسل الشعبى لا يثبت ، وقد عارضه ماجاء عن ابن عباس أن مدة الفترة المذكورة كانت أياما ، ص ٣١ جـ ١ الحلبى وقال مغلطاى : « يخدش فيه ـ أى فى كلام السهيلى ـ مافى تفسير ابن عباس أنها كانت أربعين يوما ، وفى تفسير ابن الجوزى ومعانى الزجاج : خمسة عشر ، وفى تفسير مقاتل : ثلاثة أيام ، ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه لا ما ذكره السهيلى ، وجنح لصحته ، ص ٢٣٦ شرح المواهب حـ ١

(٢) الضريك أيضا : النسر الذكر والأحمق والزَّمن ـ بكسر الميم ـ والضرير .

(٣) عبر عنها الخشنى بتعبير أوضح فقال : « المستنبح الذى يضل بالليل ، فينبح نباح الكلاب ، لتسمعه الكلاب فتجاوبه ، فيعلم موضع البيوت ، فيقصدها » .

ويقول الخشنى عن تثنية الدريس : « وثناه لأنه أراد به الإزار ، والرداء ، وهو أقل ما يكون للرجال من اللباس » ص ٧٧ .



. . . .

تَرى الغُرَّ الجَحَاجِحَ[1] من قُرَيْشٍ إذا ما الأمر فى الحَدَثَانِ عَالاَ
قيـاما ينظـــرون إلى سعيد كأنهم يرون به هِـــلالا

يعنى : سعيدَ بن العاصى بن أمية ، ويقال : إن مروان بن الحكم حين سمع الفرزدق ينشد هذا البيت حسده ، فقال له : قل : قعودا ينظرون إلى سعيد يا أبا فراس . فقال له الفرزدق : والله ياأبا عبد الملك : إلا قياما على الأقدام[2] .

وذكر سببَ نزول سورة الضحى ، وأن ذلك لفترة الوحى عنه ، وخرّج البخارى من طريق جُنْدُبِ بن سفيان[3] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فقالت له امرأةٌ : إنى لأرجو أن يكون شيطانُك قد تركك ، فأنزل الله تعالى سورة الضحى[4] .

(١) غر : ربها هكذا جمع أغر : المشهور ، وأصله الأبيض . والجحاجح : جمع جحجح وجحجاح : السيد ، وأيضا : الفسل من الرجال ، ومن جمعه : جحاجيج ، وجحاجحة .

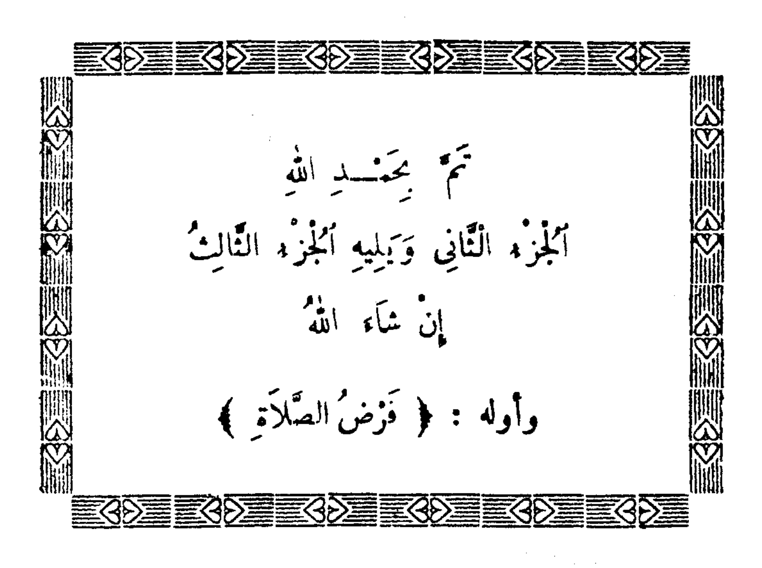
(٢) مدح الفرزدق سعيدا بهذا ، وكان حينئذ أمير المدينة من قبل معاوية رحمه الله ، وكان يوليه معاويه سنة ، ويولى مروان ســـنة أخرى ، ويقال إن الفرزدق قال لمروان : لا أقول إلا قياما ، وإنك يا أبا عبد الملك لصافنٌ من بينهم ، وصفن الرجل إذا رفع إحدى قدميه ، ووقف على الأخرى والخشنى ص٧٨

(٣) سفيان : جده ، وأبوه : عبد الله . وهو ينسب إلى أبيه وإلى جده .

(٤) وأخرجه مسلم ومالك وأحمد والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن جرير وقيل : إن هذه المرأة هى أم جميل امرأة أبى لهب .







تمّ بحمد الله

الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث

إن شاء الله

وأوله : ﴿ فرض الصلاة ﴾





ملحوظات

تكلم السهيلى عن بنار مكة فى ص ١٢٣ ـ حـ ٢ وما بعدها ، وقد زاد البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان عما ذكره السهيلى ، ففيما يتعلق بالمجول زاد بعد الشطرة الأولى :

قبل صدور الحاج من كل أفق

وزاد فى سجلة بعد الشطرة الأولى :

فى تربة ذات غداة سهلة

وزاد فى شعر صفية المذكور فى ص ١٢٥

فيها الجراد والذر وقذر لا يذكر

وعن بذر ورد :

ليست كبذر النذور الجماد

وبهذا استقام المعنى فقد كانت البرور فى الروض .

ملحوظات عن الجزء الأول

فى ص ٣٣٦ حـ ١ ورد فى السطر الحادى عشر نصف بيت من الشعر اهتديت إلى تمامه ، فقد أنشده اللسان فى مادة أوب وهو :

رَبَاء شَمّاء لا يأوى لقلتها إلا السحابُ وإلا الأوْبُ السَّبلَ

والأوب اسم جمع ومعناه : النحل ، والسبل : المطر هذا وقد ندت عن العين بعض أخطاء يسيرة جدا نرجو أن نتداركها بعد إن شاء الله .







محتويات الكتاب

(١) «س» رمز عن السيرة ، و «ن. ل» رمز عن النحو واللغة ، و «ش» رمز عن الشرح ، أما الروض فبدون رمز .



(١) الموضوع قد يذكر فى السيرة وفى الروض ولهذا يتكرر ذكره فى الفهرس .



(١) تقدم هذا العنوان قبل موضعه بأربعة أسطر.



حمد وثناء

أحمد الله أن أعان ومن بالقدرة على عمل أجهد اليد والفكر والسمع والبصر إجهادا لولا فضل الله ما تحملته . فالذى اتصلت أسبابه المتينة بكتاب الروض الأنف يعلم أى فضل عظيم من الله من علىّ به ، ولا أزعم أنى أديت كل ما يجب ، وإنما أزعم أنى حاولت بصدق . وأعلن هنا شكرى للأخ أحمد حمدى أحمد شعبان صاحب المطبعة ، ولإخوتى عمالها على أوفى جهد ، وأكرم تجاوب نبيل ؟

عبد الرحمن الوكيل

